مباهج الفلسفة

الكتاب الأول

تأليف
ول ديورانت

تقديم
الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

ترجمة
الدكتور أحمد فؤاد الاهواني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مباحث الفلسفة

الكتاب الأول

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

نشر بالاشتراك

مع

مؤســـسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

مباهج الفلسفة

الكتاب الأول

تأليف
ول ديورانت

تقديم
الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

ترجمة
الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة
١٩٥٥

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤســـسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is a translation of part I of "Pleasures of Philosophy" by Will Durant. Copyright, 1929, 1953 by Will Durant.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف

ول ديورانت : ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين فى نورث أدامز بماساشوستس ، حيث تلقى العلم فى المدارس الكاثوليكية ، وفى كلية القديس بطرس فى نيوجرسى ، وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك . ثم اشتغل مدة الصيف مخبراً فى جريدة نيويورك ؛ ولكنه هجر ذلك العمل المثير حين رأى أنه لايصلح له . واشتغل بعد ذلك بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والهندسة فى كلية سيتون هول فى جنوب أورانج بنيوجرسى (١٩٠٧ – ١٩١١) . وهناك التحق بمعهد الدراسات العليا الدينية فى عام ١٩٠٩ ، ثم هجره للأسباب التى ذكرها فى كتابه المسمى « الانتقال Transition » . وانتقل من هذا المعهد مباشرة إلى أكثر الأوساط تحرراً فى نيويورك ، وأصبح فى مدرسة فيرر الحديثة(١٩١١– ١٩١٣) : « الرئيس والمعلم والمتعلم » ، وكانت تلك المدرسة تجربة فى التربية المتحررة . وفى ١٩١٢ طاف بأوربا من كيلارنى إلى يالتا على نفقة ألدن فريمان الذى اتخذه صاحباً وتعهد أن يوسع أفقه . وانقطع ١٩١٢ إلى الدراسة العليا بجامعة كولومبيا ، فتخصص فى علم الحياة على مورجان وكالكنز ، وفى الفلسفة على وودبردج وديوى ، وحصل على الدكتوراه ١٩١٧ ، ودرس الفلسفة مدة عام بجامعة كولومبيا . وفى ١٩١٤ بدأ يلقى تلك المحاضرات فى الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم والفن التى مهدت لكتابه « قصة الفلسفة » وذلك فى كنيسة برسبتيرية فى نيويورك . ولم تكد « قصة الفلسفة » تظهر حتى كانت أحسن كتب ذلك العام انتشاراً مما أثار دهشـــة مؤلفها وناشريها . فتحرر عام ١٩٢٧ من العمل المدرسى عقب نجاح « قصة الفلسفة » لينقطع إلى كتابة تاريخ الحضارة ، فطاف أوربا مرة أخرى فى ١٩٢٧ ، وحول العالم فى ١٩٣٠ لدراسة مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان . ومرة ثانية فى ١٩٣٢ لزيارة اليابان وكوريا ومنشوريا وسيبريا وروسيا . ثم أصدر فى ١٩٣٥ – بعد سبع

سنوات من الرحلة والدرس – كتاب « تراثنا الشرقى » وهو المجلد الأول من كتاب « قصة الحضارة » . ومع أنه زار اليونان وإيطاليا فى ١٩١٢ و ١٩٢٧ و ١٩٣٢ ، إلا أنه عاد إليهما سنة ١٩٣٦ ، فأضاف بذلك معلومات جديدة إلى الدراسة المنظمة التى تلقاها عن الجزويت فى اللغات والآداب القديمة . وأصدر فى ١٩٣٩ كتاب « حياة الإغريق » وفى ١٩٤٤ « قيصر والمسيح » . وأمضى فى ١٩٤٨ ستة أشهر فى أوربا والشرقين الأدنى والأوسط يدرس المعالم والآثار المسيحية والإسلامية من أدنبرة إلى شيراز . ونشر فى ١٩٥٠ كتاب « عصر الإيمان » وهو تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط – مسيحية وإسلامية ويهودية – منذ قسطنطين حتى دانتى . ثم أمضى فى إيطاليا وفرنسا سبعة أشهر درس فيها معظم المناظر والفنون الموصوفة فى عصر النهضة ، وهو موضوع المجلد الخامس ، وقد صدر فى ١٩٥٣ . وهو يعمل الآن فى كتابة المجلد السادس من المجموعة ، ويأمل أن يصدره فى ١٩٥٨ بعنوان « عصر الإصلاح الدينى » . وإنه ليرجو إذا واتته الظروف وأعانته الصحة أن يتم هذا العمل سنة ١٩٦٣ بإصدار كتاب « عصر العقل » الذى يمضى مع القصة حتى القرن التاسع عشر .

* * *

وليس ول ديورانت غريباً عن قراء العربية ، فقد ترجم من كتابه قصة الحضارة المجلد الأول فى خمسة أجزاء ، والمجلد الثانى عن اليونان فى ثلاثة أجزاء ، ويجرى الآن طبع المجلد الثالث ، وذلك على نفقة الجامعة العربية التى اختارت الكتاب ضمن برنامجها الثقافى ، وقد عهد بالترجمة إلى الأستاذين محمد بدران وزكى نجيب محمود .

* * *

ويسر مؤسسة فرانكلين أن تقدم له فى العربية الكتاب الأول من « مباهج الفلسفة » . ومع أن الكتاب فى طبعته الأصلية يقع فى مجلد واحد فقد دعت بعض الاعتبارات إلى إصداره فى العربية فى كتابين ، وترجو أن يصدر قريباً الكتاب الثانى الذى يشتمل على فلسفة التاريخ ، والفلسفة السياسية ، وفلسفة الدين ، والحياة والموت .

صاحب المقدمة

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور : أتم تعليمه فى مصر ، وأوفد فى بعثة ١٩٢٧ إلى باريس فحصل على ليسانس الفلسفة ، ودكتوراه الدولة من السوربون ١٩٣٤ ، وعاد إلى مصر واشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة القاهرة ، حتى نزل ميدان السياسة فانتخب عضواً بمجلس الشيوخ ١٩٣٧ ، حيث برزت مواهبه البرلمانية. وعين وزيراً ١٩٥٢ ، ثم رئيساً لمجلس الخدمات وعضواً بمجلس الإنتاج ، إلى أن استقال من رياسة مجلس الخدمات ليتفرغ لمجلس الإنتاج . وهو عضو بالمجمع اللغوى ، وجوائز الدولة ، وغير ذلك من اللجان العلمية .

له من المؤلفات بالفرنسية L'Organon d'Aristote dans le Monde Arabe أى « منطق أرسطو فى العالم العربى » و La Place d'AL Farabi dans l' Ecole Philosophique Musulmane أى «منزلة الفارابى فى الفلسفة الإسلامية» و بالعربية « دروس فى الفلسفة » مع الأستاذ يوسف كرم ، و « فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه » و «أداة الحكم » مع الأستاذ مرييت بطرس غالى . وهو رئيس لجنة تحقيق كتاب « الشفاء » لابن سينا ، وقد صدر منه حتى الآن « المدخل » ١٩٥٢ و « الخطابة » ١٩٥٤ .

وعلى الرغم من اشتغاله بالمسائل العامة لم يقطع صلته بالفلسفة ، فألقى بجامعة السوربون بباريس أثناء الصيف ١٩٥٤ وما قبله محاضرات فى الفلسفة الإسلامية .

صاحب الترجمة

الدكتور احمد فؤاد الاهوانى : التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية منذ أول إنشائها ، فأخذ الفلسفة على أعلامها الفرنسيين : برييه ، ولا لاند ورينى ، وحصل على الليسانس ودبلوم معهد التربية العالى والدكتوراه . وعين بالجامعة لتدريس الفلسفة .

وله من المؤلفات خلاصة علم النفس ، والتعليم فى رأى القابسى (وهى رسالة الدكتوراه) وتاريخ المنطق والمنطق الحديث ، ومعانى الفلسفة ، وفى عالم

الفلسفة ، والحب والكراهية ، والخوف ، والنسيان ، وأسرار النفس . ونشر من المخطوطات : كتاب النفس لابن رشد وأربع رسائل ، وكتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى ، وإيساغوجى لفرفريوس الصورى ، وأحوال النفس لابن سينا ، واشترك فى تحقيق « المدخل » من الشفاء لابن سينا (وهو أحد أعضاء اللجنة) . وترجم كتاب النفس لأرسطو وراجعه الأب قنواتى ، وطريقة ديكرولى وراجعه الدكتور يوسف مراد . وآخر ما ألف كتاب « فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط » اعتمد فيه على جميع نصوص الفلاسفة التى نقلها إلى العربية .

مصمم الغلاف

رفيق البابلى : مهندس ، حصل على بكالوريوس الهندسة قسم العمارة ١٩٥٤ . نال جائزة فرانكلين عن تصميم غلاف كتاب « كيف تتكامل الشخصية » . قرأ « مباهج الفلسفة » فى أصله الإنجليزى ليتبين الفكرة عنه ، فأخرجها فى هـــذا الرسم المطبوع على ظاهر الكتاب . وخطر له أن ديوجينس بمصباحه وهو يبحث عن الحقيقة رمز يمثل الفلسفة .

مقدمة

بقلم الدكتور إبراهيم مدكور

كانت الفلسفةُ لغةَ الخاصة وشُغْلَ فريق من الناس ، وعُدَّت زمناً بين التعاليم السرية والمضنون به على غير أهله . وقديماً احتفظ بها الأفلاطونيون فى الأكاديميا، والمشاؤون فى اللوقْيون ، وأتباع زينون فى الرّواق . وفى العصور الوسطى حوربت وصودرت كتبها وحُرِّمت دراستها ، وإنْ أُبيحت فلنفر قليل من كبار المفكرين ورجال الدين ، وعُدَّ خُرقاً أن تُبَسَّط وتصبح سهلةَ التناول . وفى التاريخ الحديث بقيت وقفاً على مدارس محدودة ، وسلعةً ممتازة لا يمكن أن تُتَداول فى جميع الأسواق .

ويُراد بها اليوم أن تنزل من سمائها وتعيشَ مع عامة الناس على أرضهم ، وتنتقل من أرستقراطية الفكر إلى ديمقراطية البحث السهل الطليق : فتُيَسَّر سبلها ، وتكتب بلغة العصر وروحه ، وتذلل للقارئ العادى بحيث يجد فيها من اللذة والمتاع ما يجده فى ألوان الثقافة الأخرى . ولعل من أخص خصائص الأدب المعاصر أنه وثيق الصلة بالعلم والفلسفة ، نفذ إليهما وكساهما بكسائه الوثير اللين ، وغذياه بدوْرهما بمادتهما الخصبة وأفكارهما المتجددة . وهناك اتجاه عام أساسه أن يفَلْسَفَ الأدبُ وتُؤَدَّب الفلسفة . وأنصاره كثيرون ، يكفى أن نذكر منهم برتراند رسل بين الفلاسفة ، وأندريه جيد بين الأدباء .

***

ويُعَدُّ وِلْ ديورانت — بحق — فى مقدمة من ساهموا فى هذا المضمار . فبقلمه السيال وأسلوبه العذب طوّع الفلسفة ، وجعل مباحثها الدقيقة ، ونظرياتها المعقدة ، يسيرةَ المنال ، سهلة الفهم . وكيف لا وهو أديب بقدر ما هو فيلسوف ، يجتذب القارئ ببيانه ، ويسحره بخياله وشعره . يصف ويشبّه ، ويلجأ إلى المجاز والاستعارة ، فتتحول الفكرة المجردة فى يديه إلى حقيقة ملموسة . وهو فوق هذا كاتبٌ ساخر ، وسخريته لاذعة أحياناً ، ينتقد هذا ويتهكم من ذاك ، وفى السخرية ما فيها من عوامل التشويق وإثارة الانتباه . لهذا لم يكن غريباً أنْ يسمى كتابه الذى نقدم لترجمته « مباهج الفلسفة » . ولهذه التسمية قصة ، فإنه كان يسمى أولا « قصور الفلسفة » ، ويوم أن أعيد طبعه اقترح له ناشره هذا الاسم ، والناشرون أعرف ما يكون بميول القراء ورغباتهم .

وديورانت رحّالةٌ ، طوّف فى الآفاق ما طوّف ، ومؤرخُ حضارةٍ عاش فى الماضى بقدر ما عاش فى الحاضر . وهو يرى أنَّ حضارتنا الحاضرة أضحت ماديةً إباحية ، استبدلت بالزهد الترف ، وأحلت الأبيقورية محل الحرمان ومجاهدة النفس . تخاطب الجسم قبل أن تخاطب الروح ، وتتنكر لما تواضعنا عليه من مثل عليا ، وتحارب ما ألفناه من عادات وتقاليد . وتجاوز هذا إلى معتقداتنا الدينية ، فتحاول أن تنتزع منا أعزها . وأصبحنا وكأنَّا فى بحر لجى تتقاذفنا فيه الأمواج ، ولا ندرى أين المقر . وأصبحت حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية تفاجأ بالجديد كل يوم .

وما ذاك إلا لأنَّ هذه الحضارة لا تقوم على دعائم عقلية ، ولا تعتمد على أسس كلية . وما أحوجنا إلى أن نفلسفها فنلمَّ شعثها ، ونزيل تناقضها ، ونكوّن من شتى مظاهرها كلاًّ منسقا ، ونرسم لها أهدافاً أسمى وأكمل . وسبيلنا إلى ذلك أن نرتاد علم الأخلاق لنكشف عن طبيعة الحياة الفاضلة ، وفى ضوئها نستطيع أن نعالج أسرنا المنحلة ، وروابط حبنا المتراخية ، ونخرج من الأثرة الضيقة الأفق

إلى إيثار كريم ، يعيش الناس تحت ظله إخواناً متحابين ، ونعيد فى اختصار بناء الأخلاق من جديد . وسيعيننا على ذلك ما تمليه فلسفة الدين والتاريخ من دروس ، وما نستمده من علم الجمال من نماذج ومُثُل .

وقد اضطلع ديورانت بهذا العبء ، وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة للحياة . أو كما يسميها « أخلاقاً طبيعية » تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس . ولا أظنه يزعم أنه قدَّم بهذا فلسفة جديدة ، أو مذهباً مبتكراً . وإنما أراد أن يعرض الآراء السابقة ليستخلص منها أمثلها . وهو فى عرضه طليقٌ كل الطلاقة ، فلم يلتزم تقسيمات الفلاسفة التقليدية ، ولم يتقيد بأدلتهم المألوفة. وإنما عرض على النحو الذى بدا له ، فجاء عرضه شيِّقاً جذَّاباً ، يؤذن باطلاع واسع وإلمام تامّ بالفلسفة والتاريخ والعلم والأدب .

وإذا كنا نتفق معه على موطن الداء ، فإنَّا نتساءل إذا كان من اليسير أن يقدم له الدواء ؛ وإذا كنا نقدر البواعث التى دفعته إلى إقامة « فلسفة الحياة » ، فإنَّا لا ندرى إلى أى مدى وفِّق فى تشييد صرحها .

* * *

ومهما يكن من شىء ففى كتاب « مباهج الفلسفة » جهد كبير ، وعرض شيِّق ، ودرس نافع . وسيجد فيه القارئ العربى لذّة ومتاعاً عظيمين ، لا سيما وقد عرف معرِّبه كيف ينقله فى صدق وأمانة ، ويترجمه فى وضوح ودقّة . والمعرِّب الكريم فى غنى عن التعريف ، وإنتاجه متصل ، وآثاره تأليفاً وترجمةً يتداولها القراء دون انقطاع . وهو فوق هذا فيلسوف متخصص ، يعرف كيف يعالج النظريات والمصطلحات الفلسفية ، ويستطيع أن يتخير أكمل السبل لنقلها إلى العربية .

ويحق لى بهذا كله أن أقول إن مؤسسة فرانكلين للنشر أحسنت كل الإحسان فى تخيرها لهذا الكتاب، وعرفت كيف تكل ترجمته إلى أيد أمينة، فأضافت بذلك حلقة ثمينة إلى سلسلة نشاطها المتواصل، وغذَّت المكتبة العربية بغذاء ممتع. وإذا كنا نقدِّم اليوم لترجمة الجزء الأول من كتاب « مباهج الفلسفة »، فإنا نرجو ألا يمضى زمن طويل إلا وقد وُضِع جزؤه الثانى فى أيدى الباحثين والقراء.

محتويات الكتاب الأول

صفحة

المشتركون فى هذا الكتاب ... ... ا

مقدمه بقلم الدكتورابراهيم مدكور ... ... هـ

اعتراف ١

دعــوة ٣

الجزء الأول
مدخل

الفصل الأول : فتنة الفلسفة

١ – تمهيـد ... ١١

٢ – أصحاب المعــارف ١٣

٣ – اللاهوتيون ١٦

٤ – العلمــاء ... ٢٠

٥ – ملكة العــلوم ٢٥

الجزء الثانى
المنطق والابستمولوجيا

الفصل الثانى : ما الحقيقة ؟ (*)

١ – الإحســاس فى مقابل العقل ٣٣

٢ – سر المعــرفة الغــامض ... ٤١

٣ – العقل فى مقــابل الغريزة ... ٤٩

الجزء الثالث
الميتا فيزيقا

الفصل الثالث : المادة والحياة والعقل (*)

١ – مقــدمة لا أدرية ٦١

٢ – المــادية ٦٢

٣ – المثــالية ٦٦

(*) الفصول المرقومة بنجمة فنية متخصصة .

صفحة

٤ – ما المـادة ؟ ٦٨
٥ – الحيـاة ٧٦
٦ – المـادى يتكلم ٧٩
٧ – المثـالى يرد ٨٤
٨ – التركيب ٨٦

الفصل الرابع : هل الإنسان آلة ؟

١ – استعراض ٩١
٢ – الميكانيكية ٩٦
٣ – الحتميـة ١٠٣
٤ – عصر البيولوجيا (علم الحياة) ١١١

الجزء الرابع
مشكلات أخلاقية

الفصل الخامس : أخلاقنا المتغيرة

١ – نسبية الأخلاق ١١٧
٢ – القانون الزراعى ١٢٠
٣ – القـانون الصناعى ١٢٤
٤ – رجالنا المتحررون ١٢٩
٥ – الأسرة ١٣١
٦ – الأسباب ١٣٣

الفصل السادس : الأخلاقية واللاخلاقية

١ – الأخلاقية واللاخلاقية ١٣٩
٢ – الأخلاق الطبيعية ١٤١
٣ – ميزان الأخلاق ١٤٧
٤ – الأخـلاق الكبرى ١٥٢
٥ – الحيـاة الجنسية والأخلاق ١٥٤

الفصل السابع : الحب

١ – لماذا نحب ؟ ١٥٧
٢ – من الناحية البيولوجية ١٥٨
٣ – الأساس الفسيولوجى ١٦٧
٤ – النمو الروحى ١٧١

صفحة

الفصل الثامن : الرجال والنساء

١ – حرب الحرب ١٧٩
٢ – اختلافات الخلق ١٨١
٣ – الاختلافات العقلية ١٩٠
٤ – المرأة والعبقرية ١٩٣
٥ – هل الاختلافات موروثة ١٩٦

الفصل التاسع : المرأة الحديثة

١ – التغير الكبير ١٩٩
٢ – الأســباب ٢٠٢
٣ – بناتنـا ٢٠٧
٤ – ربات بيوتنـا ٢١٢

الفصل العاشر : انهيار الزواج

١ – تطور الزواج ٢١٨
٢ – انحـلال الزواج ٢٢٣
٣ – إعادة بنـاء الزواج ٢٢٨
٤ – فى إنجـاب الأطفـال ٢٣٦

الفصل الحادى عشر : فى الأطفال – اعتراف

١ – نظرة شخصية ٢٣٩
٢ – فى الأمور الجسمية ٢٤٠
٣ – فى الأمور الأخـلاقية ٢٤٢
٤ – فى الأمور الجنسية ٢٤٩
٥ – فى الأمور العقليـة ٢٥١

الفصل الثانى عشر : إعادة بناء الخلق

١ – عنـاصر الخلق ٢٥٨
٢ – الخلق السلبى ٢٦٤
٣ – صـاحب الخلق الإيجابى ٢٦٦
٤ – بنـاء خلق جـديد ٢٦٩
٥ – عـلاجـات ٢٧٤

الجزء الخامس
علم الجمال

صفحة

الفصل الثالث عشر : ما الجمال ؟

١ – حـاسة الجمال عند الفلاسفة ٢٨٣
٢ – حـاسة الجمال عند الحيوان ٢٨٦
٣ – الجمال الأولى : الأشخـاص ٢٨٨
٤ – الجمال الثانوى : الطبيعـة ٢٩٢
٥ – الجمال الثـالث : الفن ٢٩٦
٦ – الجمال الموضوعى ٣٠٠

اعتراف

هذا الكتاب ، على الرغم من عنوانه الجديد المرح ، طبعة منقحة من كتاب « قصور الفلسفة Mansions of Philosophy » الذى طبع عام ١٩٢٩ ، ونفدت طبعته منذ عشر سنوات ، وتهافت الطلب عليه إلى الحد الذى يغتفر معه إصدار طبعة جديدة . وفى الكتاب صفحات تدل على أن تأليفها كان منذ ربع قرن مضى ، وسوف يبتسم القارىء عند كثير من الأفكار التى تحويها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضى لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة ، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسى أصدق تعبير ؛ وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق ، وبخاصة فى الفصل الثامن عشر. وإذْ كشفت أنى غير معصوم من الخطأ ، فقد ينبغى اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات. وإنى لأعتقد أن فى الكتاب — على الرغم من هذه الأخطاء — صفحات تعين على النجاة . لهذا السبب ألقيته مرة أخرى فى بحر المداد حتى يلتمس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح المؤتلفة فى دولة العقل .

ول ديورانت

نيويورك فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

دعـــــــوة

هذا الكتاب محاولة لإقامة فلسفة متماسكة فى الحياة : فهو يسعى إلى أن يصنع بمشاكل الفلسفة ما حاول كتاب « قصة الفلسفة » أن يصنعه بالنسبة لشخصيات معظم الفلاسفة ومذاهبهم ، أى أن يقربهم إلى الأفهام بالعبارة الصافية ، وأن ينقلهم إلى الحياة بالتطبيق الحديث . وسوف نسقط من هذا الكتاب قصص العباقرة ومأثور أقوالهم التى خففت منى حمل ذلك الكتاب . ولعلنا نلقى الجزاء الحسن حين نقترب اقتراباً ألصق بمشاغل حياتنا الخاصة فى هذه الأيام : ذلك أن الموضوع الذى يعنينا هنا هو أنفسنا .

ونحن نلاحظ أن سلوك الإنسان واعتقاداته تخضع اليوم لتغييرات أشد عمقاً وأعظم اضطراباً مما كانت عليه عندما نمت الثروة وظهرت الفلسفة فوضعتا حداً لديانة الإغريق المتوارثة . فنحن الآن فى عصر سقراط مرة ثانية : حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية يتضاعف سيرها وتتسع آفاقها ، وذلك كله على حساب التقاليد والمعتقدات القديمة . وكل شىء ، سواء فى أفكارنا أو فى أعمالنا ، جديد وتجريبى ؛ ولم يعد هناك شىء مستقل أو مؤكد . وليس للتغير الحاصل فى زماننا من جهة سرعته وتعقيده وتعدده مثيل فى التاريخ حتى فى أيام بركليس ، فقد تعدلت جميع أوضاع الحياة وصورها من حولنا ، ابتداء من الآلات التى تقلب الأرض رأساً على عقب ، والعجلات التى تدور وتضج بغير انقطاع حول الأرض ، إلى هذه التجديدات فى علاقاتنا الجنسية ، والأوهام الكاذبة عن نفوسنا . وقد أدى الانتقال من الزراعة إلى الصناعة ، ومن القرية إلى المدينة ، ومن المدينة إلى الدولة ، إلى رفع شأن العلم ، والحط من منزلة الفن ، وتحرير الفكر ، وأفول أنجم الملكية والأرستقراطية ، ونشأة الديمقراطية والاشتراكية ، وتحرير المرأة ، وانحلال رابطة الزوجية ، وانهيار القوانين الأخلاقية الموروثة ؛ وبدّلت بالزهد الترف ، وأحلت النزعة الأبيقورية محل نزعة التزمت ، وعظّمت

الحياة المثيرة على الهدوء والرضا ، وحدّت من كثرة الحروب ولكنها أصبحت أعظم رعباً ، واقتلعت من أنفسنا كثيراً من أعز معتقداتنا الدينية ، وقدمت لنا فى مقابل ذلك فلسفة فى الحياة ميكانيكية وجبرية . فجميع الأشياء تجرى كما يتدفق الماء فى النهر ، وليست لنا حيلة فى التماس برٍّ أو مستقر .

ويظهر فى كل حضارة نامية عصر يتضح فيه أن الطبائع والعادات القديمة لا تتناسب مع المؤثرات التى تغيرت ، وعندئذ تهوى النظم والأخلاق العتيقة حين تدقها مطرقة الحياة السائرة فى طريق النمو ، فتتهشم تحتها كما تتهشم القوقعة من الصدف . فقد انهارت أنواع النظم القائمة على الاستجابات التلقائية والطبيعية فى مجال إثر آخر ، بعد أن هجرنا المزرعة والبيت إلى المصنع والديوان والعالم ، ولا يزال العقل مضطرباً فى إجراء تجارب ترشده عن وعى إلى طرق جديدة بدلا من سلوك أجدادنا الطبيعى البسيط وأساليبهم القديمة . فينبغى أن نفكر اليوم فى كل شىء ، ابتداء من « التركيب » الصناعى الذى نغذى به أطفالنا ، و « السعر الحرارى » و « الفيتامينات » التى يعقدها لنا علماء التغذية ، إلى الجهود المدهشة التى تبذلها الحكومات المعاصرة لتوجيه طرق التجارة التى تجرى اعتباطاً وتنسيقها . لقد أصبح مَثَلنا الآن مَثَل ذلك الذى لا يستطيع أن يمشى دون أن يفكر فى ساقيه ، أو لاعب الكرة الذى يجب أن يحلل كل حركة وكل ضربة وهو يلعب . لقد ذهبت عنا تلك الوحدة السعيدة المستمدة من الغريزة ، وأصبحنا نتخبط فى بحر من التفكير والشك . فنحن فى غمار المعرفة الجديدة والقوة الطارئة فى شك من أغراضنا وقيمنا وأهدافنا .

والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج من هذا الاضطراب هو أن نرتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء كى نتأمل الكل ، لأن ما فقدناه قبل كل شىء هو هذه النظرة الكلية . وتبدو الحياة من التعقيد والتحرك بحيث يصعب علينا إدراك وحدتها ومفهومها . إننا نفقد صفة المواطن فلا نصبح سوى مجرد أفراد ، وليس لنا غايات تذهب أبعد من لحظة موتنا ، فنحن بضعة من الناس ولا شىء سوى ذلك . ولا تجد اليوم أحداً يجسر على وصف الحياة فى كليتها . والحل سريع والتركيب بطىء . ونحن نخشى الاخصائيين فى كل ميدان ، فنقصر أنفسنا طلباً

للسلامة فى حدود اختصاصنا . وكلٌّ منا يعرف دوره ، ولكنه يجهل معناه بالنسبة إلى الرواية . بل الحياة نفسها تنمو خالية من المعنى ، حتى إذا بدت أكمل ما تكون أصبحت فارغة .

فلنخلع عنا خوفنا من الأخطاء التى لا يمكن تجنبها ، ولنعالج جميع مشكلات أحوالنا محاولين رؤية كل جزء وكل معضلة فى ضوء المجموع . من أجل ذلك سوف نعرف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذى يُبَسِّط الحياة ويحيل الاضطراب إلى وحدة . ولما كانت الفلسفة فى نظرنا ليست لعباً مدرسياً بالتصورات الميتة البعيدة عن اهتمام المجتمع والإنسان ، فسوف تشتمل فى هذا الكتاب على جميع المسائل التى تؤثر تأثيراً حيوياً فى قيمة الحياة الإنسانية ومعناها ، بصرف النظر عن مقدماتها التاريخية مهما تكن يسيرة . ولن نقف عند المنطق إلا ريثما ننفض أيدينا منه ؛ أما نظرية المعرفة فسنمر بها مر الكرام لنتبين حدود العقل البشرى ، إذ لن تجد مثل هذه النظم المفروضة إلا مكاناً متواضعاً هو الذى تحتاج إليه فى قصور الفلسفة . ثم نقفز بعد ذلك إلى اللب الميتافيزيقى للأشياء فنتأمل المذهب المادى ونرى رأينا فيه ، أيكون الفكر وظيفة للمادة ، أم أن الاختيار خداع آلةٍ حية سريعة الزوال . ومن هذه الزاوية نرتاد عالم الأخلاق ، ونبحث فى طبيعة الحياة الفاضلة ، فنتلمس أسباب أخلاقنا المتغيرة وما يترتب عليها من نتائج ، وننظر فى زواجنا المنحل ، وروابط حبنا المتراخية ، ونناقش أمر المرأة الحديثة التى فقدت دلالها وتخلت عن شهوتها للانتقام ؛ ونقابل بين زينون وأبيقور باحثين عن مواطن السعادة ، ثم نشق الطريق الذى يجمع بين الهداية فى التربية وإعادة بناء الأخلاق . وسوف نقف عند علم الجمال لحظة لننظر فى معنى الجمال ومطامع الفن . وسوف نتأمل التاريخ ونبحث عن دروسه وقوانينه ، ونسأل عن صفة التقدم ، ونزن مصير حضارتنا . فإذا استهوتنا الفلسفة السياسية رأينا أنفسنا مسوقين كما كنا نفعل فى حماسة الشباب إلى مناقشة مشكلات الفوضوية والشيوعية والاشتراكية والتقليدية والديمقراطية والأرستقراطية والدكتاتورية . أما فلسفة الدين فسوف تعود بنا إلى تلك المباحث القديمة عن الخلود والله ، ثم نحاول أن ننظر إلى ماضى المسيحية ومستقبلها من خلال تاريخ الدين العام . وأخيراً سوف

نضع المتشائم والمتفائل فى صعيد واحد مفاضلين بين نعيم الحياة الإنسانية وآلامها ، ثم ننظر نظرة كلية محاولين استخلاص قيمة حياتنا ومعناها . إنها جولة فى اللانهاية (١) .

ولعل القارىء المجدّ يسأل : أهناك فائدة من كل هذه الفلسفة ؟ إنه سؤال مخجل ؛ فنحن لا نسأل هذا السؤال عن الشعر الذى يعد تأليفاً خيالياً لعالم ليس معروفاً معرفة كاملة . وإذا كان الشعر يكشف لنا عن الجمال الذى تخطئه أعيننا الغريرة ، وكانت الفلسفة تهبنا الحكمة التى بها نفهم ونغفر ، فلنا فى الفلسفة غناء ، بل أكثر مما فى العالم من ثراء . ولن تجسم الفلسفة أهدافنا أو ترفعنا إلى منازل شاهقة فى دولة ديمقراطية ، بل إنها على العكس قد تجعلنا نهمل هذه الأمور بعض الشىء . إذ ماذا يهمنا أن نضخم أهدافنا ونرتفع إلى منزلة عالية ثم نظل مع ذلك فى سذاجة جاهلة : لم نزود عقولنا بالمعرفة ، ولم نهذب سلوكنا الوحشى ، ولم نستقر فى أخلاقنا ، ولم ننتظم فى رغباتنا ، ونظل فى تعاسة عمياء ؟

وإذا كان النضج يتم فى الكل ، فلعل الفلسفة ، يمكن إذا أخلصنا لها ، أن تهبنا سلامة وحدة النفس ؛ ذلك أن تفكيرنا فى غاية التهويش والتناقض ، فلعلنا نجلو أنفسنا ، ونجمع قوانا إلى التماسك ، ونخجل أن ننتهى إلى رغبات أو اعتقادات متعارضة . وقد نخرج من هذه الوحدة فى العقل إلى وحدة الهدف والخلق ، تلك الوحدة المكونة للشخصية ، والتى تخلع على حياتنا بعض النظام والكرامة . والفلسفة هى المعرفة المؤتلفة التى تؤدى إلى حياة مؤتلفة . إنها تنظيم النفس الذى يرفعنا إلى الصفاء والحرية . والمعرفة قوة ، ولكن الحكمة وحدها هى الحرية .

وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض . وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى ، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقيتنا ، ويبدو العالم كله مستغرقاً فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك

---

(١) يقتضى الترتيب المنطقى لسوء الحظ البدء بأصعب المواد أولا . ويحسن بالقراء الذين أقبلوا على الفلسفة حديثاً أن يبدأوا بالفصل الخامس ، مرجئين الفصول من الأول إلى الرابع بعد ذلك .

المشكلة التى أقلقت بال سقراط ، نعنى : كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن من جهة ، وبهذا الجنون الثورى من جهة أخرى ، حين نفقد الفلسفة التى بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التى توحد الأغراض ، وترتب سُلَّم الرغبات . إننا نهجر فى لحظة مثاليتنا السلمية ونلقى بأنفسنا فى هذا الانتحار الجماعى للحرب . وعندنا مائة ألف سياسى وليس عندنا « رجل حُكْمٍ » واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر فى ذلك ، أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التى أسكرتنا بخمر القوة ، ولن ننجو منها بغير الحكمة .

ول ديورانت

الجزء الأول

مدخــــــــل

الفصل الأول
فتنـــة الفلســـفة

١ — تمهيـــد

لماذا لم تعد الفلسفة اليوم محبوبة ؟ ولماذا اقتسم أبناؤها — أى العلوم — ميراثها ، وألقوا بها خارج الدار ، كأنها الملك لير Lear ، فى عقوق أشد قسوة من رياح الشتاء ؟

كان أقوى الرجال فى قديم الزمان على استعداد أن يبذلوا أرواحهم فى سبيلها ؛ فقد آثر سقراط أن يكون شهيداً لها من أن يعيش موليا الأدبار أمام أعدائها ؛ وخاطر أفلاطون بنفسه مرتين ليفوز بمملكة لها ؛ وعشقها مرقص أوريليوس أكثر من عرشه ؛ وحُرِق برونو حياً ولاءً لها. وكانت الفلسفة يوماً ما مصدر خوف للعروش والبابوات فألقوا المؤمنين بها فى السجن حتى لا تسقط الأسر الحاكمة . ونفت أثينا بروتاجوراس ، وارتعشت الإسكندرية أمام هيباتيا . وخطب أحد البابوات العظام ود إرازمس خوفاً منه . وطارد الحكام والملوك فولتير من بلادهم ، ثم أكلت الغيرة نفوسهم عندما انحنى العالم المتحضر فى النهاية أمام عظمة قلمه . ومنح ديونيسوس وابنه أفلاطونَ حكم سراقوسة . وجعلت معونة الإسكندر الملكية من أرسطو أعلم رجل فى التاريخ . وكاد الملك التلميذ أن يرفع فرانسيس بيكون إلى زعامة انجلترا وحماه من أعدائه . ونازل فردريك الأكبر فى منتصف الليل ، بعد نوم قواده العظام ، الشعراءَ والفلاسفة ، حاسداً إياهم على اتساع ممالكهم غير المحدودة ونفوذهم الخالد .

كانت تلك الأيام عصر عظمة للفلسفة ، حين طوت فى شجاعة كل معرفة تحت جناحها ، وتقدمت فى كل مكان صفوف التقدم العقلى . كان الناس يمجدونها فى ذلك الزمان ، إذْ لم يكن شىء يعد أشرف من محبة الحق . ووضع الإسكندر ديوجينس فى أول منزلة بعده هو فقط ، وأمر ديوجينس الإسكندر

أن ينتحى جانباً حتى لا يحجب جسمه الملكىُّ الشمسَ . واستمع الحكام والمفكرون والفنانون فى سرور إلى أسباسيا ، وحج عشرة آلاف من الطلبة إلى باريس ليأخذوا العلم على أبيلارد . لم تكن الفلسفة حينذاك العانس ذات الحياء التى تحبس نفسها داخل الأبراج بعيدة عن أعمال الدنيا . لم تخش عيون الفلسفة الصافية ضوء النهار ، بل أقدمت على العيش فى خطر ، ورحلت بعيداً إلى بحار مجهولة . أكانت تقنع أبداً فى تلك الأعوام التى تقربت فيها من الملوك أن تحد نفسها فى هذه الحدود الضيقة التى تقيدها اليوم ؟ لقد كانت يوماً من الأيام ضوءاً متعدد الألوان يملأ أغوار الأنفس حرارة ونوراً ، ولكنها الآن تابع مظلم يدور فى فلك العلوم والمذاهب المدرسية . لقد أتى عليها حين من الدهر كانت أعظم عروس فى سائر العالم العقلى ، وشمخت على خدامها السعداء، أما الآن وقد تجردت من جمالها وسلطانها فإنها تقف منعزلة بائسة لا يبجلها أحد[1].

ليست الفلسفة محبوبة اليوم لأنها فقدت روح المغامرة ، ذلك أن ظهور العلوم المفاجىء استلب منها واحداً بعد الآخر عوالمها القديمة الشاسعة ، فأصبحت « الكوسمولوجيا » علم الفلك والجيولوجيا ، و « الفلسفة الطبيعية » علم الحياة والطبيعة ، وتحولت « فلسفة العقل » فى هذه الأيام إلى علم النفس . لقد هربت منها جميع المشكلات الواقعية والبارزة ، ولم تعد تعنى ببحث طبيعة المادة وسر الحياة والنمو ، أما « الإرادة » التى دافعت عن « حريتها » فى مئات من المعارك الفكرية فقد تهشمت فى عجلة الحياة الحديثة الآلية ؛ والدولة التى كانت مشكلاتها ذات يوم من اختصاصها فهى ميدان سعيد لنفوس صغيرة وقلَّ أن تطلب شرف نصائح الفلسفة . ولم يبق لها إلا قمم الميتافيزيقا الباردة ، وألغاز الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) الصبيانية ، ونزاع أكاديمى حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية . بل حتى هذه النفايات سوف تنتزع منها ، حين تنشأ علوم جديدة تغزو هذه الميادين بالبوصلة والمجهر والمسطرة . ولعل العالم ينسى أن الفلسفة كانت موجودة ، وأنها حركت القلوب وأرشدت العقول .

---

(١) يجب أن ننوه ببعض الاستثناءات ، فقد خلب برجسون ألباب المستمعين بفصاحته ، وكان لبرتراندرسل شرف إخافة إحدى الحكومات .

٢ — أصحاب المعارف Epistemologs

والفلسفة على النحو الذى دونت به خلال مائتى العام الأخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الإغفال . كيف أصبحت الفلسفة بعد موت بيكون وسبينوزا ؟ أصبحت فى الشطر الأعظم منها إبستمولوجيا [١] ، (نظرية المعرفة)، وهى التى كان يبحثها علماء الكلام فى العصر المدرسى ، إنها المعرفة الفنية والمستورة Esoteric ، إنها النزاع الغامض وغير المفهوم حول وجود العالم الخارجى . لقد انصرف ذلك العقل الذى كان يمكن أن يصنع الملوك الفلاسفة إلى تعمق البحث فى تحليل الأدلة التى تؤيد أو تنفى إمكان وجود النجوم والمحيطات والبكتريا والجيرة فى حالة عدم إدراكها . وقد استمرت هذه المعركة التى تشبه المعركة بين الضفادع والفيران مائتين وخمسين عاماً دون أن تخرج بثمرة لها قيمة فى الفلسفة أو الحياة ، وبفائدة لأى شخص اللهم إلا فائدة طابع الكتب .

ويرجع بعض اللوم فى هذا كله إلى عبارة ديكارت البسيطة التى تكاد تبلغ حد السذاجة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود». ذلك أن ديكارت كان يأمل فى أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات ، فامتحن « بالشك المنهجى » جميع اعتقادات الناس ، بل بديهياتهم ، وحاول أن يبنى مذهباً متماسكاً للمعرفة من هذه المقدمة الوحيدة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . وقد كان من الخطر العظيم أن نجعل الوجود معتمداً هذا الاعتماد على الفكر ؛ وأجمعت العقول على أن هذا الأساس يجعل الوجود امتيازاً أرستقراطياً ، وقد يذهب الزهاد بفضل سلطان ذلك الأساس إلى حرمان جنس بأكمله ، لا من النفس فقط (كما أراد أن يفعل ذلك فاينجر Weininger) بل من الحقيقة .

---

(١) Epistemology هى نظرية المعرفة ، Theory of Knowledge ، والاصطلاح من اللفظة اليونانية Episteme أى العلم . ولم يكن القدماء من فلاسفة العرب يستعملون لفظة « المعرفة » بل « العلم » ، ولكننا آثرنا استعمال المعرفة دون العلم لأن اللفظة الأخيرة أصبحت تطلق فى مقابل Science . ونظرية المعرفة تبحث فى العقل البشرى ومبادئه ومناهجه لا من الناحية البسيكولوجية بل من الناحية الميتافيزيقية .. ومن أمثلة هذه المباحث هل المعرفة فطرية أو مكتسبة . (المترجم) .

أما الخسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة ، إذ أن بناء تصور للعالم على هذه الحقيقة وهى أن شخصاً واحداً يفكر ، جدير بأن يخلق مثل هذه الشبكة من الصعوبات التى ظل أصحاب المعارف عشرة أجيال يجتهدون فى حلها بغير نتيجة . وأول كل شىء هذا الـ « أنا » فى عبارة ديكارت مما كانوا يتصورونه « نفسا Soul » روحية لا مادية . ثم إن الجسم ، فيما نفترض ، لا يمكن أن يتحرك إلا حين يتصل بغيره من الأجسام ؛ كيف إذن يمكن أن يؤثر هذا الروح اللاجسمانى فى جزيئات المخ المادية ؟ ونشأت عن هذا المأزق الطريف عجائب مذاهب المادية والمثالية والتوازى النفسى . واحتج صاحب مذهب التوازى بأن العقل والمخ مختلفان اختلافاً كبيراً ، وأن أحدهما لا يمكن أن يؤثر فى الآخر ، وأن سلسلتى الأحداث المادية والعقلية ، المخية والفكرية ، يجب أن تكونا مفترقتين متميزتين بغير أن تؤثر إحداهما فى الأخرى ، بل هما متوازيتان بشكل عجيب. واحتج المادى بأن « العقل » ما دام يؤثر أثراً لا ينكره أحد فى الجسم ، فينبغى أن يكون شبيهاً بمادة الجسم ، فالعقل جسمانى ومادى كالمرارة التى تفرز الصفراء . واحتج المثالى بأنه ما دامت الحقيقة الوحيدة التى يمكن أن نثق بها هى تلك التى ابتدأ ديكارت منها — حقيقة الفكر — فجميع أنواع الوجود الأخرى ليست حقيقية بالنسبة إلينا إلا باعتبار أنها مدركة بحواسنا ومبينة بعقولنا ؛ فالجسم مُدْرَك حسى ، والمادة ليست إلا حزمة من الأفكار .

ونشأت بذلك حرب بهيجة ؛ ولم تبق اليوم إلا الحرب فقط وذهبت البهجة . وقد يظهر بين حين وآخر فيلسوف من أصحاب المعرفة تشرق البسمة على كتاباته مثل برادلى ووليم جيمس . وقد يظهر فى بعض الأحيان من يفهم أن « مذهبه » ليس إلا لعبة ، فهو يلعبها بغمزة عينه مثل دافيد هيوم . أما سائر الباقين فقد بلغت رزانتهم حد الموت ، وأطال الفلاسفة — من جون لوك حتى رودلف إيكن Eucken — وجوههم ، وزادت مع كل جيل طولا ، حتى تستقيم مع مذاهبهم الكئيبة . وأعلن الأسقف بركلى أنه لا شىء يوجد إلا حين يدركه الإنسان أو الله . ولم يبتسم الأسقف بقدر ما نعرف ، ولو أننا نشك فى أمر هذا الإيرلندى الماهر .

أما أنه لا شيء يوجد فى « أى عقل » بل فى « هذا » العقل الذى يدرك ، فلا ريب أنها حقيقة تبلغ مبلغ السذاجة والسخف واللغو . ولكن ما أبعد العالم عن هذه العبارة التى تلتبس غالباً بها ، وهى أنه لا شيء يوجد إلا إذا كان مدركاً . وقد كان ذلك اللبس لازماً وثميناً لأولئك الفلاسفة الذين ارتجفوا من المادية الخشنة ، مادية هولباخ ، ومولسكوت ، وبوخنر . ولقد كان بركلى بارعاً حين تخلص من كل مادية بضربة واحدة فى الصميم بإثبات أن المادة لاتوجد ؛ لقد كان عمله بناء شاهقاً فريداً فى بابه من الشعوذة المنطقية ، وينبهنا بحق إلى أن الذين يدرسون الفلسفة يجب أن يفتحوا أعينهم على الفيلسوف . ولكن غشه كان بسيطاً ، وكان ينبغى على الأسقف أن يتردد إزاء هذا الغش التقى . ومن أقوال أناتول فرانس : « إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الكذب والأدب »[١] والآن كم من هذه الإبستمولوجيا المثالية يندرج تحت باب الأدب ؟

ليس معنى ذلك أنه لا توجد مشكلات فى نظرية المعرفة . ويعلم الله أن فيها مشكلات كثيرة مما تسنح لنا الفرصة لبيانه . ولكن هذه الأحاجى الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع ، والطريقة التى يعرف بها العارفُ المعروفَ ، والعناصر الموضوعية والذاتية فى المعرفة ، وموضوعية المكان والزمان ، والصفات التى نخلعها على الأشياء إلى أى حد تتعلق بالأشياء وإلى أى حد تتعلق بالعقل الذى يدركها — وهذه كلها بجميع تفصيلاتها أحاجىٌّ لعلم النفس ، وميادين للملاحظة والتجربة المتكررتين المضبوطتين ، ولم تعد مشكلات خاصة بالفلسفة ، كما خرجت عن نطاقها أسرار التحول الكيائى Metabolism أو كيمياء قطعة مشوية من اللحم ، وكل مشكلة تتعلق بالفلسفة كهذه المشكلة التى لا تتعلق بها إلا من جهة اتصالها بسائر غيرها . ومن الخطة أن يغتصب ممثل واحد فى هذه الدراما الكبيرة للأفكار جميع الأدوار ، وأن يلقى وحده جميع العبارات فى تمثيلية الفكر الفلسفى الحديث .

Brousson, J. J. Anatole France en Pantoufles. p. 134 (١)

٣ – اللاهوتيون Theologians [1]

ويكاد يشبه ما سبق سوءاً الزعم بأن وظيفة الفلسفة القيام بدور الناقد للمنهج العلمي . وهنا أيضاً نجد الرغبة تتسلل لتحتضن الفكر ؛ ذلك أن الأساتذة المدافعين عن اللاهوت حين عجزوا عن بيان لا حقيقة Unrealty المادة اتجهوا إلى إظهار اللائقة بالعلم . وما ذهب إليه ماخ Mach ، وبيرسون Pearson، وبوانكاريه Poincaré – من أن نتائج العلم ليست إلا صيغاً « مختصرة » لـ «عادات» عن طبيعة لا يمكن أن تلاحظ ملاحظة كاملة أبداً ، وأن هذه النتائج قد تُنقض وتستبعد عقب ملاحظات أوسع – قد تلقفها قوم للدفاع عن علم اللاهوت . فهاهنا فرصة ذهبية لبيان نقص العقل ووقوعه فى الخطأ ، وأن العلم لا يقدم لنا اليقين بل الاحتمال فقط ، وبناء على ذلك يمكن أن تستخرج جميع العقائد العزيزة علينا فى طفولتنا من المتحف ، ثم تكسى بثياب جديدة من عبارات غير مفهومة ، وتباع للجيل القادم على أنها بضاعة لم يصبها إلا تلف يسير . وهبَّ قوم من كل مكان يفحصون فى جد بديهيات الرياضة ، ومفهومات المكان والزمان ، والعدد والقياس ، والكم والكيف ، وانتهوا بعد النظر إلى التعاليم القديمة Abracadara[2] إلى وجود مهدى منتظراً ، أو سانتاكلوز .

فلا غرابة بعد هذا الخداع المعيب أن ينبذ فضلاء الناس الفلاسفة . إذ ما جدوى كل هذا المنطق إذا لم تكن أقيسته إلا ستاراً غير أمين يخفى وراءه آمالنا الخفية ؟ وفى ذلك يقول برادلى Bradley : « الميتافيزيقا هى الكشف عن أسباب باطلة لما نعتقده بالغريزة ، ولكن الوقوع على هذه الأسباب غريزة كذلك [3] » . وقد تكون الميتافيزيقا فى بعض الأحيان هى إيجاد أسباب باطلة لما نود أن يعتقده الآخرون . وكان فولتير أميناً حقاً حين قال إنه يرغب أن يؤمن طاهيه وخادمته

---

(١) يسمى هـذا العلم ثيولوجى Theology ، أو العلم الإلهى ، نسـبة إلى ثيوس باليونانية أى إله ، ودرج الاصطلاح عند الفلسفة المسيحية على أن يقال علم اللاهوت ، وهو عند المسلمين علم الكلام . (المترجم) .

(٢) كلمة دينية تكتب فى عدة أسطر يقل كل سطر منها بحرف حتى نبلغ حرف الألف ، ويتكون من الكلمة شـكل مثلث الألف رأسه ، وكانوا يلبسونها تعويذة من المرض (المترجم) .

(٣) Appearance and Reality, p. XIV

بالمعتقدات التقليدية لزمانهما ومكانهما ، وقد ظن أن هذا يقلل بعض الشيء فرصة سلب مجوهراته أو تسميم طعامه . وقال لوتز Lotze : إن النظرية الفلسفية محاولة لتسويغ نظرية أساسية عن الأشياء سبق اعتناقها في فجر الحياة(١) .وكتب نيتشه الأمين يقول : « إن جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم الواقعية قد كُشفَتْ بطريق جدل ينشأ في داخل أنفسهم ، وهو جدل إلهي ، نقي ، جامد ، لا صلة له بهم ... على حين يدل الواقع على أن فكرة متحيزة أو قضية أو اقتراحاً هي على العموم رغبة قلوبهم قد تجردت وتهذبت ، ثم أخذوا يدافعون عنها بالأدلة التي يجتهدون في الحصول عليها بعد نشأة الفكرة »(٢).

ولعلنا نجد هنا رءوس الأخطاء التي تشوه الفلسفة : فهي تسيء إلى الحقيقة في الوقت الذي تبحث عنها ، وتصبح المدافعة عن عقيدة موقتة ، وتقصر مع الأسف عن ذلك الضمير العقلي ، وذلك الاحترام الصابر لطلب الوضوح ، وذلك الانتباه العسير إلى الأحوال السلبية ، مما يتميز به عالم مثل همبولد Humboldt أو دارون ، أو فيلسوف « أدبي » غير محترف مثل ليوناردو أو جيته . ولما كان المدرسيون Scholastics الذين يُنْظَمون خطأ في سلك الفلاسفة ، لاهوتيين في ابتداء أمرهم ، فقد أحدثوا بدعة إخضاع البحث عن الحقيقة لنشر الإيمان . وكانت أعظم تآليفهم الجوامع Summas عبارة عن كتب صفراء رسمية تصدر عن مكتب الدعاية في الفاتيكان لحرب الزندقة . وكانوا يقولون بصراحة إن الفلسفة تمهيد للاهوت «Philosophia ancilla theologiae» فالفلسفة خادمة اللاهوت . ومع أن آباء الفلسفة الحديثة العظام — بيكون وديكارت وسبينوزا — قد احتجوا على هذه الخطيئة الفلسفية ، فقد سلم أحفادهم في هذا العصر إلى حد كبير بالتقاليد القديمة.

وأخذت أخطاء الفلسفة الأخرى تنمو من هذه الصبغة اللاهوتية كما يتزايد بشكل غامض نمو العلة الناشئة عن مرض موروث . وإذا لم يكن غموض الفلسفة راجعاً إلى نقص صدقها ، فما الشيء الآخر الذي يعزى هذا الغموض إليه ؟ ولا ريب أن بعض الظلمة التي تغشى الفكر الحديث ترجع إلى خداع الحقيقة ، ووعورة الاعتبارات الكونية ؛ على أن الغموض إذا كان من هذا الضرب وحده فلا ينبغي أن يقف حجر عثرة في سبيل اهتمام الإنسان ، فهذا شللي Shelley

(١) In Muirhead, Contemporary British Philosophy, p. 15.

(٢) Beyond Good and Evi, L, § 5.

غامض ، ولكن من منا لا يمجده على الأقل بقلبه ؟ . والمرأة غامضة ، ولكن أى رجل لا يفتنه هذا الجانب من النقص فيشغل نفسه على الدوام بالنفاذ إلى لب ذلك الغموض وحل ذلك اللغز ؟ كلا . . فى الفلسفة الحديثة غموض آخر يختلف اختلافاً بيناً . عندما يغازل الرجل يكون فهمه للغزل أكثر صعوبة منه حين يحكى حقيقته ، إذ لكل واقعة أكثر من تصور ممكن ، والبارع وحده هو الذى يستطيع أن يجعل باطله متماسكاً كالحق . ولكن البارعين فى التزييف لا يصبحون فلاسفة ، لأن السلك السياسى فى أمس الحاجة إليهم ، وتبقى الفلسفة الإلهية فى أيدى روائيين من طبقة دنيا تنحل عقدتهم الروائية عند أول اتصال بهذا العالم الحى .

وجملة القول إن هذا الكذب الأولى هو الذى يولد المذهب الفكرى Intellect-nalism العقيم السائد فى النظر الحاضر . ومن لا يثق فى وحدة عقله يتجنب المشكلات الحيوية للمعيشة الإنسانية : إذ فى أى لحظة قد يكشف معمل الحياة الكبير عن أكذوبته الصغيرة ، ويتركه عارياً يرتعش فى وجه الحقيقة . ومن أجل ذلك يبنى لنفسه برجاً عاجياً من المؤلفات المستورة والمجلات الفلسفية الفنية ، التى لا يجد الراحة إلا فى صحبتها ؛ بل إنه ليخشى واقعية منزله المثيرة . إنه يهيم بعيداً ، وبعيداً جداً عن زمانه ومكانه ، وعن المشكلات التى يستغرق فيها أهل وطنه وعصره . ولا تعنيه بل تفزعه الأمور التى تتصل حقاً بالفلسفة ، ولا يحس بأى هوى يدفعه إلى ربط بعض الأشياء ببعضها الآخر ، ولا إلى وضع شىء من النظام والوحدة فى فوضى عصره الكثيرة . ولكنه ينزوى خائفاً فى ركن صغير ، ويعزل نفسه عن العالم بطبقة فوق طبقة من الاصطلاحات الفنية ، وعندئذ يبطل أن يكون فيلسوفاً ويصبح من أصحاب المعارف Epistemologist

ولم يكن الأمر على هذا النحو فى اليونان ، حيث كان الفلاسفة أقل اضطلاعاً بالتدريس وأكثر اشتغالا بالتفكير . ولقد حوّم بارمنيدس بتفكيره حول لغز المعرفة ، ولكن الفلاسفة السابقين على سقراط ظلت أعينهم مفتوحة بمنطق معتدل على الأرض الثابتة ، وآثروا الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة على توضيحها بالجدل ، فلم يكن بين الإغريق من ينطوى على نفسه إلا القليل .

ولنتأمل صورة ديمقريطس ذلك الفيلسوف الضاحك ؛ ألا يكون رفيقاً ذا خطر لأولئك المدرسيين الجامدين الذين حولوا النزاع حول واقعية العالم الخارجى إلى مقالات ذاعت فى العصر الوسيط عن عدد الزوايا التى يمكن أن تستقر فوق رأس إبرة ؟ ولنستحضر صورة طاليس الذى تحدى باحتكار السوق الذين قالوا إن الفلاسفة قوم بُلْه ، فحقق ثروة كبيرة فى عام واحد . ولننظر إلى صورة أنكساجوراس الذى صنع للإغريق ما صنعه دارون ، فأحال بركليس من سياسى عملى إلى مفكر ورجل دولة . ولنستعرض صورة سقراط الذى لم يرهب الشمس أو النجوم ، وأفسد فى مرحٍ الشباب ، وقلب الحكومات . ترى ماذا يمكن أن نعمل بهؤلاء المتفلسفة المشوهين العقيمين الذين يتسكعون الآن بأبواب تلك المملكة التى كانت عظيمة فى قديم الزمان ؟ لم تكن نظرية المعرفة عند أفلاطون وعند أولئك الأبطال من السابقين عليه ، إلا مدخلا للفلسفة شبيهاً بالغزل الذى يسبق الحب ، فقد يستمتع المرء بنظرية المعرفة ساعة ، ولكنها لا تكفى فى إطفاء جوى محب الحكمة . ونحن نجد أفلاطون بين حين وآخر يغازل فى محاوراته القصيرة مشكلات الإدراك الحسى ، والتفكير ، والمعرفة ، ولكنه كان يمد بصره فى تآليفه الكبرى فوق ميادين أكثر سعة ، فبنى لنفسه مدناً فاضلة ، وأخذ يتفكر فى طبيعة الإنسان ومصيره . وأخيراً شرفت الفلسفة عند أرسطو فى سائر ميادينها غير المحدودة وعظمتها اللانهائية ، فقد كشف جميع قصورها وجملها بالنظام ، ووضع كل مشكلة فى مكانها ، فقدم كلُّ علم فروضَ الطاعة للحكمة . لقد عرف أولئك القوم أن وظيفة الفلسفة ليست أن تئد نفسها فى ظلمات الإبستمولوجيا ، بل أن تقتحم بشجاعة كل ميدان للبحث ، وأن تلم بأطراف كل معرفة حتى تنسق الأخلاق الإنسانية ، والحياة البشرية ، وتلقى الضوء عليها . لقد فهموا أن ميدان الفلسفة ليس لغزاً صغيراً يختفى وراء السحب ، ويخلو من الاهتمام أو التأثير فى أمور الناس ، ولكن ميدانها هو المشكلة الشاسعة الشاملة لمعنى الإنسان وقيمته وإمكانياته فى هذا العالم اللانهائى المتدفق .

٤ — العلماء

وإذ كان هذا كله يصور لنا ما ليس للفلسفة ، أو ما لا ينبغى أن يكون لها ، فقد بقى لنا أن نقول ما الفلسفة ؟ أو ماذا يمكن مثالياً أن تصبح ؟ أيمكن أن نعيد ملكة العلوم إلى ميدانها وقوتها السابقين ؟ أيمكن أن نتصور الفلسفة مرة أخرى على أنها المعرفة الموحَّدة والموحِّدة للحياة ؟ أنستطيع أن نضع تخطيطاً لنوع من الفلسفة قد يجعل عشاقها قادرين أولا على حكم أنفسهم ثم الدولة ، أولئك الجديرون حقاً بأن يكونوا ملوكاً فلاسفة ؟ (١)

والفلسفة فى الاصطلاح الفنى ، كما عرفناها منذ زمن طويل ، هى : « دراسة التجربة ككل ، أو دراسة شطر من التجربة فى علاقته بالكل (٢) ، ويتضح فى الحال أن أى مشكلة يمكن أن تكون مادة للفلسفة بشرط أن تدرس من زاوية شاملة فى ضوء سائر التجارب والرغبات الإنسانية . ذلك أن طابع العقل الفلسفى ليس فى دقة النظر بمقدار سعة النظرة ووحدة الفكر . يجب أن نستبدل الأنواع الكلية بالأنواع الأزلية Sub specie eternitatis Sub specie totius التى ذهب إليها اسبينوزا . الواقع كلتا النظرتين تتركزان على النتيجة نفسها كما تلتقى العينان على الشىء المرئى ؛ غير أنه إذا كان فى استطاعة الإنسان أن يجمع تجاربه فى كل منظم نسبياً ، فإن رؤية الأشياء من عين الأزل ميزة الآلهة المخلدين ، ولعلهم غير موجودين .

ولا تحتاج صلة العلم بالفلسفة إلى مزيد من الإيضاح : فالعلوم هى النوافذ التى ترى الفلسفة العالم من خلالها ، أو هى الحواس لهذه النفس ؛ وتصبح معارف العلوم بغير الفلسفة عاجزة مضطربة كالإحساسات التى ترد إلى الذهن المشوش فيؤلف منها الأبله قصة . لقد كان سبنسر على حق حين قال : الفلسفة هى أعم معرفة ؛ ولكنه كان كذلك على باطل : لأنها ليست معرفة فقط ، إذ تتضمن ذلك النظر السامى والصعب الذى ترتفع فيه مجرد المعرفة لتصبح نظرة شاملة تنظم

---

(١) يشير المؤلف إلى نظرية أفلاطون عن الملك الفيلسوف التى بسطها فى « الجمهورية » (المترجم)

(٢) Philosophy and the Social Problem, p. 1.

اضطراب الرغبة وتوضحها . إنها تشتمل على تلك الصفة الغريبة المتميزة التى تسمى حكمة .

والفلسفة بغير العلم عاجزة : إذ كيف تنمو الحكمة اللهم إلا على أساس المعرفة المكتسبة كسباً صحيحاً ، بالملاحظة الأمينة والبحث الصادق ، تسجلها وتوضحها عقول بعيدة عن الهوى ؟ وبغير العلم تتدهور الفلسفة وتنحط ، إذ تنعزل عن تيار النمو الإنسانى ، وتقع أكثر فأكثر فى سخافات المدرسية الكئيبة . ولكن العلم بغير فلسفة لا يصبح عاجزاً فقط بل مخرباً ومدمراً . والعلم وصفى : إنه ينظر بالعين أو التلسكوب ، بالميكروسكوب أو الاسبكترسكوب ، ثم يحدثنا عما يراه . ووظيفته أن يلاحظ الوقائع المعروضة بعناية ، ويصفها موضوعياً وبدقة دون نظر إلى نتيجتها بالنسبة إلى الإنسان . هذا نتروجلسرين أو غاز الكلورين ، فمهمة العلم تحليلهما فى هدوء ، وإخبارنا ما هذا المركب أو هذا العنصر بالضبط ، وماذا يمكن أن يعمله كل منهما ، من إهلاك مدن بأسرها ، أو تخريب أبهى صروح الفن الإنسانى ، أو إفساد حضارة كاملة ومحوها بجميع ما فيها من لطائف مدخرة وحكمة مدونة — يخبرنا العلم عن ذلك كله وكيف يمكن عمله علمياً ، وسريعاً ، وبأقل نفقة لدافعى الضرائب إذا قدر لهم أن يعيشوا . ولكن هل يجب أن تخرب الحضارات ؟ . . . أى علم يخبرنا عن ذلك ؟ أتكون الحياة أحلى حين تتضخم بالكسب وتتعلق بالملك ، أم حين تستغرق فى الإبداع والبناء ؟ هل الأفضل أن نبحث عن المعرفة وننشد الحقيقة العارية عن الوهم ، أو نطلب النشوة العابرة للجمال ؟ وهل يجب أن نحاول التنازل عن جميع الجزاءات العلوية Supernatural فى حياتنا الخلقية ؟ أيجب أن ننظر إلى المادة من وجهة نظر العقل ، أم ننظر إلى العقل من وجهة نظر المادة ؟ وما جواب العلم عن هذه المسألة ؟ وكيف نلقى الضوء على هذه الاختيارات القصوى فى حياتنا ، اللهم إلا إذا كان ذلك بنور تجاربنا الشاملة ، وبتلك الحكمة التى ليست المعرفة إلا مادتها الخام ، فتجد جميع العلوم من خلال نظرة الحكمة الكلية المكان والنظام والمعنى المرشد ؟

والعلم هو الوصف التحليلى للأجزاء ، والفلسفة هى التأويل التركيبى للكل ،

أو هى تأويل جزء من الأجزاء من حيث مكانه من الكل ، وقيمته بالنسبة إليه . العلم مجلس يقرر الطرق والوسائل ، والفلسفة مجلس يصدر القرارات والمناهج ، فالوقائع والآلات لا قيمة ولا معنى لها إلا فى علاقتها بالرغبة . فإذا كان لا بد للرغبات ذاتها أن تكون متماسكة ، وأن تصبح أجزاء منظمة لشخصية مؤتلفة وحياة موحدة ، فهذا أيضاً من مهام الفلسفة ، ومن أعلى أهدافها .

والفلسفة بالضرورة أكثر اعتماداً على الفرض من العلم . حقاً العلم نفسه يجب أن يستخدم الفرض ، ولكن بشرط أن يكون مجرد بداية فقط . ويجب على العلم ليكون علماً بمعنى الكلمة ، أن يصدر فى ثوب من المعرفة التى يمكن تحقيقها مستقلة موضوعياً عن المنفعة الفردية أو الهوى الشخصى . أما الفلسفة ، على العكس من ذلك ، فتتخذ من العلم والوقائع والمعرفة المحققة بدايات لها (فإذا لم تكن قد فعلت فقد حان لها أن تفعل) ؛ ثم تشرع فى افتراض فروض أوسع حول المشكلات القصوى التى لم نصل فيها بعد إلى حقائق مقررة نهائية . والفلسفة تكميل خطر وخيالى للفهم ، فهى تملأ الفجوات الموجودة عندنا عن المعرفة العلمية بالعالم بافتراضات لا يمكن إثباتها تجريبياً . ومن هذا الوجه يعد كل إنسان فيلسوفاً ، ولو بالرغم منه ؛ ذلك أن أكثر الشكاك حذراً ، أو أشد اللاأدريين تواضعاً ، أو أعظم السلوكيين تمسكاً بالواقع ، يتفلسف فى الوقت نفسه الذى يعلن احتجاجه للعالم أجمع أن الفلسفة مستحيلة . فلو فرضنا أن أحد اللاأدريين كان يعيش فى حيدة كاملة بحيث لا يعتقد أو لا ينكر وجود الله ، ولو فرضنا أنه قد يوزع أفكاره وأعماله بغير تحيز بين القبول والإنكار ، فقد يتوقف حكمه على الفلسفة توقفاً لا حراك فيه ولا حس ، أشبه ما يكون بالإغماء الفلسفى وحالة عدم الوعى بالكون . وهذا شىء عسير وبعيد عن الإنسانية ، لأننا فى الواقع نتخذ جانبين : إما أن نحيا فى الإنكار أو نحيا فى القبول ، ونتصرف كما لو أننا قد اخترنا إحدى المتاهتين المفزعتين اللتين تكونان الفلسفة . فنحن نصنع الفروض ، ولو كما فعل نيوتن . ذلك أن سحر المطلق يجذبنا دائماً .

ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ؟ وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة فلا يهدأ لهم بال حتى

يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية أو ما يهدىء به هذه الحرب ؟ ألا يهدم هؤلاء الفلاسفة بعضهم البعض ؟ انظر إلى عمر الخيام يقول فى تجربته :

كنت أغشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء

وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقه

فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر

وكنت أخرج من الباب الذى أدخل منه .

أكبر الظن أن عمر الخيام كان يصور قصة ، ولعله لم يخرج حقاً من الباب نفسه الذى دخل منه ، اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع . ولست تجد أحداً يغشى صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ويوسع نظرته فيما يختص بآلاف من المسائل الحيوية . فماذا بدل إيمان طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك فى الجمال والخمر ؟ أليست الفلسفة هى التى تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة ؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد فى غمار سعة وعمق إجماع العلم الأساسى واتفاق كلمته . إلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟هل يؤيدها علم الفلك الحديث ، أو يسخر من وجهها المغبر ؟ وأين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين ومينكوفسكى وغيرهما الكون رأساً على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم ؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى الفيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟ وأين أقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعاداً جديدة بحسب أهوائهم ، ويبتدعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون فى الفيزيقا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟ وأين علم الأجنة اليوم ليرى البيئة الناشئة تحل محل الوراثة التى كانت إله العلم ؟ وأين جريجور مندل الآن ليشهد انصراف علماء الوراثة

عن وحدة الصفات . . . ؟ وأين دارون الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة التغيرات السريعة محل الاختلافات الذاتية والمتصلة فى التطور ؟ وهل هـذه التغيرات هى الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع فى تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية انتقال الصفات المكتسبة ؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضى نعانق رقبة زرافة لامارك ؟ وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ فونط Wundt وباختبارات ستانلى هول ، حين لا يستطيع أى عالم نفسانى من أتباع السلوكيين أن يكتب صفحة واحدة فى علم النفس الحديث دون أن يلتى بمخلفات أسلافه فى الهواء ؟ وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم فى تاريخ قدماء المصريين كشفاً بالأسرات وتواريخها على هواه ، ولا يختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة آلاف السنين ؟ وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من تيلور ووسترمارك وسبنسر ، وحيث يجهل فريزر كل شىء عن الدين البدائى لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟ فماذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون «قوانين الطبيعة» ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار فى العلم ؟

لعلنا إذا شئنا التماس الاستقرار فى العقل والنفس لوجدنا أنه أقل فى العلم منه فى الفلسفة. ذلك أن اختلاف الفلاسفة يرجع إلى تغير مدلول الاصطلاحات فى عصرهم أكثر مما يرجع إلى العداوة بين أفكارهم . أو قل إن هذا الاختلاف يرجع إلى حد كبير إلى تقلب العلم نفسه ، من جهة تعلقه القوىّ بفرض من الفروض فترة من الزمن ، ثم تشبعه به ، ثم كراهته له ، وتحوله إلى وجه جديد لنظرية حديثة . وبعد ، فأى اتفاق عجيب يوجد فى حكم عظماء المفكرين على المشكلات الحيوية للحياة الإنسانية عندما تنحل أساليب كلامهم المختلفة فى تفكيرهم الأساسى . أما سنتايانا فإنه يعلن فى تواضع أن ليس عنده شىء يضيفه إلى أرسطو ، وكل ما سيقدمه عبارة عن تطبيق لتلك الفلسفة القديمة على عصرنا الحديث ؛ فهل يمكن أن يتحدث أى عالم طبيعى معاصر أو بيولوجى أو رياضى مثل هذا الحديث عن أى عالم يونانى ؟ لقد نقض العلم الحديث اليوم علم أرسطو فى كل ناحية ، ولكن فلسفته ستبقى مشرقة وعميقة فى الوقت الذى يصبح فيه علم اليوم موضعاً للاحتقار والسخرية عندما يلقيه جانباً علم مقبل وثيق لعصر جديد .

٥ — ملكة العلوم

قد نشعر إذن أن الفلسفة لا تزال مَلِكَةُ العلوم Regina Scientiarum، ويجب أن يعترف بها كذلك فى كل مكان إذا لبست ثوب عظمتها القديم، وأخضعت جميع العلوم لخدمتها، واتخذت من سائر أنواع المعرفة آلة لها. فالعالم موضوعها، والكون ميدان اختصاصها. ولكن كما أن المملكة الحكيمة تعيِّن مهرة الحكام فى الأقاليم المختلفة من المملكة، ويعهد هؤلاء الحكام إلى أتباعهم بجمع الوثائق وتصريف الأمور الجزئية، على حين يقصر الحكام وملكتهم أنفسهم على تنظيم التدبير والسياسة، كذلك الفلسفة تقسم مملكتها إلى ميادين متعددة، وتوجد فى جنتها قصور كثيرة.

وأول ميدان فى مملكتها، ودهليز فى دارها، هو ذلك الذى يسمى باسم يخلو من السحر وهو « المنطق »، وكأن الفلسفة قد أخفت جمالها بمحض إرادتها عن أعين الغرباء، وأوجبت على طلابها أن يمروا خلال هذه المحنة أولا حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة فى مباهجها العزيزة. ذلك أن مباهج الفلسفة تشبه مراقى الحب التى لا تسمو إليها أى نفس وضيعة. وكيف نعلم الحقيقة حين ننظر إليها إذا لم نكن على أقل تقدير قد تعلمنا أن نتصور شبحها، ولم نكن قد تدبرنا شتى الاختبارات والامتحانات التى تؤمن أنفسنا من « حضورها الحقيقى »؟ كيف يمكن أن نجيب عن سؤال بيلاطس الخادع؟ أنتبع عقلنا العاجز المغامر، أم إلهامنا العميق الغامض، أم الحكم الغشيم لأعيننا وآذاننا وأيدينا التى تتحسس؟ كيف نصفى حواسنا وأفكارنا من جميع الآراء المتحيزة التى تشوهها، ومن سائر « الأصنام » الخادعة، محتفظين بمصابيح العقل مضاءة حتى تجد كل حقيقة طريقها إلينا، فنرحب بها، ونضعها فى موضعها اللائق؟ كيف ندرب أنفسنا، كما يفعل الرياضيون، على طلب الحكمة ومحبتها؟

وثمة ميدان آخر لا يزال بعيداً عن عرش المملكة وقلبها، هو بيت ذلك التنين العظيم المسمى الإبستمولوجيا «نظرية المعرفة» Epistemology. وإذا كانت أقدامنا قد تعثرت فى مفاوز المنطق، فأعيننا فى هذا الميدان لن تبصر فى الظلام.

سوف نترنح فى أكثر من طريق ، وقد نهيم على مقربة شديدة من فم التنين ، فتسحرنا لغته العظيمة ، ثم نبتلع فجأة فى كهفه الفارغ ، ونصبح بعد ذلك من أصحاب المعارف إلى الأبد . ولكن لا بد أن نواجه هذا الامتحان أيضاً ، وأن نجيب بطريقة مقبولة عن لغز المعرفة ، ومشكلة حقيقة العالم الذى ندركه ومبلغ صدقه . ولعلنا بعد ذلك نخطو إلى الأمام ونقف فى تواضع فى بلاط الملكة العظيمة .

وهناك ميدان ملكى أيضاً هو « الميتافيزيقا » ، وهو مظلم كذلك ولا يستضىء إلا بالنور الذى نجلبه له ، ولكنه زاخر بكنوز تتغذى بها النفس . وهنا نجد أن الطبيعة تخفى ماهيتها الباطنة وتحيرنا بما تقدمه من مئات الحلول . وهنا نجد أن الفلسفة تكشف لنا عن جانب من تلك « الأنغام السامية » التى كانت تغنيها لفيثاغورس ، ذلك أن الطبيعة تصبح بوساطتها واعية ، وتنتقد أهدافها الخاصة ، وتصبح شيئاً له معنى . وهنا قد نستطيع أن نتعمق مشكلات الحياة ، والمخ والعقل ، والمادية والروحية ، والميكانيكية والحيوية ، والجبر والحرية . وما الإنسان؟ أهو شىء مركب من أسلاك وزنبركات وعجلات متشابكة تتحرك من خارج بقوى عمياء من الأرض والسماء ؟ أم هو إله خالق بطريقته الصغيرة المضحكة ؟

وميدان آخر هو « التاريخ » حيث يقدم لنا مئات الألوف من الدهماء وبعض العباقرة من بلاد بعيدة وأزمنة سحيقة حكمتهم ليتسنى لنا أن نتأملها موحدة ، ونتعلم دروسها . أهناك أى معنى فى الماضى ؟ أهناك أى قوانين لنشأة الدول وانهيارها تبين ، وقد تحدد ، قيام الأمم والأجناس والحضارات وسقوطها ؟ وهنا نعرض لمنتسكيو وباكل Buckle يتحدثان عن أثر الجغرافيا فى مصائر الشعوب . وهنا نجد كوندورسيه Condorcet وهو على فراش الموت يعزى نفسه بفكرة التقدم وقابلية الإنسان اللامحدودة للكمال . ونجد هيجل Hegel يعرض لنا ألعابه الجدلية ، وكارليل أبطاله ؛ ونجد المتطرفين من الغلاة يغنون أنشودة قوة جنسهم ويلعنون ظهور المتبربرين . ونجد ماركس يخيفنا بجبال من الأرقام والحجج التى يسوقها للدلالة على نظرية الجبر الاقتصادى للتاريخ . ولعلنا نصادف فى طريقنا باحثاً أو أكثر يفسر لهؤلاء المفتونين أن حقائقهم ليست إلا وجوهاً من الواقع ،

وأن التاريخ والطبيعة أكثر اختلافاً مما توهموا فى فلسفاتهم . وسوف نجد فى ركن بعيد نيتشه المتشائم يغنى أنشودته عن « الدورة الأزلية » ، ونجد شبنجلر يثبت بحماسة انهيار العالم الغربى .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ميدان آخر سنسمع بحثاً عن « السياسة » . سنفزع بعض الوقت خشية اكتشاف أمريكا . ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الفزع ، لأن رجالها يناقشون الديمقراطية بغير توقير ، والفوضى بغير خوف . إنهم يحبون الاشتراكية مع علمهم بنقائصها ، ويمجدون الأرستقراطية مع احتقارهم ظلمها المواهب غير ذات الحسب . وفى بعض الأحيان يتحدثون فى حماسة الشباب عن بلاد جميلة تسمى طوبيا utopia (مدينة فاضلة) لا يحكمها إلا الحكماء ، وتزخر كل مدينة بالغنى والجمال .

بهذه الكلمة الأخيرة التى لا تزال تطربنا نغمتها ننفذ إلى قلب الميدان ، ونشخص إلى الفلسفة ذاتها وهى تكشف للمغرمين بها عن الجمال والخلود والخير . ذلك أن للفلسفة غيرة مكتومة من « الفن » ، وتنفس عليها شغفها الخالق للجمال . وهنا ، لا فى العلم ، نجد منافسها العظيم الذى يسعى لغزو قلوب أنبل الناس وولائهم له . وقد تخضع الحكمة فى رقة وهى تسلم بأن عبادة الجمال أولى من البحث عن الحقيقة ، ذلك أن الحقيقة الأزلية تهرب متعاظمة حتى لا تكاد تسمح لنا بأن نلمس أطراف جلبابها ، على حين يرحب الجمال الذى يعلم أنه مقضى عليه بالفناء بإعجابنا ويكافئنا عليه . ولذلك تدرس الفلسفة الجمال فى تواضع ، أما الفن فيجله ويخلقه خلقاً ثانياً . الفن يلتمس الجمال فى حرارة مودة الحب ، وفى عظمة بناء المعابد ، وجلال أشكال التماثيل ، وحرارة الألوان ، وموسيقية الألفاظ ، وتتابع الأصوات العذاب . أما الفلسفة فلا تعرف مع الأسف إلا مشكلات الجمال : ما مصدر الجمال ، وماذا يعنى ، أيوجد فى الصورة نفسها ؟ أم لا يوجد إلا فى قلوبنا العطاش ؟ وهذا هو ميدان « علم الجمال » Aesthetics الذى جعلته عقول المدرسيين قروناً طويلة موحشاً ، ولكنه لا يزال زاخراً بالعجب والبهجة .

وهنا أيضاً فى قلب المملكة ميدان « علم الأخلاق » ، وهو ميدان قاحل

بالتجريدات الأكاديمية ، ولكنه من بعض الجهات أغنى قصور الفلسفة ، لأن فن الحياة أسمى حتى من حياة الفن ، وعلم الأخلاق هو حكمة فن الحياة. وهنا نجد الفلسفة تسمو بمعارفها المتعددة إلى حكمة حية ، وتجمع من قصورها المختلفة الهداية للإنسانية . وبعد فما هى أفضل حياة ؟ وما نفع الخير ، وأى حق يوجد فى القوة ؟ أنجد أسمى الفضائل فى حكمة سقراط ، أو شجاعة نيتشه ، أو سماحة المسيح ؟ أنكون رواقيين مع زينون وسبينوزا ، أو أبيقوريين مع أبيقور ورينان ؟ أتكون اللذة غاية الحياة ؟ هل الحب ينافى الأخلاق إلا إذا وافق القانون؟ وما العدالة ؟ وما رأى العدالة فى عالمنا الصناعى ؟ وهنا نجد أكثر من أى مكان آخر مشكلات حيوية تجعل مصير حضارات بأسرها فى كف القدر . هنا معضلات تمس كل دولة وكل قلب ، وهى مشكلات يبدو بجانبها العلم بتسجيلاته واختصاراته وسائله وصلبه وغازه شيئاً بعيداً وغير إنسانى ، شيئاً أدنى إلى الصلة بالموت منه إلى الاتحاد بالحياة .

غير أن الموت يتعلق أيضاً بالفلسفة ، وعندما يصمت لسان جميع المناقشات ، يتحول الفكر فى خوف لينظر إلى « العدو الأكبر » وتدخل الفلسفة أبواب «الدين». واللاهوت Theology هو البحث فى الكائنات العلوية Supernatunal وصلتها بالإنسان ، ولا تدلى الفلسفة برأى عن هذه الكائنات ، ولكنها تتحدث عن علاقة الإنسان بجملة الحياة ومجموع الأشياء ، وعن أصله على هذه الأرض ومصيره الأخير ، ولو أنها تتحدث حديثاً متواضعاً يتناسب مع الجهل البشرى . إنها تتعلق بمسألة الخلود تلك المسألة التى تتعلق بكل نسيج حيوى . ولعلنا يمكن أن نعرف الفلسفة بأنها مسألة حياة وموت . وأخيراً فإنها تتعلق بالله ؛ ولسنا نعنى إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة ، بل إله الفلاسفة ، وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته . فلو كان ثمة أى عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايره فى الفكر مع الاحترام . فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر ، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضاً حتى تواجهه بغير خوف . هل النجوم ليست إلا تجمعات عابرة لسدم اعتباطاً ؟ وهل الحياة عرض غروى Colloidal مستمد من تلقاء نفسه وفائض فيضاناً ذاتياً ؟ وهل

الإنسان ليس إلا مركباً كيمائياً مصيره إلى الانحلال ثم الفناء تماماً ؟ وهل نشوة الفن ، وحكمة الحكيم الهادئة ، وتشهد القديسين بإرادتهم ، كل ذلك ليس إلا لمحات بارقة فى البراعم البروتوبلازمية للأرض ؟ وما الموت إلا الجواب عن كل مشكلة ومصير كل نفس . . . إذن فعلى الفلسفة أن تواجه هذا أيضاً ، وأن تسعى إلى إيجاد بصيص من الدلالة والسمو فى عين الإنسان داخل هذه الدائرة الضيقة .

هل لنا أن نشرع فى البداية ؟

الجزء الثاني

المنطق والإبستمولوجيا

الفصل الثاني

ما الحقيقة ؟ [1]

١ — الإحساس فى مقابل العقل

يقول السيد نيتشه المتشبه بالقديسين مهاجماً ما أمكنه إلى ذلك سبيلا : « لا تظهر فى العهد الجديد بأسره إلا شخصية وحيدة جديرة بالتبجيل ، هى شخصية بيلاطس نائب الإمبراطور الرومانى . . . . ذلك أن الاحتقار النبيل لأحد الرومانيين ممن كانت تبتذل أمامه لفظة « الحقيقة » فى غير خجل ، قد زود العهد الجديد بما فيه من عبارة وحيدة لها أى قيمة . . . ما الحقيقة ؟»[2] وقد عدها أناتول فرانس أعمق سؤال أثير على الإطلاق [3] ؛ إذ أى سؤال آخر لا يتوقف عليه ؟

والمنطق صحفة صغيرة (طبق) من المشهيات فى مأدبة الفلسفة . وهو يغلق ألف شهية فى مقابل شهية واحد يفتحها . إننا نحذر المنطق لأننا تعلمنا أن معظم الاستدلال عبارة عن رغبة مغشّاة بغلالة رقيقة من التعقل Rationality . فنحن نزعم أننا نقيم صروحاً من التفكير المحايد ، على حين أننا فى الواقع لا نختار من الحقائق والأحكام إلا ما يعزز رغبة شخصية أو وطنية . إننا نحذر المنطق لأن العصر الوسيط علمنا أن الحياة أوسع وأشد ثقة وأكثر عمقاً من قياساتنا ؛ والمنطق ساكن Static قائم على أساس من « الحقائق الثابتة » ، فى حين أن الحياة متدفقة ومتغيرة ، وتفاجىء جميع القوانين Formulas بما لا تتوقعه . « وإن عدد

(١) أنظر هامش الفهرست .

(٢) ضد المسيح Antichrist القسم ٤٦ ؛ يشير إلى القديس يوحنا ، XVIII ٣٨

(٣) الحياة والرسائل ، السلسلة الأولى ص ٨ .

الأشياء التى رفض العقل أول الأمر الاعتراف بها ثم قبلها فى النهاية كبير جداً»(١)
ولعلنا فى الشباب قد حفظنا جميع قواعد التفكير السليم ، فإذا بنا نجد أن درك المعرفة ، والتعرف على الحقيقة ، وحكمة الحياة ، كل ذلك يقع بعيداً البعد كله عن هذه الدائرة المنظمة نظاماً أنيقاً . فما أسعدنا حين نلتقى إلى الأبد بهذا المنطق الذى يجعل حتى الفلسفة جافة وبغير روح ، بدلا من الاحتفاظ بها سداً يقف فى وجه مشكلات لعلها ليست أساسية إلا بمقدار بسيط ، ولكنها أدخل فى حياتنا وأكثر حيوية لها . ومع ذلك فلا ينبغى لنا أن نطرح المنطق ، لأننا لا نستطيع أن نمضى فى بحثنا عن الحقيقة بغير أن نحدد من قبل ماذا نبحث عنه ، وما الطريق الذى نعتزم أن نسلكه له ، وكيف نعرف أننا بلغنا ما نريد بلوغه . ولن يكون أى نظام آخر منطقياً .

ونحن نجد فى أطراف الدائرة مشكلة المنطق الرئيسية وقد وضع أيديهم عليها بوضوح ، وأجاب عنها بوضوح ، أولئك المعلمون الأحرار الذين لم يقدروا فى العالم القديم حق قدرهم ، ونعنى بهم السفسطائيين . فقد قالوا : (ويقال إن لوك بعد ألفى عام من زمانهم قد كشف ذلك) إن المعرفة تأتى من الحواس فقط ؛ وبناء على ذلك فإن معيار Test الحقيقة هو الإحساس ؛ وفى هذا جواب سؤال بيلاطس . فالحقيقة هى ما تذوقه وتلمسه وتشمه وتسمعه وتراه . أى شىء يمكن أن يكون أبسط من ذلك ؟ ولكن أفلاطون لم يقتنع وقال : إذا كانت هذه هى الحقيقة فليس ثمة حقيقة ، لأننا جميعاً نذوق ونشم ونسمع ونلمس ونرى الأشياء بشكل مختلف ؛ وبناء على ذلك يكون القرد مقياس الحقيقة كالحكيم سواء بسواء — ومن يفصل بينهما ؟ لقد كان أفلاطون على يقين من أن العقل هو مستقر الحقيقة ، فمعانى العقل بالنسبة إلى شهادة الحواس كالساسة بالنسبة إلى الشعب من حيث تجميعهم مراكز للنظام وسط جمهور فوضوى .

ووافقه أرسطو فى ذلك وجعل المنطق لأول مرة دراسة منفصلة ، وذلك بالسعى إلى وضع قوانين العقل ؛ فلا يجب أن نحكم على أمر بأنه صادق إلا إذا

(١) ليبون : تطور المادة ، ص ٧٢ .

أمكن أن نجعله نتيجة لقياس مضبوط ، مثال ذلك : الإنسان حيوان عاقل (ولا تزال هذه القضية الساذجة مستعملة فى كتب المناطقة) ، وسقراط إنسان ، إذن سقراط حيوان عاقل . ولقد أنكر فيرون (١) أن يكون الأمر كذلك ، فكل قياس مصادرة على المطلوب . لأن المقدمة الكبرى لا يمكن أن تكون صادقة إلا إذا كانت النتيجة صادقة مقدماً ، وليس من حقك أن تزعم ذلك . وإذا لم تفترض أن سقراط عاقل فلا يجب أن تبدأ بهذه القضية وهى أن الإنسان (الذى يشمل سقراط) حيوان عاقل . لعله ليس إلا حيواناً يستعمل العقل . وبناء على ذلك فالعقل دائماً غير يقينى . وهنا قال أبيقور : حسناً ، فلنرجع إلى السفسطائيين ، ولنثق فى حواسنا . ولكن الشكاك Sceptics تساءلوا مرة أخرى وقالوا : كيف يمكن ذلك ؟ فالشمس فى نظرنا صغيرة كالبطيخة (القرعة) ، وقد تكون النجوم كالطفح المتناثر على صفحة السماء ، فهل نصدق حواسنا ؟ وانتهى فيرون إلى القول بأنه لا شىء يقينى ، وعندما توفى لم يحزن تلاميذه عليه بالرغم من محبتهم له ، لأنهم لم يكونوا واثقين من موته .

وظلت لعبة الحواس فى مقابل العقل تشغل أيام الفلاسفة ، إلى أن توارى اليونان والرومان من المسرح ، تاركين أوربا للمسيحية والكنيسة . وعندئذ نسى الناس السفسطائيين وأبيقور ، لأن العقائد الإلهية كانت تقسرهم على الإيمان ، فكانوا يعتقدون عن طريق التقديس فيما تنكره الحواس . ومع أن المدرسيين عرفوا الحقيقة بأنها مطابقة الفكر للأشياء ، إلا أنهم اتبعوا أفلاطون وأرسطو فى تمجيدهما للعقل . وعندهم أن التفكير القياسى Deductive هو أفضل تفكير لأنه يستخلص من عقائد محدودة وثابتة نظاماً متماسكاً للعالم . والمعانى حقائق أعظم من الأصوات والمرئيات ، لأن هذه الأشياء المجسدة ظهرت إلى الوجود ثم اختفت ، أما « الكليات » Universals أو الأنواع فإنها لا تموت ، وتوجد قبل الأشياء الفانية ومعها وبعدها ، وتتشخص بها . فالإنسان أكثر حقيقة من هذا الإنسان أو ذاك ، والجمال أكثر حقيقة من هذه الوردة أو تلك . بل إن ديكارت ظل عبداً لما حرر

---

(١) Pyrrho – ٣٦٠ – ٢٧٠ ق.م. – (أو عاش من ٣٦٥ – ٢٧٥ ق . م. – فيلسوف يونانى من الشكاك كان يعتقد فى عدم إمكان معرفة الحقيقة) (المترجم)

الناس منه ، فطلب من كل فيلسوف أن يطرح شهادة الحواس ، ولا يقبل شيئاً على أنه يقينيٌّ إلا الفكر الواضح .

وبدأ التجديد بإعادة الإحساس إلى عرشه ، مع جاليليو فى العلم ، وبيكون فى الفلسفة . فقد ضاعف الفلكى الحواس بالآلات ، وأدّب الفيلسوف العقل بالملاحظة ، وساق أشد الاستدلالات قداسة إلى محكمة الاستقراء . ولو وجب أن يقرأ أحدنا المنطق فليبدأ قبل كل شىء بكتاب بيكون « الأورجانون[1] الجديد Novum Organum » حيث يجد فيه المنطق مشرقاً كأنه مبارزة ، ويصبح التفكير مغامرة وفتحاً ، ويقرأ الفلسفة قصة بوليسية ، الحقيقة فيها هى اللص المطارد . وما أكثر ما نجد فيه من أمثلة وحكم ! انظر إلى استهلال الكتاب حيث يقول : « إن الإنسان باعتباره المهيمن على الطبيعة والمفسر لها يسيطر على نظام الطبيعة ويفهمه بمقدار ما تسمح له ملاحظاته ، وهو لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف أكثر من ذلك » أرأيت قط نذير حرب على كل تصوف ، وكل مذهب مظلم Obscurantism ، وكل حذلقة ، أكمل من هذا النذير ؟ لقد كان هذا هو : « الناقوس الذى اجتمعت على رنينه العقول » ونَبـَّه الأذهان إلى خطر عصر النهضة .

ثم نشب جدال عنيف بين إنجلترا والقارة الأوربية ، ذلك أن ليبنتز وكانط وهيجل غشوا الحواس بالشكوك ، وأيدوا مزاعم العقل باعتباره الحاكم فى كل شهادة للحس . وازدرى هوبس ولوك ومل كل عقل اجترأ أن يطلب الحقائق دون أن تكون فى متناول البصر واللمس والذوق والشم والسمع . ولكن كانط قال : لا ريب أن الرياضيات مستقلة عن الإحساس ، وأنها صادقة أولياً apriori ، أى قبل التجربة ، فإن مربع ٥ هو ٢٥ بقطع النظر عما يمكن أن تقوله الحواس . وأجابه مل بقوله : لا ، إننا لا نعتقد فى أن ٢ × ٢ = ٤ إلا لأننا شعرنا أو رأينا أن ٤ هى نتيجة ٢ × ٢ مرة بعد أخرى فى تجربة الأفراد أو فى تجربة الجنس التى

---

(١) « أورجانون » يعنى آلة ، وكان القدماء يعرفون المنطق بأنه آلة الفكر ، فجاء بيكون يعارضهم بآلة جديدة .

(المترجم) .

انتقلت اجتماعياً . وقال لوك بأن كل معرفة مستمدة من الحس ، بل إن أعظم الاستنتاجات فى الرياضيات العالية تظل مزعزعة غير يقينية حتى تدمغها تجربة الحواس بالتأييد .

ولم ينته أى جدال إلى نهاية أغرب مما انتهى إليه هذا الجدال : فالمذهب الأولى Apriorism الذى يدافع عن وجود الحقائق مستقلة عن التجربة ، مات فى القارة ، وهاجر إلى إنجلترا . والمذهب التجريبى Empiricism الذى يرجع كل معرفة إلى الإحساس باعتباره أصله ومعياره ، مات فى إنجلترا ، وبعث فى أمريكا . لقد كان اتجاه إنجلترا قروناً طويلة عملياً ، وانعكست نتائج منطقها على قواعد حياتها فى الطبقة الوسطى . أما الآن فعلى الرغم من أن هذه الطبقة الوسطى ما زالت توالى تفوقها على رجال القارة ، فإن المفكرين الإنجليز بعد أن أصبحوا فجأة مراوغين وغير مفهومين ، واستوردوا جميع مخلفات كانط وهيجل ، جعلوا الحواس لا تفيد شيئاً ، وأقاموا من التفكير القياسى قوانين جديدة للفكر لا تصلح للمنطق فحسب ، بل للعالم أيضاً . وسمى برادلى Bradley التجربة المطلق Absolute ، ثم حللها بعد ذلك وبددها هباء . ورد بوزانكيه Bosanquet المنطق إلى استدلال نفسانى ، ثم عرف الاستدلال بعظمة توتونية بأنه : «هو الإشارة غير المباشرة لحقيقة الفصول الداخلة فى كلى ، بوساطة عرض هذا الكلى فى الفصول التى ترجع مباشرة إلى الحقيقة » (١) . وانصرف برتراند رسل عن تعريف المنطق بأنه « علم التفكير » ، وذهب إلى أنه « علم أكمل المجردات » . واشترك هو والأستاذ هوايتهد Whitehead فى بناء أساس رياضى من الحقائق القياسية اليقينية ، وفصل هذا البناء فصلا كاملا عن كل تجربة ، ثم أضاف إلى ذلك تعريفه للحقيقة :

«تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا كانت لها صلة معينة بواقعة Fact معينة . وأى صلة بأى واقعة ؟ إنى أعتقد أن الصلة الأساسية هى ما يأتى : تكون الصيغة اللفظية صادقة إذا انتهى الشخص العارف باللغة إلى هذه الصيغة حين يجد نفسه

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « منطق » .

فى بيئة تحتوى على معالم هى دلالات تلك الألفاظ ، وتحدث هذه المعالم فى نفسه آثاراً من القوة بحيث يستعمل الألفاظ التى تدل عليها » (١).

يا للأسف ! هل يتعلم البريطانيون إنجليزيتهم بالألمانية ؟ وهل نحن فى عصر آخر من الفلسفة المدرسية . . . . التى تطلب المعانى بغير صلتها فى التجربة أو نفعها فى الحياة ؟ كم من فكر معاصر يقوم على وضع ما يعرفه كل إنسان فى معرفة لا يمكن أن يعرفها أى إنسان ؟

وقد بدا لوليم جيمس ، وهو يستند إلى أرض أمريكا الفياضة بالعمل والتى لا تصبر على التجريدات ، أن الغموض ليس ضرورياً للفلسفة ، وأن معنى الحقيقة هو من البساطة بحيث يصاغ فى عبارات يفهمها حتى رجل الأعمال. فالحقيقة Truth هى ما كان فعالا Efficacy . وبدلا من الحكم على المعنى بالرجوع إلى أصوله ، أو بالاستدلال من مبادىء أولى ثابتة ، أخضع جيمس المعنى لاختبار العمل ، وتساءل عن آثاره العملية حين يطبق ، وأعاد وجه الفكرة مرة أخرى للأشياء . أما عند جون ديوى فقد بدا له أن الفكر أداة Instrument كالمعدة والرجلين ، ومعيار الفكر هو بناءً على ذلك قيام الفكر بأداء وظيفته أداء صحيحاً ، أى فهم الحياة والتحكم فيها . وهنا نجد أن التقاليد الإنجليزية الاستقرائية التجريبية قد عادت إلى الشباب . وأصبح البرجماتزم : « اسماً جديداً لطريقة غريبة فى التفكير » . والبرجماتزم هو الصياغة الوحيدة لوجهة نظر بيكون من أن « القاعدة الأشد فعلا فى العمل هى كذلك الأصدق فى النظر » ، ولفلسفة بنتام الصناعية من أن المنفعة هى معيار كل شىء .

وهناك أخطاء كثيرة فى البرجماتزم ، لأن مبدعها العبقرى سمح لبسطاء العقول أن يفترضوا أن جميع معتقداتهم العزيزة عليهم صادقة إذا كان لها أى أثر فى معاونتهم ، والعمل على راحتهم ضد عدالة العالم القاسية. ولكن ما من شك فى أن المنفعة الشخصية والموقتة لا تخلع على العقيدة رداء الحقيقة ، بل المنفعة الدائمة

---

(١) كتاب « الفلسفة » ص ٢٦٢ . ويجب أن نضيف أن هذا الغموض غير معهود فى شخص هو أوضح الفلاسفة المعاصرين وأكثرهم إصابة للموضوع .

والكلية فقط هى التى تجعل الفكرة صادقة . ولما كان ذلك شرطاً لا يمكن تحقيقه تماماً ، فلم تصبح الحقيقة قط أكثر من احتمال . وعندما قال بعض البرجماتيين عن عقيدة إنها صدقت « مرة » لأنها كانت نافعة وقتاً ما ، فقد كانوا يتكلمون بعلم لا معنى له ، لأن تلك العقيدة كانت باطلا نافعاً لا حقاً . ولن نكون أبداً على يقين من أن أعز حقائقنا قد لا تكون كما يقول نيتشه إلا « أنفع صور للخطأ » عرفناه . فالعالم لم يخلق للعقل .

وبذلك نعود وراءً إلى السفسطائيين ، فنجد أن النتيجة التى انتهينا إليها ليست إلا ما انتهوا إليه ، نعنى أن الحواس هى معيار الحقيقة . ولكن المعيار هو الحواس « كلها » ، فقد تخدعنا حاسة واحدة ، كما يخدعنا الضوء بالنسبة للألوان ، أو المسافة بالنسبة للحجم . ولا تستطيع أن تصحح ما تحدثه حاسة من خطأ إلا حاسة أخرى . « والحقيقة هى الإحساس الثابت » غير أنّ الإحساس يجب أن يشمل كل ما نتعلمه من الآلات التى نوسع بها دائرة الحواس ونجعلها دقيقة . فالمطياف (اسبكترسكوب) والمكبر (تلسكوب) ، والمجهر (ميكروسكوب) والأفلام الحساسة ، وأشعة إكس ، هى كلها وسائل لمضاعفة ما تبصره عيوننا . والتليفون ، وسماعة الطبيب ، بل الراديو ، هى امتداد لآذاننا العجيبة . وأخيراً يجب أن يشمل الإحساس الحاسة الباطنة ، فشعورنا الداخلى بحياتنا الخاصة ونفسنا ، هو شعور مباشر وصادق بهذه الحياة وهذه النفس كأى خبر يأتينا من أعضاء الحس التى تتصل اتصالا مختلفاً بالعالم الخارجى . وبعد ، فعلى الرغم من براعتنا فى خداع أنفسنا ، فليس هناك شىء يفضل معرفتنا بأنفسنا ذاتها .

ومن الحق أن الإحساس يخطىء فى إصابة اليقين ، وكذلك الحياة . ولقد كان هيوم على صواب : فالحواس لا تكشف عن أى « سببية Causality » غامضة ، ولكنها تبين فقط التتابع ، ولا يمكن أن نستيقن تماماً من أن « ب » سوف تقع بعد « ا » دائماً ، لأن « ب » كانت تتبع « ا » دائماً . فالإحساس لا يمكن أبداً أن يضمن أى لحظة فى المستقبل . ويجب أن نخاطر برءوسنا اعتماداً على هذا الاحتمال ، وهو أن النظم الملاحظة فى الماضى ستستمر فى المستقبل .

وهذا هو كل ما نحتاج إليه ؛ غير أن المنطقى يطلب أكثر من ذلك . فالعالم فيه من الاختلاف والتغير ما يجعل « حقائقنا » على الدوام ذات جانب واحد وناقصة. وليس ثمة أمور مطلقة ، بل أمور نسبية فقط ، وعلينا أن نتعلم كيف نساير الأمور النسبية .

وهناك غيرنا من الناس فى هذا العالم ، ولن تتفق حواسهم دائماً ، وبالتالى حقائقهم ، مع حواسنا . فعندما تقول السنيورا شينى Cini فى رواية بيرانديللو ، إنها سوف تصدق ما تراه بعينيها وتحسه بأصابعها ، يقول لها لوديزى Laudisi : « يجب عليك أن تظهرى بعض الاحترام لما يراه غيرك من الناس بأعينهم ويحسونه بأصابعهم ، حتى لو كان ذلك هو الضد لما ترين وتشعرين »(١) . نعم ، عندما تختص الحقيقة بأكثر من واحد منا ، فيجب أن تكون إحساساً متماسكاً اجتماعياً ؛ وعندما تختص بأكثر من لحظة من الزمان ، فيجب أن تكون إحساساً متماسكاً على الدوام . فالحقيقة عبارة عن قبة من البللور المتعدد الألوان ، ويرى كل واحد منا من ركنه الصغير تأليفاً مختلفاً من الألوان خلال نظارته اللونية. ولعل الحق ليس إلا الدليل المشترك لأوهامنا ، ولعل اليقين خطأ يتفق عليه جميع الناس . ويجب علينا أن نقنع بذلك .

أين إذن موضع العقل من منطقنا الشعبى المضحك ، ذلك المنطق الذى يؤيد آراء رجل الشارع المتحيزة ؟ وظيفته هنا كما هى فى كل مكان ، التنسيق ... ينسق الإحساسات إلى معان ، والمعانى إلى معرفة ، والمعرفة إلى حكمة ، والغايات إلى شخصية الفرد ، والأفراد إلى جماعة ، والجماعات إلى سلام . إن عمل العقل فى الظفر بالحقيقة ثانوى ولكنه حيوى : إذ يجب أن ينسج فوضى الحواس المختلفة وما بينها من تناقض فى نتائج موحدة ومنسقة ، تكون عرضة للتحقيق والتأييد أو الحذف بواسطة الإحساس المتكرر . ولست تجد ما يقرب من نصف اليقين كالإحساس ، ذلك: « أننا حين نتخطى ما يعرض بواسطة الإدراك الحسى الحاضر ، فلا ريب أننا نستعمل نوعاً من الاستدلال »(٢) ، وكل خطوة استدلالية تبعد عن الإحساس المباشر تخفض من احتمال الحقيقة . ولكن هذا

(١) Right You Are If You Think You Are, p. 161

(٢) برادلى : مبادىء المنطق ص ٢٢٥ .

أيضاً مقامرة يجب على الحياة أن تفعلها ، إذ يجب أن نحاول التوفيق بين الحواس المتنافرة والآراء المتحيزة إذا شئنا أن نبسط فهمنا على العالم وسيطرتنا عليه . وكما أن قردة كوهلر Köhler كانت تبلغ أفضل تفكير لها وهى فى تمام الموقف الملائم ، فكذلك الحقيقة التى نستدل عليها بالعقل بالنسبة إلينا ، مثل الفلسفة والحكمة ، والأخلاق والجمال ، هى منظر كلى ، هى الوحدة المتسقة للجزء مع الكل . إننا نقف على أقدامنا ثابتين على الأرض بواسطة الإحساس . أما بواسطة العقل فإننا نرفع عين العقل إلى ما وراء دائرة الحس الحاضرة ، فنبصر حقائق جديدة قد تحققها الحواس يوماً ما . فالإحساس معيار الحقيقة ، ولكن العقل هو المكتشف لها .

٢ — سر المعرفة الغامض

ها نحن نقف معرضين للخطر فى كل ناحية . ذلك أن المثالىّ يحتقر صدق Veracity الإحساس وينكره ، ويتساءل الصوفىّ عن صلاحية العقل للاعتماد عليه. فماذا نحن قائلون لهما ؟

« بالعرف والعادة يوجد الحسن والقبيح ، والحلو المر ، أما فى الواقع فليس ثمة إلا الذرات Atoms والخلاء Void » . بهذه العبارة أقام ديمقريطس الفيلسوف المادى أساس نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا) ، وأساس المذهب المثالى . فمن الواضح من ذلك النص الغريب أن الفيلسوف الضاحك(١) كان يذهب إلى « ذاتية الصفات المستمدة من الحواس » ، بألا يكون اللون ، والصوت ، والثقل ، والحرارة ، والشكل ، والطعم ، والرائحة ، والألم ، موجودة فى الأشياء التى نحسها بل فى الكائن الذى يشعر بها . ولقد قال هوبس بعد عشرين قرناً من رصيفه اليونانى : « جميع الصفات التى تسمى حسية موجودة فى الشىء الذى تنبعث منه حركات كثيرة للمادة ، تلك الحركات التى تضغط على حواسنا بشكل مختلف » . فالصوت حركة الهواء ، والضوء حركة الأثير أو تأثير الجسيمات على العين ، والحرارة ليست إلا حركة جسيمات سريعة ، ويعتمد اللون على سرعة أمواج الضوء

---

(١) اشتهر ديمقريطس فى الزمن القديم باسم الفيلسوف الضاحك ، لأنه كان يسخر من الناس وتهافتهم على الشهوات . (المترجم)

وسعة انتشارها والجزء من الحدقة الذى يتأثر بها . « فالحقيقة الموضوعية » فى ذاتها ليست حارة ولا باردة ، ولا متهوسة ولا عادلة ، بل معتمة لا لون لها وصامتة . كيف يمكن أن يوجد ثمة ضوء لولا وجود عيون أو غشاء حساس فى العالم ، وكيف يمكن أن توجد أصوات لولا وجود آذان ؟ إن أجمل قوس قزح هو فى أبصارنا لا فى السماء .

ولندع المثالىّ يتكلم ، ذلك الذى يعتقد أننا لا نعرف شيئاً سوى المعانى ، فيقول : « هذا العالم الذى تفترض أنه موجود وجوداً مستقلاً إلى جانبك ، هو أول كل شىء عالم من الألوان . ولكن الألوان ذاتية . . . إنها موجودة فيك لا فى الشىء الذى تراه . وهناك بعض الناس مصابون بعمى لبعض الألوان ، فلا يبصرون مثلا أى لون أحمر فى الطبيعة . فلو أننا كنا جميعاً مثل هؤلاء ، أكانت الوردة حمراء ؟ ويتغير اللون كلما انتقلتَ من الفجر إلى الظهر إلى السحر إلى الضوء الصناعى ، فأى هذه الألوان «حقيقى Real » ؟ أهو لون النسيج الذى تشتريه حين تراه فى الدكان ، أم لونه فى ضوء الشمس فى الهواء الطلق ؟ وتختلف عيون الحيوانات الدنيئة مثل القشريات Crustacea فى تركيبها عن أعيننا ، ومن المفروض أنها تسجل الأشكال والألوان بطريقة تختلف عنا ، فأى شكل أو لون هو « الحقيقى » ؟ ثم إن عيوننا لا تحس بمساحات كبيرة من الطيف ، على حين ترى بعض الحيوانات الأشكال والأطياف اللونية أكمل منا . فأينا يرى العالم « كما هو » الحيوان أم الإنسان ؟ وهذه المنضدة التى تقول عنها إنها مستديرة ، أحقاً تبدو لك مستديرة حين تنظر إليها بعين بعيدة عن الهوى أم أنها تبدو بيضاوية ؟ وهل جميع الأشكال ، مثل جميع الألوان ، تتوقف على المدرك لها ؟ .

« وانظر إلى الروائح والطعوم ، فإنك تجد طعاماً يستفيد منه شخص ، وهو سم لشخص آخر . وهناك آلاف من الناس يحبون الكافيار ، وملايين يزعمون أنهم لا يحبونه . ويستطيب فقراء الصينيين طعم السمك الفاسد ، وأغنياء الأوربيين طعم الجبن العفن . كذلك الحال بالنسبة للحرارة والبرودة : ضع إحدى يديك فى ماء حار ، والأخرى فى ماء بارد ، ثم ضعهما بعد ذلك فى ماء فاتر ، فيبدو هذا الماء بارداً بالنسبة لإحدى يديك ، وحاراً بالنسبة للأخرى ، فأيها يكون «فى الحقيقة »؟

وكذلك الأمر فى اللذة والألم : إذا قطعت الأعصاب التى توصل بين الحلق والمخ ، أو أصابها برد ، لا نحس بطعم ما نأكله ؛ فهل الطعم فى الغذاء أو الحلق ، أو المخ ؟ هل تتألم من سنك ؟ خدِّر العصب الموصل بينها وبين المخ ، ولن تحس بألم السن . أهى السن التى تؤلم ، أم المخ فقط ؟ وكذلك الحال فى الجمال والقبح : أنت تقول هذه المرأة جميلة ، فهل هى بمثل هذا الجمال فى نظر أخيها أو منافستها ، كما هى جميلة فى نظرك ؟ أيكون جمالها فى ذاتها أم فى رغبتك ؟ انزع عن العالم « الموضوعى » سائر هذه الصفات التى تخلعها عليه بوجودك وإدراكك ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ « الذرات والخلاء » ؟ — المادة والمكان والزمان ؟

« ولكن هذه المادة كيف تعرفها ، اللهم إلا بالإحساسات التى اجتمعت فى هيئة معان فى عقلك ؟ وما المكان إلا أن يكون الوراء والأمام ، والجانب ، والتحت ، وفى القمة ، وهنا ، وهناك ، وقريباً ، وبعيداً ، وكبيراً ، وصغيراً ، وما هذه كلها سوى مواقف للعقل المدرك ؟ أتكون الأشياء فى ذاتها إلى الأمام أكثر منها إلى الخلف ، هنا لا هناك ، كبيرة لا صغيرة ، أم أنها ليست كذلك إلا بالنسبة إلى أنفسنا ؟ « ا » تبدو « ا » للعين ، و « ب » للميكروسكوب ، و « حـ » للتلسكوب ، فما « ا » فى الحقيقة ؟ وقال كلب مسيو برجيريه : « يصبح سيدى أكبر حين يقترب ، وأصغر حين يبتعد ؛ أما أنا فالكائن الوحيد الذى يحتفظ بحجمه كما هو أنَّى ذهبت » . وما الحجم الحقيقى للبرتقالة . . . حجمها بالنسبة إلى الذبابة التى تطير حولها ، أو كما تبدو لى حين أمسكها بيدى ، أو كما تبدو للرجل الذى يعبر الطريق ؟ ولن تهرب من المشكلة حين تقيس الشىء بالمسطرة وتسمى هذا القياس حقيقة ، لأن البوصة فى مسطرتك أو مقياسك كالبرتقالة نفسها ، أصغر بالنسبة إليك منها بالنسبة إلى الذبابة ، وأكبر فى نظرك مما قد تبدو لمخلوق ضخم يزورنا من المريخ . حقاً : « الإنسان مقياس الأشياء جميعاً » [1] وهو الذى يخلق معظم العالم الذى يدركه .

« ويعلن أينشتين كنتيجة أساسية لنظريته فى النسبية : « أن البقية الأخيرة

(١) يشير إلى عبارة بروتاجوراس السفسائى المشهور. (المترجم) .

للموضوعية الطبيعية تؤخذ من المكان والزمان» (١) ما الزمان سوى شعورك بالقَبْل والبَعْد عن نقطة تقسم تجربتك نفسها ؟ وهل يكون ثمة قبل وبعد إذا لم يوجد أى عقل ؟ لعل الإحساس بالزمان أحدُّ عند الحشرة التى تسحقها على الحائط منه فى حياتك البطيئة الحركة . وأى زمان « حقيقى » ؟ لقد اشتكى إنسان زحل فى قصة فولتير من أن طول الحياة فوق ذلك الكوكب السريع الدوران لا يبلغ إلا خمسة آلاف سنة ، فماذا يستطيع المرء أن يتعلمه أو يعمله فى هذه المدة القصيرة ؟ إن السنة التى تزخر بالتجارب تبدو أطول من السنة التى لا نجد فيها وقفة لذكرى . ويتضاعف الزمن دائماً فوق كرسى طبيب الأسنان . ويحكى فلاماريون قصة الرجل الذى رأى حوادث الثورة الفرنسية تتتابع مقلوبة على عكس نظامها فى الزمان ، لأنه كان يبتعد من الأرض بسرعة تفوق سرعة الضوء . والمكان يغير الزمان كما يحدث ذلك فى رحلة على سطح المحيط ، أو كما حدث للمسيو باسبارتو Passepartout فى « رحلة حول العالم فى ثمانين يوماً » . والزمان يغير المكان : فالنجم الذى نراه فى أقصى الشمال من السماء ليس هناك ، لأنه تحرك منذ أن أرسل الضوء الذى يصل إلينا الآن . فالزمكان (٢) أمر معقد شديد التعقيد يتركب من الوضع والحكم ، إنه ضرب من الإدراك وليس شيئاً خارجياً . وعقلك عبارة عن سجن ، ولا يمكن أن يعرف أبداً مقدار ما يعرفه من الشىء ، أهو فى الشىء أو فى العقل الذى يعرف . فهذه هى الإحساسات التى يعطيك حكمها « الحقيقة » .

« كلا ، لا يمكن أن يكون الإحساس معيار الحقيقة . فكل ما نعرفه هو أفكارنا ، ولا يمكن أن نختبر هذه الأفكار بوساطة عالم خارجى ساهمت إحساساتنا فى صنعه مساهمة كبيرة . وكيف يمكن أن نكتشف حقيقة الشىء وقد اضطر إلى التخفى فى هذه الإحساسات البصرية والسمعية واللمسية والشمية والذوقية ، وهى وحدها التى نعرفه من خلالها ؟ وهذه « الأشياء » التى تفترض أنها أحكام الفكر هى من بناء الفكر نفسه ؛ إنها المعانى التى نكونها من الإحساسات

---

(١) Cassirer, E. Substance and Function p. 356.

(٢) مركب مزجى من لفظى الزمان والمكان Space-time (المترجم) .

المتعددة التى جاءت إلينا من طرق مختلفة أشد الاختلاف عبر أعصابنا ، وقد تجمعت فى خليط متعسف كالفسيفساء . فنحن نجمع بين المرئيات والأصوات والضغوط والطعوم ، ونسمى التكوين الناتج هذا الشىء أو ذاك ؛ إننا نخلق « الشىء » بإدراكه . والعالم الوحيد الذى لا شك فى وجوده هو عالم العقل ، عالم المعانى . وكل شىء عدا ذلك افتراض » .

أذلك كذلك ؟ قد يكون . فالفلسفة لا تختص بالأمور اليقينية ؛ ولا نستطيع أن نقول فى نظرية المعرفة ، كالحال فى الفن ، إلا أنه لا جدال فى الأذواق . وفى نظر الشخص الذى يتحيز للوضوح يظل هذا الهدم المثالى للعالم الخارجى عملا من أعمال العبث المنطقى لا يقنعه ، وبقية من مخلفات السحر البدائى وأسرار العصر الوسيط . ولا يمكن أن تكون التجربة هى كل شىء ، إذ يجب أن نلتمس أصلها وراءها ؛ وهذا الأصل هو الذى نسميه المادة ، لولا أننا لا نستطيع أن نقول عنها أكثر مما قاله ستيوارت مل . . . إنها « الإمكان الدائم للإحساس» .

ويقوم السر فى لعبة المثالى على الخلط بين المعنى وبين الوجود . فالأشياء التى لا يدركها أى كائن ليس لها معنى ، ولكنها مع ذلك قد يكون لها وجود ساذج . ويقول برادلى : « يجب أن يقع الشىء ، فى دائرة الإحساس حتى يكون حقيقياً ، أو حتى لمجرد أن يكون موجوداً (١) . ولكن ألم توجد النجوم البعيدة قبل أن تنكشف بواسطة تلسكوباتنا ؟ وهل يجب أن نقول إنه لا نجم يوجد الآن مما لم يدخل فى نطاق آلاتنا ؟ لا ريب أن النجوم لم توجد ، ولا توجد كما نراها بالضبط . فهذه النقطة من الضوء التى نسميها الشعرى اليمانية قد تكون كتلة من المادة المعتمة ينبعث عنها جسيمات فيها من السرعة الحرارية البيضاء ما يجعلها تصبح مضيئة فى الطريق . ولكن أصل الجسيمات يوجد « هناك » وليس التلسكوب خالقاً لها . وقد تنبأ أحد الرياضيين بعد الحساب الدقيق بأن المراصد إذا وجهت تلسكوباتها فى ساعة معينة نحو بقعة معينة فى السماء ، فقد يكتشف الفلكيون كوكباً لم يعرف من قبل . ونظرت التلسكوبات ، واستولت على فريستها ؛ فهل خلق العلماء نبتيون ؟ (٢) .

---

(١) برادلى : الظاهر والحقيقة ، ص ١٤٤ .

(٢) أنظر دائرة المعارف البريطانية ، المجلد العاشر ، ص ٣٨٦ .

ويجب أن نسلم بأن وجود النجوم قبل رؤيتها ليس إلا استدلالا ، ولا استدلال مؤكد . ولكن الاستدلال الذى تحقق بالإحساس المباشر ليلة بعدأخرى آلافاً من السنين ، فهو استدلال معقول جداً ، وكاف للحياة الإنسانية ، ولكل فلسفة ترجو أن تؤثر فى الحياة لا أن تلعب وحيدة على الدوام . عندما نبرح حجرة الدرس ، ولا يبقى فيها كائن حى (فيما نفترض) يدركها ، هل تقف الحجرة عن الوجود ؟ الأرجح أنها لا تقف ، لأنها مع الحظ الغريب توجد هناك دائماً عندما نعود . ومما يبعث على الراحة أن نجد السيدة ماى سنكلير ، التى تسلى نفسها إلى جانب كتابة القصص بالتأليف فى الدفاع عن المثالية ، تسلم بأنها لا تلد حجرتها حين تدخلها (١). إن علم اللاهوت يحسن خداع النساء ، ولكن الرجال ينخدعون كذلك بنظرية المعرفة .

ماذا تعنى ألفاظ « الموضوعى Objective » و « الذاتى Subjective » ؟ لعل اللعبة تقوم على عدم تحديدهما ؟ سنسلم بما يقوله المثالى ، ونفصل عالم المعانى الذى يسميه وحده عالماً حقيقياً ، عن تلك الحقائق الأخرى التى توجد بالنسبة إلينا ، ولا توجد بالنسبة إليه . سيتألف العالم الذاتى من المعانى وحدها ، وكل شىء آخر سيكون « موضوعياً » . ولكن هنا تقع مشكلة ، لأن هذا العالم الموضوعى يشتمل على بدن الشخص المدرك ، بكل ما فى هذا البدن من أجهزة كالعينين والأنف واللسان والأذنين وأطراف الأصابع ، وحواسه ولا شك جزء من العالم الخارجى مثل رجليه ، ورجلاه ولا شك جزء من العالم مثل الأرض التى يقف عليها هذا الوقوف الفرضى . فإذا تبين ذلك ، فقد وضح أن الصفات المستمدة من الحس محدودة فى الأغلب بشروط موضوعية . فهلم بنا نر ذلك .

ماذا يحدد اللون ؟ أمور ثلاثة : الأول التكوين الفيزيقى والكيميائى للسبب الخارجى فى إحساسنا . (إننا نفترض وجود هذا السبب الخارجى للأسباب المذكورة آنفاً ، وسوف نسميه بعد ذلك « الشىء ») . والثانى مقدار الضوء وطبيعته وسقوطه ، ويدخل فى ذلك التركيب الكيميائى لأصله ، وسرعة موجاته وقوتها . والثالث العينان ، وأعصاب البصر ، ومراكز الإبصار فى المخ عند

(١) المثالية الجديدة ، ص ٥ . (ماى سنكلير May Sinclair ١٨٧٠ – ١٩٤٧ قصصية إنجليزيه مشهورة – المترجم)

الشخص الذى يدرك . ولا شرط من هذه الشروط « ذاتى » . ومن الواضح أن المرء يستطيع أن يرى حدقته وأعصابه البصرية نفسها بل مراكز الإبصار فى مخه ، بوساطة آلات لا تزيد فى دقتها عن تلك الموجودة عندنا . وهذه كلها جزء من « العالم الخارجى » ، وليست جزءاً من الشعور أو المعنى المدرك .

وتكوِّن هذه الشروط المحددة للضوء ما يمكن أن نسميه « الموقف الموضوعى » والذى يتركب من السبب والوسط والحاسة . ويختلف اللون وقد يتغير بسبب أى واحد منها . فيمكننا أن نجعل الحلوى حمراء بتركيبات كيمائية ، ويمكن أن نحيل البَزَّ (القماش) الأزرق أسود بالضوء الصناعى ، ويمكن أن نجعل الحدقة تنقل الإحساس بنجوم أرجوانية دقيقة بالضغط على العين . فاللون صفة تختلف باختلاف الموقف الموضوعى . وليس اللون صفة لا تتغير للشىء ، ولا هو من خلق العقل المدرك . ويعتقد المثالى بحق فى عدم وجود أى شجرة خضراء إذا لم تكن ثمة عين تراها . إنه يفترض افتراضاً خاطئاً أن إدراكه هو الذى يصنع اخضرار الشجرة . إذا كان الأمر كذلك فقد يجعل إدراكه جميع الأشياء خضراء . . . الشجر والسحب والورد والشعر الذهبى . والحل موجود دائماً : عندما تكون المتضادات موضع نزاع ، فالحقيقة فى الوحدة بينها .

وهذا صحيح بالنسبة للون . ومن الواضح أن الأمر لن يكون كثير الاختلاف بالنسبة للشكل ؛ وكذلك بالنسبة للصوت : فهو يتحدد بموقف موضوعى يتركب من سبب خارجى (كأن يصطدم جسمان فجأة) ، وأمواج الهواء المتوسطة ، وعصب السمع . والأمر كذلك فى الماء الفاتر الذى يكون بارداً وحاراً . فالحرارة التى نحس بها مزيج من أعصاب الحس والشروط الفيزيقية . ولما كانت إحدى اليدين فرضاً أدفأ من الأخرى ، فإن الإحساسات الحاصلة تختلف بالنسبة لكل يد . ولكن الشروط ، وهى الماء واليدان ، موضوعية جميعاً ، ولم يضع العقل المدرك أى شرط منها . ما اللون الحقيقى ، والشكل الحقيقى ، ودرجة الحرارة الحقيقية ، والصوت الحقيقى؟ لا يستطيع أحد أن يقول قولا جازماً (دجماطيقياً) فحواس كل شخص تتدخل فى الموقف ، والحواس مختلفة . ويكفى لتحقيق أغراض الحياة أن نعتبر تلك الظواهر التى يدركها أفراد مختلفون إدراكاً متماثلا

كأنها « حقيقية » . وقد نعتقد أن تلك العناصر التى يتفق فى ملاحظتها أفراد مختلفون هى عناصر موضوعية ، مستقلة عن ذواتهم المنفصلة . فالحقيقة هى الإحساس الدائم اجتماعياً .

ولقد أرجأنا القول فى مشكلات المكان والزمان لأن الخلط بشأنها بلغ حد اليأس منها حتى سلم علماء مثل شتينمتز Steinmetz وأنيشتين لكانط . فالمكان باعتباره الإحساس بالمسافة أو مقياسها هو فى شطر منه ذاتى ، ما دام الوضع والمسافة نسبيين لأنفسنا . غير أن المكان باعتباره مجموع كل خطوط الحركة الممكنة هو مع الأسف مستقل عن الإنسان . وقد نتصور أن المثالية فى هذا الموضع قد رُفِضت بما فيه الكفاية بما بينه وليم جيمس ، متفقاً مع العقل السليم Common sense من أن العلاقات تدرك إدراكاً مباشراً كأى شىء آخر . وإذا لم يكن هذا القول كافياً ، فإن تجارب كوهلر على القردة قد وضعت لهذا الأمر حدًّا إلى الأبد . فنحن ندرك التجاور ، واللامساواة ، والحركة ، والسكون . وحين نرى حشرة تتحرك على أرض ثابتة فإننا ندرك مباشرة الزمان والمكان معاً .

ذلك أن الزمان ابن الحركة ؛ وإذا لم توجد أى حركة فلا يوجد أى تغير ؛ وإذا لم يوجد أى تغير فلا يوجد أى زمان. والزمان باعتبار أنه إحساس بالقَبْل والبَعْد ، وشعور بالسيلان ، ذاتى ، والعقول وحدها هى التى يمكن أن تقدمه للعالم . والزمان باعتبار أنه تغير موضوعىٌّ ، ولا ريب أنه ماض فى سبيله حتى لو مات كل عقل . فالشجرة تبرعم وتزهر ، وتزدهر وتورق ، على توالى الربيع والخريف حتى تموت ، على الرغم من عدم وجود أى عقل يدركها. والمد والجزر دائبان على مدهما وجزرهما ، ولا تزال القارات تذوب فى البحار ، ولو أن أى عقل لا يشعر بها أو يقيسها . ولقد كان المحيط يموج قبل أن يأمره بيرون ، وبعد أن عاش ليكتب آخر بيت فى قصيدته . فالعالم ، وحتى الزمان والمكان ، واقع غشوم Brute ، يحسن بالحكيم أن يقبله ، ولا يقل صحة عما يعتقده الفيلسوف . ووجود العالم هو شرطنا ، وحدودنا ، وأصلنا . وما يعطيه العقل للعالم هو الدلالة وليس الوجود . وليس لعالم الأشياء من معنى إلا ما نصبه فيه . ولعل ذلك هو السبب فى أنه غير مفهوم إلى هذا الحد .

إنا لنرجو أن ينتهى التجديد الإبستمولوجى (المعرفىّ) فى حركة الفلسفة، وأن نسمع من جديد قريباً القضايا الواضحة عن مشكلات الحياة والموت . ومع أن المثالية كانت ذات فائدة فى تتبع ما تجلبه الحواس للعالم الذى يدركه الإنسان، فقد كان فيها شىء من البلاهة . ولو أن حياة المثاليين كانت مطابقة لنظريتهم ، واو أنهم سلكوا سلوك من يعتقد حقاً فى أن العالم الخارجى غير حقيقى، فقد يمكن أن نمجدهم كما نمجد القديسين الذين يمارسون ممارسة رواقية أوهامهم النبيلة . ولكن الغريب أن هؤلاء المنكرين للعالم عاشوا وتمتعوا كأى واقعى Realist ، وهفت نفوسهم إلى الذهب غير الموجود . بل إن فشته ، كما اقترحت مدام دى ستال ، لابد أنه شك فى لحظاته المتواضعة أيكون قد خلق زوجته بإدراكه لها.

لقد جاءت هذه القصة الخرافية الكبيرة ، قصة العقل الذى خلق العالم ، من ألمانيا ، بلاد القصص الخرافية ، ونشأت هذه الأسطورة من الحركة الرومانتيكية كرد فعل للشعور والخيال ضد الواقعية والمادية والشكّية، وهى المذاهب التى سادت فى عصر فولتير . لقد كانت احتجاجاً ضد احتقار كوبرنيق للبشرية. ثم بدأت تضعف يوماً بعد يوم فى وجه الداروينية ، ولعلها تبطل فى القريب . فنحن نسمع قليلا نسبياً عن المثالية فى فلسفة فرنسا ، فالناس هناك ميالون للإفصاح عن رغباتهم بغير نفاق ، وهم لا يظنون أنهم لكى يصبحوا خالدين يجب أن يحطموا العالم . ذلك أن العالم كان موجوداً هنا قبل مجيئنا ، وسيظل باقياً بعد ذهابنا إلى العالم الآخر . إن العالم ليضحك حين يسمع أن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً ، لأنه يعرف أن الإنسان ليس إلا بيتاً فى قصيدة أوديسيا الطبيعية . والفلسفة محاولة لرؤية الجزء فى ضوء الكل . فلنكن متواضعين .

٣ — العقل فى مقابل الغريزة

لقد عالجنا هجوم المثاليين على الحواس من علٍ . والآن يجب علينا قبل أن يقودنا المنطق إلى أنياب الحياة أن نواجه هذا الهجوم الغامض الموجه ضد العقل من أسفل . لقد لاحظ هيوم أنه حين يقف العقل ضد الإنسان ، يسارع الإنسان بالوقوف ضد العقل . وإذا لم يستطع المفكر أن يعقل الرغبة فى ثوب من

المنطق ، فإن الرغبة قد تنكر فى نهاية الأمر كل سلطان للفكر . ولقد كان من المتوقع فى حياة تقوم على آمال تجاوز العقل تجاوزاً كبيراً أن يخترع الناس منطقاً لا يقوم على العقل بل يسوّغ أحلامهم .

وكما أن ديمقريطس المادى أرسى قواعد المثالية ، كذلك أعان زينون الشاك Sceptic [1] الإيلى على ظهور قضية للتصوف . ذلك أن زينون الذى ظهر قبل سقراط بقرن من الزمان سخر من العقل بمتناقضاته التى ردته إلى الخُلْف . فهذا أخيل يسابق السلحفاة ، ولكن السلحفاة قد سبقته ، وإذن فلن يلحقها أخيل أبداً . ذلك أن أخيل حين يقطع المسافة من نقطة بدايته إلى حيث بدأت السلحفاة ، تكون السلحفاة قد تقدمت مسافة معينة مهما تكن صغيرة . وعندما يقطع أخيل هذه المسافة تتحرك السلحفاة من جديد . . . وهكذا إلى ما لا نهاية له ، وإذا بك ترى أن العقل لا يستطيع أن يثبت أى شىء ، وبناء على ذلك لا يثبت شيئاً على الإطلاق [2] . وكذلك السهم المنطلق لا يتحرك ، لأنه ما دام الشىء فى مكان واحد وفى المكان نفسه فهو فى سكون ، ولكن السهم المتحرك هو فى كل لحظة فى مكان واحد فقط ، فهو إذن ساكن فى هذه اللحظة ، فهو بناءً على ذلك ساكن فى كل لحظة من حركته . وينتهى أناتول فرانس إلى القول بأن : « أى شىء يمكن إثباته بالاستدلال ، فقد برهن زينون الإيلى على أن السهم المنطلق لا حركة له . وقد يستطيع أحدنا أن يثبت العكس ، ولو أن ذلك فى الحقيقة أصعب » [3] .

---

(١) من الغريب أن يصف المؤلف زينون بأنه من الشكاك ، وهذا ولا ريب تعسف منه ، لأن حجج زينون كانت تهدف إلى تأييد مذهب بارمنيدس فى إثبات الوجود ، لا فى الشك فيه. (المترجم).

(٢) تقوم المشكلة على افتراض أن حركة أخيل والسلحفاة يمكن أن تقسم إلى مالا نهاية له إلى « لحظات » – أنظر الهامش اللاحق .

(٣) سيرة ورسائل ، لندن ، ١٩٢٤ ، المجلد الرابع ، ص ٦ . ويظن برتراند رسل أن زينون على صواب فى قوله إن السهم ساكن فى كل لحظة من انطلاقه ، ولكنه ينكر الاستدلال بأن السهم يظل فى الموضع نفسه – ولو أن الاستدلال يبدو منطقياً . (مادة زينون فى دائرة المعارف البريطانية ، وفى مبادىء الرياضيات ص ٣٤٦) . ولعله من الأفضل (إذا أراد المرء أن يلعب هذه اللعبة) أن ننكر المقدمة القائلة بأن السهم الذى يكون فى أى لحظة فى مكان واحد وفى نفس المكان يجب أن يكون ساكناً . فهذا تفسير ستاتيكى للحركة يخرجها عن الحركة . فلا يوجد شىء يسمى « لحظة » بمعنى محطة أو وقفة فى الزمان . فالزمان لا يقف فى أى محطة ، وله حركة وليس له لحظات . أما اللحظات فهى تقطيعاتنا العقلية للزمان المتصل غير المنقطع .

AMERICAN UNIVERSITY OF ...

لقد كان الإغريق والرومان رواقيين حتى حين كانوا أبيقوريين . فإذا وجدوا أن العقل يعارض الرغبة قبلوا تحديد العقل فى هدوء ، وسعوا إلى اتباع العقل ، مع أنهم كانوا يبتسمون لمزاعمه . ولكن قوى التصوف المتجددة على الدوام فى أمل البشر نبعت من الشرق وتدفقت إلى بلاد اليونان ، فقلبت حياة العقل التى ازدهرت هناك رأساً على عقب ، تلك الحياة الضعيفة العاجزة . وجاء الإلهام والوحى الإلهى يبعثان الراحة إلى نفوس المظلومين . وعندما تحطمت بلاد اليونان وأصبح كل يونانى فقيراً ، مات العقل ، ووضع الإيمان (الذى لا يموت أبداً) حداً للعالم القديم . وأصبح ما يثبته المنطق قليل الأهمية ، فقد تكلم الله بأمور عجيبة ، وحتى لو بدت مستحيلة فكم يكسب المرء بتصديقها . وأصبح شعار الملايين من العبيد : « إنى أعتقد فى المستحيل Credo quia impossibile » وظلت الحقيقة تعرّف خلال خمسة عشر قرناً من الزمان ، لا بالإحساس أو العقل ، بل بالرجوع إلى الأناجيل وعقد مجمع الكرادلة .

ولقد أخطأت الكنيسة خطأ عظيما حين سمحت بلعبة المدرسيين فى إثبات الوحى بالعقل ، إذ كيف أمكنها أن تعلم أن اللعبة ستمضى فى طريقها ، أو أن تصدعاً غير منتظر قد يستهوى ألمع العقول نحو جانب العقل؟ وهذا هو الذى حدث . فقد وقع ديكارت فى هوى العقل ، ومات اسبينوزا جوعاً فى سبيله ، وأحرق برونو من أجله . ومجد الناس هذه الخليلة الجديدة وهى العقل ، وكلما زادت عشاقها عذاباً أغرموا بها . وأصبحت عبادة العقل نفسه ديناً وإيماناً ، فقد وضع عصر التنوير على أساسه اعتقاده النبيل فى « كمال البشرية اللانهائى » . وأقامت الثورة الفرنسية الهياكل لربة العقل الجميلة . ولم يبق ثمة فضل لا يستطيع العقل أن يمنحه للناس .

ولم يكن روسو سعيداً فى هذا الجو الخفيف الهواء . لقد كان يقاسى كثيراً وكان محتاجاً إلى اعتقاد كثير . وحين سخر العقل منه سماه مرضاً ، فقال : « إنى لأجرؤ على التصريح بأن حالة التأمل مضادة للطبيعة ، وأن الإنسان المفكر هو حيوان فاسد » . ومثلت رواية الإغريق والشرق من جديد ، فقد سئم الناس الحياة وملوا الثورة والإرهاب والعظمة ، وعادوا جماعات إلى حظيرة الإيمان ،

وغطوا انسحابهم بالدعوة إلى الغريزة والشعور. وقال دى موسيه: «يجب أن نفكر». وقدم هيوم الفيلسوف الشاك معونة غير بارعة للعدو برده السببية والاستقراء والعلم إلى مستوى الزعم والاحتمال. أما كانط فهو أنفذهم جميعاً منطقاً، فقد سار على نهج زينون، وأعلن لأوربا أنها تستطيع أن تعتقد كما تشاء فى الله وحرية الإرادة والخلود ما دام العقل شيئاً ناقصاً لا يستحق أن يقبل من الإنسان تضحية السماء والمدينة الفاضلة. وأخضع شوبنهور خدمات العقل اليسيرة للإرادة، وأثبت فرويد بآلاف من الأمثلة سطحية العقل الذى يكسو أهداف البدن الأنانية بأدلة محترمة. وسمى نيتشه الغريزة: «أذكى صور العقل». وأعلن برجسون — كأى فيلسوف مادى تكوينى — أن العقل عبارة عن سينما تفقد فى صورها الاستاتيكية اتصال الحياة وروحانية النفس. لقد كان كل ذلك العصر الطويل من «إميل» إلى «التطور الخالق»، من روسو وكانط إلى شوبنهور و نيتشه، إلى برجسون ووليم جيمس، رد فعل رومانتيكى ضد عصر العقل. واليوم لا بد أن تنشب المعركة من جديد، معركة الصراع بين كونفوشيوس ولاوتسى، بين سقراط وزينون، بين فولتير وروسو. ويجب أن تسوّغ مناهج العقل مرة أخرى ضد الغريزة والحدس والتصوف والإيمان غير المفهوم.

ما الغريزة؟ إذا كان لنا أن نؤمن بآخر المذاهب فى علم النفس فيجب أن نستبعدها باعتبار أنها اسم لشىء ليس له وجود. غير أننا حين نرى أولئك الذين ألقوا بالغريزة من الباب يعيدونها مرة أخرى من الشباك باسم «الاستجابة التى لم تعلم» فقد نقتنع باستبقاء الزجاجات القديمة للخمر المعتقة، ونسمى بصريح العبارة غريزة ميولنا الموروثة إلى المشى والجرى، والأكل واللعب، والكفاح والهرب، والإلف والزواج، ومحبة البنين حين يولدون.

فهذه أنواع من السلوك مختصرة نافعة تطورت لمواجهة المطالب السريعة فى حياة الجنس دون انتظار بطء الروية. ولكن هذه الأنواع لا تلائم إلا ما بيننا وبين هذه المواقف القديمة الثابتة فقط. لقد قامت لتسد حاجات معيشتنا الحيوانية وحياة الصيد. ومع أنها تحسن خدمتنا حين لا نجد وقتاً للتفكير،

إلا أنها تلائم الأمس أكثر مما تلائم اليوم . فقد يجرى الطفل من ثعبان ويلعب ببندقية محشوة . وقد يكون الرجل فيلسوفاً عميقاً ويربط نفسه إلى آخر حياته بدمية بلهاء – وكذلك تزوج سقراط اكزانثيب ، وجوته كرستيان . إننا بالغريزة « لا نخشى حملة الملاريا والحمى الصفراء ، ولكننا نخشى الرعد والظلام ؛ ولا نرثى الموهوبين المحرومين من العلم ، بل المتسولين ذوى القروح الدامية ؛ ولا يثيرنا ظلم كبير كما يثيرنا جرح بسيط ؛ ويؤلمنا ازدراء الخادم إذا لم يأخذ حُلواناً (بقشيشاً) أكثر مما نتألم من كسلنا وجهلنا وحماقتنا »[1] . لعل الغريزة كانت كافية لحياة الصيد البدائية : فدوافعنا الطبيعية تلائم حالة الصيد أكثر مما تلائم حياة الزراعة ، وإلى تلك الحالة نصبو فى رغباتنا الموسمية وجموح الشباب ، نحو « الرجوع إلى الطبيعة » . ولكن منذ أن قامت الحضارة أصبحت الغريزة غير ملائمة ، وطرقت الحياة أبواب العقل .

متى بدأ العقل يسير سيرته ؟ لعل ذلك حين هبطت أمواج ضخمة من الجليد فى بطء من القطب ، فجعلت برودة الهواء قارسة ، وأهلكت الزرع فى كل مكان تقريباً ، وأبادت كثيراً من أنواع الحيوان العاجزة القاصرة عن التكيف ، ودفعت عدداً قليلا من الأحياء إلى الجنوب فى منطقة حارة ضيقة تعلقت عدة أجيال بخط الاستواء فى انتظار غضب الشمال أن يذوب . أكبر الظن أنه فى تلك الأيام العصيبة ، حين بطلت جميع أساليب الحياة القديمة مع غزوة البرد ، ولم تلق طرائق السلوك الموروثة أو التقليدية أى نجاح فى بيئة تغير فيها كل شىء ، هلكت الحيوانات مع تزودها بسلاح كامل ، ولكنه غير مرن ، من الغريزة ، لأنها لم تستطع تغيير أنفسها من الداخل لمواجهة التغير فى الخارج . أما الحيوان الذى نسميه الإنسان وقد وُهب مرونة مزعزعة ، فقد تعلم فنون النار والطهى واللبس ، وقاوم العاصفة ، وارتفع إلى منزلة يمتاز فيها بلا نزاع عن سائر أنواع الغابة والسهل .

ونشأ التفكير البشرى – أكبر الظن – فى مثل هذه الحال الطارئة من الحياة والموت . ونحن نرى اليوم نفس هذا النقص وهذا التكيف لردود الأفعال الطبيعية

(١) ثورندايك : طبيعة الإنسان الأصلية ص ٢٨١

فى الطفل ، وهو تكيف يبيح له احتمال التعلم ، ولو أنه أدنى فى مستواه من وليد الحيوان — نقول هذه المرونة نفسها هى التى أنقذت الإنسان والثدييات الراقية ، على حين أن كائنات هائلة وقوية مثل الماموث والماستودون ، وهى التى كانت تتجول سيدة المنطقة ، رزحت تحت عبء التغير الجليدى ، ولم تصبح إلا موضعاً لاستطلاع علم الحفائر الحيوانية . وقد ارتجفت تلك الحيوانات وزالت على حين بقى الإنسان الضئيل . وهنا بدأ الفكر والاختراع . ونشأ عن حيرة الغريزة المعطلة أول الفروض البسيطة ، وأول محاولة للجمع بين اثنين واثنين ، وأول التعميمات ، وأول الدراسات الشاقة فى تشابه الصفات وانتظام التتابع ، وأول ملاءمة بين الأشياء المتعلمة وبين المواقف التى بلغ من جدتها أن أخفقت الردود الغريزية والمباشرة إزاءها إخفاقاً تاماً . ونشأت عندئذ نماذج من العمل وتطورت إلى أساليب من التفكير وآلات للعقل : فأصبح ما كان ارتقاباً وتربصاً للفريسة انتباهاً ، وأضحى الخوف والهرب حذراً وروِّية ، وأمسى القتال والوثب استطلاعاً وتحليلا ، وصار العبث باليد تجريبياً . وانتصب الحيوان فأصبح إنساناً لا يزال عبداً لآلاف الظروف ، وشجاعاً فى جبن إزاء المخاطر العديدة ، ولكنه مؤهل بطريقته المزعزعة إلى أن يكون سيد الأرض .

ونشأ العقل من مثل هذه البدايات حتى اليوم ، كما يقول جراهام ولاس ، ولكنه لا يزال إلى حد ما غريزياً . فإذا عرض علينا موقف جديد ترددنا بالغريزة ، إلى أن تبعث أوجه المشكلة المختلفة أثرها فينا ، وتصبح استجابتنا سلوكاً معقداً ورداً كاملا نسبياً على موقف يكاد يكون تام الإدراك . والفعل المنعكس استجابة موضعية لمؤثر موضعى ، كما يحدث عندما نحك قرحة . أما الغريزة فهى استجابة عامة لعنصر واحد فى موقف من المواقف ، كالحال عندما نلح فى النظر إلى وجه جميل . والعقل استجابة كلية لموقف كلى ؛ وعندئذ يحطم العقل الحب وقد يهلك الجنس . وكما تتجمع الإحساسات فى ظل الرغبة فتكون نظاماً من المعانى والفكر ، كذلك الغرائز والعادات تقع مع الاستجابات البطيئة بعد آلاف من التجارب والأخطاء فى هيئة من العقل . وليس بين الغريزة والعقل فرق فى النوع ، بل فى الدرجة . وكل واحد منهما يقدم للآخر عناصره ، فالروّية بديل عن الدوافع

المتعارضة ، والتمييز أو الفطنة فصل الموقف إلى عناصره كمقدمة للرد الكامل ، والعقل تحليل المؤثر وتركيب الاستجابة .

والعلة فى عجز العقل هو هذه المهلة التى تتمخض عن ظهوره . وقد أهلكت المواقف كثيراً من الفلاسفة الناضجين قبل تحليلها بما يرضيهم . ولقد قال جريفويلز Griffuehles النقابى : « إذا أطلنا التفكر لم نتم شيئاً » . ومن أجل ذلك أحب نقابيو فرنسا مذهب الحدس Intuitionism البرجسونى . وقد اقترح برجسون أن نقفل باب الفكر ، وأن نبدأ بالنتائج والدوافع أولا ثم بالاستدلال بعد ذلك . . . مع الفراغ الذى يعقب ذلك . هذا إلى أن العقل حين ينسى ولاءه للإحساس قد لا يؤثر الحجة البيِّنة Evidence ، بل المراوغة Subtlety وعندئذ يصبح أشبه بالتاريخ المكتوب ، فيصبح المدافع الكاذب عن أى رغبة قوية . فالعقل ، كما تخبرنا أى طالبة فى المدارس ، قد لا يكون غير فن تعقيل الرغبة . ونحن فى أغلب الأحيان لا نفعل الأشــياء لأن عندنا أسباباً لعدم فعلها ، ولكننا نلتمس الأسباب لأننا نود فعلها . ومن أبسط الأمور فى العالم أن نبنى فلسفة تقوم على رغباتنا ومصالحنا . ويجب أن نحذر أن نكون شيوعيين لأننا فقراء ، أو محافظين لأن مصلحتنا فى جانبهم . وكلما أدخلت الفلسفة البهجة على أنفسنا ازداد حذرنا منها . وقد أحسن برتراند رسل حين قال : « ليست إرادة الاعتقاد هى ما نحتاج إليه ، بل الرغبة فى البحث ، وهو شىء على النقيض تماماً » (١) .

ومرة أخرى قد يفضى بنا التفكير إلى الشك ، والفتنة ، والسخف . فكل تفكير ينشأ عنه تفكير مضاد ويساويه يكاد يبلغ من الحتمية مبلغ القانون الثانى للحركة. وفى ذلك يقول أناتول فرانس لبروسون Brousson : «هذا ولا ريب حق ، ولكن الضد حق كذلك » (٢) ثم ينقل عن باريس Barrès المتصوف قوله : « إن ما يميز الدليل عن اللعب بالألفاظ أننا لا نستطيع ترجمة النوع الأخير » (٣)

(١) مقالات شكية ص ١٥٧ Sceptical Essays

(٢) Anatole France en Pantoufles, p. 45

(٣) On Life and Letters, Fourth Series. p VI

نعم ، العقل آلة ناقصة كعلم الطب ، أو عين الإنسان . ونحن نستفيد منه أفضل استفادة فى نطاق ما أودعه القدر والطبيعة . ولا نشك أن بعض الأمور نحسن أداءها بالغريزة أفضل من الفكر . فلعل الأحكم فى حضرة كليوباطرة أن نظمأ مثل أنطونيو من أن نفكر كقيصر . ولعل الأفضل أن نحب ونفقد المحبوب من أن نحسن التفكير . ولكن لماذا يكون هذا أفضل ؟ أذلك لأن الغريزة أسد ، أم لأن ضرباً من الحدس الصوفى قد كشف لنا عن هذه الحكمة ؟ كلا ، بل لأن التجربة — وهى الإحساس مع مرّ الزمن — قد علمتنا أن ساعةً من النعيم تساوى سنة من التفكير .

وإذا كنا نفكر فليس ذلك لأننا نهوى التفكير ، بل لأننا يجب أن نفكر ؛ فعالمنا الحديث كثير المزالق والتغير بحيث لا يسمح بمواجهة الاستجابات الثابتة الطابع . لعله لا تزال توجد طرق قديمة فى الحياة تفيدها الغريزة كالأمومة ، والزراعة ، والاستقرار فى البيت . ولكن حتى فى هذه الأمور يجب أن يتدخل العقل ، مثل منع الحمل لتحديد الأمومة الغريزية ؛ هذا إلى أن المرأة قد خرجت من البيت البسيط إلى الصناعة المعقدة ؛ وأصبحت المزرعة التى كانت يوماً ما منعزلة مقرًّا لشبكة من العلاقات مع الوسطاء والأسواق البعيدة ورجال المال المحترفين . أما نحن الذين نسكن المدن فإن الاستجابة المباشرة والغريزية تصبح يوماً إثر يوم خطرة ، لأن لكل غريزة أنانيتها وإيثارها الخاص لنفسها ، وتسعى إلى إرضاء ذاتها بأى ثمن على حساب مجموع الشخصية . وكل غريزة هى جزء منا يزعم السيادة على غيره ، ولن نستطيع أن نحقق الوضوح والوحدة والصحة والعقل إلا بالتأليف بين هذه الأجزاء من أنفسنا .

انظر إلى الغريزة الجنسية : إنها تسوقنا إلى التسافد ، ولعلها تسلمنا إلى الإباحية . ويضيق نظر هذه الغريزة بما فيها من شدة ، فلا تقف لتفكر فى النتائج . إننا نتزوج بالغريزة ، ونطلق بالعقل . وقد تلقى الغريزة بكل فتاة فى أحضان أول جندى يعترض طريقها . وقد تجعل من كل زوج فاسقاً ، ومن كل أم مجرد أم فقط لا تكاد تفطم حتى تحمل . إنها تضاعف مقدرة الفم بالسرعة التى يضاعف بها العقل والاختراع إيجاد الأقوات ، فيصبح آخر حالة للإنسان

سيئة كأول أحواله . وبالغريزة يبحث الإنسان الجائع عن الطعام ثم يذبح نفسه ويموت ؛ وبالغريزة يتعلم الطفل المشى فيمشى على قمة الدرج أو على حافة الطنف . وبالغريزة نرتعش فى خوف لا فائدة منه حين تزأر الأسود داخل أقفاصها فى حديقة الحيوان . وبالغريزة يصبح الجندى الحديث الخائف وحشاً فى المعركة ، حاد الأنياب والأظافر ، أعمى بالبغض واليأس ، معرضاً لميتة قذرة ، على حين يقف القائد المثقف المفكر آمناً فى المؤخرة يكتب قصة انتصاره ، ثم يعود إلى الوطن فيرث الأرض .

لذلك فنحن نترك لإخواننا الصابرين فى الدير إلهاماتهم التى لا يمكن تحقيقها ، وإيمانهم المريح ولكنه مزعزع ، كما نترك لأبناء عمومتنا فى الغابات والأحراش غرائزهم العالية فى دقتها وسدادها . ولقد قال كونفوشيوس : «لا يختلف الإنسان عن الحيوان إلا قليلا ، ومعظم الناس يطرحون هذا الشيء القليل » . أما نحن فنلقى نصيبنا من الإحساس والعقل ، قانعين بقبول الحياة كمعيار لتفكيرنا ، عازمين بقدر الطاقة على إضافة التفكير لحياتنا . سوف نقع فى أخطاء كثيرة ، وليس ثمة ضمان أننا نبلغ السعادة فى النهاية . إن بهجة الفهم الممزوجة بالألم مثل نشوة الحب . وسنطرح فى طريقنا الفكرى كثيراً من اليقينيات ، وستهوى كثير من الأوهام التى كانت تبث فينا الشجاعة . ولكن : « الحياة بغير التفكير غير جديرة بالإنسان » . ونحن نؤثر أن نكون سقراط فى السجن من أن نكون كاليبان Caliban (١) على العرش . فلنمض معاً فى التفكير .

(١) كاليبان شخصية ابتكرها شكسبير فى رواية العاصفة ، وجعله ابن الشيطان ، مشوهاً ، وعبداً . [المترجم]

الجزء الثالث

الميتافيزيقا

الفصل الثالث

المادة والحياة والعقل

١ — مقدمة لا أدرية

ما طبيعة العالم ؟ ما مادته وما صورته ، وما مكوّناته وهيكله ، وما مواده الأولى وقوانينه ؟ ما المادة فى كيفها الباطن ، وفى جوهر وجودها الغامض ؟ ماالعقل ؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها ، أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها ؟ أيكون كلا العالمين ، الخارجى الذى ندركه بالحس ، والباطنى الذى نحسه فى الشعور ، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية ، كما قال الشاعر : « ما يكتبه الخالق فى مطلع الصبح نقرؤه فى آخر النهار » ، أم ثمة فى المادة أو فى العقل أو فى كليهما عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية ؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس ، ويجيب عنها جميع الناس ، وهى منابع فلسفاتنا الأخيرة التى يجب أن يعتمد عليها فى نهاية الأمر كل شىء آخر فى نظام متماسك من الفكر . إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض .

ولنسلم أنفسنا فى الحال لإخفاق لا مناص منه ، لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج فى إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس فقط ، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل . فهذه النظرة الكلية وهى فتنتنا فى هذه المغامرات اللطيفة ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن . ويكفى أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع ، وشىء من الأمانة ، لنتأكد من أن الحياة والعالم فى غاية التعقيد والدقة بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما . وأكبر الظن أن أكثر

نظرياتنا تبجيلا قد تكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء . فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا . وكلما كثر علمنا ، قلّت معرفتنا ، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة وشكوك جديدة . فالجزىء ينكشف عن الذرة ، والذرة عن الإلكترون (الكهيرب) ، والإلكترون عن الكوانتوم Quantum (الكويمية) ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا Categories وقوانيننا وينطوى عليها . والتعليم تجديد فى العقائد وتقدم فى فن الشك . وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة ، وحواسنا بالعقل . وفى خلال هذا الضباب يجب علينا نحن « الزغب على الماء » أن نفهم البحر .

لذلك فنحن نقبل على هذه المشكلات كما يقبل القسيس على المذبح لأول مرة ليتلو سر القداس . لن نحل هذه المشكلات . وأفضل ما نعمله أن نكشف فقط عما تؤثره أنفسنا . فإذا أساء الدين إلينا بعظم معتقداته فقد نرتد محتجين إلى مادية مجردة ، كما فعل شللى الطائش ، الذى كان يعتقد فى الله وفى الخلود ، وسمى نفسه « ملحداً » ليقذف بتحديه فى وجه الكنيسة الرجعية المغرورة بنفسها. وإذا كنا من أصحاب العقول الرقيقة فسوف نتعلق بالإيمان ، ونعتبر أن عالماً ميكانيكياً بغير إله أمر يصعب وجوده . أو لعلنا نتقدم فى السن فتبدو اليوم ثورات شبابنا غير ضرورية ومسرفة . إن الحقيقة لتشرق مرة أخرى من الأفكار القديمة التى بدت يوماً ما خادعة وباطلة . ونحن نقبل مرحبين شاكرين أى أنباء من عالم العلم أو التاريخ ، قد تعيد إلينا بعض البصيص من معتقداتنا القديمة . ولن تكون علومنا فى الطبيعة والكيمياء والفلك والحياة سوى ميادين للصيد ، نقتنص فيها الكرامة لمزاعمنا ، أو الراحة لآمالنا .

ومع ذلك . . .

٢ — المـــادية

كما أن المادية هى أول فلسفة يعتنقها ذلك الذى خلع عن نفسه رداء المعتقدات الغيبية ، فهى كذلك أول تصور عن العالم يظهر فى أمة أخذ دينها

الرسمى فى الزوال . كان المفكرون قبل سقراط ، وهم الذين رفع بيكون و نيتشه من شأنهم على خلفائهم ، جميعاً من الماديين تقريباً . فقد فسر طاليس وأنكسمندريس وأنكسيمانس الكون على أنه من مشتقات الماء أو النار أو الهواء . وقدم لوقيبوس وديمقريطس للمادية تلك الصورة الذرية التى أرضت سائر الهراطقة الصميميين ، إلى أن تفتت الذرة تحت تأثير علمى الطبيعة والكيمياء الحديثين .

وظلت هذه الفلسفة التى تعد أبسط الفلسفات متماسكة عدة أجيال ضد شك زينون ، وثنائية أنكساجوراس . ثم انصرف سقراط عن البحث فى العالم الخارجى ، واكتشف النفس التى بلغ من اختلافها عن المادة أنه ظن أنها محصنة عن الموت . وسمى أفلاطون المادة « العدم » ، وأعلى من شأن العقل فوق كل شىء ، وكان يرى أن العالم الخارجى خاضع للعقل فى الحس ، وللمُثُل فى التركيب والعمل. وبدا له أن العالم كله صور ةمتوسطة لنموذج كامل مدرك بوساطة نفس خالقة . ووجد أرسطو البيولوجى العالم شيئاً متغيراً متحركاً ، ولم يستطع أن يرده إلى الذرات والخلاء ، وجوهره هو الكمال الأول (انتلخيا Entelechy) ، فى كل مادة قوة خفية لا تهدأ حتى تتحقق . وكل « صورة» هى « مادةُ » صورة أعلى ، وكل حقيقة فهى حامل بالنمو ؛ ولم تستطع المادية أن تصف وصفاً صالحاً هذه الحيوية المتفجرة . ونُسِى ديمقريطس قرناً من الزمان .

وتجسد ديمقريطس فى شخص أبيقور الذى يكاد يسبق بلانك Planck وبور Bohr وكورى فرأى فى الذرة مبدأ للحرية وعدم الثبات ، ومع ذلك رمزاً للهلاك والفساد . فجميع الأشياء حرة ، وجميع الأشياء إلى موت . وفرح لوكريتيوس وقد سئم الحياة بأن يسمع عن هذا الموت الأكيد اللانهائى . وخيل إليه أن القول بأن الشعراء أنفسهم مركبون من ذرات هو أمر جميل ولو أنه كئيب ، وكذلك القول بأن كل كائن وكل ذرة إلى انحلال وزوال فى أمن من الألم إلى الأبد .

ثم ظهرت المسيحية وبقيت المادية خمسة عشر قرناً منبوذة فى الفلسفة . وكانت بعض الفرق القديمة المخالفة لتعاليم الكنيسة قد تصورت النفس غازاً

لطيفاً ، وأن الله نفسه غاز أكثر لطافة . . . وهم بذلك يقتربون من تعريف هيكل Haeckel فى شبابه الألوهية بأنها « فقرية غازية » gaseous vertebrate. ولكن المادة فى الأغلب كانت الملاك الذى غوى ، وإبليس الفلسفة ، ومحنة الروح وسجنها . ومن الغريب أن المادة وجدت مكاناً رحبا فى فلسفة القديس توماس الأكوينى ، فجعلها قديمة بالقوة قدم الزمان ، وأصبحت « مبدأ التشخص » ، فيصير الواحد كثيراً خلال صورها وتحديداتها ، وينقسم محيط الروح إلى بحيرات صغيرة تسمى الأنفس الخالدة .

مهما يكن من شىء فلم تبدأ المادة تستعيد منزلتها حتى ظهور ديكارت . ومن الحق أن الفيلسوف الفرنسى(١) الحذر لم يرتفع بالمادة حتى تصبح الحقيقة الواحدة ، وحين استهل فلسفته بالنفس والفكر قائلا : «أنا أفكر ، إذن أنا موجود» فقد فتح الباب لتلك المثالية نفسها التى أصبحت أخبث عدو للمادة . ولكنه تصور العالم تصوراً ميكانيكياً ، وأشرف الحيوانات كآلات منومة . وكل شىء ما عدا نفس الإنسان يخضع لمبادىء الطبيعة ، بل إن الظواهر المعقدة كالهضم والتنفس والإفراز والتناسل تدل على عظمة الميكانيكا . وفى هذه الكوسمولوجيا الديكارتية الصعبة ولدت المادية فى شبابها الثانى .

وهناك حركتان كبيرتان فى الفكر الحديث ، دعوى Thesis ونقيضها Antithesis ، كما يقول هيجل ، فى انتظار دعوى تركيبية Synthesis يجب على جيلنا الحاضر أن يشرع فى عملها . وتبدأ الحركة الأولى بالعالم الخارجى ، بالمادة ، والطبيعة ، والميكانيكا ، والرياضة . وهى تمثل ، وكأنها ثورة الفرد البرىء عن الأوهام ، أول رد فعل وأكثره تطرفاً ضد فهم الكون فهما غيبياً . وهى تصوغ قوانين الحقيقة من ملاحظة المادة ، ثم تفسر العقل فى عبارات مستمدة من هذه القوانين الموضوعية. ونتائجها بالضرورة هى المادية Materialism والميكانيكية Mechanism ، والحتمية Determinism ، والسلوكية Behaviorism التى تفخر بعجزها الطبيعى عن الانتقال من المادة إلى الشعور . وأبطالها هم جاليليو ، وديكارت ، وهوبس ، ونيوتن ، وديدرو ، وهولباخ ، ولامترى ،

(١) فى الأصل « الغالى » نسبة إلى بلاد الغال ، وهى الاسم القديم لفرنسا (المترجم) .

وهيكل ، وسبنسر ، ورسل ، وواطسون . أما الحركة التى تكافئها وتضادها فتبدأ من الشعور ، وترى نفسها عاجزة عن الانتقال منه إلى المادة . وهى تقف فى داخل العالم الباطنى وما فيه من عقل ونفس ومعرفة وأخلاق . وهى تمثل رد فعل متطرف ضد تصور الكون تصوراً مادياً . وهى ترى جميع الأشياء كإحساسات وأفكار ، وترد من أجل ذلك المادة إلى حالة من أحوال العقل . ونتائجها بالضرورة هى الروحية Spiritualism ، والمثالية Idealism والحيوية Vitalism ، وحرية الإرادة . وأبطالها هم ديكارت (انظر ما سبق) وليبنتز ، وبركلى ، وكانط ، وفشته ، وهيجل ، وشوبنهور ، ونيتشه ، وبرجسون ، ووليم جيمس. وهكذا تتحارب الفلسفات المتعادية كالذكر والأنثى ، ولاتصبح مثمرة إلا حين يندمج بعضها فى بعضها الآخر .

وتغلبت الحركة الأولى على الفكر الفلسفى الأوربى فى القرنين السابع والثامن عشر . أما سبينوزا فقد انتحى عن هذه الحركة جانباً ، وواجه المشكلة على هواه فى برجه المنعزل ، وقدم للعالم مذهب وحدة النفس Panpsychism [(١)] حلا للمشكلة : فالمادة والعقل هما الوجهان الخارجى والداخلى لحقيقة واحدة معقدة ، و « جميع الأشياء مهما تختلف درجتها مملوءة بالحياة » . ولم تصدق أوروبا هذه المقالة ، على العكس من ذلك رد هوبس الحقيقة إلى المادة ، وأعلن أن كل اصطلاح أو عبارة لاتدل على شروط مادية ، فهى لفظية مدرسية . وأثار جسندى Gassendi بأدب ضد ديكارت اعتراضات متعددة على تصوره الثنائى لاستقلال المادة عن الفكر ، وزعم أن الفلسفة لم تتقدم بعد عن نظريات ديمقريطس . وفى الوقت الذى كان نيوتن يمارس العبادة بتقوى عظيمة ، ويكتب شروحاً غريبة على سفر الرؤيا ، حلل العالم الخارجى إلى قوانين فى الحركة بلغت من البساطة والترتيب أنها حين حملت إلى فرنسا لم يستطع فلاسفتها المغرمون بالمنطق إلا التسليم بأن هذه القوانين تنطبق على كل شىء ، على سقوط التفاحة وعلى صلاة المرأة . وأخرج لامترى بشجاعة كتابه : « الإنسان الآلة » ، وبين

---

(١) لا ندرى لم عدل المؤلف عن وصف مذهب اسبينوزا بأنه وحدة الوجود Pantheism أى أن الله والعالم شىء واحد ، كما هو معروف ومشهور ، إلى القول بوحدة النفس (المترجم) .

كيف تؤثر الأحوال الجسمية المختلفة كالحماسة أو المرض على العقل ، فتكشف بذلك عن تكوينها الفيزيقى . وأخضع هولباخ الإنسان والمادة على حد سواء فى كتابه : « نظام الطبيعة » لهذا النظام المنطقى الدقيق . ورد هلفتيوس الأخلاق والفضيلة للقوانين الطبيعية . ولم يكن ديدرو على يقين من أن نظرية المعرفة تستطيع تفسير الشعور ، واضطر إلى الخروج مع اسبينوزا بهذه النتيجة ، وهى أن المادة غريزة ممزوجة بالعقل ؛ إلا أنه صمم لمجرد النكاية أن يسمى نفسه مادياً « حتى يشنق آخر رجل بأمعاء آخر قسيس » .

والمادية أخت الاشتراكية : فهى علَم يرفعه الشباب الثائر والضال احتجاجاً فى وجه الرجعية والاستبداد . وهى راية يطويها العصر الوسيط ويخفيها فى هدوء عندما يرى الفكر النامى نحو النضج والتواضع التعقيد اللاعقلى فى حياة العالم .

٣ – المثالية

وفى أثناء ذلك وجدت الحركة الثانية رسولها فى الأسقف بركلى . وقال الأسقف إنه على الرغم من كل شىء فإن هذه المادة التى نقول بها لا نعرفها إلا خلال الإحساس والإدراك . والموجود هو المدرك Esse est percipi ، أى أن الموجود إذا لم يدركه عقل من العقول فلن يوجد على الإطلاق (بمقدار ما نعرف) . وأضاف كانط أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فهذه الإحساسات هى فى ذاتها خليط لا معنى له ، بل « الوحدة الأولية الشرطية Transcendental للإدراك » هى التى تنسج فوضى شهادة عدة حواس فى عالم من الفكر المرتب . وأكبر الظن أن الترتيب والوحدة من عمل العقل ، ويخلق نصف « الشىء » بإدراكنا له . فكيف يمكن أن يكون مثل هذا العقل التكوينى نتيجة سلبية للمادة التى أبدع العقل صورتها نفسها ؟

وقال أرثر شوبنهور – أوضح رؤسائهم على الإطلاق – : إنك على صواب ؛ فالحقيقة الوحيدة التى نستطيع ملاحظتها مباشرة وفى صلة وثيقة هى أنفسنا ذاتها التى نتأملها تأملا باطناً . ومن السخرية أن نرد ذلك الذى نعرفه مباشرة إلى «مادة»

لا نعرفها إلا على أنها معنى فى فكرنا ، وإلا خلال التوسط المنحرف لحواسنا الناقصة . ولعلنا إذا استطعنا أن نعرف المادة من الداخل معرفتنا لها من الخارج كما نعرف أنفسنا ، فقد نجد فى قلب المادة طاقة من الإرادة أكثر شبهاً بقوى عقولنا الدقيقة من الميكانيكية الخارجية والحقيرة لأجسادنا . وفى مثل هذه الظروف تكون المادية فى ضوء المنطق الدقيق مســـتحيلة . أما بخنر Buchner ومولسكوت وفويرباخ فإنهم أغرار ، وفى ذلك يقول شوبنهور :

« إن المادية المتهافتة التى لا تزال حتى الآن فى منتصف القرن التاسع عشر تقدم تحت ستار الوهم الجاهل على أنها أصيلة . . . . لتنكر بحمق القوة الحيوية ، وتحاول أول كل شىء تفسير ظاهرة الحياة بالقوى الطبيعية والكيمائية ، ثم تفسر هذه القوى مرة أخرى بالآثار الميكانيكية للمادة . . . . ولكنى لا أعتقد أبداً أنه حتى أبسط التركيبات الكيمائية تسمح بالتفسير الميكانيكى ، فما بالك بخصائص الضوء والحرارة والكهرباء ، فهذه تحتاج دائماً إلى تفسير ديناميكى » (١) .

وورث نيتشه هذه النظرة إلى المادة إلى جانب « إرادة القوة » ، وهى طبعة مسروقة من « إرادة » شوبنهور . ولن تجد زنديقاً أشد عداوة للمادية من هذا الذى كان يحتقر القساوسة ورجال الدين . ويقوم برنامجه الذى لا محل فيه للتوفيق على : « الإبعاد المطلق للميكانيكية والمادة ، فكلاهما لا يكونان إلا صوراً من التعبير عن المراحل الدنيا ، وهى أقل صورة روحية تتشكل بها إرادة القوة » . إنه يتقمص الموقف المثالى كله كأى ألمانى طيب ، ويرى أن المادة وهم ، وتركيب عقلى نصنعه لتفسير إحساساتنا ، ويقول : « أما فيما يختص بالمذهب الذرى المادى فهو أيسر مذهب يسهل رفضه من بين جميع المذاهب التى ظهرت . وأكثر الظن أنك لا تجد فى أوربا اليوم أى شخص فى الوسط المتعلم يبلغ من منافاة العلم حداً يجعله يخلع على ذلك المذهب دلالة جدية » . ثم ينتهى كما فعل شوبنهور إلى هذه النتيجة فيقول : « يجب أن نجازف بهذا الفرض ؛ وهو أن جميع الأعمال الميكانيكية من حيث إنها قوة تعمل من داخل ليست بالضبط قوة

---

(١) العالم كإرادة وفكر ، المجلد الأول ص ١٥١ ، المجلد الثالث ص ٤٣ .

الإرادة بل نتيجة لهـا » . فالذرة ليست إلا كمية من طاقة (كوانتوم) إرادة القوة [1] .

ومن المدهش أن نرى مبلغ ما كان للمثالية من أثر فى الثائرين النزّاعين إلى المادية كسلاح ضد الاعتقاد الدينى . وفى ذلك يقول هربرت سبنسر : « إذا كان لنا أن نختار أحد هذين الأمرين وهما : ترجمة الظواهر العقلية إلى ظواهر طبيعية ، أو ترجمة الظواهر الطبيعية إلى ظواهر عقلية ، فالأمر الثانى أدنى إلى القبول »[2] ويكتب برتراند رسل فى أيامنا هذه — وهو الرسول الممتع للقنوط — ما نصه :

« إن الاعتقاد فى أن المادة وحدها حقيقية لن يسلم من دليل الشك المستمد من ميكانيكية الإحساس الفسيولوجية . . . . وقد نعد تاريخيا المادية نظاماً من العقائد أعلن لمحاربة العقائد الأرثوذكسية . . . . وتبعاً لذلك نجد أنه كلما انحلت العقائد القديمة أفسحت المادية الطريق أكثر فأكثر لمذهب الشك . وفى الوقت الحاضر نجد أن أهم الممثلين للمادية هم جماعة من أهل العلم فى أمريكا وجماعة من رجال السياسة فى روسيا ، لأن الديانة التقليدية فى هذين القطرين لا تزال قوية » [3] .

٤ — ما المادة ؟

بعد أن مررنا بهذه الشكوك الإبستمولوجية — وقد نظرنا إليها بما فيه الكفاية فى الصفحات السابقة — ومع التسليم بأن العالم الخارجى « حقيقى موضوعياً » ، هذا العالم الذى لا ينفك يذكرنا بوجوده بما يقدمه لنا من أشد المثيرات وأبعدها عن التنازع ، فلنمض إلى الأمام ، ولنبحث فى تكوين المادة .

وأول شىء نكتشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التى وصفتها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تندال وهكسلى غير

(1) Will to Power §§ 712 and 634 ; Joyful Wisdom § 109; Beyond Good and Evil, §§ 12 and 36.

(2) Principles of Psychology, vol j, p 159.

(3) Introduction to Lange's Histroy of Materialism, pp xi,xii.

فاسدة ، فهى تقعد وتنام أنّى وضعتها ، كذلك الصبى البدين فى قصة « أوراق بكويك »[1] . وهى تقاوم بكل مافيها من وقار الحجم والثِّقْل كل جهد لتحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت فى الحركة . وبيّن برجسون فى يسر شديد أنّ مادةً فى مثل هذا الخمود لا يمكن أبداً أن تفسر الحركة ، ومن باب أولى لا تحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك ، كما كتب برجسون ، كانوا فى سبيلهم إلى هجر تصور المادة خامدة ، وإلى الكشف فيها عن حيوية لا ريب فيها . فهذه مثلا الكهرباء لا يمكن أبداً تفسيرها فى صيغ من الخمود والذرات ؛ فما هذه القوة الخفية التى تضاف إلى الكتلة فتزيد فى طاقتها ولكنها لا تضيف شيئاً إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسرى الشحنة الكهربية فى سلك أو فى الهواء اللاسلكى ؟ أهى شىء يتحرك فى داخل السلك والذرات ، فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذى يتحرك فى تلك الموجات الكهربية التى تكاد تبلغ فى سرعتها سرعة الضوء نفسه ؟ أهى الذرات ، أو « الأثير » ، أو لا شىء ؟ وفى أشعة إكس ، عندما تمر شرارة كهربية فى فراغ باعثة أشعة تنفذ من جدران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيمائياً ، فما هذا الذى يمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندما بدت المادة نشطة لا تفرغ كما هو الحال فى الراديوم ، وبدت الذرات (التى لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى ما لا نهاية ، وأصبحت كل ذرة نظاماً كوكبياً من الشحنات الكهربية تدور حول شىء لا يزيد جوهره عن شحنة كهربية أخرى . . . فأى مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاذ ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التى ظفرت باحترام كل مفكر قويم واقعى . أفكان الخمود أسطورة ؟ أيمكن أن تكون المادة حية ؟

لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة فى المادة : فالتماسك ، والتآلف ، والتنافر ، كانت توحى بها . ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات وكذلك الكهربية والمغناطيسية صوراً من « الطاقة الذرية »

---

(١) Pickwick Papers قصة مشهورة لشارلز ديكنز ، وكان مستر بكويك بطل القصة . (المترجم) .

وهى ظواهر ترجع إلى حركة الإلكترونات الدائبة فى الذرة . ولكن ما الإلكترون؟ أهو جزء من « المادة » يظهر فى ثوب من الطاقة ، أو هو مقدار من الطاقة منفصل تمام الانفصال عن أى جوهر مادى ؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض الأخير . ويقول ليبون : « قد يمكن ولا ريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور الطاقة بغير مادة . . . ولكن مثل هذا التصور فى غير مقدورنا . فنحن لا نستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها فى الإطار المشترك لأفكارنا . ولما كانت ماهية الطاقة مجهولة فنحن مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها»(١) فنحن كما يقول برجسون ماديون بالطبع ، فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور الميكانيكية . وإذا لم ننصرف عنها كى ننظر فى أنفسنا فإننا نتصور كل شىء كآلة مادية . ومع ذلك فإن أوستوالد Ostwald يصف المادة على أنها صورة من الطاقة وحسب . ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات من الكهرباء الموجبة والسالبة . ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته. ويقول ليبون ببساطة : « المادة صورة مختلفة من الطاقة» (٢). ويقول ج.ب.س هالدين : « يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين فى العالم اليوم المادة كمجرد ضرب خاص من الاضطراب التموّجى » (٣) . ويقول إدنجتون : إن المادة مركبة من بروتونات وإلكترونات ، أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء . فاللوح : « هو فى الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك » (٤) . ويقول هوايتهيد : « إن مفهوم الكتلة فى طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد باعتبارها المقدار الواحد الدائم فى النهاية . . . . فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة فى علاقتها ببعض آثارها الديناميكية » . (٥) وإلى هذه المرتبة الوضيعة سقط الجبار ، ورجعنا إلى بوسكوفيتش Boscovich (٦) الجزويتى القديم ، إلى تلك العبارة غير المفهومة من أن المادة التى تشغل « المكان » مركبة

(١) The Evolution of Matter p. 13

(٢) المرجع السابق ص ١٠

(٣) Possible Worlds, p. 296

(٤) The Nature of the Physical World, p 3.

(٥) Science and the Modern World, p. 149.

(٦) بوسكوفيتش (١٧١١ – ١٧٨٧) فيلسوف يوجوسلافى من دلماشيا أذاع فى بلاده فلسفة نيوتن (المترجم)

من نقط لا وجود لها . وفى ذلك يقول نيتشه : « لقد كان بوسكوفتش وكوبرنيق حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحاً فى دحض شهادة العيان » [١] . فلا غرابة أن يستنتج ديوى أن ؛ « مفهوم المادة الذى يوجد بالفعل فى تطبيق العلم لا يمت بصلة إلى مادة الماديين » [٢] .

أيمكن أن يكون شىء أكثر غموضاً وغرابة من هذا القول الذى يقوله علماء الطبيعة من أن « المادة » بمعنى الجوهر المتحيز Spatial قد بطلت عن الوجود ؟ فهم يقولون إن الإلكترونات ليس فيها شىء من خصائص المادة : فهى ليست صلبة ، ولا سائلة ، ولا غازية ؛ وهى ليست كتلة أو صورة . وانحلالها إلى نشاط إشعاعى يلقى شكوكاً على أعز عقيدة فى العلم الحديث ، أى عدم قابلية المادة للفناء . ولنسمع رأى أحد علماء الطبيعة مرة أخرى :

« إن عناصر الذرات التى تنحل تفنى تماماً ، فهى تفقد كل صفة للمادة بما فى ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ، ولا شىء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة ، فقد اختفت فى عظمة الأثير ... والحرارة ، والكهربا ، والضوء ، إلى غير ذلك . . . تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها فى الأثير . . . والمادة التى تنحل تخرج عن ماديتها بمرورها فى حالات متتابعة تنتزع منها تدريجياً صفاتها المادية حتى تعود فى النهاية إلى الأثير الذى لا يمكن وزنه ، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه » [٣] .

الأثير ؟ ... ولكن ما هو هذا الأثير ؟ لا أحد يعرف . ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسماً على الفعل « يتموج » [٤] . والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث . فهو غامض غموض الشبح أو الروح . وافترض أينشتين وجود الأثير حين أعاد تفسير الجاذبية ، وعزم أخيراً أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه . وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول :

---

(١) Beyond Good and Evil, § 12.

(٢) Experience and Nature, p. 74.

(٣) ليبون : المرجع السابق ، ص ٧ ، ١٢ ، ١٤ .

(٤) نقلا عن وليم جيمس فى كتابه (معنى الحقيقة) ص ٥٩ .

« الأثير » . ويقول الأستاذ إدنجتون أحدث حجة فى هذا الموضوع : « ليس الأثير نوعاً من المادة ، فهو لا مادى » (١) . ومعنى ذلك أن شيئاً لا مادياً يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات Contortions الغامضة (دوامات Vortices كما سماها لورد كيلفن) . ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض ، مادة متحيزة ، ويمكن أن توزن . أهو اللاهوت قد أعيد أم هو علم مسيحى جديد ؟ أم هو صورة من البحث الطبيعى ؟ وفى الوقت نفسه الذى يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من الشعور حتى يرد العقل للمادة ، يأسف علم الطبيعة فى تقريره أن المادة لا توجد . ولقد قال نيوتن متعجباً : « أيتها الطبيعة احفظينى مما بعد الطبيعة (٢) (الميتافيزيقا) (٣) » . فيا للأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك .

يقول برتراند رسل : « يقترب علم الطبيعة من المرحلة التى يبلغ فيها الكمال » (٤) . وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك . أما هنرى بوانكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث فى حالة من الفوضى ، فهو يعيد بناء جميع أسسه ، وفى أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف . وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيراً تاماً فى العشرين السنة الأخيرة فيما يختص بالمادة والحركة كلتيهما . ولم تعد تسمح أعمال كورى ورذرفورد وسودى وأينشتين ومينكوفسكى لأى تصور قديم عن الطبيعة التيوتونية بالبقاء . وكان لابلاس يحسد نيوتن لأنه كشف النظام الوحيد للعالم ، وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكشف . ولكن عالم نيوتن قد انتحى اليوم جانباً . ولم يعد التثاقل Gravitation مسألة « جاذبية » Attraction ، وتمزقت « قوانين » الحركة فى كل جهة بنظرية النسبية . وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم فى « الأشباح » والمجردات ، وكان العلم يبحث فى المادة ،

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) نقلا عن بروسون : أناتول فرانس بالبنتوفل ، ص ٢١٨ .

(٣) ترجم العرب قديماً لفظة الميتافيزيقا بقولهم ما بعد الطبيعة ، ولكن هذا الاصطلاح طويل وتصعب النسبة إليه ، لذلك احتفظنا بلفظة ميتافيزيقا . وهى من اليونانية ميتا أى بعد ، وفيزيقا أى طبيعة (المترجم) .

(٤) What I Believe, p 2.

أى « المحسوس » والحقائق « الواقعية » . أما الآن فعلم الطبيعة مجموعة مستورة esoteric من القوانين المجردة ، « وفكرة المادة مفقودة بالكلية فى الدوائر العلمية » [1] . وكان على الفلسفة أن تنتحى جانباً (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال « خمسين عاماً ») أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . والآن – فى الوقت الذى يحمل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التى كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة – يقال لنا فى تواضع : إن « البحث العلمى لا يفضى إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة » [2] . وبدلا من ذلك يقولون لنا إن الساعة الدقاقة تسير أسرع تبعاً للسرعة التى تُحمل خلالها فى الفضاء ، وإن المسطرة قد تطول بعملية بسيطة هى تغيير موضعها من زاوية قائمة إلى خط مستقيم فى اتجاه حركة الأرض . فعلينا أن نتواضع إزاء القوانين غير المفهومة التى حلت محل وضوح علم الطبيعة القديم . ومن يدرى لعلها تكون صحيحة ؟ ومع ذلك فنحن نحذر العلم الذى يزيد عمقاً يوماً بعد يوم ، ويرفض فى يومه ما آمن به فى أمسه . فيوما يقدم لنا الذرات ، ثم الإلكترونات ، ثم الكوانتا (نظرية الكم) ، وأخيراً صورة مقدسة لعالم مادى مبنى بأعجوبة من الشحنات الكهربية بغير نويات مادية . وكان اشبنجلر وحده من الشجاعة بحيث يسمى هذا الأمر باسمه الصحيح : « كل نظرية ذرية هى خرافة وليست تجربة » [3].

ولنكن على حذر من اللاهوت أنىَّ نجده ، حتى إذا صادفناه فى العلوم « المضبوطة » . ولعل المادة تستمر فى الوجود على الرغم من علمنا الواسع الكثير الحيل . ولعل الحجر الذى اصطدم بإصبع الدكتور جونسون كان حقيقياً كالألم الذى أحس به . حقاً كان الحجر فى نظر الدكتور « حزمة من الإحساسات »

---

(١) إدنجتون ، ص ٢٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) انحطاط الغرب ، المجلد الأول ، ص ٣٨٧ . فقدت لفظة « علمى » عند المفكرين المعاصرين الشديدى العمق والاضطراب نفحة الكمال ، وأصبحت عبثاً لا يليق . فكل علم فى نظر اشبنجلر « خرافة مريحة » ، وميثولوجيا تحتل فيها « الكهرباء » و « الطاقة الموضعية » و « القوى » و « القوانين » محل الأرواح والآلهة ، ويقيد العقل المصورواقعيات الحياة فى صور من « الرياضة والميكانيكا » . وستكون مهمة القرن العشرين التى يتميز بها التخلص من هذا النظام القائم على السببية السطحية ؛ المجلد الثانى ، ص ١٨٠ ، ٣٠ ، ٥٦ ، ١٤٤ ، ٣١ .

فقط ، كما كان هيوم يصفه ، ولكن عندئذ تكون هذه الحزمة — هذه المقاومة الصاخبة لعضلاتنا وحواسنا — هي بالضبط ما نعنيه بالمادة . وقد نلقى بأنفسنا فى هذا العلم المدرسى الجديد ، ولكننا فى الحياة الواقعية ننتظر أن نجد كل طاقة مرتبطة بالمادة ، بشيء متحيز ، ذى ثقل ، « شيء يختلف عن أنفسنا هو الذى يبعث الإحساسات » .

ونحن لا نعرف إلى الآن ما المادة ، ولنقل ذلك حتى لا نقع فى الخطأ . ولكننا على يقين من أمر واحد ، وهو أن هذه المادة اللطيفة ليست هى المادة الخامدة التى كان العلم فى القرن التاسع عشر يقول بها . إنها صورة الطاقات غير المحسوبة وسبيلها . إنها حية بما فيها من التحام وجذب ودفع ، وعمليات الكتروليية (أى قابلة للتحليل الكهربى) واسموزية osmotic (أى قابلة للانتشار) ، وحرارة وكهرباء وضوء ، والإلكترونات ترقص ولا تستقر . فالحركة ، والطاقة ، والحيوية فى كل مكان ، ولسنا نجرؤ على تسمية أى شيء عديم الحياة . « إن جسماً صلباً فى مظهره مثل كتلة من الحديد يمثل ببساطة حالة من التوازن بين طاقته الداخلية نفسها وبين الطاقات الخارجية — الحرارة ، الضغط ، الخ ... — التى تحيطه . . . وعندما نضع يدنا على مقربة من كتلة من المعدن تتعدل حركة جزيئاتها » (١) .

ومن المفيد أن نضيف إلى ذلك التشبيه القديم الذى ذكره لوكريتيوس :

« عندما تنزل فرق الجيش القوية فى استعراض تحاكى فيه الحرب فتملأ السهل ، ويرتفع بريقها إلى عنان السماء ، وتومض الأرض بالنحاس ، وتتصاعد جلبة وقع أقدام الجند ، وتتضارب الصيحات فى الجبال فتنعكس أصواتها إلى النجوم فى السماء . . . ومع ذلك فلا تزال هناك بقعة فى أعلى الجبل يبدو منها جميع هؤلاء الرجال المتحركين واقفين بلا حراك ، ويلمعون فقط كنقطة ساطعة فى السهول » (٢) .

وكلما ازدادت دراستنا للمادة نقصت رؤيتنا لها كشيء أساسى ، وازداد

---

(١) ليبون : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٢) فى طبيعة الأشياء ، ترجمة منرو ، الكتاب الثانى سطر ٣٢٣ وما بعده .

إدراكنا لها كمظهر خارجي للطاقة فقط ، كما أن لحمنا هو العلامة الخارجية للحياة والعقل . ويقول إدنجتون : « فيما يختص « بالفعل » فقد اضطلع علم الطبيعة بهذا الأمر ، وألح فى اعتبار الفعل أساس كل شيء »[1] وبيّن عالم طبيعى هندى هو السر وجاديس شندرا بوس وجود « التعب » فى المعادن — أى عجزها عن الاستمرار فى رد الفعل بالنسبة لبعض المؤثرات فترة من الزمن — واختفاء هذا التعب بعد الراحة . وأوضح كذلك حساسية المعادن للمثيرات ،والمسكنات ، والسموم . وقد تكررت هذه التجارب وثبت صحتها فى قارات ثلاث[2] . وأصبح اصطلاح « حياة المادة » الذى كان يخلو من المعنى منذ خمسة وعشرين عاماً من الاصطلاحات الشائعة الاستعمال . « وإنا لنرى الآن علماء الطبيعة والكيمياء يجرون وراء الأفكار البيولوجية . وقد يكون امتداد التصورات البيولوجية إلى الطبيعة بأسرها أقرب مما كان يبدو متصوراً بضع سنين مضت »[3]. فنحن نسمع عن « تطور المادة » . ويظهر أن الذرة تولد، وتنمو ، وتفقد حيويتها ، وتموت .

ويدعونا هذا العلم الحديث الطبيعى للطاقة إلى صياغة المشكلة القديمة الخاصة بالمادية فى مقابل الروحية صياغة جديدة . أى مظهر للعالم الخارجى أكثر أساسية — المظهر المتحيز الممتد الذى كان علم الطبيعة يصفه « بالمادة » أو المظهر الفعال المحرك الذى نسميه الطاقة ؟ لا بد أن تكون الطاقة هى الجواب . والطاقة هى «ما لا يمكن معرفته» Unknowable ، و« الشيء فى ذاته» و«المطلق»[4] وهل تكون الطاقة ذاتها شيئاً متحيزاً ممتداً ، أى جوهراً مادياً ؟ لا يمكن أن نتصورها كذلك ، كما لا يمكن أن نتصور الفكر متحيزاً ومادياً . ويوجد فى قلب المادة شيء غير مادى يهبها الصورة والقوة ، وهو شيء له تلقائيته الخاصة وحياته . وهذه الحيوية اللطيفة ، المستترة ، والتى تتكشف مع ذلك على الدوام ، هى الجوهر الأخير لكل شيء نعرفه .

---

(١) ص ٢٤٠ .

(٢) ليبون ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٣) هالدين : الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠١ .

(٤) يشير المؤلف إلى سبنسر فى « ما لا يمكن معرفته » وإلى كانط فى «الشيء فى ذاته »وإلى هيجل فى « المطلق » (المترجم) .

ولكن هذين اللفظين « قلب » و « فى » استعارتان تميلان بنا إلى طريق أعمى ، فلا ينبغى أن نسمح لأنفسنا بالتفكير فى الطاقة كشىء مستقل عن المادة ، وتسكن فيها كالزئبق الذى كان يتأرجح فى تماثيل ديدالس (١) حتى يمنحها الثبات والحياة الظاهرة . وليس هذا العنصر الحيوى ، هذه الطاقة الفعالة ، كما يظن معظم أصحاب المذهب الحيوى أمراً منفصلا يمكن أن ينعزل عن المادة ، بل هو مرتبط بها ولا ينفك عنها ، كما يتصل العقل بالجسم ، ويكوّن مع المادة المظهرين الداخلى والخارجى لكلٍّ واحد لا يقبل الانقسام . والمادى بمعنى واسع على حق ، فهو حين يُعظِّم المادة إنما يعنى التعبير عن إيمانه بعدم وجود انقطاع فى اتصال النمو والتقدم ، وبأن الفلاسفة نشأوا من القردة ، وأن القردة قد تطورت عن البروتوزوا Protozoa (الحيوانات الأولية) ، ونشأت هذه فرضاً من المواد غير العضوية ، وهذه من أبسط الذرات . ولكننا لا نستطيع أن نعتقد هذا الأمر إلا إذا اعتقدنا كذلك فى وجود مبدإ للحياة ، وقوة تقسر على التطور داخل جسم المادة الجامدة فى الظاهر (لا يزال التشبيه المتحيز يتسرب) . فنحن لا نسد الثغرة بين المادة والعقل بأن نهبط بالعقل ، بل بأن نرتفع بالمادة . والعالم كما يظن المادى عالم واحد ، وكل جزئية فيه مكونة تكويناً مادياً . ولكن فى داخل كل جزئية من ذلك العالم المادى تعمل طاقة من تلقاء ذاتها تماثل الحياة والعقل ويعتمدان عليها . وقد نقول عن أحقر قطعة من الطين ما قاله هرقليطس عندما استقبل زواراً من علية القوم فى مطبخه البسيط البدائى : « أقبلوا ، وادخلوا ، فهنا أيضاً توجد آلهة » .

٥ — الحيـــاة

لقد حاولنا التوفيق بين الروحية والمادية بالربط بين الوضع الأساسى لإحداهما — أن لب جميع الأشياء أقرب إلى العقل منه إلى المادة — وبين وضعين أساسيين للأخرى — أن الحياة والعقل مرتبطان بالمادة ارتباطاً لا فكاك منه ،

(١) ديدالس Daedalus أحد المثالين فى كريت قديماً ، وصفه هوميروس فى أشعاره ، وكان يضع الزئبق داخل التمثال ليتحرك . فلما بحث الفلاسفة النفس الإنسانية تصوروا أنها شىء يوجد فى الجسم ويحركه مثل تماثيل ديدالس . وانتقد أرسطو هذه النظرية فى كتاب النفس (المترجم)

وأن جميع الكائنات الراقية (أى الأكثر تعقيداً) قد نشأت من كائنات أدنى أقل تعقيداً. وقد دافعنا عن الوضع الأول بكلام علماء الطبيعة أنفسهم ، ولكن لا يزال علينا أن نواجه الصعوبات التى تثيرها القضية الأخرى . ولنبدأ بالمشكلة الأخيرة ، ولنبحث فى الاتصال بين الصور العليا والدنيا من الحقيقة .

إذا كان هذا الاتصال يتضمن نظرية التولد الذاتى Abiogenesis — أى نشأة الحياة من الأشياء غير الحية — فأدلة علم الحياة تنقضها . فليس ثمة أى حالة معروفة لمثل هذه النشأة . ويبدو أن تجارب باستير التى أجراها فى فترة تبلغ سبع سنين (١٨٦٢ — ١٨٦٩) لا تؤيد الفكرة القائلة بأن البروتوزوا يمكن أن تنشأ من المادة غير العضوية . ويردد رأى العلم الحديث فى صور مختلفة شعار سير وليم هارفى : « كل بيضة تنشأ عن بيضة ، وكل خلية عن خلية ، وكل حياة من شىء حى ». ويقول ج . س. هالدين : « ليس ثمة أى احتمال بعيد لاستخلاص العضوى من غير العضوى » (١) . ويقول جوستاف بونييه متعجباً : « أن نخلق المادة الحية ؟ كيف يمكن أن نأمل فى ذلك مع الأحوال الحاضرة للعلم ، حين نفكر كم من الخصائص المتجمعة ، والوراثة ، والمستقبل المعقد يوجد فى قطعة من البرتوبلازم الحية ؟ » (٢)

ولكن على الرغم من صورة هذا الشك ، فلنا أن نرتاب فى أن هؤلاء الشكاك يوازنون بغير شعور تقريباً بين المادة « الميتة » وبين الكائنات المعقدة . وتقل الصعوبة حين نقصرها على الثغرة بين أبسط الكائنات وأعقد الغرويات (٣) Colloid . وتنتج الكيمياء التركيبية اليوم ١٣٠٠٠٠ مركب كربونى عضوى . والدجماطيقى فقط الذى لم يتعلم بعد إمكان ممارسة « المستحيل » هو الذى يقف على يقين من أن الكيمياء لن تحدث الحياة أبداً . وما تفعله الطبيعة ممكن ، وقد يتعلمه الإنسان ذات يوم. ولكن عندما يحيل النبات أشعة الشمس والمواد الكيمائية الموجودة فى الأرض إلى عصارته وأنسجته نفسهما فنحن ، أمام التحول من المواد

---

(١) الميكانيكية والحياة والشخصية ، ص ١٠٠ .

(٢) نقلا عن ليبون فى كتابه « تطور القوى» ، ص ٣٦٩ .

(٣) الغرويات ، أو الهلاميات ، مادة عضوية لا تذوب عادة ولا تتبلور (قاموس شرف) .

غير العضوية إلى المواد العضـــوية . حقاً تتدخل هنا وساطة الكائن الحى ، ولكن التحول مع ذلك حقيقى وهو المقابل الطبيعى وميزان تلك العملية التى يتغير بها العضوى إلى غير العضوى فى فساده وموته ، وهى عملية غامضة كذلك ، ولكن من الواضح أنها غير مستحيلة . ولعل العضوى وغير العضوى مظهران أو قطبان فى عملية واحدة من التطور والانحلال . ومن يدرى لعل المادة كما ذهب إلى ذلك فشنر ليست إلا فساداً للمادة الحية ، وأن غير العضوى و « الميكانيكى » أثران وفضلتان عن الحياة الماضية ؟

ومن المفروض أن الأرض كانت ذات يوم غير صالحة للكائنات الحية ، ومن المفروض أن الحياة لم تظهر على وجهها إلا حين تهيأت البيئة الملائمة . ولن يفيدنا أن نتبع أرينيوس[١] Arrhenius إلى النجوم البعيدة باعتبارها أصل الحياة . وتأجيل المشكلة هو الهرب من مواجهتها . ولنفرض أن كارثة قتلت سائر الحياة النباتية والحيوانية على ظهر الأرض ، ولنفرض أنه بعد فترة طويلة عاد إلى الظهور طقس يشبه فى اعتداله ورطوبته ما يسود كوكبنا اليوم مع سائر الشروط الطبعكيمائية[٢] Physico-chemical . أليس من المحتمل أن تعـــود الأرض فتنتج البكتريا ، والبروتوزوا ، والنباتات ، وملايين الصور من الحياة ؟ فمتى سلمنا بالتطور لا نستطيع أن نحدده ، فلا موضع فى الخط من شكسبير إلى البراميكيوم Paramecium يمكن أن نقف عنده ونهجر الاتصال لتدخل معجز . وكما احتج هكسلى بأن الثغرة بين الإنسان والشمبانزى ليست من السعة بمقدار الثغرة التى بين أدنى النسانيس وأرقى القردة ، فكذلك يمكن أن نقول إن الثغرة بين البروتينات التركيبية وبين الأميبا أضيق من الخط غير المنقطع الذى يفصل بين الأميبا والقديس ويربط بينهما .

إن التصور الجديد عن المادة بأنها « حية » يلطف من حدة التباين بين العضوى وغير العضوى ، ويخفض من صعوبة تصور التطور المتصل . والحياة

---

(١) أرينيوس كيمائى سويدى كان عميد جامعة ستوكهلم ، ونال جائزة نوبل عام ١٩٠٣ فى بحث عن نظرية الانحلال الالكترولى ، وأصبح مديراً لجائزة نوبل منذ عام ١٩٠٥ ، ولد ١٨٥٩ وتوفى ١٩٢٧ (المترجم) .

(٢) مركب مزجى من لفظى الطبيعة والكيمياء (المترجم)

نتيجة لا لذلك المظهر الخارجي من الحقيقة التي تعطى لنا الثقل والصلابة والامتداد ، بل لذلك المظهر الداخلي الذي يقدم لنا طاقة الذرة ، وكهرباء « الأثير » التي لا تستقر ، وحيوية الخلية التي تتحسس بها . لقد جعلت تصورات القرن التاسع عشر في الطبيعة والكيمياء الثغرة بين الحي وغير الحي مما لا يمكن عبورها ، حتى إن سبنسر مع أنه كان تواقاً أن يجعل التطور كاملا إلا أنه اضطر إلى الهرب من المشكلة فكتب يقول : « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الحياة في جوهرها لا يمكن أن نتصورها في اصطلاحات طبعكيمائية »[1] وعندما تأخذ الطبيعة والكيمياء في التسليم بالتصور الخاص بالحياة على أنه موافق لنهاية التصور الخاص بالمادة ، يختفي تقسيم الحقيقة والنشوء إلى نصفين لا يمكن التوفيق بينهما ، وتتحد المادة التي يكون قلبها الحيوية ، مع الحياة التي تكون صورتها المادة ، حتى يهبان العالم تلك الوحدة الكاملة والائتلاف التام اللذين بغيرهما لن يهدأ للعلم أو الفلسفة بال .

٦ — المادي يتكلم

ولكن إذا كان ثمة بعض الصعوبة في قبول فكرة تطور الحياة عن المادة غير العضوية ، فكم يبدو الأمر أكثر صعوبة في قبول فكرة التطور الطبيعي لما نسميه تسمية غامضة « العقل » . ولقد قال نيتشه : « إن نمو المادة (أسلوب قديم في التعبير) إلى شخص مفكر أمر مستحيل » . وسوف نجد هنا ، كما وجدنا من قبل ، أن تصور المادة خامدةً يفضي إلى مأزق من الصعوبات لا يمكن التغلب عليها إلا بتضحية نظرية اتصال التطور . وتقدم لنا الروحية والمادية مرة أخرى أدلتهما التي لا يمكن دحضها ، ثم يتركاننا موزعين بين نصفين من الحقيقة لا يقنعان بأن يكونا جزأين من كل . فلنتابع هذين النصفين من الحقيقة بعض الوقت .

يبدأ المادي بأن « يضع الاتصال » . وتشير تجارب بوز Bose إلى سياسة خاصة في المادة ، فلو وضعنا قضيباً رفيعاً من البلاتين في مقياس

---

(١) مبادىء علم الحياة ، المجلد الأول ، ص ١٢٠ .

التشعع (البلومتر bolometer) [1] لاستجاب لارتفاع فى درجة الحرارة يبلغ واحداً من مائة مليون درجة [2] . لا ريب أن هذه الحساسية مختلفة فى نوعها عما نجده فى الكائنات الحية . وهى لا تؤدى إلى رد فعل متلائم يرتفع بقوة الكائن فوق بيئته ، ولكنها توحى لنا بالطريقـــــة التى سدت بها الطبيعة الثغرة بين المادة والعقل .

وتظهر المرحلة الثانية فى تطور العقل فى حساسية رد فعل النباتات للوضع ، والتماس ، والحرارة ، والرطوبة ، والضوء . ويعتقد يركس Yerkes أن أهم خاصة للعقل وأقواها — القدرة على التعلم ، والقدرة على الاستجابة استجابات مختلفة نتيجة التجربة —علامة تميز حتى أدنى بروتو بلازم. وقد روع «بوز» مرة أخرى [3] اللجنة البريطانية لتقدم العلوم حين أوضح أمامها التشابه المفصل بين الجهاز الدورى فى النبات والإنسان ، وقابلية العصارة السائلة للتأثر بالمؤثرات والمسكنات والسموم . واكتشف إدوارد تانجل خيوطاً دقيقة من البروتوبلازم تمر فى النبات من خلية إلى أخرى ، ويعدها معظم النباتيين شبيهة بالألياف العصبية فى الحيوانات [4] . وهناك بعض النباتات شديدة الحساسية للضوء ، حتى لقد تحولت « ساعات نباتية » floral clocks . وثمة خمسمائة نوع من النباتات آكلات الحشرات ، ولبعضها كما بين دارون حليمات حساسة قادرة على كشف ما مقداره $\frac{١}{٧٨٠٠٠}$ من الجرام [5] . ونحن نجد أول بدايات محدودة للعقل فى هذا التكيف البدائى لرد الفعل نحو غايات تفيد الكائن الحى .

وتزيد الحساسية مع القابلية للتحرك . فليس على النباتات مع قوتها على تحويل المواد غير العضوية إلى غذاء أن تتحرك ، فيما عدا الذهاب بجذورها فى الأرض ، أو بسوقها فى السماء . ولكن النباتات تدفع ثمن هذه الحياة البسيطة بتضحية كثير من قواها الخاصة بالاستجابات الموجهة . وأصبحت النباتات التى

---

(١) آلة دقيقة لقياس إشعاع الحرارة .

(٢) ماكيب : تطور العقل ، ص ٣٣ .

(٣) جلسة ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

(٤) هولت : فكرة الشعور ، ص ١٧٢ .

(٥) ماكيب ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

كانت تتحرك حيوانات ، وتقدم فيها عضو المغامرة والضبط : الجهاز العصبى ، ذلك العضو النفيس والمؤلم . ومع ذلك فإن أدنى الحيوانات لا يوجد فيها جهاز عصبى ، إذ تعمها الحساسية – أو الاهتياج irritability كما سماها بعض علماء الحياة المختصين فى الأعصاب – وتظهر دون تمييز فى سائر أنسجة الكائن . ولكن حتى فى تلك العوالم المنحطة يبدأ بعض التخصص ؛ ففى الفطر volvox وغيرها من البروتوزوا المتجمعة تظهر الخلايا الخارجية اهتياجاً خاصاً ، على حين تظل الخلايا الداخلية أو التناسلية غير حافلة نسبياً بالمؤثرات الخارجية . ويزيد التخصص فى الحساسية عندما نرتفع مرحلة أخرى فى السلم ؛ ففى الحيوان البحرى المسمى « فرج البحر » Jelly fish ترتبط بعض الخلايا العصبية الخارجة من سطح الكائن بحلقة من « شبكة عصبية » مكونة من خلايا موصلة تدور حول حافة « ناقوس العوم » umbrella . وهنا نجد أن التخصص قد فصل الخلايا العصبية إلى نوعين : « أعضاء طرفية » end-organs حساسة ، وأنسجة عصبية موصلة . وهذا أول ظهور لجهاز عصبى ، وهو الآلة المحركة للعقل .

أما الدودة المسطحة flatworm فخليتان عصبيتان من خلاياها ذات حجم غير عادى ، وتؤديان عمل « المركز العصبى العقدى » central ganglia أو المخ للخلايا الأخرى من الجهاز . وقد خلق تحديد هذه الخلايا العقدية بالقرب من الفم الرأس . ونما الرأس لحماية الفم ، كما نما البدن حول المعدة لحماية عملية الهضم ومساعدتها . وفى دودة الأرض يعقد الخط العصبى نفسه إلى مراكز عقدية فى كل فلقة أو قطعة من الجسم ، ومن هذه المرحلة إلى الإنسان « يُقَطَّع » الجهاز العصبى : أى يقسم إلى مراكز عقدية موازية فى الخيوط العصبية لفقرات العمود الفقرى . وهذه المراكز العقدية على الرغم من اتصالها فى دودة الأرض فإن كل مركز منها يكاد يكون مستقلا عن الآخر بحيث يمكن أن يتلوى أى جزء يقطع على هواه . ولكن مع تعقد تركيب الأنواع العليا وتعقد وظائفها ، نمت الضرورة للاتصال والتنسيق . ومع أن مراكز النخاع الشوكى استمرت فى أداء عملها كمراكز للأفعال المنعكسة الموضعية ، فقد ازداد عدد الألياف التى تمر من هذه المراكز إلى مراكز المخ فى الدماغ ، وظهر « جهاز عصبى مركزى »

قادر على الشعور وعلى حكم الجسم ككل . وليس التكامل تاماً حتى فى الإنسان ، إذ تظل وظائف كثيرة خارج رقابة المخ ، وتخضع فقط « للجهاز العصبى السمبتاوى » وهو البقية من مرحلة الشبكة العصبية . أما ما نسميه « العقل » فإنه يعمل فى أظهر الأمر بطريق الجهاز « المركزى » أو « المخى الشوكى » قبل كل شىء . ووظيفة العقل الأولى والأولية هى تكامل السلوك ، وإخضاع الاستجابات الحركية للهداية المركزية ورقابتها . ومن الواضح أن الفكر بطريق الجهاز العصبى أصبح حقيقة .

ولو كان لنا أن نستدل من علم الأجنة ، فقد نشأ العقل من توسيع العصب الشمِّى ، فقد كان عصباً متواضعاً متصلا بالأنف ، وظل العقل يعمل عصوراً عدة بطريق حاسة الشم . ثم ارتبطت أعصاب أخرى بالمراكز المخية : أعصاب من العينين ، والوجه ، والأذنين ، والحلق ، واللسان ، والرقبة ، والأمعاء . وانتقلت الأعصاب الشوكية شيئاً فشيئاً إلى الجهاز المخى ، وأخـذ الرأس يحكم البدن أكثر فأكثر ، ونمت وظائف التنسيق والتكيف والرقابة بين الفعل ورد الفعل مع نمو المخ . ويزن المخ فى الأسماك ١/٥٦٦٨ من وزن الجسم ، وفى الزواحف ١/١٣٢٢ ، وفى الطيور ١/٢١٢ ، وفى الثدييات ١/١٨٦ ، وفى شمبانزى عمره سنتان ١/٢٥ ، وفى طفل عمره سنتان ١/١٨ . فهذا هو السلم الذى ارتقيناه .

هناك إذن أمر واحد واضح : أعقد عقل هو تطور طبيعى من الاهتياج غير المتخصص لأبسط بروتوبلازم فى أدنى درجة من الحياة . إنه يمثل فقط تخصصاً واحداً أكثر فى المادية الحية ، وعضواً واحداً أكثر للتحكم فى البيئة . هذا إلى أن تعقد العقل ينمو خطوة بعد أخرى فى الجنين والفقريات ، وفى الفرد والجنس ، مع نمو تعقيد التركيب فى الجهاز العصبى . ويصحب النمو من الحساسية العامة إلى المراكز العقدية إلى المخ بالتقدم من الانتحاء **tropism** إلى الفعل المنعكس ، إلى الاستجابة عن تعلم . ولا يقضى انتزاع مخ الحيوان عليه ، كما بيّـن جلوتز على كلبه ، ولكن ذلك الانتزاع يقضى على الإنسان دائماً لأنه لا يستطيع أن يعيش إذا نسى كل ما تعلمه منذ الولادة . ويبدو أن هذه التجارب الفردية تختزن فى ألياف الترابط الموجودة فى السحاء ، والتى تبين نمواً كبيراً من الطفل إلى البالغ ، ومن الحيوان إلى الإنسان .

ولم يجب أحد قط عن هذا السؤال وهو : كيف يمكن أن يؤثر الجسم والعقل أحدهما فى الآخر إذا كانا من التميز التام كمادة لا عاقلة وعقل لا مادى ؟ وفى ذلك يقول لوكريتيوس : «حين نرى الروح تحرك أطراف البدن ، أو توقظ الجسم من النوم ، أو تعدل المزاج ، أو تهدى المرء كله وتوجهه ؛ وعندما نرى أن شيئاً من هذه الآثار لا يتم بغير لمس ، ولا يتم اللمس بغير البدن ، أفليس لنا أن نسلم بأن العقل والروح من الطبيعة نفسها كالبدن ؟ » [1] أو فلنقفز ألفى عام لنجد الفيلسوف العابث مارك توين يقول :

« الشيخ (يتهكم) : ألا يمكن للعقل ما دام روحياً أن يتأثر بالمؤثرات الطبيعية ؟

الشاب : كلا

الشيخ : أيظل العقل متزناً حين يسكر الجسم ؟ » [2]

وقد ينشأ الجنون عن إصابة المخ ، وقد ينشأ النوم عن التعب ، وقد يغيب المرء عن الوعى بالعقاقير ، أو المرض ، أو نقص الأوكسجين ، أو الدم . ويتوقف الوعى على الإحساسات . وكان صبى سترمبل strümpell وليس له من الحواس إلا البصر يستغرق فى النوم دائماً حين يغمض عينيه . وعند الإحساس بالشعور ينشأ الوعى من الصراع بين الدوافع أو الأفعال المنعكسة . فإذا انعدم الصراع يُؤدى العمل أداء أفضل بدون الانتباه إليه . ولعل الوعى مرحلة انتقال مضرة . فالحيوان إذا كان كامل التكييف لحاجاته بطريق دوافعه وحواسه لا يكون واعياً . وذهب نيتشه إلى أن الوعى قد يضعف ويختفى عندما تتطور عادات الإنسان التى تستلزمها البيئة إلى أوتوماتيكية ثانوية .

أما النفس فليست إلا المجموع الكلى لصفات الكائن الوراثية وتجاربه المكتسبة . فإذا تغيرت التجارب تغيرت النفس ، فالرجل ينظر إلى نفسه عندما كان صبياً كأنه يتأمل شخصاً خارجياً أجنبياً . وإذا أصيب أحدنا ببعض الاضطرابات ازدوجت شخصيته ، وذلك إذا انفصل مركز من مراكز التجربة أو

---

(١) الكتاب الثالث – سطر ١٦١ وما بعده .

(٢) ما الإنسان ؟ : ص ٩٧ .

عقدة من الألياف فى المخ عن الباقى ، واستقل المركز أو العقدة بالعمل لحسابه . فمن الواضح أن النفس وحدة مزعزعة تتكون من الوراثة والذاكرة والغاية ، وهى إلى الفناء أدنى منها إلى البقاء .

والتفكير فعل بدائى ؛ فالانتباه توتر ، والنفور تجنب ، والشهوة بحث ، والانفعال حركة . والفكرة أول مراحل الاستجابة . ونحن نسمى الفكرة كذلك لأن نزوعاً آخر إلى الفعل قد اعترض طريقها قبل تحققها الخارجى. والروية بديل عن استيلاء بدايات الأفعال والانفعالات والرغبات المتنافسة على البدن . والانفعالات كما بين « كانُنْ » Cannon شروط للدم تحدث عن إفرازات الغدد ، فلن نغضب دون وجود الغدة الأدرينالية (الكظران) ، ويصبح المرء أبله بلا غدة درقية . فكل فعل ، وكل فكر ، محدود بالرغبة ،والرغبة أحد شروط البدن ؛ فالجوع فراغ فى بعض الخلايا ، والحب امتلاء فى بعضها الآخر . وتنشأ التصورات الشهوانية من النضج الفسيولوجى . ويرجع نصف الشِعر فى العالم إلى اختلال الخلايا . فالعقل فى جميع وظائفه جزء من الجسم ، ينمو مع نموه ، ويفنى بفنائه . وليس العقل أكثر بعداً عن الطبيعة الجسمية من الهضم ، والتنفس ، والإفراز ، فهو ليس إلا أرقى وظائف الجسد .

٧ — المثالى يرد

يقول المثالى : هذا مخجل ؛ فلا شيء أكثر سخرية من هذه المادية الساذجة . أيمكن أنْ نتصور أن المادة يجب بأى نحو من أنحاء التحويل أنْ تصبح قادرة على التلفت حولها لتحس وتعرف وتحكم نفسها؟ فأحط صور العقل غير مفهومة فى العبارات المادية ، إذ كيف تستطيع المادة مثلا أن تحس الألم ؟ قد نتصور أن المادة تتذكر ، أما مادة تتبصر أو تتعرف فكيف يكون ذلك ؟ إذا كان العقل هو المخ فيجب أن نعثر على آفات بالمخ لكل فجوة فى الذاكرة . ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك (١) . وقد أخفق سائر الجهد الذى بذل لربط العقل بالمخ ، اللهم إلا إذا كان ذلك على سبيل التوجيه ، والأداة ، والسيادة ، والآلية . أتوجد هزيمة عقلية فى عصرنا الحاضر أعظم من إخفاق علم النفس الفسيولوجى ؟

(١) برجسون : المادة والذاكرة ، لندن ١٩١١ ، ص ٣١٦ .

غير أن هذه اعتبارات بسيطة : فلتتلفت حولك ، ولتتأمل الفكر . حقاً لقد أخبرنا وليم جيمس وهو يستبطن نفسه أنه لم يجد شعوراً آخر سوى : «أنا أتنفس » . ولكن ال « أنا » هى الشىء المهم هنا ، لا « أتنفس » . فنحن لا نرى شيئاً عند الاستبطان introspection لأننا نبحث عن شىء متحيز ومادى . إننا نجد مشقة فى الإخبار عما « نرى » لأننا نسعى وراء الصور المحسوسة ، بل إن « نرى » عبارة عن افتراض مادى . ولكن أحداً لم يشرع فى سد الثغرة بين العلاقات المكانية التى تكون العالم الخارجى ، وبين عمليات العقل اللامكانية . فنحن نستطيع أن نفكر فى مساحات كبيرة بمثل السهولة التى نفكر فيها فى مساحات صغيرة . ولا يشغل تصورنا الميل من الحيز أو الجهد أكثر مما تشغله البوصة . وقد نفكر فى دهور عظيمة من الزمان ، أو نركز انتباهنا فى لحظة من الذاكرة . ونستطيع بالإرادة أن نعظم الصور الذهنية ، أو نرد بعضها إلى بعض ، أو نربط بينها ، بصرف النظر عن كيفية ارتباطها فى التجربة . وليست الصورة الذهنية هى الفكر ، فكثير من الملاحظين لا يجدون فى بعض الأحيان أى صور فى تفكيرهم . ومهما يكن مقدار الصور الموجودة عندنا فإنها ليست أساسية ، بل أدوات نستعملها ؛ فقبعة مثلثة ، أو يد موضوعة على بطن شخص بدين ، من الصور التى تفيد فى نقل فكرة idea نابليون فى مئات من المظاهر والمفهومات . وكلما كثر تفكيرنا فى شىء قلت الصور التى نحتاج إلى استعمالها . ولا تكون الصورة مهمة إلا حين تكون إعادة لفعل من الأفعال ، أى صورة منطبعة فى المخ لحركة ننوى أن نفعلها . أما حيث لا يوجد أى فعل ، فالفكر يجرى فى طريقه بأقل ما يمكن من الصور ، ومن الواضح أنه يصبح عملية تتخطى كل قالب مادى أو استعارة مادية .

والشعور بوجه عام بندقة يصعب على المادى كسرها . وهو يحل المشكلة بالاعتماد على الشجاعة أكثر من اعتماده على الصراحة ؛ فيزعم أن الشعور لا وجود له . فهو على قدم المساواة عقلياً وخلقياً مع المثالى المتطرف الذى ينكر إنكاراً تاماً حقيقة العالم الخارجى . فالفلاسفة هم دائماً آخر من يكتشف الحقيقة . فقد ظلوا ثلثمائة عام يبحثون حتى اكتشفوا أن العالم الخارجى موجود . وعندما نفخ

الواقعيون المحدثون New Realists فى أبواقهم ، ودقوا طبولهم ، فأعلنوا أن الشيء يكاد الآن يكون يقينياً ، امتلأت سماء الفلسفة بالدهشة والشك ... فأخيراً لعل ثمة عالماً خارجياً ؟ فلعل بعد ثلثمائة عام يكتشف السلوكيون والماديون العالم الداخلى كما يكتشفون حقيقة الشعور وفعله . وعندئذ ينتهى علمهم آخر الأمر إلى مقدار ما يعلم رجل الشارع .

وقد سلم هكسلى فى أمانة غريبة أن المادية لا يمكن أن تفسر الشعور ، وأنها بمقتضى منطقها ومقدماتها مضطرة إلى القول بأن الشعور « ظاهرة ثانوية » epiphenomenon ، أى زيادة لا نفع فيها تضاف إلى المخ والأعصاب ، كالحرارة فى المصباح ، أو الضوء فى النار . حقاً هناك أبنية structures لا نفع لها تعيش بعد التطور ، ولكن لعل ذلك لأنها لم تكن مضرة ، أو أنها بقية لأشياء كانت نافعة فى وقتها . ومع ذلك فالمادى ممنوع من الاعتقاد بأن الشعور كان نافعاً أبداً ، أو حتى أنه لم يكن مضراً . أو إذا كان المادى فى أكبر الظن من المفكرين على استحياء ، فقد يسلم بأن الشعور بالذات يمكن أن يكون تعديلا أو ضرراً . وبعد فمن منا يستطيع أن يحسن المشى وهو يفكر فى رجليه ؟ وكيف يغفل المادى الدليل الواضح بأن الشعور قد نما جنباً إلى جنب مع قوة الحياة ومرونتها ، وأن تلك الحيوانات الموهوبة أعظم درجة من الشعور تتحكم فى الخلق ؟

٨ — التركيب

لقد حان الوقت الذى نجمع فيه بين هذه الخيوط ، وننسج أنصاف هذه الحقائق نسيجاً واحداً . وقد اقترح ليبنتز أن ينقذ السفينة الغارقة بنظرية « التناسق الأزلى preestablished harmony » : فالعقل والجسم يتوازيان ، ولكنهما مستقلان ، فيجرى أحدهما إلى جانب صاحبه رأساً برأس ولكن دون أن يتماسا أبداً أو أن يؤثر أحدهما فى الآخر . أما وفاقهما الظاهر فى كل لحظة فليس إلا دليلا من جملة الأدلة على العناية الإلهية . والمزية الوحيدة لهذه النظرية أنها ليست فى حماقة غيرها من النظريات . وليس مجال الاختيار بينها وبين أحدث الأزياء

الفلسفية وهى « المادة المحايدة » كبيراً . فعلم الطبيعة فى نظر « الواحديين المحايدين » الذين يعد برتراند رسل أقلهم إقناعاً ، قد رد المادة إلى نظام من العلاقات والأحداث ، والإدراك هو العبور الزائل لهذه العوالم المتقاربة . فهذا أيضاً لا بد أن يكون توفيقاً إلهياً للمتناقضات القديمة . ومن هذا البحر من « المادة المحايدة » — هذا النسيج الغشائى من العلاقات والأحداث — ينشأ كلا المادة والعقل . لقد انكمشت الأنفس والأبدان إلى مثل هذا الغشاء الرقيق .

أما نحن فسنستمر فى الاعتقاد بأن « الأحداث » التى تكوّن معرفتنا بالعالم الخارجى تكشف عن حقيقة ملموسة ومؤثرة جديرة كل الجدارة بأن تسمى مادة ، ومستقلة مع الأسف عن رغباتنا ومشاعرنا . ولما كانت المادة غير خامدة بل حية ، فإن مشكلة المادة والعقل تنتهى إلى مغالطة تقوم على فساد المقدمات . ولا ريب فى أنه من الصعب أن تتطور المادة الخامدة التى يقول بها الماديون إلى العقل . ولكن الشخص الذى يتتبع مغامرات علم الطبيعة الحديث لن يكون على يقين من أن المادة الديناميكية التى يقول بها العلم هذه الأيام ليست حيوية وغامضة مثل حيوية العقل نفسه وغموضه . وليس من العجيب أن يكون العقل قد تطور عن مثل هذه المادة . ولكن ليس موضع السؤال أن يكون أحدهما قد تطور عن صاحبه ، بل المشكلة حين توضع من جديد هى ما يأتى : أيمكن أن تنمو أدنى صور العقلمادة mind-matter [1] إلى أرقى الصور ؟

ذلك أن العقل ليس المادة ولا المادة هى العقل ، بل ثَمَّ عقلمادة . وليس العقل شيئاً متميزاً يقوم فى داخل المادة ، كما أن الحياة ليست شيئاً يسكن فى البدن كالرجل فى البيت . « العقل » اسم مجرد ، وهو اسم جَمْعٍ نطلقه على عمليات المادة الحية حين تفكر ، كما أن البصر اسم نطلقه على عمليات المادة حين تبصر ، أو كما نطلق اسم الحب على عمليات المادة حين نحس بالجوع إلى الامتلاك أو الصلة الجنسية . فهناك « تدخل بين العقل والجسم » لا على معنى وجود شيئين متميزين يؤثر أحدهما فى الآخر ، بل فقط على معنى أن شيئاً واحداً هو عضو من أعضاء الجسم ووظيفة له (الأعصاب — الفكر)

(١) العقلمادة مركب مزجى من اصطلاحى العقل والمادة معاً (المترجم) .

يؤثر فى أعضاء الجسم ووظائفه ويتأثر بها (الرئتان — التنفس ، المعدة — الهضم ، الأطراف — النقلة ، الغدد التناسلية — التناسل ، الغدد — الإفراز) . فجزء من المادة الحية الأرقى تطوراً يتكامل بوساطة « فعل الجهاز العصبى الموحد » مع بقية الكائن ويهديه السلوك . إن أرقى صور « العقل » قريبة فى طبيعتها ومتصلة فى نموها بأدنى صور الحياة والحيوية الأولية للذرة . بل إن الشعور ، مع أننا لانستطيع تفسيره (أن نرسم له رسماً بيانياً مادياً وميكانيكياً) يقع بشكل مفهوم داخل خطة التطور ، لأننا لا نستمده من مادة الماديين الخامدة الهامة ، بل من تلك الطاقة الغزيرة وهى مادة الحياة .

فإذا كنا نتحدث عن الفكر كأحد وظائف الجسم ، فليكن مفهوماً أن هذا الجسم لا نتصوره على أنه « مادة » بل على أنه حياة . والحيوية حتى فى أبسط الخلايامركزية ، والهيئة المادية ليست إلا قشرة ، مع استعمال الاستعارة الخادعة مرة أخرى . وليست الحياة وظيفة للهيئة ، بل الهيئة أو الصورة Form من نتاج الحياة . وثقل المادة وصلابتها نتيجتان للطاقة الذرية الباطنة وتعبيران عنها [1] ، وكل عضلة أو عصب فى الجسم آلة مشكلة للرغبة . ومن الخطأ افتراض أن الحياة والعقل يبدآن من الإحساسات التى تبنى نفسها آلياً إلى فكر ، فالأمر على العكس من ذلك ، إذ أن الرغبة أو الطاقة المتشكلة هى جوهر الكائنات العضوية بالذات . فالرغبة فيما عدا الاستدلال الخارجى هى التى تحدد الغرض والميول والحركة ، وتختار من أجل ذلك الإحساس والتجربة . وليست التجربة هى « المطلق » كما ظن برادلى ، لأنها آلة مخلوقة للرغبة . وإذا وجب أن يكون لنا « مطلق » فهو الطاقة التى ترتفع من حيوية الذرة غير الموحدة إلى النشاط الموحد الخاص بالعقل الناضج الذى يجعل أغراضه غرضاً واحداً ، ويبصر جميع الأشياء فى ضوء الكل . إنها طاقة المادة الحية التى خصصت الأعضاء والأعصاب والأمخاخ وشكلتها . فإذا كنا نستطيع التفكير اليوم فذلك لأن لنا أمخاخاً ؛ ولكن الحياة — وهى تحاول التفكير فى قديم الزمان — كما خلقت المخ ، فلا يزال المخ ينمو حتى اليوم عن طريق محاولة الفكر الراغب وخطئه . فالحياة هى أول كل شىء ،

---

(١) ليبون : تطور المادة ، ص ١٠ ، ٣٠٩ .

وفى كل شىء . والمادة القديمة قدم الحياة فى الزمان ، والتى لا تنفك عنها فى المكان ، تأتى فى المحل الثانى بعد الحياة فى الجوهر والمنطق والمفهوم . فالمادة هى صورة الحياة وما به يمكن رؤيتها .

فهذا هو المذهب الحيوى vitalism ، ولكنه مذهب واحدى monistic يسلم بالحياة على أنها الحقيقة الأساسية ، والمادة (أى الامتداد) هى رداؤها الخارجى . ولكن المذهب لا يسلم مع برجسون بأن المادة والحياة قد ينفصلان ، فالاثنان فى كل مكان شىء واحد . ولن نسمح لأحد أن يتهمنا بالغموض فى هذا الموضع ؛ فلم تعد وحدة المادة والعقل الموجودة فى كل مكان شيئاً أغمض أو أعسر فهماً من الاتحاد بين الفكر المقصود والجسد غير المستقر فى الإنسان الحى . وكيف يكون ثمة غموض فى التسليم بأن الحياة أساسية ، حين تكون معرفتنا لها أكثر مباشرة وأوثق صلة من أى شىء آخر ، وتكون معرفتنا لسائر الأشياء الأخرى بوساطة هذه الحياة ؟

ولقد كانت الميكانيكية المادية هجوماً على الدين ، والمثالية الذاتية حملة على الإلحاد ؛ فإذا لم نرهب أفكارنا أو عصرنا فقد نرفض المذهبين معاً . ومع ذلك ففى هذه الواحدية النفسطبعية psycho-physical monism لم ترفض مذاهب المادية ، والمثالية ، والروحية ، إذ تلتقى وتتداخل ؛ فالمادية من جهة أنها ترى جميع الحقائق مرتبطة فى حقيقة واحدة من التطور والوحدة المتصلين بغير انقطاع ؛ والمثالية من حيث إنها ترجع جميع حقائق المعرفة للتجربة ؛ والروحية من جهة أنها ترى جوهر الحقيقة لا فى الامتداد والصلابة والثقل بل فى القوة الدافعة إلى الفعل ، وهى فى وقت واحد حياة الذرة وسر العبقرية والطاقة المولدة لها — « وهى حركة وروح تدفعان جميع الأشياء المفكرة ، وموضوعات جميع الأفكار ، وتنفذان إلى باطن كل شىء » . وقد أثبت العلم صحة هذا الخيال الشعرى .

لقد حاولنا نظرة تركيبية تسعى إلى حد ما أن تلم بأطراف المنظر الكلى للعالم وما فيه من تعقيد شديد . ولا ريب فى أن ناقد أخفقنا فى هذه المحاولة ، اللهم

إلا أن نكون قد جعلنا ما ندركه ونشعر به أكثر غموضاً . ومرة أخرى كيف للقطرة أن تفهم البحر ؟

لا العقل يقنع ولا العظات تفيد
رطوبة الليل تسرى إلى أعماق نفسى
وأقلب اليوم نظرى فى الفلسفات والأديان
إنها قد ترضينى كل الرضا فى قاعة الدرس
ولكنها لا تصلح أبداً فى رحاب السحاب
وفى بساط الأرض والمياه المتدفقة

وليس ذلك إلا لأن المياه المتدفقة والأرض الواسعة ، بل السحب الشاسعة ، تتزاحم فى خضم الحياة .

الفصل الرابع

هل الإنسان آلة ؟

١ — استعراض

ننتقل الآن من العالم الخارجى إلى الداخلى ، لا لنبحث فى طبيعة العقل ، بل فى كيفية عمله . وليس لنا أن نفصل بين العالمين ، فقد رأينا أنهما منفصلان فى الفكر فقط ، أما فى الواقع فهما وحدة فى المكان والزمان معاً : فكل ذرة لها نواة حية ، ولكل عقل صورة مادية . ويرتبط أرقى عقل فى تطوره المتصل بأدنى ذرة ، ويجب أن تكون قوانين أحدهما هى قوانين الآخر . فإذا كانت الذرة آلية mechanical ، فالإنسان آلة .

ومذهب الحتمية أقدم الفلسفات ، كما أن مذهب الأنيمزم Animism أقدم الأديان . فالإيمان الساذج يرى فى كل شىء إرادة غريبة ؛ وكان أول رد فعل من أصحاب النظر العقلى على هذا الاعتقاد الظاهر هو التسليم بعجز الفرد أمام القانون فى كل مكان . فقد يبلغ الدين والفلسفة هدفاً واحداً من هاتين البدايتين المختلفتين ؛ إذ يمكن أن تجرد الإرادة الكلية من أهوائها وتصبح شيئاً واحداً مع نظام العالم الثابت . ففى الشرق القديم ، حيث كثر التناسل حتى فاق ما يتناسب مع ما تجود به الأرض ، وانكسرت نفسه بالعمل الشاق وضاقت بزحمة السكان المتزايدة ، فقدأخذ الاعتقاد البدائى فى الإرادة يتجه نحو الزوال من الدين كما أخذ فى الزوال من الفلسفة . وأصبح الناس يتصورون السعادة على أنها خمود الرغبة ، ونعمة الشخصية المستسلمة ، واصطنع الكاهن والحكيم مذهب القضاء والقدر . ولم يكن من الممكن أن يحصل الفرد على قيمة أساسية أو أهمية فى تلك المراجل من الإنسانية التى كانت تغلى بمن فيها ، وكان الفرد يرى نفسه

وهو معتمد على هذا الماضى المفجع اللانهائى ذرةً تافهة قد ألقيت فى هذا الخضم ، غير مسئولة عن شىء ، تكافح عبثاً بعض الوقت ، ثم تبتلع فى الظلام ولا حيلة لها فى دفع هذا الغائل كأنه أمام عدو مجنون . وقد تبين الخيام تلك الحال فنظمها فى أبيات حفظها عن ظهر قلب كل شاب ثائر .

أما فى الحضارات الفعالة والمتقدمة — حيث تسيطر شعلة الفكر الغامضة ، التى تحترق وتبرق فى وجه القدر ، بعض السيطرة العابرة على البيئة ، وتترك المعابد الطاهرة للألوهية وللنظم الفلسفية المختالة — فإن الفرد يجد أمامه سبباً أفضل للإيمان بشخصيته الخالقة . فهو يحس فى نفسه بشرارة من التلقائية ، ويصوغ على مثاله حتى آلهة أوليمب ؛ ثم رأى الإغريق الكون ينمو ويتطور ؛ فقالوا بوجود الآلهة فى كل مكان ، وظهور الائتلاف بين الأضداد ، وظن أفلاطون وأرسطو أن العالم كله يتحرك نحو غاية كاملة وكأنه منجذب بما تراه عين العاشق . ومع ذلك فلم تكن تلك الحضارة الخصبة إلا فترة سعيدة نشأت عن ازدياد الثروة والنصر فى الحرب . ولم يعد يبدو أن الناس أشبه بالخالدين حين حطمت إسبرطة أثينا بعد عصر بركليس ، وحين هدم الإسكندر مدينة طيبة . وانتهت الفلسفة مع زينون الرواقى إلى النتيجة التى أعلنها سوفوكليس عدة أجيال من قبل من أن القضاء الأعمى Moira صاحب السلطان على الآلهة والبشر .

والحضارات الكليلة كالنفوس الهرمة تُعَظِّم فى أحضان مذهب الحتمية . فهى حين تعجز عن التغلب على قوى الموت تعظم كلاها وتسميه قضاء ، وترفع من شأن هزيمتها وتسميها قدراً . ونمت المسيحية فى سواد هذا اليأس كأنها زهرة بسيطة من الأمل فى عالم متفكك الأوصال . وفى قلب الدين الجديد يستقر دائماً التشاؤم الذى خرج منه ذلك الدين . (ولم يكن الدين الجديد مثقلا بالطقوس الوثنية والمباهج) . فالجانب الآخر من الإيمان بالآخرة يقابله الارتياب والخوف من الحياة . وبلغ هذا الشك القاتم فى الإيمان مداه فى مذهب كالفين Calvin الحزين عن العناية الأزلية : فقد قدر الله كل شىء وكذلك مصير كل إنسان ، وكتبت على كل نفس سعادتها أو شقاوتها قبل مولدها ، ولن يجرؤ المستقبل على الخروج عما سبق فى علم الله الأزلى . وانتهت المسيحية بعض الوقت إلى عقائد

أقسى وأمر من الحظوظ الأرضية ، تلك المسيحية التى جاءت تسعى إلى راحة المحروم ، وعزاء المظلوم .

وأخذ المفكرون فى العصر الحديث يعظمون هذا اللاهوت القاسى بعصمة العلم الجديدة . فذهب جاليليو ، وقد افتتن بما كشفه فى النجوم من نظام دائب صابر ، إلى أن هذا النظام هدف كل علم ، ويجب أن يرد العلم ميدان معارفه إلى القوانين الرياضية والكمية . وسحرت شهرة نيوتن العالية ، وكمال عمله المؤقت فى الميكانيكا ، كل طالب . وبحث علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس عن التفسيرات الميكانيكية والقوانين الرياضية لتعليل نمو الخلية واضطرابات الرغبة. وعندئذ أصبحت الفلسفة مفتونة بالرياضة ؛ فذهب ديكارت فى غموض مشوب بالحذر إلى أن العالم كله آلة ، أى هندسة فى حركة . وطابق نيوتن بين نظام الكون الدقيق وبين التركيب الأوقليدى لفكره . وابتهج ثوار عصر النور حين علموا أن الإنسان ليس مخلوقاً على صورة الإلـه ومثاله ، بل الأولى أن يكون ذلك على نسق الآلات التى أخذت فى عصرهم تحل محل عمل الإنسان وإرادته.

أما الثورة الصناعية فهى التى قوضت أركان فلسفة الحرية ؛ لأنها أولا عودت العقل العمل بالآلة ، ثم بعثته على التفكير أكثر فأكثر فى العالم على أنها ميكانيكية . وأما العامل المحصَّن داخل جدران المصنع ، حيث يرى جميع الحياة الخافقة من حوله تسير على بكر وتدور على عجل، فقد نسى الحياة الزراعية القديمة التى بدت فيها الحياة مسألة بذور تنبت بأعجوبة من الأرض التى تستجيب فى نشاط لكل فلاحة ، وتفيض بخصوبة تلقائية . وأما العالم الذى كان ذات يوم ميداناً لنمو النبات ، والأطفال ذوى الإرادة ، والأمهات المغرمات ، والرجال الطامحين ، فقد أصبح كل أولئك فى نظر العقل الحديث نظاماً شاسعاً من الميكانيكيات ابتداء من الكواكب التى تدور دوراناً ميكانيكياً حول الشمس ، إلى الحياة الميكروسكوبية التى تتجمع ميكانيكياً حول شعاع من الضوء . كان العلم على يقين من أنه قد دخل آخر الأمر خلف ستار الدراما الكونية ، فتعجب من هذه الآلية غير المنتظرة التى خلقت الأوهام ، وبدلت آلافاً من المناظر . واستنتج العلم فى إعجاب متواضع أن الإنسان الممثل هو صاحب الرواية ، وأن الأسلاك هى الرواية .

ولكن مرة أخرى الثورة الصناعية هى التى خلقت المدن ، وخلقت المدن الجماهير ، وحطمت الجماهير الناس . ومرة أخرى ظهرت فى المدينة الجديدة تلك الشروط التى مزقت فى الشرق شخصية الفرد وقيمته ، فأفضت إلى فلسفة مماثلة من الجبرية واليأس . وأصبح المرء فى هذا الحشد المضطرب من السكان رقماً أو « يداً » ، فالعقل أداة للقياس والحساب ، والإنسان جزء من الآلات التى يديرها . وأصبحت الديمقراطية ذاتها التى استهدفت تحرير الفرد آلة ، وسلسلة من « الآلات machines » التى تقود الجماهير غير العاقلة آلياً إلى صناديق الانتخابات . وكان من العبث أن يحتج الفرد على هذا النظام من الأسلاك والدوافع والمحركات ، كما كان من العبث أن يعتز بنفسه فى وجه الجماهير الساحقة والمعايش المحطمة فى الشرق القديم . بل أصبح « القادة » أجزاء نصف حية من البدعة الجديدة يبلغون من البلادة وفقدان الإرادة مبلغ القطعان الضالة التى تدرج رءوسها (أولا تدرج) فى جداول الانتخاب .

فإذا كان العبيد قد ثاروا فى وجه هذه الميكانيكية فذلك عن فلسفة تعترف بامتياز الآلات وقداستها . ولم تتردد الاشتراكية socialism فى ربط نفسها بعجلة الحتمية determinism والعلم الميكانيكى ، فكانت تغذى جنودها على مائدة بوخنر وهيكل وسبنسر وماركس . ولم يكن العالم وحده آلة ، بل التاريخ آلة لا تتم فيه أى حركة إلا بثمن الخبز ، ويستطيع الاقتصادى البارع إذا كان على معرفة كافية بالحاضر والماضى أن يتنبأ بيقين محتوم بكل وجهة أو مصير فى المستقبل . فالإنسان هو الآن مخلوق مركب من الوراثة والبيئة ، وأى شىء يعمله فهو ثمرة العلل الموروثة أو الطبيعة ، والتى لا سلطان له عليها . فالإنسان إن هو إلا آلة متحركة بذاتها عجيبة ذات حياة ظاهرية . ويترتب على ذلك أنه « غير مذنب » : فإذا ارتكب جريمة فاللوم يقع على المجتمع ؛ وإذا كان مجنوناً فتلك غلطة الآلة التى سمحت عجلاتها بتوليده ، ولا ينبغى أن يحرم لهذا السبب من حقه فى الانتخاب أو أن يكون رئيساً للدولة . كل ما كان العالم فى حاجة إليه هو آلة أكبر وأفضل ، آلة مؤممة nationalized ، إلى مائة مليون آلة تديرها آلة واحدة منفذة حين يضغط الرئيس على أحد الأزرار ضغطاً ميكانيكياً .

وقد كان من الممكن أن يسمح القادة فى العصر الأرستقراطى للجماهير المضطهدة باحتكار هذه الفلسفة المخدرة . أما فى عصر الديمقراطية فقد أحس أعظم المفكرين بأنفسهم مندوبين للمشاركة الوطنية فى فلسفة الجمهور . وأصبح الشك فى الآلة الموجودة فى كل شىء والقادرة على كل شىء بدعة قديمة تليق بعصر ما قبل الطوفان . وأسرع المفكرون فأعلنوا أنهم أنفسهم آلات وضعت فيها الأفكار متصلة بالزمان ، منذ ملايين الملايين من السنين من قبل . واعترف تين Taine بالإله الحديد ، وابتكر نظرية نقدية فى تمجيده . وكتب زولا تمثيليات كثيرة يبين فيها أن المرء يجب أن يدفع ثمن أجداده . وعرض توماس هاردى الإنسان فى هيئة العاجز بين مخالب الظروف . ورثى أناتول فرانس فى عبارات رشيقة نقية عبودية النفس ، وعبث الحياة . ورأى دانتزيو فى كل مكان انتصار الموت وسخريته .

لعل نزول الشخصية عن عرشها أحد أسباب هذا الحزن الغامض الذى يختفى وراء بريق الفكر الحديث وبراعته . لهذا لن نجد من يقرأ كتاب «ما الإنسان» تشاؤم مارك توين غامضاً أو غريباً ، ذلك أن هذا الكاتب الساخر البائس كان من غلاة مذهب الحتمية ، وكان يعتقد أن سائر نكاته (قفشاته) المرحة مفروضة من قبل فى التركيب الغازى للسدم الأولية (أى جرائم لم يسأل عنها هذا الغاز المسكين ؟) ولم ير فى حيوية توم سوير Tom Sawyer النابضة سوى فوران مركب كربونى . حقاً إن اليسير من الفلسفة عظيم الخطورة ، إذ تميل بعقل الإنسان نحو التشاؤم . ويقال إن الآلة المرحة التى خلقت هكلبرى فن Huckleberry Finn واجهت بعض الصعوبات مع زوجته . ولكن كيف يمكن أن تشارك المرأة فى سلام فى مخدعها وطعامها مع آلة ثائرة تنظر إليها على أنها مجموعة من العجلات دارت فى طفولة الزمان ، وتبطل الآن عن الدوران مصدرة أصواتاً صاخبة لا لزوم لها وسطحية ، حتى تنتهى إلى عجز وصمت أبديين ؟

ولا ريب فى أن فقدان إيمان طفولتنا قد أحزننا ؛ كما أن الحرمان المزدوج لكل بالغ فقدت نفسه مُثُل طفولتها اللاهوتية ثم بعد ذلك مثل شبابها الاجتماعية ، مما يترك قلب الشاب مثقلا بعض الشىء بعبء هذا العالم غير المفهوم . وقد

يرجع بعض الصوت الخافت الكئيب الذى يجرى تحت مرحنا الظاهر إلى الاندفاع التافه لفكرنا . فلم يكن مطلوباً منا أن نهجر اللاهوت الذى كان يحتقر الأساس الطبيعى للوجود، إلى فلسفة تتجاهل ما فى الحياة من قوة خالقة وما فى العقل من ابتكار . ولم يكن مطلوباً منا وقد هجرنا زعمنا الصبيانى من أننا قلب التاريخ الكلى وذروته أن نحقر أنفسنا إزاء الآلات فى المصانع ، ونتقبلها كأنها المثل الأفلاطونية التى صاغت التغيرات الذاتية نفوسنا على مثال نماذجها السامية . وليس علينا أن نترك نصيبنا فى حيوية العالم ، أو فى الامتداد غير المستقر للحياة ، أو فى البناء المستمر للفكر . ولكن هزيمتنا فى جناح من جبهة القتال أدت إلى هربنا من الميدان كله مع التسليم التام .

أكان من الضرورى أن نسلم مثل هذا التسليم الكامل ؟ وهل يشبه السلوك الإنسانى عملية تمتت التلال ، أو هبوب الرياح ، أو مد البحر وجزره ؟ وهل قلق الأمومة الذى لا يهدأ ، أو شهوة الشباب الحارقة ، أو تقدير الحب الهادىء، ليست إلا توزيعاً ميكانيكياً توزيعاً جديداً للعناصر الكيمائية والقوى الطبيعية ؟ أيكون تشبث الحياة مع سعة الحيلة مجرد مظهر، والسعى نحو الكمال ليس إلا إلزاماً أعمى ، وقدرة الفكر وهماً ، وحقيقة الإرادة حلماً ؟

هل الإنسان آلة ؟

٢ — الميـكانيـكية

ولنبحث فى أمر النقلة . ولنأخذ آلة بسيطة ولنكن لعبة هى سيارة تجرى عندما نملأ زنبركها، ونطلقه . ونربط فى مقدمتها قطعة مربعة من المطاط تكون حاجزاً حساساً . ثم نضع اللعبة على أرض غرفة ملساء بحيث تواجه مباشرة حائطاً قريباً . ثم نملأ الزنبرك ونطلقه . ولنفرض أن تخطيط الحائط والأرضية واللعبة من الكمال كما نفترض فى النظرية الرياضية والميكانيكية . سترتد السيارة مقيدة بهذه الشروط من الحائط فى نفس الطريق الذى جاءت منه ، ثم تعود إلى الحائط فى نفس الخط مرة أخرى . وتظل تكرر هذا العمل نظرياً ودائماً

فى خط مستقيم عمودى على الحائط ، حتى تستنفد طاقتها الصناعية تماماً . إنها تسلك سلوكاً ميكانيكياً .

والآن املأ إناءً مستطيلا من الزجاج بالماء . ضع فى الوسط حاجزاً شفافاً من الزجاج أقصر من عرض الإناء ، بحيث يترك مسافة ضيقة من الجانبين . ضع فى أحد جانبى الإناء قطعة من الطعام ، وضع فى الجانب الآخر كائناً حياً دنيئاً ، أبسط ما تمكن — وليكن الشق الطولى Paramecium . راقب الكائن تحت الميكروسكوب . إنه يتجه مباشرة نحو الطعام ؛ ثم يصطدم بالحاجز الزجاجى ، فيتراجع فى خط مستقيم . من الظاهر أنه آلة . ولكن فجأة ينحرف الكائن متجهاً حوله ، ثم يشرع فى السير مرة أخرى بزاوية ، فيصطدم بالحاجز مرة أخرى . ثم يتراجع ، وينحرف ويصطدم مرة أخرى . . . ويتراجع ، وينحرف ، ثم يمر من خلال الفتحة إلى الطعام . ولا يوجد شىء فى تركيب أى آلة ، أو شىء فى مبادىء علم الميكانيكا ، يفسر هذا الاتجاه الحكيم ، هذا المظهر من « الغرض » الموجه فى أدنى الحيوانات المعروفة للإنسان .

أو تأمل سلوك حيوان ميكروسكوبى مشابه له هو ستنتر رازيلى Stentor raselii وهو نُقّاعة (١) فى هيئة البوق يتصل بالنباتات أو الأعشاب فى المستنقعات . دع تياراً رفيعاً من الماء يسقط على محيط الفم أو القرص عند فم الكائن ، وإذا به يتقلص فى الحال ويتجعد على ساقه . وبعد دقيقة ينبسط إلى حجمه الطبيعى ، ويصبح فى الظاهر كما كان . والآن دع تيار الماء يضربه ثانياً كالمرة السابقة بالضبط ، ولكن حيوان ستنتور لا يحفل به . حرك الشىء الذى تتعلق به حركة بسيطة ، وإذا به يتقلص مرة أخرى إلى أنبوبته . أعد المؤثر نفسه بعد دقيقة ، فلا تجد أى استجابة . فلماذا هذا التكيف السريع الاكتساب ؟ أيرجع إلى التعب — إلى الإنهاك من عنف الاستجابة الأولى ؟ كلا ، إذ فى الوقت الذى يظل فيه الاستنتور غير حافل بتيار الماء المتساقط على قرصه ، نجد أنه يرتد بشدة عن المؤثرات الضارة . أما إذا تكرر المؤثر « غير الضار » عدة مرات ،

---

(١) النقاعة هى الانفيوسوريا ، قسم من البروتوزوا ذوات الأهداب ، وسميت كذلك لأنها تتكاثر فى نقوعات المواد العضوية ، (المترجم — عن قاموس شرف) .

فإن الكائن يكيف نفسه تكييفاً فلسفياً مع البيئة الجديدة ، ويتراجع تماماً عما لا حيلة له فيه (١) . فليشحذ العالم الميكانيكى ذهنه لتفسير هذه الردود الانتخابية والمتكيفة التى نجدها فى أدنى صنف من المملكة الحيوانية . سيريح نفسه مجادلا ، ويؤكد لنا كأى ملحد قائلا : «سنجد ذات يوم ، بطريقة ما ، تفسيراً ميكانيكياً لهذه الأمور » . لقد كان أناتول فرانس يقول : ليس العلماء محبين للاستطلاع Les savants ne sont pas curieux : لقد فقد العلماء فن الشك .

أو فلنبحث فى الهضم . بعض النباتات الحساسة مثل الدوينية أو ورد الشمس drosera يطبق على الغذاء الموضوع على سطحه ويمتصه . أما إذا وضعت على سطحه مواد غير صالحة للغذاء فلا يستجيب هذا النبات أبداً . وتنفى الأميبا بطبيعتها ما لا يصلح لتغذيتها . والحيــوان الميكروسكوبى الذى يشبه التم swan-animalcule المسمى ديلبتــوس أنسر dileptus anser ، يبرز عنقاً مملوءاً أكياساً شعرية trichocysts (خيوط ملفوفة لاسعة) ، لا يلقيها إلا على الغذاء الملائم . ونجد أن خلايا أمعاء الإنسان انتقائية فى فعلها ، فكل نوع من الخلايا يؤثر فى أطعمة معينة ولا يؤثر فى غيرها . وكل خلية فى بدن الإنسان تنتقى من مجرى الدم ما تحتاج إليه من المواد الخاصة بنوعها specific وتتجاهل غير ذلك ، وتصب فى الدم نفاية ما تنتجه من تغييرات كيمائية . إنها تفتت المواد التى تنتقيها إلى أجزاء ، ثم تعيد تركيب عناصرها إلى مركبات تحتاج إليها فى بقائها ونشاطها . إنها تتنفس ، وتأكل ، وتفرز ، وتنمو ، وتتكاثر ، وتموت ، كما لو كانت كائناً حياً له فرديته الخاصة . وفى ذلك يقول ليبون : « إن ما تحققه هذه الخلايا فى كل لحظة من حياتنا يسمو سمواً بعيداً على كل ما يستطيع العلم المتقدم أن يحققه . وإن الطالب القادر أن يحل بعقله المسائل التى تحلها كل لحظة خلايا أدنى المخلوقات لهو أسمى بكثير عن غيره من البشر حتى لقد يعدونه بالنسبة إليهم إلهاً » (٢) .

ولنتأمل النمو ؛ كيف يمكن أن تنمو الآلة ؟ ولماذا تعنى بالنمو ؟ أوجدت

(1) Jennings, H.S. Behavior of the Lower Organisms. pp. 170-3.
(2) Le Bon, The Evolution of Forces, p. 363.

قط آلة تبلغ من العجب أن تشبه امتداد الحياة المدهش؟ انظر إلى زنابق الوادى ؛ أى قوة ساحرة تجذبها من سجنها فى الأرض ، وترفعها ببطء وصبر نحو الشمس ؟ أو تأمل العصافير تطير فى الهواء ، فلا تجد فيها تروساً ولا بكراً ولا عجلات . ومع ذلك فنحن كما قال الشاعر :

إننا نحتقر ونبغض ونفخر كذلك ونرهب
ولو كنا جنساً خلق لا للبكاء والنصب
كيف يمكن لست أدرى من سرورك نقترب

هذا طفل ، فلماذا يجوع ويتعطش للغذاء ، ويمد أصابعه الرقيقة ليمتلك العالم ؟ انظر إلى الطفل ينمو : إنه لا يحتاج إلا لغذاء واحد يصنع به خديه السمينين ، وشعره الغزير ، وعينيه الضاحكتين . تأمل الطفل يقف وحده لأول مرة ، فى خوف وشجاعة ، منتصب القامة فى كرامة . لماذا يشتاق هكذا إلى الوقوف والمشى ؟ لماذا يضطرب بالفضول المستمر ، والطموح الشره الخطر ، يلمس ويذوق ، يتأمل ويسمع ، يعبث بيديه ويجرب ، يلاحظ ويفكر ، « ينمو » — إلى أن يبحث فى الأرض ، ويقيس أبعاد النجوم ؟ وما أغمض هذا التغير فى الهيئة الذى يحدث مع المراهقة ، ذلك التغير الذى ينقل الصبى إلى رجل هادىء عريض ، ويصوغ الفتاة إلى قطعة حية من الجمال أبهى من أى أثر فنى ؟

انظر إلى تجدد النمو . اقطع غضروفاً من جناح نجمة البحر ، تجد أن الغضروف ينمو ثانية . اقطع جميع الغضاريف تجد أن المركز يولدها ثانية . اقطع المركز كله تجد أن الغضاريف تعيد نموه . إن الآلة إذا تعطلت فلا تصلح أجزاءها بنفسها . إنها تقف لا حراك بها ولا حس ، فى انتظار لمسة من يد حية تعيد إلى أجزائها نظامها فى تأدية مهمتها . وليست هذه الظواهر الكبرى التى وصفها برجسون أعظم دلالة ، فأبسط شفاء لأتفه جرح أمرٌ غير ميكانيكى ، ويكفى فى الدلالة على العجب . ما هذا الفن الذى تنمو به الخلايا الجديدة فوق اللحم المصاب كما لو كان ثمة عقل خلوى يهدى إلى هذا العمل المفيد . نعم نحن نقدم معونة ميكانيكية أو كيمائية إلى هذه العمليات الحيوية ، ولكننا نعلم أن لها

نفس الصلة بالقوة الطبيعية على الشفاء ، كالرخام أو الطين فى يد الفنان . ونحن نعلم أن طاقة الحياة ودفعتها ستحملنا ، بطريقة لن توضحها الميكانيكية أبداً ، خلال آلاف من المعارك وآلاف من الإصابات حتى تستنفد هذه الحيوية المرنة ، وتلتمس لنفسها صورة تعيد إليها الشباب .

تأمل الشعور . ما هذه الملكة الغامضة التى ندرك بها أننا نشعر بما نعمل ، أو ما عملنا ، أو ما ننوى عمله ؛ وندرك بها الصراع بين أفكارنا ورغباتنا ، ناقدين بعضها ببعضها ؛ وبها نتصور أنواع الردود الممكنة ونتوقع بوساطة الذاكرة النتائج الممكنة ؛ وأخيراً نواجه بها الموقف فنحلله فى صبر معتمدين على كل ما فينا من أفكار ورغبات فننسق بينها ونعيد صياغتها فى رد فعل خالق ؟ وقد نقضت تجارب كوهلر ، التى بينت عمل الاستبصار insight الكلى فى التعلم ضد الفعل المنعكس الشرطى ، التصور الميكانيكى للعمليات العقلية (١) .

ما هذا الكذب الغبى الذى أصابنا ففرض علينا أننا اليوم إذا شئنا مسايرة الجمهور فيجب أن ننكر وجود الشعور حتى نظفر بفلسفة ميكانيكية لا يمكن فى أكبر الظن أن تفسره ؟

إننا نبدأ من الأشياء التى لا نعرفها إلا خارجياً فقط ، فى هيئتها الخارجية والسطحية (كالمادة التى هى فى علم الطبيعة الحديث الهيئة الظاهرة للطاقة) ؛ ثم من الطبيعى أن نجد أنفسنا فى حيرة كيف ننتقل من هذه الميكانيكيات الظاهرة إلى ذلك الشعور الباطن وهو أكثر الحقائق الواقعة مباشرة ووضوحاً فى معرفتنا كلها . ولكن السلوكى behaviorist لا يتردد فى التضحية بالوقائع الواضحة فى سبيل نظرية مشكوك فيها . فهو يعلن فى شجاعة أن هذه العقبة المزعجة من الشعور التى تعجز الميكانيكية عن تفسيرها من النوافل وليس لها وجود حقيقى . إنه يتلقى عقائده مثل رجال الدين الطيبين من الخارج (مثلا من رجال الطبيعة الأموات) ، ويعنى باستبعاد الوقائع التى تضايق تعميمه . حقاً السلوكى عالم نفسانى ممتاز ، ولكنه ليس إلا فيلسوفاً ضعيفاً ، ولو أنه فى بساطته المتسامية يعتقد أيضاً ألا قيمة للفلسفة ، وأنها ستموت بعد جيل (واحد) . أما أن هذا

---

(١) أنظر كتاب دين مارتن البديع عن « معنى التربية الحرة » ، ص ٣٦ – ٣٩ .

اللاهوت المقلوب آخذ فى كسب الأنصار بالسرعة التى كسب بها مقابله ومكمله العالم المسيحى فهذا دليل على شعبية الفكر المعاصر وسطحيته . أى مأزق نواجهه الآن حين ينكر بعضنا المادة ، وينكر بعضنا الآخر الشعور . ونستطيع أن نتصور الابتسامة الحزينة التى قد ترتسم على وجه جيته أو فولتير عند رؤية هذا الجنون الفكرى فى عصرنا .

وتأمل آخر الأمر التناسل . فهذه بويضة صغيرة جداً لا ترى بالعين . وهذه نطفة لا تستقر وتتحرك من حولها فى عوالم لم تتحقق . وكل من هاتين الخليتين المكروسكوبيتين غنيتان غنى عظيما بالصفات الموروثة التى تحمل ذكرى آلاف من الأجيال . وتحمل كل منهما فى داخلها صفات فريدة ودقيقة عن الجسم والعقل ، ودوافع وميولا واستعدادات ، وجوعاً وشوقاً وحباً . ولعل فى بلازمتهما (١) Plasm تستقر من قبل شهوة العبقرية وصبرها . حسناً ، فلتتحد النطفة بالبويضة ، وإذا بتلك الإمكانيات تصبح فجأة حقائق ، وتظهر معجزة حياة جديدة . وتنقسم الخلية المخصبة بنوع من الضرورة الباطنة وقد نفذت بدم المشيمة إلى خليتين ، ثم أربع ، ثم ثمانٍ ، إلى مئات الملايين من الخلايا التى يبدو أنها تنمو فى وحدة كلما تكاثر عددها . ويتكون القلب ويبدأ فى النبض ؛ ويتكون المخ ويأخذ فى الحس ، وتبرز اليدان والرجلان وتتحرك فى الرحم . ثم تخرج الأعجوبة الصغيرة إلى العالم فتصطدم بالهواء والبرودة والصوت والضوء ، وتتفتح العينان والشفتان والأذنان ، وتهتز جميع أعصابها بالإحساس . لقد نفذت الحياة من خلال الموت مرة أخرى ، وأخذت تتدفق بغزارة فى هيئتها الجديدة ، مرحة وقوية وشابة من جديد .

أهذا شيء ميكانيكى ؟ لقد اكتشف جاك لوب Jacques Loeb أنه يستطيع تخصيب بويضة قنفد الماء (٢) بمحلول من الملح أو بوخزة دبوس ، فسارع إلى استنتاج أنه أثبت الطبيعة الميكانيكية للتناسل . الحقيقة أنه بين فقط أن بويضة الأنثى فى بعض الحالات يمكن أن تولد بنفسها خلفاً حتى بدون تلك

---

(١) البلازم هو السائل الدموى ، أو صورة الدم ، أو المادة الأولى الحية . (المترجم – عن قاموس شرف) .

(٢) Sea-Urchin ، هو الرتزا المعروفة بالاسكندرية (المترجم – عن قاموس شرف).

المعونة العارضة التى تحددها الطبيعة للذكر . لقد أعاد كشف التناسل بدون نكاح الذكر[١] parthenogenesis الذى عرفه علماء الحياة منذ ألف عام . ولاحاجة بنا إلى القول بأن الأنثى ذاتها تكاد تكون ميكانيكية كالدبوس ، أو بسيطة كيمائيا كالملح . الحق أن تناسل الأنثى بغير ذكر يبدو أكثر عجباً من أخواتها الأكثر حظاً . وهذا الضرب من التناسل نذير سوء كذلك ، ويدل على أن تحرر الجنس الذى كان ذات يوم أضعف قد يفضى فى عصرنا إلى نهاية لا تسر .

وكانت كشوف هانس دريش Hans Driesch[٢] المشتركة أكثر دلالة من تلك التجارب التى أجراها لوب . وقد نشأ دريش فى معمل إرنست هيكل فى مدينة يينا Jena . وكانت جميع البواعث تدفعه إلى أن يكون من أصحاب المذهب الميكانيكى الخالص . غير أنه وجد ظواهر لا يحلم بها أستاذه . لقد قطع بويضة مخصبة نصفين ، ومع ذلك نمت نمواً طبيعياً . ثم شوش نظام الخلايا اعتباطاً بعد القسمة الثانية ، ومع ذلك نمت الخلايا نمواً طبيعياً . وحصل على النتيجة نفسها بعد القسمة الثالثة وتشويش نظام الخلايا . والآن حاول أن تتخيل أولا مزاوجة آلتين من جيل الآلة الثالثة . وتخيل أن كل جزء من الآلتين موهوب بقوة التناسل واعتياده ، وأنه يستمر فى التكاثر والنمو . وتخيل بعد ذلك أن بعض أجزاء الآلة الأب تلتئم لتكوين نموذج للآلة الجديدة ؛ وأن النموذج يولد الآلة الكاملة بأن ينقسم تلقائياً إلى اثنتين ، وأربع ، وثمانٍ . . . ؛ وأنها كلما تكاثرت كلما أصبحت واحدة . وتخيل ظهور شخص جبار مثل دريش ، فيقطع الآلة الملتئمة إلى أنصاف ، أو يوزع أجزاءها إلى فوضى . جملة القول تخيل أن الآلة تشرع فى العمل بشكل طبيعى وبنجاح كما لو أن شيئاً لم يحدث . أوجدت قط أضحوكة أبدع من ذلك فى العلم أو الفلسفة ؟ أثمة أى معجزة فى أى دين قديم أو متوسط أو أمريكى يمكن أن تقارن بهذه الأسطورة البديعة والمهولة .

---

(١) التولد الذاتى أو التناسل بدون ذكر بأنثى ومثله فى أنواع من المدوزة والثنيا والنحل (عن قاموس شرف) .

(٢) Science and Philosophy of the Organism.

٣ — الحتمية

يقول لنا صاحب المذهب الميكانيكى إننا غير منصفين ، وإننا حملنا مصطلحه على معنى حرفى ، وهاجمناه فى موضع لم يكن مستعداً فيه للدفاع . وقد نتصور جوابه على هذا النحو :

« ليس ما نعنيه بصفة السلوك الإنسانى الشبيه بالآلة أكثر من التتابع الضرورى بين السبب والنتيجة فى العالم العقلى والعالم الطبيعى ؛ فالإنسان جزء من الطبيعة ، وأكبر الظن أنه خاضع لقوانينها . فلا يمكن أن نتصور وجود انقطاع فى سلسلة السببية ، لأن مثل هذا الانقطاع قد ينشأ عنه فناء الطاقة أو تولدها . ولكن استمرار الطاقة وبقاءها ماثلان بوضوح فى كل مكان . أوقِفْ تغذية إنسان تجد أن ردود أفعاله تبطل . أطعمه الغذاء الصحيح يصبح فاضلا محباً لوطنه . أطعمه غذاء غير ملائم تجعل منه شخصاً عاجزاً ، أو مجرماً أو متشائماً ، أو أحمق ، أو مؤمناً بحرية الإرادة . قس نشاط إنسان منذ ولادته إلى وفاته ، تجد أن ذلك النشاط يكاد يتطابق بالضبط مع الغذاء الذى تناوله . فمن الواضح أن الطاقة العقلية فى الإنسان ثمرة الطاقة الموجودة فى المواد العضوية التى يتغذى بها . ولكن هذه المواد مستمدة فى النهاية من مواد غير عضوية موجودة فى الأرض والهواء ويتم تحولها فى خلايا النبات . فإذا سلمنا بوجود سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات فى العالم غير العضوى ، فلا بد أن نسلم بوجودها حتى فى أدق عمليات الحياة الإنسانية أو الفكر الإنسانى .

« ومرة أخرى يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالسلوك الإنسانى ازداد نجاحنا فى التنبؤ به . وأكبر الظن أننا إذا عرفنا جميع الشروط المؤثرة فى أصدقائنا تنبأنا باستجاباتهم نفسها بالدقة التى نتنبأ بها عن أوجه القمر وخسوفه . فإذا كانت الحتمية غير صادقة ، ولو كانت أعمال الإنسان لا تتبع قوانين لا تتغير ، لكان من المستحيل أن نتطور بالتنبؤ عن السلوك الإنسانى والتحكم فيه عن طريق زيادة معرفتنا بالإنسان .

« ومن الواضح فوق كل شىء أن سلوك المرء هو ثمرة صفاته والظروف

التي تحيط بأفعاله . وصفاته ثمرة بيئته الماضية (ها هو ذا يعود إلى فكرته) ووراثته . ونحن نهاية سلسلة التطور عن الدودة الشريطية Tape-worm [١] ، فنحن لا نولد شيئاً ، ولا نبرم أمراً ، بل تحركنا وتوجهنا وتقسرنا فى النهاية قوى خارجة عنا ، وليست لنا عليها عند التحليل الأخير رقابة . والاختيار وهم ، فهو مجرد تأليف بين القوى المحتومة . وفى ذلك يقول سبينوزا : « يظن الناس أنفسهم أحراراً لأنهم شاعرون بإراداتهم ورغباتهم ، ولكنهم يجهلون الأسباب التى أفضت بهم إلى الإرادة والرغبة » [٢] الحق أن سلوكنا تحتمه فى إحكام القوى التى تولدنا وتحيطنا ، كما تحدد كتلة الحجر وسرعته واتجاهه سقوطه فى الزمان والمكان . فالإنسان على هذا المعنى آلة » .

فليواجه الحتمى بصراحة ماتتضمنه فلسفته. فإذا كان كل فعل هو بالضرورة ثمرة الشروط الطبيعية الموجودة سابقاً فى نهاية الأمر ، فيجب علينا أن نستنتج أن الميكانيكية والحتمية شىء واحد ، وأن تقوى ميخائيل أنجلو ، وعاطفة شكسبير ، وأنف سقراط ، وابتسامة كليوباطرة ، كل ذلك يرجع إلى التركيب الميكانيكى والكيمائى للسديم الأولى . فهذا نظام شاسع ، ولقد يعجب المرء حين يبادر جماعة من الشكاك المحترفين مثل تين ورينان وأناتول فرانس إلى ابتلاع مثل هذا الحمل المحتوم . ولكن حتى الشكاك مؤمنون بهذا « العصر الحديد من الإيمان » . ذلك أن رفضهم العلمى المتعالى لعقيدة من العقائد ، يتبعه فى الحال قبولهم الإنسانى الأعمى لعقيدة أخرى . ولا يشك الميكانيكيون أبداً كيف يختفى اعتقادهم الساذج خلف شكهم غير المنهجى .

سيعد المؤرخون كيف أن هذا السديم الهائل لم يقطع رقبة الاعتقاد أعجوبة من الأعاجيب . ما هذا التنويم المغناطيسى الذى جعلنا مدة جيل نسلم بأنظمة الطبيعة العابرة على أنها قوانين حياتنا ورموزها ؟ من منا اعتقد حقاً أنه آلة ، وتصرف بصراحة حسب هذا الغرض المضحك ؟ أو هل علمنا سراً من خلال هذا الزعم البيرونى Byronic أن الحس والعقل فاعلان ومنفعلان كغيرهما من

---

(١) Mark Twain, What is Man ? p. 5.

(٢) سينيوزا ، الأخلاق ، الكتاب الأول ، ملحق .

الأمور ، وأننا فى طرائقنا الصغيرة مراكز للخلق فى تيار القوة ؟ كيف يمكن أن نتصور حقاً فى اصطلاحات من الميكانيكية والحتمية تعدد أنواع الحياة الهائل وخصوبتها ، وتجاربها وصورها غير المحدودة ، وأفانينها التى لا تنفد ، وتعديلها الحازم للأرض وغزوها إياها ؟

لقد جاء مذهبنا الحتمى من تصور لوك العقل لوحة بيضاء تسجل عليها الإحساسات ، أو قطعة سلبية من الشمع تشكلها الأشياء الخارجية وتعيد تشكيلها ولا حيلة لها فى ذلك . ولكنهم يعلموننا اليوم ضرباً آخر من علم النفس . ففى أعماق أنفسنا نجد الرغبة ، هذه الرغبة التى « هى جوهر الإنسان بالذات » ويمكننا أن نتبع بآلاف من الوسائل أثر الرغبة الانتقائى والتكوينى فى إحساساتنا وإدراكاتنا ، وذاكراتنا ، وأفكارنا . وقد قسمت الحياة جوعها الكبير إلى دوافع وقوى متخصصة . وهذه هى التى تحدد أفعالنا واتجاهاتنا ، ووجهة حواسنا . إننا لا نشعر بمؤثرات لا يحصيها العد تحاول عبثاً أن تبعث برسائلها إلينا . إننا نجهل عوالم شاسعة من الحقيقة المحسوسة ، لأننا نختار من خلال أغراضنا الإحساسات التى نحتاج إليها . إننا نسمع بعض الأصوات التى تهمنا ، ونصم أنفسنا عن آلاف غيرها . إننا نتأمل بعض الأشياء التى تخلو مؤقتاً من المعنى ونرى من خلالها هدفاً يشغل أذهاننا ، ويوجه بناء على ذلك أعيننا . فأغراضنا هى التى تؤول الإحساسات إلى مدركات وأفكار . يقال لنا مثلا أن نجمع عددين ، وإذا « بالهيئة الذهنية mental set » للجمع « تحتم » بغير مجهود ارتباط المؤثر بالاستجابة ، وحين نسمع ما حاصل جمع « ٧ و ٧ » ، نجيب « ١٤ » . أما إذا طلب منا الضرب ، فرد فعلنا على ذلك الإحساس « المطابق » هو « ٤٩ » . فالغرض إذن ، لا الحدة ولا كثرة الوقوع ولا الوضوح ، هو الذى يفسر ترابط المعانى . ولسنا شيئاً عاجزاً وفريسة تنفعل بأى مؤثر يطبعها الحظ على بدننا ، بل نحن فاعلون للاختيار . وهذا الاختراع المنشىء نفسه الذى ملأ مصانعنا بالآلات هو أفضل نقض للنظرية التى تشبه عقل المخترع بالنتاج السلبى لمخه .

فى هذه العملية من التكيف الفعال نأتى بأعاجيب عقلية يصعب تصورها على أنها ميكانيكية . فنحن نحلل الكل إلى أجزائه ، ثم نعيد تأليف الأجزاء فى

كلات wholes جديدة . ونحلل الأفكار إلى مدركات ، ثم نعيد تركيبها فى استدلالات . إننا ننزل الأغراض منزلة الاعتبار ، ونزن القيم ، ونتخيل النتائج ، ونبتدع الوسائل والطرق لتنفيذ أخص رغباتنا الباطنة . ونسترجع من الماضى الحلول فى الاستجابات السابقة ، ونرى ما يشبهها فى محيطها ، ونحكم عليها فى ضوء أغراضنا . فالمعرفة هى تذكر نتائج الأساليب المختلفة من الفعل . وكلما عظمت معرفتنا ازداد بصرنا بالمستقبل . وكلما كانت بصيرتنا foresight أعظم اتسع نطاق حريتنا . ويمدنا الشعور بمرحلة نقف عندها لنستعيد الاستجابات المتخيلة . فنحن نستبعد بوساطة الذاكرة والتخيل والتفكير الاستجابات الحمقاء ، ونعبر فى شىء من النجاح عن هدفنا الأخير . والحرية ، كالتفكير ، هى استجابة متمهلة تؤدى إلى الاستجابة الشاملة . وتنمو حريتنا لأننا بالتمهل نسمح للموقف المعقد أن يثير فينا جميع الدوافع المناسبة ، ولأننا بالتخيل نضم هذه الدوافع الجزئية إلى استجابة كلية تعبر عن نفسنا الكاملة والناضجة .

فالميكانيكية ثانوية ؛ أما ما نراه كشىء أولىّ ، وأساسىّ ، ومباشر ، وما نقبله قضية مسلمة فى فلسفة حياتنا الواقعة والصحيحة ، فهو أن كل كائن حى بالنسبة إلى مرونة تركيبه مركز لقوة يعاد توجيهها ، ولبداءة تلقائية إلى حد ما . والحياة خالقة لا لأنها تبتدع قوة جديدة من لا شىء ، بل لأنها تضيف طاقتها المصاغة من جديد إلى القوى التى تتدخل من خارج . وليست الإرادة حرة إلا بمقدار ما تعيد الحياة ، التى هى صورة لها ، تشكيل العالم بنشاط . ولكى تعيد الحياة تشكيل العالم « تخترع » و « تنشىء » الرياضة والميكانيكا للتعامل بها مع الأشياء الخارجية . فالحياة تسخر من هذه المخلوقات التى ابتدعها عقلها وإرادتها ، وتتعالى عليها حين تتلفت هذه المخلوقات بصلف حولها تحاول فهم الحياة فى ضوء تلك الاصطلاحات التى ابتدعتها الحياة ذاتها .

أيستطيع هذا التصور للحرية الصمود فى وجه حملات الحتمى ؟ سيذكرنا إذا كان بارعاً بأن « الإرادة » اصطلاح مجرد ، وسيجعل نصب عينه أن يتناسى أن « القوة » ليست أقل تجريداً . وجوابنا على ذلك أننا لا نعنى بالإرادة شيئاً مجرداً بل السلوك المسير والموسع للحياة نفسها . أما ما الحياة؟ فقد حاولنا الإجابة عن ذلك فى صفحات سابقة ، ولكننا لا نريد أن نقلب الحقيقة إلى سر غامض .

أو سيذكرنا الحتمى بعدم فناء الطاقة ؛ فالكائن الحى لا يمكن أن يستنفد من الطاقة أكثر مما يتلقى . إنه ينسى أن الحياة نفسها طاقة من الواضح أنها تحول ما يأتيها من قوى ومواد إلى مركبات تهدف إلى السيطرة على البيئة بالفكر ، وقد نجحت فى ذلك عرضاً . وقد لا تزيد كمية ما يخرج مع الفعل عن مقدار ما يدخل مع الإحساس ؛ ولكن ما أعظم اختلافهما فى الكيفية . فقوة الحياة المشكلة هى أسمى طاقة نعرفها . ومعرفتنا لها أكثر مباشرة وتأكيداً من أى طاقة أخرى فى العالم . وهى منبع حريتنا المتواضعة وأملها .

يفترض الحتمى أن الحرية وهم ؛ لأن الدافع motive « الأقوى » يتغلب دائماً . ولا ريب أن هذا لغو باطل . فالدافع القوى بما فيه الكفاية للغلبة ، أقوى من تلك التى تنهزم . أليست موافقة الدافع للإرادة والرغبة وجوهر النفس هى التى جعلته أقوى من غيره ؟ — « ومع ذلك فلا فعل بغير سبب » . وهذا صحيح ، ولكن الإرادة جزء من السبب ، ويجب أن تشمل ظروف الفعل مطالب الحياة المقبلة . وكل « حالة state » للعقل تنشأ طبيعياً من مجموع الحالة السابقة للحقيقة كلها. ولكن هذه الحالة وتلك تشملان الطاقة المشكلة للحياة والإرادة. — « نفس النتيجة تتبع دائماً نفس السبب » . ولكن السبب ليس هو ذاته أبداً ، لأن النفس التى نحن بصددها فى جريان دائم ، والظروف متغيرة على الدوام . — « إذا عرفت جميع ماضيك وحاضرك استطعت أن أتنبأ باستجابتك دون خطأ » . وتستطيع ذلك إذا عرفت أيضاً طبيعة دفعة الحياة وقوتها الموجودة فى داخلى . لعلك تستطيع ذلك إذا هجرت المبادىء الميكانيكية ، وسألت نفسك مسترشداً ماذا أنت — أى الحياة — فاعل فى هذه العقدة المعقدة من الظروف . أكبر الظن أنك لن تستطيع — حتى مع ذلك — التنبؤ بنجاح . أكبر الظن أن الحياة فيها عنصر لا يمكن حسابه ، وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب عقولنا categories « وقوانيننا » ، وهذا العنصر هو الذى يخلع على التطور العضوى وأمور الإنسان لذة وصفة خاصتين . فلنطلب من الله ألا نعيش أبداً فى عالم محكوم بالقضاء والقدر . ألا تبدو صورة مثل هذا العالم متناقضة بشكل مضحك مع الحياة — فالميكانيكية كما قال برجسون مزاح عابر ؟

« ولكن كل فعل فهو نتيجة الوراثة والبيئة » . ليس الأمر كذلك بالضبط ، فالحتمى مع التواضع فى معرفة نفسه ، فهو يفترض مرة أخرى أن الحياة ثمرة سلبية لقوى خارجية . إنه يهمل (مع استعمال اللغو) حيوية الحياة نفسها وحياتها. إننا لسنا مجرد أسلافنا وظروفنا ، بل نحن أيضاً بخار من الطاقة المشكلة ، وأجزاء من ذلك التيار للقوة الموجهة ، للقدرة على الاختيار والفكر المكيفين مما كان أسلافنا كذلك يتحركون ويعيشون فيها . فهؤلاء الأسلاف هم فى الحقيقة أحياء يعملون فى داخلنا ، ولكن الإرادة والحياة اللتين كانتا فيهما فيما مضى من الزمان توجدان فى كل واحد منا الآن وتخلقان « الأنا التلقائى » . والحرية أضيق وأوسع مما كانوا يتصورونها فى القديم . ولا ريب أنها تخضع لتحديدات موروثة وبيئية من كل نوع ، ولكنها مع ذلك عميقة عمق الحياة ، عريضة عرض الشعور . إنها تنمو فى مداها وقوتها مع تعدد التجارب ، وسعة المناظر ، ووضوح الفكر (١) فالإرادة حرة بمقدار ما تكون الحياة خالقة . وبمقدار ما تدخل بطاقتها المشكلة كشرط «واحد» من الشروط المحددة للاختيار والفعل. وليس فى مثل هذه الحرية انتهاك لحرمة « القانون الطبيعى » ، لأن الحياة نفسها عامل factor طبيعى ، وعملية process طبيعية ، لا قوة خارج ميدان الطبيعة المتغير . والطبيعة نفسها ، كما يدل عليها اسمها اللطيف ، هى تلك القوة الحية التى تنشأ عن طريقها جميع الأشياء . ولعل هذه التلقائية وهذه الدفعة القاهرة مما زعمناه للحياة تتخفيان خلال العالم ؛ إذ بأى سبيل أخرى استطاعت الحياة أن تكتسب هذه التلقائية ؟ (٢)

---

(١) أنظر جيته : « ليس على المرء إلا أن يعلن حريته فيحس باللحظة التى يخضع فيها للشروط .أما إذا كان المرء من الشجاعة بأن يعلن نفسه مشروطاً فعندئذ يحس بأنه حر».نقلا عن شبنجلر فى « سقوط الغرب » الجزء الثانى ، ص ٢٦٧ .

(٢) يمكن أن نضيف بعض الاعتبارات الفنية التى توحى بهذه الوجهة من النظر . وليس طلاب مناهج العلوم فى حاجة إلى تذكيرهم بأن ماخ وبيرسون وبوانكاريه قد غيروا تصورنا من « القانون الطبيعى » من قوة خارجية تنظم الظواهر ، إلى صياغتنا الذاتية لبعض الأحداث المتتابعة فى التجربة الإنسانية . وجميع اصطلاحات العلم وقوانينه هى تعبيرات « مختصرة » لنظريتنا الفرضية عن العالم . ويذهب الحتميون إلى أن كل ما نعرف يدل على الحتمية ، وهذا لأنهم يعنون بلفظة « كل » معرفتنا بالعالم الطبيعى والكيمائى . فمن السخرية القول بأن كل ما نعرفه عن العالم العقلى أو الطبيعى يدل على الحتمية . على العكس تجر بتنا المباشرة وهى آخر معيار للحقيقة تطلعنا على تلقائية غريبة فى كل مكان . و « قوانيننا » مستمدة من عالم « المادة » ، ثم تطبق اصطناعياً على « العقل » . « لقد وضع العقل بقوته الانتقائية عمليات الطبيعة فى إطار من القانون،وهو قالب إلى حد كبير =

ومن الصواب أن نقول إن صفاتنا تحدد أفعالنا . ولكننا وصفاتنا شيء واحد We «are» our characters فنحن الذين نختار . ومن الصواب — ومن اللغو

= من اختياره نفسه . . والعقل فى كشفه هذا النظام من القانون يمكن أن ننظر إليه كأنه يسترد من الطبيعة ما سبق أن وضعه العقل فى الطبيعة » (إدنجتون ، طبيعة العالم الفيزيقى ، ص ٢٤٤) .

بل إن قانون عدم فناء المادة والذرة نفسه قد كشف فى « الكوانتوم » عن درجة من اللا تحديد واللاتعيين تكاد تكون إنسانية .

إن نظرية الكوانتوم ، التى يسلم بها اليوم عملياً جميع علماء الطبيعة ، تصف حركة الإلكترونات على أنها منفصلة وغير منتظمة ، فليس ثم نظام يمكن التنبوء عنه فى سلوكها . ومع أنها قد تغير مكانها أو سرعتها ، فمن الواضح أنها تتحرك من مكان إلى آخر أو من من سرعة إلى أخرى دون أن تمر بالمواضع أو بالسرعات المتوسطة . وفى ذلك يقول الأستاذ هوايتهيد : « إنها كما لو أن سيارة تتحرك بمعدل ثلاثين ميلا فى الساعة لم تعبر الطريق فى اتصال ، بل كانت تظهر على التتابع فى معالم متتابعة ، وتبقى فى كل معلم دقيقتين » . (العلم والعالم الحديث ، ص ٥٢) .

ويقول إدنجتون : « من نتائج نظرية الكوانتوم أن علم الطبيعة لم يعد مغموراً فى نطاق القانون الحتمى . فقد فوجئت الحتمية مفاجأة تامة بالقوانين الأخيرة للطبيعة النظرية ، وأصبحت عودتها إلى مكانتها موضع شك . . . . فالقوانين الكبرى التى كانت تقبل على أنها خاضعة للسببية تظهر عند الفحص الدقيق أنها ذات صفة إحصائية ، وأن كل تنبؤ إنما يرجع إلى الانتظام الإحصائى لجزئيات غير محدودة (إدنجتون ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٨) . وهذا يعنى أن التنبؤ بخسوف القمر يرجع إلى متوسط السلوك الخاص بالذرات المكونة للشمس والأرض والقمر . ويمكن التجاوز عن عدم حساب الفعل الذرى فى كتلة كبيرة ، وهذا بالضبط كما يستطيع موظف البريد أن يحسب بدقة كبيرة عدد الخطابات المجهولة التى ترسل خلال عام . ولكن كيف يكون الحال إذا كانت العمليات العقلية مختلفة عن هذه الظواهر « الواسعة النطاق » التى منها نستمد « قوانيننا » .

ومع أن برتراند رسل لايزال من الحتميين فإنه يصور الموقف تصويراً صادقاً ، قائلا : « لقد رأينا أنه على أساس علم الطبيعة نفسه يمكن وجود حدود للحتمية الطبيعية . فنحن لا نعرف قانوناً يدلنا متى تقع عملية الكوانتوم ، أو متى تفنى الذرة المشعة . ونحن نعرف جيداً جداً ماذا يحدث « إذا » حدث شيء ما ، ونعرف المتوسطات الإحصائية التى تكفى فى تحديد الظواهر الواسعة النطاق . ولكن إذا كان العقل والمخ متداخلين تداخل السبب بالمسبب ، فإن أصغر تغيير فى المخ يجب أن يصحب بتغيير عقلى ملحوظ . وهكذا قد نضطر إلى النزول فى ميدان التغييرات فى الكوانتوم ، وأن نهجر المستوى الكبير الذى تصلح له المتوسطات الإحصائية . فلعل الإلكترون يطفو حين تريد ؛ ولعل الظاهرة الدقيقة فى المخ التى تسبب الخلاف كله فى الظواهر العقلية تتعلق بالميدان الذى لم تعد القوانين الطبيعية تحدد تحديداً نهائياً ما يجب أن يحدث . وليس هذا بالطبع إلا مجرد احتمال نظرى ولكنه اعتراض يقف فى سبيل الدجماطيقية المادية » (الفلسفة ، ص ٣٩٣) . « وبمقدار ما تستطيع نظرية الكوانتوم أن تقدمه فى الوقت الحاضر فقد يمكن أن تكون الذرات موهوبة بحرية الإرادة ، ولو أنها محدودة مع ذلك باختيار طريق واحد من بين عدة طرق ممكنة » (تحليل العقل ، ص ٣٨) .

ولن يهتم المرء بإقامة فلسفة من الفعل على مثل هذا الأساس المزعزع فى النظرية الطبيعية المؤقتة . فأفضل أساس يستند إليه الاعتقاد فى حقيقة الاختيار هو إدراكنا المباشر والشخصى بالطبيعة غير الميكانيكية لحيويتنا الخاصة وفكرنا ذاته . ولعل تصور السببية كعملية حية سيكون الخطوة التالية فى الفلسفة .

كذلك – أن نقول مع هكسلى إننا قد نكون أحراراً فى إبراز رغبتنا فى صورة من الفعل ، ولكننا لن نكون أحراراً أبداً فى اختيار ما يجب أن تكون عليه رغبتنا ؛ لأننا ورغباتنا شىء واحد ، والرغبة هى الحياة ذاتها ؛ وفى تحقيق رغباتنا إنما نحقق أنفسنا . ولا يكفى أن نقول إن القوى الخارجية والموروثة ترغمنا وتقهرنا ، فهناك جانب آخر من الحق هو أن الحياة نفسها قوة ذاتية لها ، ولها وجهتها الخاصة ومقدرتها ، ولو أنها محدودة ومرغمة ، إلا أنها تؤثر بإرادتها إلى حد مدهش ، مرتفعة من أدنى الكائنات الحية إلى سمو العبقرية الفذ ، منتشرة فى أرجاء العالم بصورها وانتصاراتها . ولو لم تكن الحياة قوة فعالة ومشكلة ، ميالة إلى جانب النمو ، ما ظهر أى تطور قط .

هذا التحقيق لحيويتنا الموجهة يعيد إلينا مسئوليتنا وشخصيتنا ، وتكامل نظريتنا بحياتنا . ذلك أننا حين كنا نتحدث عن الحتمية كنا نعرف بطلانها . ولم يحدث أن تعاملنا مع أنفسنا أو مع أبنائنا كآلات(١). فإذا كان البحث فى فلسفة الحرية يتكرر على الدوام فذلك لأن الإدراك المباشر لا يمكن أبداً أن يخضع للقوانين ، ولا الإحساس للتفكير . وفضلا عن ذلك فقد رأينا فى الميكانيكية شيئاً من الجبن بإرجاعها الجريمة إلى الوراثة والمجتمع – وهما الضحيتان المجردتان المسكينتان اللتان نقدمهما ستاراً لرذيلتنا وكسلنا . ولعل ضعف الخلق فى عصرنا وعدم استقراره مرتبطان ارتباط المسبب بالسبب بسيطرة الفرد بالآلة فى الفلسفة والحياة . فالآلات تكسب نصراً بعد آخر ، وتبسط بشكل عظيم قوتنا على تحقيق غايات قديمة ومتناقضة : فنحن نتحرك فوق السحب ، وفى أعماق البحار ، وننتج ملايين من البضائع الموحدة كل واحدة منها رخيصة فى الثمن وفى الصناعة. وهكذا تختفى المهارة خطوة فخطوة أمام الميكانيكية ، ويتوارى الكيف أمام الكم ، والفن أمام الصناعة ، والخلق أمام الثروة ، وسيختفى الإنسان نفسه قريباً ولا يبقى إلا الأزرار والمحولات switches .

(١) أنظر برود Broad « لو أن شخصاً أشار إلى أخيه أو إلى قطته قائلا : هذه آلة عجيبة ، فلا بد أن نعرف أنه إما مجنون أو عالم فسيولوجى . فلا أحد فى الحياة العملية يسلك مع نفسه أو مع زملائه أو مع حيواناته المستأنسة سلوكه مع آلات . ولكن العلماء الذين لم يدرسوا الفلسفة النظرية يظهر فى الغالب أنهم يظنون من واجبهم أن يتمسكوا نظرياً بما لا يمكن أن يسلم به عملياً أى شخص بعيد عن مستشفى المجاذيب .

فهل يستغرب من جيل يقنع بالسينما الناطقة بدل المسرح ، وبالناطحات بدل البيوت ، بأعمدة التلغراف بدل الأشجار ، بالساسة بدل رجال الدولة ، أن يسلم آخر الأمر بجميع شخصيته وقدرته على المبادأة ، وأن يسمح لنفسه أن يوصف بأنه عملية آلية ؟

وقد انعكست الميكانيكية أيضاً على ظلال الشخصية بوساطة المدن المتزايدة فى النمو ، والديمقراطيات الجشعة ؛ فمن العسير أن يحتفظ الفرد فى الغوغاء أو فى الانتخابات بمبادأته أو بفرديته . وفضلا عن ذلك فقد كانت الحتمية نتيجة افتتان علم الطبيعة بعظمته الخارجية ذاتها ، فظن أنه يطوى عالم العقل والفن والحب فى قوانينه المزعزعة والجزئية . وعندما ننتقل ببطء من عصر الآلات إلى عصر الثقافة المبدعة ، سنتعلم أن نرى من وراء الميكانيكية السطحية الأرض والحياة النابضة تحتها . وسنفهم بعد كثير من الأخطاء والشكوك أننا بحالتنا البسيطة نساهم أيضاً فى نشاط العالم ، وأننا إذا شئنا فقد نكتب بالخيال والمعرفة بعض السطور فى المأساة الغامضة التى نلعبها .

٤ ــ عصر البيولوجيا (علم الحياة)

نود أن نشير فى الختام إلى أن التفسير الميكانيكى الساذج أخذ يختفى من الفلسفة ، وعلم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، بل فى علم الطبيعة نفسه . وفى ذلك يقول لوسيان بوانكاريه : « لقد هجرت على وجه العموم اليوم الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر تخضع لتفسيرات ميكانيكية »(١) ويقول كاسيرر : « إن النظرة الميكانيكية للعالم فى علم الطبيعة الحديث قد استبدلت أكثر فأكثر وحل محلها النظرة الديناميكية الكهربية » (٢) . ويقول ليبون : « لقد أصبحت الفسيولوجيا على الرغم من جهود آلاف العمال عاجزة عن إخبارنا شيئاً يختص بطبيعة القوى التى تنتج ظواهر الحياة ، وليس لها مثيل مما يدرس فى علم الطبيعة » (٣) وكما يحتاج علم الكيمياء إلى فكرة الكيف بالإضافة إلى فكرة الكم التى يحاول علم الطبيعة الاكتفاء بها ، كذلك يحتاج علم الفسيولوجيا

(١) ليبون ، تطور القوى ، ص ٨ .
(٢) Substance and Function p. 355
(٢) ليبون : ص ٣٦٧ .

إلى جانب الكيف والكم ، إلى فكرتى الكائن الحى organism والمجموع totality . فالطبيعة والكيمياء يدرسان الأجزاء التى تحدد سلوك مجموعها ؛ وعلم الحياة يدرس الكلات wholes التى تحدد سلوك أجزائها . حتى العلم يجب ذات يوم أن يتعلم كيف يرى الأشياء كلا .

لقد أصبح رفض الميكانيكية بين علماء الحياة أنفسهم أمراً مألوفاً : فأسماء دريش وبافلوف وهالدين تجعل أى ميكانيكى يفكر طويلا وينعم النظر . وكانت حركة « الجشتالت Gestalt » فى علم النفس رد فعل عدل عن وجهة النظر الميكانيكية إلى العضوية . ويقول هالدين :

« لقد سارت النظرية الميكانيكية على وجه العموم سيراً غاية السوء . فقد هجرت نظرية شوان Schwann البسيطة الميكانيكية . ونحن نعرف الآن أن جميع الخلايا تتكون بالانقسام عن خلايا سابقة ، وأن مشكلة عملية نمو الخلية وتغذيتها ليست من العمليات التى نرى حلها فى الوقت الحاضر بأى اتجاه ميكانيكى . كما أنها ليست مختلفة أى اختلاف عن مشكلتى الإفراز والامتصاص . فالنظريات البسيطة الكيمائية الخاصة بالتنفس وغيره من عمليات التحويل . . . قد اختفت كذلك . . . وأصبح من الواضح أن أى نظرية بسيطة فسيوكيمائية physio-chemic تفسر الحركة العضلية أو أى حركة أخرى فسيولوجية غير كافية . . . فكل عام من التقدم الفسيولوجى يبعدنا فيما يظهر أكثر فأكثر من أى أمل فى مثل هذا الحل . . . فأبحاث شرنجتون Sherrington وغيره تجعل من الواضح تمام الوضوح أنه ينبغى هجر الفكرة القديمة عن الأفعال المنعكسة الميكانيكية البسيطة والمحددة الخاصة بالجهاز العصبى ... ولست أرى — بصفتى عالماً فى الفسيولوجيا — أى فائدة من النظرية القائلة بأن الحياة ككل عملية ميكانيكية . فهذه النظرية لا تساعدنى فى بحثى ، وأظن أنها ولا ريب تعوق الآن بخطورة تقدم الفسيولوجيا ، وإنى لأوثر أن أعود إلى أساطير أجدادنا السكسون من التمسك بالفسيولوجيا الميكانيكية » (١) .

(١) Mechanism, Life and Personality, p. 61

ومن الأمور التي لها دلالتها أن شوبنهور ونيتشه – على مافيهما من عداء للاهوت التقليدى – قد رفضا باحتقار قبول الميكانيكية . وفى ذلك يقول نيتشه ساخراً من العالم الطبيعى الميكانيكى :

« زعمك بأن تفسيراً واحداً للعـــالم صواب ، وهو تفسير تؤيد به موقفك ، وبه يتقـدم البحث وينجح علمياً فى « نظرك » ، هـذا التفسير الذى يعترف بالعد والحساب والوزن والمشاهدة واللمس ولا شىء بعد ذلك – مثل هذه الفكرة إلا تكن جنوناً وبلاهة فهى بشاعة وسذاجة . . . إنى أقول هذا القول هامساً فى أذن أصدقائى الميكانيكيين الذين يودون اليوم مسايرة الفلاسفة ، ويعتقدون اعتقاداً مطلقاً أن الميكانيكا تعاليم أول القوانين وآخرها . . . التى يجب أن تبنى عليها جميع أنواع الوجود . . . أليس العكس أكثر احتمالا ، وهو أن صفات الوجود الخارجية الأكثر ظهوراً . . . هى التى تفهم أولا ؟ » (١)

ويقف علم البيولوجيا ساكناً اليوم ، لأنه كان يبحث فى الموت أكثر مما يبحث فى الحياة ؛ فى نماذج محفوظة فى الكحول ، فى الفراشات المقيدة بالدبابيس لا الطائرة بالأجنحة ، فى الجثث التى سمحت بها المشانق لغرض التشريح ، فى « مستحضرات » من الأنسجة موضوعة على الزجاج slides الميكروسكوبى . ولقد تنبــأ جوته بهذا كله منذ مائة عام وقال على لســـان شيطانه البارع :

إن من يدرس كائناً حياً ويصوره
يظن من الأليق أن يبدأ بالبحث
عن طريقة لانتزاع الروح منه .
فإذا فعل ذلك أمســك بيديه

---

(١) Joyful Wisdom, Eng. Tr. p. 339 . ويبدو أن فلاسفة الألمان فى الوقت الحاضر قد انقلبوا على الميكانيكية . وفى ذلك يقول شبنجلر : « من العبث محاولة الحصول على علم « مضبوط » من النفس الغامضة على الدوام » (سقوط الغرب ، الجزء الأول ، ص ٣٠١) ويقول كيسلرنج : « إذا كان المثقفون قد اجتازوا مرحلة المادية ، فالجماهير فى طريقهم إليها » (العالم فى التكوين ، ص ٢٦٥ »).

الأجزاء التى عليه أن يسميها ويثبتها .
ولكن وا أسفاه إن رباط الروح
الذى غزل الأجزاء وجمع بينها
قد تبدد وذهب وتبخر
هذه العملية هى التى يسر
علماء الكيمياء أن يطلقوا عليها
« اسم الاشتغال بالطبيعة »
Naturæ encheiresis
وهم حين يفعلون ذلك يجعلون أنفسهم
سخرية دون أن يشعروا (١)

لعل علم الحياة سوف يثور قريباً على سيطرة الميكانيكية بمناهج علم الطبيعة وتصوراته . سيكتشف أن الحياة التى يمتاز بدراستها أدنى إلى أسس الحقيقة من « مادة » الطبيعة والكيمياء ، وحين يتحرر علم الحياة آخر الأمر من قبضة المنهج الميكانيكى الميتة ، فسوف يخرج من المعمل إلى العالم . سوف يشرع فى تعديل الأغراض الإنسانية كما غير علم الطبيعة وجه الأرض . وسيقضى على الاستبداد المتوحش للآلات على البشرية . وسيكشف ، حتى للفلاسفة الذين ظلوا خلال قرنين من الزمان عبيداً لعلماء الرياضة والطبيعة ، عن الوحدة الموجهة ، والمعين الخالق ، وتلقائية الحياة الباهرة .

(١) فاوست ، ترجمة مارتن ص ٨٧ . وهذا مثال لما يحدث لجوته حين يترجم .

الجزء الرابع

مشكلات الأخلاقية

الفصل الخامس

أخلاقنا المتغيرة

١ — نسبية الأخلاق

تتغير الأخلاق اليوم ، وهى التى تتغير ببطء شديد ، كما تتغير السحب تسوقها الرياح . فقد ذابت أمام أبصارنا التقاليد والنظم القديمة قدماً لا تعيه ذاكرة الإنسان ، كما لو كانت عادات بسيطة ، اكتسبت حديثاً ويسهل نسيانها . فالفتوة التى هى كما يقول نيتشه «لايستطيع المرء أن يكون شديد الرقة مع النساء» ، والظرف gallantry الذى يكسو الأبدان رشاقة والعقول كياسة ، لم يسلما من تحرر المرأة . فقد قبل الرجال تحدى المساواة ، ووجدوا من الصعوبة عبادة جنس يطريهم بما لا يليق تقليداً . أما العفة والحياء مما كان يغرى العاشق بأعمال البطولة ، ويضاعف قوة كل قوة ، فقد سقطا إلى الحضيض ، وأخذت المرأة فى سن الشباب تخطب ود أعدائها بالإفراط فى إظهار مفاتنها ، حتى لم يعد حب الاستطلاع معيناً على الزواج. وجمعت حياة المدينة ملايين من جياع الذكور فوقعوا فريسة سهلة فى أيدى عملاء اللذة . وأخذ المسرح ينافس أيام شارل الثانى ، وأصبح الأدب الحديث من الإباحية phallic [١] كما كان فى عصر التدين قديماً . وبدأ الزواج يفقد ما كان له من رواج ، وهو الذى كان السبيل إلى كل متعة جسدية ، والذى إذا تم مبكراً أدى إلى شىء من الاستقرار فى الحياة الإنسانية وفى السلوك. فقد أخذ الرجال يظنون أن فوائده يمكن الحصول عليها بغير آلامه . فهو يضيق

---

(١) يشير المؤلف إلى أعياد اليونان الدينية قديماً حين كانوا يحتفلون بإله التناسل ويحملون عضو التناسل أثناء الاحتفال من جملة المراسيم . وفى صورة قدماء المصريين الموجودة على جدران المعابد مايدل على هذا النوع من التقديس (المترجم) .

من كل جانب ويتوقف بالتأجيل إلى سنين غير طبيعية ، وبمشاغبات الطلاق . أما الأسرة التى كانت فيما مضى مهد الأخلاق والأساس المنيع للنظام الاجتماعى ، فقد انحلت إلى فردية الصناعة فى المدينة ، وتمزقت إرباً إرباً خلال جيل واحد. وأصبحت البيوت التى بنيت بعرق الجبين لستر البنين والبنات صامتة ومهجورة ، فقد تفرق الأطفال سعياً وراء أشغال بعيدة ، تاركين الأب والأم وحدهما فى بيتهما الكئيب ينظران إلى الكراسى الخالية ، ولا تردد أى غرفة أصوات الأسرة .

فلننظر كيف أصاب التحول العظيم الذى نجتازه أخلاقنا وبدّلها .

من المسائل الدقيقة التى يبحثها علم النفس فى الوقت الحاضر هذه المسألة وهى : هل يشعر صغارنا فى خطاياهم التى يباهون بها بلذة أعظم مما يشعر به من هم أكبر سناً فى الشكوى منها ؟ ويبدو أن الحياة من وجهة نظر الأخلاق تنقسم إلى مرحلتين ، ننغمس فى اللذات فى الأولى ، ونعظ فى الثانية . ثم ينتهى الأمر بالشهوة إلى الحذر ، وتصبح تيارات الرغبة المتدفقة كلاماً يتبدد فى الهواء . ويتراخى وقع الحيـاة ، ويتغير المزاج ، ويصعب على الشيخوخة أن تغفر للشباب . و « الحقيقة » فى هذه الأمور وظيفة للعمر ، و « اللاأخلاقية » immorality عند قوم هى أخلاقية عند الآخرين .

ونحن الذين قد انصهرنا فى بوتقة الشباب ، ولم نجمد بعد إلى الشيخوخة (من يدرى؟) ، قد نحاول إذا واتانا الحظ فهم خلفائنا ، وقد ننجح فى بلوغ هذا الفهم . وأفضل سبيل إلى هذا الفهم هو النظر التاريخى ، فعلينا أن نتأمل فى تغير « الخير » ، وفى النسبية السيالة للأخلاق . يجب علينا أن ننظر فى أصل الأفكار الأخلاقية الأرضية وغير المعصومة ، وفى اعتمادها على الأسس المتغيرة للحياة الإنسانية .

والأخلاق Morals ، فى الاصطلاح اللغوى والتاريخى ، مستمدة من التقاليد customs (mores) . والأصل فى الأخلاقية هو التمسك بتلك التقاليد التى تعد جوهرية لسلامة الجماعة وحفظها . وبعض التقاليد مجرد اصطلاحات ، مثل استعمال الشوكة والسكين على المائدة ، وليس لها مظهر أخلاقى . فإذا قطعت« سلطة salade » غيرك بسكين فليس ذلك ذنباً، مع أنه يعاقب بشدة

أكثر من الفسق . ولكن بعض التقاليد مثل عدم تعدد الزوجات monogamy أو تعددها polygamy ، والزواج من داخل القبيلة endogamy أو من خارجها exogamy ، وتحريم القتل داخل القبيلة وإباحته خارجها ، تعتبر حيوية للصالح العـــام ، وتصان بضروب عاطفية من الحظر والوعظ والحرمان . والاصطلاحات تقاليد إلى الممارسة أدنى منها إلى الوعظ . والأخلاق تقاليد إلى الوعظ أدنى منها إلى الممارسة . هي واجبات نطلبها من جيراننا .

ومن المدهش أن نرى كيف اختلف القانون Code الأخلاقي من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى آخر. فقد انزعج القديس أغسطين من تعدد زوجات إبراهيم ، ولكنه بين بحق أن قدماء اليهود لم يروا « لا أخلاقيا » أن يدفع أحدهم نفقات عدة زوجات ، فهي عادة الوقت ، ولم تكن تعتبر مضرة بالجماعة . حقاً قد يصبح تعـدد الزوجات في عصر الحرب فضيلة تبـارك بكثرة الأولاد . وقبل أن يحل النظام الاجتماعي محل النزاع المستمر بين قبيلة وأخرى ، كان معدل الوفيات بين الرجال يزيد زيادة عظيمة على مثله بين النساء ، فكان تعدد الزوجات نتيجة طبيعية للتفوق العددي في الجنس الذي كان فيما مضى ضعيفاً . إن المرأة لتؤثر امتلاك ظفر من رجل على الحرمان من الرجال على الإطلاق . أما الاقتصار على زوجة واحدة فعقوبة من عقوبات السلم القبلي .

وهلم بنا نستعيد بعض الأمثلة على نسبية الأخلاق . فالشرقيون يغطون رءوسهم دليلا على الاحترام ، والغربيون يكشفونها . والمرأة اليابانية (ولو أن ذلك مثل كثير من الحقائق قد تغير) لا تلقي بالا إلى عرى عامل ، ومع ذلك قد تبلغ من الحياء مبلغ بريسكيلا دين Priscilla Dean . وكان من « الفحش » obscene (المعنى الحرفي « على المسرح » – إشارة إلى إباحية أرستوفان في كوميدياته القديمة)[1] أن تكشف المرأة العربية عن وجهها ، أو المرأة الصينية عن قدمها ، وتغطية هذا الجزء أو ذاك يدعو إلى إثارة الخيال وبعث الرغبة ،

---

(١) يشرح المؤلف الاصطلاح الإنجليزي ويرده إلى أصـله اللغوي ، وكان أرستوفان أعظم شعراء الكوميديا في أثينا ، وكان معاصراً لسقراط ، وله تمثيليات كثيرة مشهورة ، ولم يكن الأدب المكشوف عيباً ، كما لم يكن ذلك عيباً في الاحتفالات الدينية (المترجم) .

فيخدم مصلحة الجنس . وكان سكان الملايو يئدون المريض والشيخ ، وظنوا أن ذلك طريقة كريمة للتخلص من نفاياتهم[(١)] . ويقول لا بوك Lubbok : كانوا فى الصين يعدون إهداء تابوت لشيخ من ذوى القربى من الهدايا الملائمة ، وبخاصة إذا ساءت صحته [(٢)] .

ويقول سومنر : « يباع لحم الإنسان فى جزيرة بريطانيا الجديدة فى الحوانيت ، كما يباع اللحم عند القصابين فى بلادنا . وفى بعض جزر سولومون على الأقل يسمن الوطنيون من البشر كالخنازير (ويفضلون النساء) إعداداً إياهم لوليمة » [(٣)] . ومن أيسر الأمور أن نجمع مئات غير ذلك من الأمثلة تبين أن « اللا أخلاقى » فى عصرنا وبلدنا « أخلاقى » فى عصور أخرى وبلاد أخرى . وفى ذلك قال أحد مفكرى الإغريق القدماء : إذا جمعت فى كومة سائر التقاليد التى تعد فى بلد مقدسة وأخلاقية ، ثم نزعت منه جميع التقاليد التى تعد فى بلد آخر كفراً ولا أخلاقية ، فلن يبقى فى الكومة شىء [(٤)] .

٢ — القانون الزراعى

من الواضح أن القوانين الأخلاقية قد تتغير ؛ فما الذى يغيرها ؟ ولماذا تعد بعض الأفعال حسنة فى زمان أو فى مكان ، ثم تصبح قبيحة فى زمان أو مكان آخر ؟

من المحتمل أن تبدل الأساس الاقتصادى للحياة هو الذى يحدد التغيير الأخلاقى . ولقد وقع فى التاريخ نوعان من التغيير العميق من هذا القبيل : أحدهما الانتقال من الصيد إلى الزراعة ، والآخر الانتقال من الزراعة إلى الصناعة. فهذان هما الحادثان المحوريان فى التطور البشرى ، وعليهما تدور سائر الحوادث والعمليات الأخرى . وفى كل طور منهما اتضح أن القانون الأخلاقى الذى كان

(١) Sumner, W.G, Folkways, pp. 324, 431, 440.

(٢) The Origin of Civilisation, p. 24.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٤) جومبرز ، مفكرو الإغريق ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ .

يرعى صالح الجماعة فى الطور السابق من الحياة أصبح غير ملائم ، وأخذ يتعدل بطيئاً مضطرباً فى ظل النظام الجديد .

وقد عاشت جميع أجناس البشر تقريباً فى القديم على مطاردة الحيوانات ، وقتلها ، وتقطيع أجسادها — فى نفس المكان عادة — ثم أكلها ، وغالباً نيئة ، ودائماً بما يملأ معدة الصياد إلى أقصى ما تطيق . ذلك أن الحضارة بمعناها الاقتصادى من التموين والأمن security ، لم تكن قد ظهرت بعد ، وكانت الشراهة فضيلة لازمة لحفظ الذات . كان الإنسان البدائى يأكل كما يأكل الكلب فى العصر الحديث ، لأنه لم يكن يعرف متى يتناول وجبته التالية . والقلق insecurity أمُّ الشراهة ، كما أن القسوة بنت الخوف . وما أكثر ما ترجع القسوة والشراهة ، والعنف المتجدد ، ونزعة الإنسان العارضة للحرب فى الوقت الحاضر ، إلى مرحلة الصيد . استمع إلى هذا الرجل فى المطعم يهمس فى أذن الخادم : « هات الشواء ناقص النضج » . إنه لا يزال فى مرحلة الصيد

وكل رذيلة كانت ذات يوم فضيلة ، وقد تسترد اعتبارها مرة أخرى ، كالكراهية التى يصبح لها احترامها فى الحروب . كانت الوحشية والشراهة ضروريتين فى قديم الزمان للكفاح فى الحياة ، وهما الآن ارتداد atavism سخيف ، وليست خطايا الإنسان ثمرة سقوطه ، إنها بقايا تخلفت عن صعوده . وعندما نختار الدوافع الملائمة للحاجات الجارية يمطرنا الآباء والجيران والوعاظ بوابل من المدح أو الذم كما نعطى الكلب الذى ندربه السكر أو نضربه بالسوط . وعلى هذا النحو تشجع بعض الخصال التى وهبتها لنا الطبيعة فى اعتدال ، وتهذب بعض الخصال الأخرى التى تفيض عن الحاجة الاجتماعية المعاصرة بأساليب من الصرف مثل الحجز بعد المدرسة ، أو الكى فى الكرسى الكهربىّ . دع ضرباً من السلوك يذم الآن أو يمدح ، ويزيد أو ينقص إلى حد الإفراط — أى إلى حد تعريض الجماعة للخطر — تجد أن الذم censure أو المدح praise يتحولان بالتدريج إلى اللوم blame أو التشجيع encouragement. وعلى هذا النحو احتضنت أمريكا دوافع الكسب ، واستعاذت من الفضائل الحربية مادام أن مواردها فى حاجة إلى الاستغلال فى الداخل ، وإلى حماية يسيرة من الخارج . أما الآن

فيبدو أن الحاجة إلى الاستغلال أقل ، وإلى الحماية أكثر (كما يقولون) ؛ فلم يعد أحدنا يبجل أصحاب الملايين لمجرد ثروتهم فى الوقت الذى يطير فيه ضباطنا بعظمة غير مألوفة . فهناك عرض وطلب فى الأخلاق كما يوجد فى البضائع ، وإذا كان الطلب يخلق العرض فى ميدان أبطأ منه فى الآخر ، فذلك لأن النفس ألطف من الأرض وأقل منها انقياداً . ولكن النفس ستتلقى كذلك بذوراً مختلفة فتنتج ثماراً حلوة أو مرة .

ولسنا نعرف بالضبط متى وكيف انتقل الناس من الصيد إلى الزرع ، ولكنا على يقين من أن هذا التحول العظيم خلق طلباً لفضائل جديدة ، وانقلب كثير من الفضائل القديمة رذائل مع « روتين routine » المزرعة المستقر والهادىء . وأصبح الدأب على العمل ألزم للحياة من الشجاعة ، والاقتصاد مرغوباً فيه أكثر من القسوة ، والسلم أعظم نفعاً من الحرب . وفضلا عن ذلك تغيرت منزلة المرأة ، فأصبحت أعظم قيمة فى الأرض منها فى الصيد ، لأنها الآن تكسب بأداء مئات اللوازم فى الدار ثمن بقائها أضعاف المرات . والزواج أرخص من استخدام امرأة تكلف نفقة أكثر لأداء هذه المهام المتعددة . بل أكثر من ذلك : كل طفل تلده الزوجة تصبح المعونة التى يقدمها أكثر من تكاليف غذائه اليسير وكسائه البسيط أضعافاً مضاعفة . فالأبناء يساعدون آباءهم فى الحقل حتى يتم بلوغهم ، ولا يحتاجون إلى مال ينفق فى تعليمهم . حتى البنات كن نافعات إلى حد ما . من أجل ذلك ارتفعت الأمومة إلى مرتبة القداسة ، وعد منع الحمل منافياً للأخلاق ، وكسبت الأسرة الكثيرة العدد رضا الإله .

وفى ذلك الوسط الزراعى اتخذ قانوننا الأخلاقى الموروث شكله . لأن الإنسان كان ينضج فى الحقل فى سن مبكرة ، ينضج فى العقل كما ينضج فى الاكتفاء الذاتى ، فكان يفهم فى العشرين من العمر مهام الحياة كما يفهمها وهو فى الأربعين ، إذ كان كل ما يحتاج إليه محراثاً ، وساعداً قوياً ، وعيناً يستطلع بها تقلبات الجو . ولهذا السبب كان يتزوج فى سن مبكرة ، حالما تتطلب الطبيعة منه ذلك ؛ ولذلك لم يطل تبرمه بالقيود التى يفرضها القانون الأخلاقى على الصلات الجنسية قبل الزواج . ولهذا بدت الحاجة إلى الطهارة أمراً معقولا ، حتى إذا أطلق

لنفسه العنان . أماعفة النساء فكانت أمراً لازماً لأن انتهاكها يفضى إلى أمومة بغير حماية .

وكان من المعقول كذلك أن تقبل تعاليم المسيحية عدم تعدد الزوجات وعدم انفصال الزوجين ، ذلك أن زوجة الفلاح كانت تلد له كثيراً من الأطفال ، وكان من الصواب أن يحتفظ الأب والأم بولاء أحدهما للآخر إلى أن يستقر هؤلاء الأطفال فى العالم ، حتى إذا بلغ آخر أطفالهما سن البلوغ ذبلت شهوة التنويع مع فتور الجسد وامتزاج روحهما ومشاكلتهما . وكان قانون البيوريتان[1] Puritans (المتطهرين) على شدته عملياً فى الريف ، وأنتج جنساً قوياً استطاع أن يغزو قارة فى قرن واحد . لقد طلبت الفضيلة دائماً أكثر مما تتوقع كى تحصل على حاجتها .

وظل هذا النظام الأخلاقى الزراعى : من العفة ، والزواج المبكر ، والاقتصار على زوجة واحدة بغير طلاق ، والميل إلى كثرة النسل ، متماسكاً خمسة عشر قرناً من الزمان فى أوربا ومستعمراتها . وكان ذلك أمراً فى غاية اليسر ، ما دامت الأسرة فى الريف هى وحدة الإنتاج ، يتعاون أفرادها على زرع الأرض ، ويقتسمون ثمارها . بل إن الصناعة حين أخذت فى الظهور كانت صناعة منزلية ، تجرى فى البيوت لا فى المصانع ، وتملأ أرجاء الدار بجلبة جديدة وشغل جديد ، ووظائف جديدة ومعنى جديد . حتى إذا انتهى أداء العمل اليومى ، اختلف الأسياد من الجماعة الصغيرة إلى مائدة واحدة فى المساء ، أو تجمعوا أمام نار المدفأة ، يلعبون الألعاب ، أو يقرأون الكتب التى تقص عجائب العالم البعيد . كان كل شىء يتآمر على تقوية الأواصر التى تربط الأخ بأخيه ، والابن بأبيه ، والرجل بزوجته . لقد كان لتلك الحضارة البيوريتانية (المتطهرة) فضائلها .

---

(١) فرقة دينية ظهرت فى انجلترا فى القرن السابع عشر ودعت إلى التشدد فى الدين وإلى الطهارة ، واضطهدت أسرة ستيوارت أصحابها فهاجروا إلى أمريكا وكانوا سبباً فى استعمارها .
(المترجم)

٣ـ القانون الصناعى

ثم ظهرت المصانع فجأة . وأخذ الرجال والنساء والأطفال يهجرون البيت والأسرة ، والسلطة والوحدة ، ليعملوا كأفراد يأخذ كل منهم أجره بمفرده ، وذلك فى أبنية موحشة أقيمت لتأوى الآلات لا البشر . ثم نمت المدن فأخذ الناس بدلا من البذر والحصاد فى الحقول يكافحون معركة حياة أو موت فى ورش مظلمة قذرة مع السيور والطنابير وضخام السكاكين والمناشير ، وآلاف العجلات والمكابس ، وأذرعة وتروس من حديد . وتوالدت الاختراعات كما توالدت الطبقة العاملة التى تشتغل بها ، وفى كل عام كانت تظهر أنواع جديدة من الآلات تجعل الحياة أصعب تناولا وفهماً . وأصبح النضوج العقلى أكثر تأخراً عما كان فى الريف . فالرجل فى العشرين من العمر فى المدينة الحديثة لا يزال صبياً فى وجه عالم متغير ومعقد ، ويحتاج إلى عقد آخر من السنين حتى يتخلص من أوهامه العظيمة عن الرجال والنساء والدول . ولعله قد يبلغ فى الأربعين النضوج العقلى . وطالت فترة البلوغ وأصبح التحلى بقدر عظيم من التعليم ضرورياً ليتلاءم الذهن مع مطالب الحياة الحديثة .

وأخذ انتقال الإنسان من الزراعة إلى الصناعة يؤثر فى الحال على سلوك الناس الأخلاقى . وتأخر النضوج الاقتصادى إلى الحد الذى تأخره النضوج العقلى تقريباً ، إلا فى طبقة العمال اليدويين حيث يبلغ الفتى سن الاكتفاء الذاتى فى الواحدة والعشرين من العمر ويستطيع أن يتزوج . أما فى الطبقات الأعلى فإن سن الاكتفاء الذاتى ترتفع مع ارتفاع المنزلة والرفاهية ، إذ يتأخر النضوج الاقتصادى كلما ارتفعت المهن . وفى التجارة والصناعة ظهرت آلاف من العوامل تؤثر فى عمل المرء من قريب أو من بعيد ، وقد تؤدى إلى فقدان عمله فى أى وقت .

وأخذ الرجل ــ وقد أثقلته مطالب الحياة ومراوغاتها بما لم يعهد من قبل ــ يرى المرأة وقد تجردت من وظائفها مع نمو المصانع والآلات ، وإذا تزوج كان مضطراً بحكم التقاليد المنحدرة عن القانون الزراعى إلى الاحتفاظ بزوجته فى البيت ، وهو بيت أصبح الآن مجرداً من الأهمية والعمل ، فتكون الزوجة حملا

جميلا ، أو تمثالا حياً يزين داخل البيت ولاشيء أكثر من ذلك . فجميع أنواع العمل التي كان عليها أن تقوم بأدائها في الأيام الخوالي أصبحت الآن تؤدى في المصانع ، وعلى الرجل أن يدفع ثمنها مما يكسبه من عمله . وإذا أرادت المرأة شغل وظيفتها بالحمل ازدادت مصاعبها لوجودها في المدينة : فالحمل في الوقت الحاضر يكلف المال الكثير أجراً للأطباء والممرضات والمستشفيات والأدوات . وليس من اليسير على المرأة في العصر الحديث أن تنجب من الأطفال بالسهولة والبساطة كما كانت جدتها تفعل من قبل . وكلما كثر عدد أولادها ازدادت الحالة سوءاً ، فكل ولد منهم غرم لاغنم ، وهم في حاجة إلى التعليم حتى السادسة عشرة ، وقد يمتد تعليمهم إلى السادسة والعشرين . هذا إلى أنهم يضاعفون أجرة البيت ونفقة السفر ، ويذهبون إلى المسارح والملاهي بانتظام ، كما يحتاجون إلى ملابس من أحدث طراز لمسايرة غيرهم من الأطفال الذين يرغبون في مجاراتهم بالمثل . حتى إذا بلغوا السن التي يكسبون فيها قوتهم هربوا من سلطان الأبوة إلى حرية الحياة الفردية الخالية من المسئولية . بل حتى إذا لم يهجروا البيت بمحض رغبتهم فإن نداء العمل والكسب ، وتفرق الأسواق والمصانع والحرف في أماكن بعيدة ، ينتزعهم من البيت ويبعثرهم كما تتناثر الشظايا من القنبلة المنفجرة . من أجل ذلك بدا الحمل في المدن صورة من الاستعباد ، وتضحية سخيفة في سبيل حفظ النوع ، تؤخر المرأة الحصيفة وقوعه إلى أكثر ما تستطيع ، وكثيراً ما تؤثر العقم على تأجيل الحمل . وارتفع تحديد النسل إلى فضيلة تتضاعف مكانتها ، وأصبحت وسائل منع الحمل إحدى مشكلات الفلسفة .

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح كان يؤدى إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل ، ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة .

وأثمرت هذه الشروط كلها علة أوسع وأعم لتغير أخلاقنا، وهى الزواج المتأخر. فقد كان متوسط سن الزواج بين الرجال فى باريس سنة ١٩١٢ الثلاثين وكان فى انجلترا ستاً وعشرين(١). ومن المحتمل جداً أن يكون هذا المتوسط قد ارتفع فى انجلترا خلال السبع عشرة سنة الأخيرة، ومن الواضح أن باقى العالم «المتحضر» (أى المصنَّع) أخذ فى الاتجاه فى نفس الوجهة، لأن الأخلاق كالأزياء تفد من باريس. وهذا التأخير فى الزواج أشد بين طبقات الموسرين فى مجتمعات المدن، مع أنهم فى منزلة تجعلهم أقدر على تربية الأطفال عقلياً وجسمياً تربية حسنة. وكثير منهم لا يتزوج على الإطلاق. فمن بين ٣٦ مليوناً وهم سكان انجلترا وويلز سنة ١٩١١، تخلص ٧ ملايين من الزواج، من جملة عدد البالغين وهم ٢٠ مليونا(٢). وكلما هجر الناس الريف وازدحمت بهم المدن ارتفعت سن الزواج، وطالت صحبة الرجل لحليلة تنتهى به إلى العجز عن الزواج.

واتجهت أكثر فأكثر نزعة رجال الطبقة المتوسطة إلى اعتبار الزواج خسارة عليهم، فهناك آلاف من النساء ينتظرن إقبال الرجل لإشباع رغبته الجنسية. وماذا يمكن للزواج تحقيقه أكثر من ذلك، وقد أصبح الأطفال حملا ثقيلا، والبيت شقة فى عمارة كبيرة؟ ويتأمل الأعزب حال أصدقائه المتزوجين، ويرى كيف يتهالكون على العمل ليحتفظوا للزوجة بحياة ناعمة وفاسدة تتفق مع وضعها، فيعجب ما الذى دفع هؤلاء الذكور إلى هذا الاستعباد الذى لم يسبق له مثيل. أو يرى المستوى الراقى من الحياة والوجاهة حين يحيط الأب من الطبقة المتوسطة بناته بهالة من الفرو والسيارات والخدم اجتذاباً لزوج ثمين؛ فيعجب كيف يستطيع بدخله المحدود فى أول الشباب مسايرة هذه الرفاهية التى حققها الأب فى بيته بعد زمن طويل، ويرجع الشاب إلى رصيده فى البنك فيقرر إيثار السلامة إلى حين.

فحياة المدينة تفضى إلى كل مثبط عن الزواج، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو

---

(١) Gallichan, W.M. The Great Unmarried, p. 47.

(٢) المرجع السابق.

الجنسى يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى ، أما الآن فإنه يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم . وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعاً للسخرية ؛ ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ؛ ويفاخر الرجال بتعدد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها فى الانغماس فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً . وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى ، ولم يعد العالم المدنى يحكم به .

وذهب ليبنتز إلى أن زواج الرجل مسألة يستغرق فى بحثها طول عمره(1) ، ومن الواضح أن شباب اليوم يوافقونه على ذلك . فبعضهم يفكر طويلا وطويلا ، ثم يصبح أعزب ، وينتهى أخيراً إلى الزواج عن ملال . وإنك لترى هذا الصنف فى الحدائق العامة يسعى أحدهم إلى الاستمتاع بالحياة مع فتاة عرفت مع غيره الحياة ، متنقلا مع ذلك من ساقطة إلى أخرى ؛ أو يتردد على (الكباريهات) حتى تفتر نفسه ويسأم استعراض السيقان العارية المختلفة الأشكال ، ويكتشف أن جميع الفتيات فى (الجوقة) متشابهات ، فيمل آخر الأمر الرذيلة نفسها . ثم يجد أن صعوبات الزواج ليست شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الفراغ الذى يحس به معظم العزاب فى حياتهم . فتلك المسئوليات المتزايدة ، والمشكلات المتلاحقة أفضل ألف مرة من الشعور المتزايد بعدم الكمال ، وحياة الإنسان وحيداً كالغصن المعطل عن حمل الثمار .

ولسنا ندرى مقدار « الشر الاجتماعى » الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه . ولا ريب فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب ، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على

(1) Williams, H.S., The Science of Happiness, p. 218.

الملال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحية بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان ، وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهى تعرض علينا فى المسارح أو كتب الأدب المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين وهم فى حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة .

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة ، لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها . ولكن الفتاة التى سوف يتزوجها بعد تجربة استغرقت عشر سنوات ، يجب أن تحافظ على عفتها ، فلا يقربها أحد حتى يتلقاها بين أحضانه المجربة . (شبه بلزاك العروس فى ليلة الزفاف بقرد يحاول العزف على الكمان) . وهذا وضع غير معقول بعض الشىء فى ترتيبه . ولا نزاع فى أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى ما كان يقتضيه الآباء المغرمون ببناتهم من مهر غال ثمناً لعفتهن ، وقت أن كان الزواج يشترى صراحة . ولا ريب كذلك فى ارتباط هذا الأمر بذلك العرف المزدوج الذى أصبح مقدساً على مر الزمن ، والذى يقتضى إخلاصاً من جانب واحد هو جانب الأم حتى يمكن التعرف على الورثة ، وإثبات حقهم فى الميراث . وهذا فى نظر « العقل الخالص » ظلم فادح ، ولن يطول استمراره على الأرض .

ولا يشك عاقل يخلو من الهوى فى أن كبح جماح الشهوة بعد البلوغ أمر غير طبيعى ، فالكبت الجنسى يؤدى إلى ضروب كثيرة من الأمراض

العصبية والانحرافات ، وهو ضغط لا مسوّغ له على العقل والجسم فى هذه المرحلة الدقيقة من التحول ، حين يحتاج العقل والجسم إلى صحة وافرة . ومن التناقض أن يقدح عالم الأخلاق فى العلاقات الجنسية قبل الزواج إلا إذا هيأ مقاومة فعالة للقوى المفضية إلى تأخير الزواج . ولن نستطيع تحقيق هذه الحاجات إلا إذا أمكن أن تعود مرة ثانية تلك الشروط التى كانت معقولة فى ظلها . وقد حان الوقت لمواجهة هذه المشكلة دون مواربة : فيجب إما أن نطلق حرية العلاقة الجنسية قبل الزواج ، وإما أن نحث على الزواج بالرجوع إلى السن الطبيعية .

٤ – رجالنا المتحررون [١]

جرت العادة أن نربط بين العربدة الجنسية والشباب ، ولكن هذه العربدة تسود جميع الأعمار التى لم تزل فيها بقية من قوة ولم ينهكها العمل .فقد فاضت المدن بسبب تأخير الزواج بالرجال والنساء الذين يسعون إلى استبدال مثيرات التنويع الخارجية بمهام الأبوة وتدبير المنزل مما كان يستغرق وقت الآباء والأمهات. وهذا الضرب من الناس بوجه خاص (وكذلك الرجال من أهل الريف حين يذهبون إلى المدينة فى اجازة) هو الذى يملأ حانات الليل night-clubs، حيث يذهب الغر وحيداً ويسمح لنفسه أن يخدر بالشراب ، وأن تسلب ماله تلك الفريسة اللطيفة التى يظن أنه قد يجد فى أحضانها بديلا عن الزوجة . وعادات هذه الطبقة آخذة فى الانتشار بسرعة بين جميع الطبقات ، فقد أصبحت الإباحية بدعة ، ولا يجرؤ أى رجل على التسليم بأنه أمين لزوجته ، أو يؤثر الصحو على السكر . فطابع العصر فى الوقت الحاضر أدنى إلى إباحية الرجولة منه إلى رومانتيكية الشباب .

وقد رأينا أن تأخير الزواج هو الأصل فى تحول أخلاقنا الجارف فى المجتمعات الحديثة . وهنا أيضاً بمقدار ما تتدخل العوامل الشخصية يجب أن نلتمس علة التغيير فى الآباء لا فى « الجيل الأصغر » . وغرائز الشاب راسخة

(١) يتكلم المؤلف عن المرحلة التى تلى مرحلة الشباب ، وسمى أصحابها « الأكبر سناً elders » ، وفى اللغة العربية تسمى هذه المرحلة بالرجولة وتعقبها الكهولة ثم الشيخوخة . (المترجم) .

قوية وقد تقوده سريعاً إلى التقييد بحبل الزواج ، ولكن الأب الحذر والأم الغيور يسألان الشاب فى سخط كم يكسب من مال يبيح له متابعة هذا الغرام المجنون . ويبدو أن حكمة الجيب هى التى تكوّن فلسفة الوالدين الأساسية وهما فى منتصف العمر . ولكنهما ينسيان شهوتهما الخامدة ولا يخطر ببالهما أن عاطفة الشاب قد تسوِّغ أموراً لا يستطيع عقل الشيخ فهمها . فالجيل الأكبر سناً إذن هو الأكثر بعداً عن الأخلاق . فهو الذى لا يحفل بصالح المجتمع أو الجنس ويحد من دوافع الطبيعة الحكيمة ، فينصح بالفعل أن يقضى الشباب سنوات عدة من الإباحية تمهيداً للظفر بزواج سعيد وأطفال أشداء . أما إذا كانت نظرة الآباء أوسع فيجب عليهم أن يضعوا المال فى المرتبة الثانية بالنسبة إلى سعادة وصحة الفرد والجماعة ، وأن يتعاونوا مع الطبيعة ، وأن يقدموا بعض التضحية يتمكن بها أبناؤهم من الزواج المبكر . وإلى أن تسود هذه النظرة فلنا أن نرد لا أخلاقية الشباب إلى فلسفة الآباء التجارية .

ومن الذى يقول إن خلاعة الشباب أسوأ من عدم استقرار الزواج فى سن الكهولة ؟ انظر إلى طغيان الطلاق المستمر على الزواج تجد أنه يزعج حتى أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالإحصاء . ففى دنفر عام ١٩٢١ كانت نسبة الطلاق مساوية لنسبة الزواج . وارتفعت نسبة الطلاق عن الزواج فى السنوات الأربع السابقة من ٢٥ إلى ٥٠[١] . وفى شيكاجو عام ١٩٢٢ تم ٣٩٫٠٠٠ زواج ، و ١٣٫٠٠٠ طلاق . وفى ولاية نيويورك عام ١٩٢٤ قلّت نسبة الزواج ٤٫٦ فى المائة عن عام ١٩٢٣ ، وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٨٫٢ فى المائة[٢] و[٣]

أما « الأسباب » التى تبنى عليها المحاكم الحكم بقطع حبل الزواج فسطحية مع براعتها : مثل الهجر ، والقسوة ، والإهمال ، والسكر ، وما إلى ذلك . . . كأن هذه الأسباب كانت مجهولة حين كان الطلاق نادر الوقوع . ذلك أنه تحت

---

(١) Literary Digest, Feb. 17, 1923.

(٢) New York Times, Nov. 15, 1925.

(٣) فى عام ١٩٤٩ كانت نسبة الطلاق الربع فى ولاية نيويورك – أنظر لوس انجلز تايمس ، ١٠ أبريل سنة ١٩٤٩ .

هذه العوامل السطحية يوجد هذا النفور الجديد من الأبوة ، وهذه الشهوة إلى التنويع المتأصلة فى طبيعة الإنسان والتى تضاعفت اليوم أضعافاً مضاعفة مع مع فردية الحياة الحديثة ، وتعدد المثيرات الجنسية فى المدينة ، والاتجار فى المتع الجنسية .

وترجع جاذبية المرأة كزوجة إلى جمالها إلى حد كبير . فالرجل يختار الزوجة لما فيها من جمال ، لأن الجمال كان فى القديم سبيلا إلى أمومة قوية . ولكن الزواج يطول على مرّ الزمان ، ويأخذ الجمال فى الذبول . والرجل الذى يتزوج المرأة لجمالها لا يستمتع بها إلى الأبد . أما جاذبية الرجل كزوج فترجع إلى حد كبير إلى الشخصية والفحولة . ومع ذلك فإن ألمع شخصية ، وأقوى رجولة يجب أن تخبو بعد ألفة وصحبة إجبارية تدوم سنين عدة ، لذلك ينجو الرجل بنفسه بالتغيب عن البيت بعض الوقت كل يوم . وتسعى المرأة إلى الاحتفاظ بجمالها بأن تؤجل الحمل ، وبمعالجة بشرتها بألوان من المستحضرات الكيمائية تصبح الأسمدة الزراعية العلمية إلى جانبها بدائية . ولكن سرعان ما يظهر جوهر المسألة إلى الوجود . إذ يجب أن تحل جاذبية الأمومة محل الجاذبية الجنسية حتى يحتفظ بكيان الزواج ، وعندئذ تزدهر الزوجة بألوان من البهاء لم يكن الزوج يحلم بها فى فلسفته . فهى تتغير الآن ، وتنمو ، وتتفتح مرة أخرى ، ويلفها الإعجاب الغريزى بالطفل بغلالة جديدة قوية من السحر . وإذا فقدت الزوجة هـذه الصفات أصبح البيت داراً عبارة عن جدران ميتة تضم جسد الزوجين ، ثم لا تلبث أن تضم شخصين متباعدين ولا غير ، حيث كان من المحتمل أن تنشأ فى تلك الدار أسرة .

٥ — الأسرة

ومع ذلك فالأسرة أكثر النظم الاجتماعية تلقائية ، وأشدها قرباً من الطبيعة ، لأنها ترتكز مباشرة على ميول موروثة لا تدفع إلى مجرد الاتصال الجنسى فقط ، بل إلى إنجاب الأطفال وتربيتهم ، ولذلك لا نجد فى العادة ضرورة لطرح هذا الموضوع على البحث الأخلاقى . وما نسميه « غريزة التناسل » عبارة عن متاهة

معقدة من دوافع واستعدادات واتجاهات يؤثرها صاحبها . وأكبر الظن أن الدافع إلى الاتصال الجنسى يجب أن يتميز تميزاً دقيقاً عن الميول التناسلية كالرغبة فى الإنجاب ، والميل إلى المثابرة على العناية بالأطفال بعد ولادتهم . ذلك أنه ولو أن بعض النساء وكثيراً من الرجال يعتقدون فى خلوهم من الرغبة فى الإنجاب ، فهناك قليل من الرجال وقلة أقل من النساء لا يكتشفون فى الحال أن الطفل ظاهرة رائعة ومحبوبة حتى إذا كان مكروهاً ومُشْكلا. إن أبرد الفلاسفة متحيز لصالح طفله ، فإذا كان الطفل سقيما نما حبه فى القلب مع العناية به ؛ كما يزداد حب الفنان للصورة التى تتشكل بين يديه . وإذا كان الطفل قبيحاً أعمت الطبيعة الرحيمة عين الآباء وبسطت جناح الخيال على الحس . وكما قيل : « إن الله ينزل الدواء مع وقوع المرض » . وقد كان القدر رحيما لأنه حرمنا هبة رؤية أنفسنا كما يرانا غيرنا من الناس .

ولا نزاع فى أن الأطفال لا يعيشون من أجل آبائهم ، بل الآباء هم الذين يعيشون من أجل الأبناء . وتستمد الأسرة أصلها ومعنى وجودها من عجز الطفل الشديد . ولقد كانت الأسرة أداة حماية لتلك العادات والفنون ، والتقاليد والأخلاق التى تكوّن مادة تراثنا الإنسانى ، وتقوم مقام الملاط فى البناء الاجتماعى . فالطفل فوضوى ، ولا يشعر باحترام لأى قانون أو عرف ، ويعتبر ألوان الحظر فريسته الطبيعية . ولكن الأسرة — بطريق الأطفال والآباء كذلك — تحيل الفردىّ الصغير بالرشوة والعصا ، وبالحلوى والأوامر ، إلى كائن اجتماعى راغب فى التعاون — بل وبعض الوقت إلى شيوعى راغب فى القسمة. والأسرة هى أول وحدة اجتماعية يتعلم الفرد الولاء لها ، ويجب أن يقوم نموه الأخلاقى على تعلم الولاء لكل وحدة أكبر ، إلى أن يبلغ قلبه أخيراً أقصى حدود بلاده . ولكن الشاب حين يخرج عن أرض البيت الثابتة ، تبتلعه دوامة المنافسة ، فيفقد مع الزمن الرغبة التى غذتها الأسرة فى التعاون . والإنسان فى منتصف العمر ، مع أنه ناجح ولكنه غير سعيد ، يرجع بين حين وآخر إلى بيت الأسرة مع شعور بالراحة والتفريج ، وكأنه يرجع إلى جزيرة شيوعية فى بحر من الفردية .

وقد نشأت هذه الوظيفة للأسرة، كمركز أخلاقى وموحد للمجتمع ، من

وضعها باعتبار أنها الوحدة المنتجة للنوع الإنسانى . وكلنا يعلم أن هذا الوضع المركزى للأسرة قد انتهى ، وأن السكان المصنعين يعيشون معاقين بشرط متغير يهددهم بتحويل قانونهم الأخلاقى عن نظام فقد أساسه الاقتصادى والسياسى . ذلك أن هجرة الصناعة من البيت والحقل إلى المصنع والشارع ، وتطور المهن الحرة مع تغير المركز الجغرافى بحياة الفردية ، وحركة العمل المتغيرة التى تنسب إلى وفرة رءوس الأموال أو ظهور موارد طبيعية جديدة ، كل ذلك قد مزق الروابط التى كانت تصل بين الأبناء والآباء لحفظ وحدة البيت . وأخذ الإخلاص للأسرة والولاء لها يذبلان ، وامتصت الوطنية ما فيهما من عاطفة قوية ، كما تذوب قوة الأبوة عاماً بعد آخر فى وظائف الدولة المتوسعة وقواها النامية . ففى كل مكان ينهار التعاون التلقائى الصادر عن الترابط الطبيعى فى الإنسان ، ويجد بديلا مزعزعاً فى الروابط الصناعية والخارجية للقانون والنظام ، والخضوع للمذهب والقهر . وفى نهاية الأمر نجد أن هذه الفردية الاقتصادية والسياسية تعكس نفسها فى فردية أخلاقية ليس لها مثيل من جهة نظام توزيع الأرباح ، ولا توجد إلا فى تلك العصور التى ذابت فيها الحضارات الكبرى فى غياهب الماضى .

٦ — الأسـباب

ولنلخص ما سبق أن ذكرناه . فالعلة الأساسية لهذه التغييرات الأخلاقية هى الثورة الصناعية التى كان لها يد، إن خيراً أو شراً ، فى معظم كل تحول حديث ؛ فقد أخر قيام نظام المصانع الزواج لأنه جعل الفرد غير آمن ، وزادت الإباحية بهذا التأخير الداعر ، وبإلقاء الملايين من الناس فى بحر حياة المدينة ، وما فيها من صلات مثيرة وستار المساواة . كما أدى قيام المصانع إلى تحرير (تصنيع) المرأة فنتجت عن ذلك عرضاً تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج ؛ وإلى إضعاف أثر الأسرة الأخلاقى ؛ وإلى استبدال الزهد والحرمان البيوريتانى بالانغماس الأبيقورى فى كل لذة وفى كل انحراف . وتوافق نمو وسائل منع الحمل مع ظهور كل سبب من هذه الأسباب ، وتعاون وإياها على العمل والتأثير .

وكما كانت ثروة عصر النهضة سبيلا إلى تحريره وحريته وفنونه ، كذلك

ثروة العصر الحاضر السائدة فى كل مكان، والتى فاقت كل ثورة أدبية ، هى التى بدلت قانون الحجاج القاسى بتساهل النفوس المتحررة . ويعد تغير أيام الآحاد عندنا من أيام راحة وعبادة إلى رحلات وأفراح وثنية لا حد لها ، دليلا واضحاً على تبدل أخلاقنا وحياتنا المتحررة . ومن الأسهل أن يكون الإنسان فاضلا حين يكون فقيراً ، وقد يقاوم الإغراء فى بعض الأحيان إذا كان فادح الثمن . ولكن دع جيوبنا تتضخم بالمال ، ودع عزلة الناس تحجبنا عن أعين الجيران ، وسوف نلتمس نسيان الهموم فى وجوه الحسان ، ونتحرق لإظهار رجولتنا لقلوبنا ذاتها . ومن العبث أن يرثى علماء الأخلاق لحال رفاهيتنا الحديثة فى الزينة والمزاج ، فهذا الأمر يقوم على دوافع كانت موجودة على الدوام وتجد الآن أمامها فرصة نادرة للظهور . وستظل النتيجة على ما هى عليه حتى تغير الظروف الاقتصادية من هذه الحال . فما دام نظام الآلات يضاعف أوقات الفراغ ، ويستبدل الأعمال العقلية بالأعمال اليدوية ، فإن الطاقة التى كانت تصرف مع الأعمال الجسمانية سوف تصعد إلى الدم ، وتجعلنا فى غاية الحساسية للمؤثرات الجنسية .

وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم مذهب دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد أكسبهم المال جرأة ، أن الدين يشهر بملاذهم ، التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل فى الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وكان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذلك ذنباً (١) ، أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى مثل تلك اليد ولا نقبلها .؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة . إنها عقوبة جماعية تدفع الأخلاق اليوم ثمنها لأنها ارتبطت بالعقائد الغيبية . فقد بنى القانون الأخلاقى على الخوف ــ الخوف من العقـــاب فى الحياة الدنيا ، ومن النار فى الآخرة ــ ولكن المعرفة عدو الخوف ، وهى آخذة فى النمو ، فلا يمكن

---

(١) Ellis, Studies in the Psychology of Sex, Vol. VII, p. 180.

أن يعيش القانون القديم إلى جانب التعليم الجديد . إن حياتنا الصاخبة تنادى اليوم بأخلاق جديدة تستند إلى طبيعة الإنسان وقيم هذه الحياة ، وتنقذ سفينة الحضارة التى تركت لتهتدى بنفسها بعد أن طارت الآلهة عنها فجأة .

ويجب أن نضيف إلى زوال الزراعة وانحلال الدين تدهور الحضارة الأنجلوسكسونية . فقد هوى المذهب البيوريتانى، لا لأن قيوده على الدوافع الإنسانية والتى كانت معقولة أصبحت غير معقولة فى ظل الشروط المتغيرة فى العصر الحاضر ، بل كذلك لأن أولئك الأقوام الذين لا يزال القانون القديم يجد فيهم مثلا وعضداً قد أصبحوا فى مدننا (١) قلة لا حساب لها ولا حيلة . وقد أدت الهجرة وارتفاع نسبة المواليد إلى التسامى بالعامة وانتزاع ذوى السلطان من مراكزهم . فالأجناس « غير الشمالية » من إيرلندا وروسيا وجنوب أوربا هم الذين يسيطرون اليوم على الحياة السياسية فى مدننا الكبرى ، ويضفون على الأدب والحياة طابعهما العام الذى يتميز بالتهاون فى القانون الأخلاقى . ففضائل الأنجلوسكسون المنزلية لا تناسب مرح الإيرلندى ، أو حماسة الإيطالى ، أو تساهل السلافى . وكما أن عصر نيوإنجلاند قد زال من أدبنا حين أخذ المهاجرون المتأخرون يتلمسون فى بطء وخشونة هيئة جديدة وأسلوباً جديداً لفلسفتهم الواقعية والتشاؤمية ، كذلك أخلاقنا فى الوقت الحاضر تتعثر فى حال من الفوضى ، على حين أصبحت الأقليات التى كانت مضطهدة من قبل هى صاحبة السلطان على الأدب والمسرح والكنيسة وعلى الدولة بشكل أوسع. لقد غيرت الأخلاق فى أمريكا أساسها البشرى كما غيرت أساسها الاقتصادى .

وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل فى هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين فى ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجند الوحشية والإباحية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رءوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم

(١) يشير المؤلف إلى المدن فى الولايات المتحدة ، ولذلك يتحدث فيما بعد عن الهجرة إليها من الخارج . (المترجم) .

القائمة على الاضطرابات النفسية . وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع ألقى بنفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى . وأصبحت الحكومات فى واد والشعب فى واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح ، بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسئوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة .

فهذه هى الأسباب المتعددة لتغير أخلاقنا . وفى ضوء انتقال هذه الأسباب من الحقل والبيت إلى المصنع والشارع فى المدينة يجب أن نفهم الجيل الذى يحل محلنا فى حال شديدة من الاضطراب . فمشاكل هذا الجيل وحياته جديدة ومختلفة عن الجيل السابق ، وهو واقع بين براثن الثورة الصناعية التى تعدل عاداته وأزياءه وعمله ودينه وسلوكه . وليس من العدل ولا مما يتفق مع التاريخ أن نحكم على هذا الجيل فى ضوء القانون القديم ، وإلا كنا كمن يفرض عليه أن تلبس الفتاة (الكورسيه) والعجيزة ، وأن يلبس الشباب الحذاء ذى الرقبة ويطلق لحيته كما كان يفعل أجدادنا . فصاحب الخلق وعديم الخلق كلاهما فى تغير مستمر ، بين التقاليد الثابتة المولية والعادات الجديدة التى تشق طريقها إلى الظهور . ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية أو اللاأخلاقية ، وكيف يمكن تعريفهما من جديد لنستعين بهما فى فهم سلوك الإنسان فى العصر الصناعى والمدنى(١) .

إننا نقف بين عالمين ، أحدهما ميت ، والآخر لم يكد يظهر إلى الوجود . ومصيرنا فوضى لا يليق بالجيل الجديد . فنحن أشبه بسقراط وكونفشيوس ، فى قولهما بأن الأخلاق القائمة على القهر والخوف قد فقدت سلطانها على الناس . ونحن كذلك نحاول أن نلتمس قانوناً أخلاقياً طبيعياً يقوم على العقل لا على الخوف ،

(١) مدنى هنا بمعنى النسبة إلى المدينة وذلك فى مقابل عصر الزراعة ، واللفظة فى الإنجليزية urban (المترجم) .

ويتمكن من إقناع الناس ، حتى المتعلمين منهم . ويواجه الآباء فى الوقت الحاضر آلافاً من الأسئلة الأخلاقية والنفسانية لم تعد الإجابات القديمة تصلح لها . فنحن مضطرون على الرغم منا إلى أن نكون فلاسفة ، وإلى فحص أفكارنا المزعومة وعاداتنا ، حتى نبنى لأنفسنا مذهباً فى الحياة والفكر متماسكاً مع نفسه ومع تجارب العصر ومطالبه . إننا نقف إزاء النجوم ونكاد نكون مجردين من العقيدة الغيبية ومن القانون الخلقى الجديد . فكل شىء يجب أن يبنى من جديد كأننا قد رجعنا إلى حياة القفار نشرع فى إقامة حضارة جديدة .

وأين نجد قانوناً أخلاقياً يتفق مع شروط حياتنا المتغيرة ، ويرفعنا مع ذلك، كما رفع القانون القديم الناس ، إلى الرقة والدعة والحياء والأدب والنبل والكرامة والفتوة والنجدة والحب ؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل ؟ وكيف نعرّف الخير تعريفاً جديداً ؟ وكيف نعيد بناء الأساس الخلقى للمجتمع الكبير ؟

الفصل السادس

١ — الأخلاقية واللاأخلاقية

لنستمع بعض الوقت إلى ما يقوله الفلاسفة عن موضوع الأخلاق . سيضاعفون بلبلة فكرنا وأحكامنا ، ولكننا لن نستطيع أن نجد استجابة توافق هذه المشكلة إلا إذا أدخلنا فى حسابنا جميع العوامل المتدخلة فى الموقف .

وأقدم من نصادفهم يقذفون بنا فى قلب المتاهة الأخلاقية الشائكة هم سفسطائيو الإغريق، وهم المؤسسون القساة للأخلاق الأوربية . ذلك أنهم قدموا اقتراحات وتحليلات تجعل نيتشه بالنسبة إليهم متواضعاً، وتضعه إلى جانبهم فى المحل الثانى . فقد استلبوا قبل ظهوره بألفى عام نصف صيحته التى نادى بها أقوى رجل فى الفلسفة الألمانية . يقول كاليكليس فى محاورة جورجياس التى كتبها أفلاطون : إن الأخلاق ابتكار الضعفاء لتقييد الأقوياء ، وطريقة تحد من سلطان السوبرمان داخل حدود قوى طبقة الشعب . والحكيم هو الذى يعلو على مستوى الفضيلة والرذيلة ، ويصدر عن رغبات قوية ،وينشد صفات القوة والشجاعة والمهارة فى تحقيقها ، باعتبار أنها أنبل الصفات [١] . ويعلن ثراسياخوس فى محاورة الجمهورية أن : « القوة هى الحق ، وأن العدالة ليست إلا مصلحة الأقوى ، وأن « الظالم » سيد البسيط والعادل ، وأن « العادل» هو الخاسر بالإضافة إليه على الدوام » [٢] . واهتم بأن يضيف أنه « يتحدث عن الظلم على نطاق واسع » . ويحذر من النصح بالظلم إذا لم يستطع المرء أن يرتكبه جملة.

هذا النقد القديم للفضيلة له دلالته ، أى هل يتعلق مذهب نيتشة بشباب الفكر أكثر مما يرجع إلى مرحلة نضوجه ؟ لقد كان السفسطائيون يمثلون نشوة

(١) أفلاطون ، جورجياس ، ٤٨٣ .

(٢) الجمهورية ، الكتاب الأول .

الحرية التى أصابت الفلسفة اليونانية حين رفعت عن كاهلها قيود الشرك والتقاليد . كان القانون الخلقى القديم فى اليونان يعتمد اعتماداً مزعزعاً على أساس وعلى جزاء من الدين ، كما يعلق المرء من رجليه فى الهواء . فلما ظهر أن الأساس غير وطيد أصيبت الأخلاق بالضرورة ، وأصبحت اللاأخلاقية ، كالإلحاد والمادية والحتمية ، حدثاً طبيعياً لثورة الشباب العارضة . كذلك الحال بالنسبة إلينا ، فنحن حين نكتشف أن يهوذا الذى كان يخيفنا فى طفولتنا – موسى الملائكى الموجود فى السماء – ليس إلهاً حقيقياً بل مجرد إنسان مخيف يهدف إلى كفنا عن سرقة البلى ومشاكسة المدرسين ، فإننا نخلص إلى هذه النتيجة المؤقتة ، وهى : أنه ما دام هذا الإله الخاص بالمتبربرين غير موجود ، فسائر الأشياء التى كان يحرمها هى الآن مباحة ، وأن السرقة والقتل والنصب هى ألوان محترمة من النشاط إذا زاولها المرء بصواب مع احترام أوامر البوليس . وفى ذلك قال دستوفسكى : « إذا لم يكن ثمة إله (على المعنى السابق من الرعب الليلى) فكل شىء مباح » . فليس على المرء إلا أن يكون حذراً . ومشكلة الأخلاق (وهى البحث العقلى فى الأخلاقية) تنحصر فى هذا البحث وهو : هل المطلوب أن يكون الإنسان « فاضلا » كما يكون حذراً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن نحث الناس بناء على ذلك ؟

ولا نستطيع أن نفهم منزلة سقراط العظيمة فى تطور الأخلاق الفلسفية إلا فى ضوء هذه النيتشية السفسطائية الفتية . فقد رأى سقراط أثينا تتأرجح بين خطرين : ضغط الأكثرية الديمقراطية للرجوع إلى المعتقدات القديمة ، وهذه الفردية المتحررة من الخلق المستهترة التى نشأت من زوال الأوهام عن العقيدة الموروثة ، تلك الفردية التى جعلت من أثينا فوضى تعجز عن الوقوف فى وجه أرستقراطية إسبرطة القوية . أنحن فى حاجة إلى الموازنة بين تلك الصورة وبين صورة عصرنا الحاضر ؟ لقد تصور سقراط مشكلة الفلسفة الكبرى فى تطور أخلاق طبيعية تحل محل الأخلاق الغيبية التى كانت الفلسفة قد هدمتها . وإذا استطاع المرء أن يقيم مذهباً أخلاقياً مستقلا عن المعتقدات الدينية ، فمن الممكن أن تعيش هذه المعتقدات دون أن تحل الروابط الأخلاقية التى تجعل من الأفراد

المنفصلين مواطنين مسالمين فى الدولة . فمثلا لو أن « الخـَيِّـر » كان يعنى « العاقل»، وكانت « الفضيلة virtue » تعنى « الحكمة widom » ، ولو أمكن أن يعلم الناس معرفة مصالحهم الحقيقية ، والبصر بالنتائج البعيدة لأعمالهم ، ونقد رغباتهم والتوفيق بينها للخروج بها من فوضى تمحو النفس إلى رغبة كلية خالقة وتهدف إلى غاية – فلعل هذا يمد المتعلم والسفسطائى بالأخلاق التى تعتمد عند العامة على الجزاء الإلهى ، وأحكام رجال البوليس . ومن المحتمل أن يكون مرجع كل ذنب إلى الجهل ، وإلى الإخفاق فى الوصول إلى نظرة كلية . ألا يمكن أن يكون العقل النامى بالعلم الغزير فضيلة تكفى فى حفظ كل نظام اجتماعى ضرورى ؟

وفى هذا المذهب تختبىء فردية داهية ، كانوا يرونها المقابل الأخلاقى لفلسفة سياسية أرستقراطية . وكان ذلك المذهب يزعم أن شرف طبقة النبلاء يمكن أن يبث بتعليم الجيل . ولم يخطر ببال أصحاب المذهب أن العقل قد يجعل المجرم أكثر بالعقل إجراماً . وبذلك بقيت المشكلة القديمة بدون حل : أن نجعل العقل اجتماعياً ، أو أن نلتمس للأخلاق أساساً خارج العقل والتفكير . وأخذ أفلاطون بالحل الأول : فليس العقل ، كما يقول ، مسألة عقلية فقط ، بل هو التناسب الجميل أو الفنى بين العناصر فى صفات المرء : هو التماثل ، والترتيب ، وهو التوافق فى السلوك الإنسانى . وليس أسمى الفضائل فى صفاء الذهن ، أو فى القوة العارية من الأخلاق ، بل هى ائتلاف الأجزاء فى كل ، سواء أكان ذلك فى الفرد أم فى الدولة . وهنا نجد أساساً سليما يقوم عليه أبحاث أخرى فى الأخلاق ، ولكن الفلسفة لم تتابع السير فى هذا الطريق . ثم تدهورت بلاد اليونان على الرغم من وجود فلاسفة الأخلاق . حتى إذا جاءت المسيحية كان العالم بأسره مستعداً لقبول قانون أخلاقى يُقَوِّى بالأمل فى حياة آخرة والخوف منها ما يحسه الناس من ضعف فى الإيثار والعـدل . وبقيت المشكلة القديمة الخاصة بأخلاق طبيعية مستقلة عن الأديان بغير حل .

٢ — الأخلاق الطبيعية

وهنا نجد أن فرانسيس بيكون هو الذى قدم مفتاح الحل ، كما فعل فى ميادين أخرى كثيرة . وتجمل إحدى العبارات الهامة من كتابه « تقدم العلم »

نظرية كاملة فى الأخلاق الدنيوية . يقول الوزير الأكبر : « فى كل شىء نزعة إلى نوعين من الخير ، إحداهما نزعة باعتبار الشىء كلا فى نفسه (ونحن نسمى هذه النزعة بالغرائز الفردية) ؛ والأخرى باعتبار الشىء جزءاً من كلٍّ أعظم (ونحن نسمى هذه النزعة الأخرى بالغرائز الاجتماعية) وهذه الأخيرة أهم وأقوى من الأولى ، لأنها تتجه إلى حفظ صورة أكمل »[1] ومعنى ذلك أن أســاس الأخلاق ، كعدم الأخلاق ، موجود فى الطبيعة البشرية . فهناك دوافع اجتماعية كما توجد دوافع أنانية ، وغرائز لحفظ الجماعة والجنس كما توجد غرائز لحفظ الذات . ويذهب بيكون إلى أن هذه الغرائز الاجتماعية هى على الإطلاق أقوى من الغرائز التى تستهدف حفظ الفرد . فإن صح هذا القول فهو ولا ريب فى غاية الأهمية . وفى هذا الطريق يجب أن يتجه البحث عن أخلاق طبيعية .

وظل هذا الرأى الجديد الذى قال به بيكون بغير أساس علمى حتى وجد عرضاً عند ظهور دارون . وقد بدت النتائج الأخلاقية لمذهب دارون أول الأمر مؤيدة للنيتشية . ذلك أن التطور إذا كان كفاحاً من أجل الحياة وبقاء الأصلح ، فالبقاء هو معيار الصلاحية فى كل شىء ، ولا تستثنى الأخلاق من ذلك . فلا ينجح إلا الرجل الفاضل فقط ، وتصبح القوة هى الحق مرة أخرى . ولقد فزع هكسلى حين رأى إلى أين تقودنا نظرية التطور ، ووافق تنيسون على أن الطبيعة (التى كان يعنى بها عملية الانتخاب الطبيعى) كانت « حادة الناب والمخلب » وهى فى غاية العداء لجميع المبادىء الخلقية التى رفعت من شأن الحياة الإنسانية هذا الارتفاع . فالتطور يدل فى جميع مظاهره على استعباد القوى للضعيف (وكان بعض علماء التطور مثل كارل بيرسون يحتجون على الآثار السيئة التى يولدها الإحسان) . أما الأخلاق فإنها تعنى مساعدة القوى للضعيف .. ويقتضى التطور الكفاح من أجل الحياة بأى سبيل ؛ وتقتضى الأخلاق الحد من الكفاح ، اللهم إلا داخل حدود الإنسانية والشرف . والغاية القصوى من الأخلاق هى السلام ، والمعيار الأعظم للكفاح هو الحرب . وينتهى

---

(١) الكتاب السابع ، الفصل الأول .

هكسلى إلى قوله : « لا يعتمد التطور الخلقى للمجتمع على محاكاة عمليات الكون... بل على حربها » [١] .

وكان اتخاذ ذلك الموقف خطيراً ، إذ لو كانت الأخلاق مضادة للطبيعة فالأخلاق مقضى عليها قضاء مبرماً . وقد كان هكسلى نافذ البصر حين رأى هذه النتيجة : « إن الطبيعة الكونية التى تولد مع مولدنا ، والضرورية إلى أقصى حد فى بقائنا ، هى ثمرة ملايين من السنين من التجارب القاسية ، ومن الحماقة أن نتصور أن بضعة قرون تكفى فى إخضاع سيطرتها لأغراض أخلاقية خالصة » [٢]. فالمشكلة الأخلاقية ، نعنى تأديب الإنسان بغير طريق الخرافات أو القوة ، لا يمكن حلها إطلاقاً ، إذا كانت الأخلاق والطبيعة متعارضتين هذا التعارض الحاسم .

ويرجع الفضل إلى دارون المتواضع فى التماس مخرج لهذه المشكلة . فلم يكن الفلاسفة قد لاحظوا — وما كانوا ليلحظوا لولا أن دلهم كروبتكين [٣] Kropotkin على ذلك — أن « المخرب » [٤] الأكبر فى الفصل الرابع من كتاب « تسلسل الإنسان » وضع أسس القانون الخلقى الذى يعتمد على وقائع بيولوجية لا على عقائد إلهية . كان أرسطو وبيكون على صواب ، فالإنسان اجتماعى بالطبع ، لأن المجتمعات وجدت قبل وجود الإنسان بزمن طويل ، وورثت الإنسانية العادات الاجتماعية — أى حملت النزعة الاجتماعية فى دمائها — إلى جانب الدوافع الفردية إلى المنافسة والقتال . وقد تطور التنظيم الاجتماعى ، حتى فى المراحل الدنيا من الحياة الحيوانية ، كما هى الحال فى النمل والنحل ، إلى حد من التعاون أرقى من أى ضرب نراه فى الجنس البشرى . ومع تطور المجتمعات ضاق نطاق التنافس من الداخل للحاجة إلى حفظ التماسك الداخلى فى وجه المنافسة الخارجية. وأخذ تأثير الانتخاب الطبيعى يقل فى الفرد ، ويتزايد فى الجماعات ؛ فقد يمكن الاحتفاظ بالضعاف من الأفراد مع نمو العادات الاجتماعية لأترابهم فى المجتمع ،

(١) التطور والأخلاق ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٣) Mutual Aid as a Factor in Evolution.

(٤) يشير المؤلف إلى دارون (المترجم) .

أما الأمم الضعيفة مثل أسبانيا ، والأجناس الضعيفة مثل أهل طسمانيا [1]، والأنواع الضعيفة مثل المستدون [2] Mastodon والجاموس ، فيمكن أن تهلك فى الحرب والمنافسة بين الجماعات لقد وقف التطور عن أن يكون طبيعياً وأصبح اجتماعياً . وجاء بقاء الأصلح من تماسك الجماعة وقدرتها لا من قوة الفرد . وجعل التنظيم أجهزة الدفاع الثقيلة ، التى تحملها على الدوام الحيوانات المتوحدة المعتمدة على قوتها الفردية فقط وعلى دهائها فى الدفاع عن نفسها ، زائدة عن الحاجة . أما فى النمل والنحل حيث يكاد يبلغ التنظيم الاجتماعى حد الكمال ، فقد اختفى تقريباً حمل السلاح الفردى ، كالأنياب والأسنان والمخالب والجلد السميك . ووحد نمو الخطر الخارجى والمنافسة الخارجية بين أفراد الجماعة بضروب من التعاطف (بين الفرد والفرد) ، والشفقة (بين الفرد والجماعة) ، وحب العشرة ، وتبادل المعونة . وكان نيتشة يعد وجود النساء ضرورة اجتماعية لبقاء الجماعة ، فظهر بذلك تناقض غريب مؤداه أن عنف المنافسة والتنازع بين المجتمعات هو علة التعاون والسلام فى داخلها . فالحرب ، أو خطر الحرب ، هى التى أدت إلى ظهور الأخلاق كما أدت إلى ظهور الروح المعنوية .

وفى ضوء هذا النظر البيولوجى يصبح من الواضح بما فيه الكفاية أن أساس الأخلاق وتعريفها الطبيعين والضروريين هو اتفاق الجزء فى العمل مع الكل . إنها النظرة الشاملة التى تتعاون فيها كل رغبة مع جميع الرغبات ، وكل فرد مع أسرته ، وكل أسرة مع الدولة ، وكل دولة مع الإنسانية ، والإنسانية ذاتها مع حركة الحياة العليا . ونحن فى الشباب نحاول تعريف الأخلاق فى عبارات تصدر عن الفرد الثائر ؛ فنخضع العقل للقوانين غافلين عن خضوع العقل المخادع للرغبة ، واستعداده الحقير لالتماس الأسباب لكل عمل مشكوك فيه . إننا نمتدح الاعتماد على النفس ، والتوافق conformity والشجاعة . وننشد أغنية « الإنسان البسيط والمتوحد » ، ونقول مع إبسن المتوحد إن الأقوى هو الذى يقف وحده ، كما لو كان براند Brand أو بيرجنت Peer Gynt[3] قد وجد الأمر كذلك .

(١) طسمانيا جزيرة صغيرة فى الجنوب الشرقى من أستراليا (المترجم) .

(٢) حيوان منقرض يشبه الفيل (المترجم) .

(٣) براند وبيرجنت مسرحيتان لإبسن ، ويشير المؤلف إلى شخصية كل منهما (المترجم)

وهذا رد فعل سليم ضد عشرة الأسرة الثقيلة ، ولا يدل إلا على أن الصبى قد نضج ويرغب فى إثبات وجوده فى العالم . وبعد أن نجتاز مرحلة الشباب نكتشف أن « المجتمع » الذى كنا نزدريه ، والذى كنا نعارض بينه وبين الفرد العظيم ، لا يشمل شيئاً آخر سوى أفراد أيضاً ، كل واحد منهم ثمين كأنفسنا الغالية . ثم نسلم بعد مقاومة طويلة أن الأخلاق لا يمكن تعريفها بأى حال فى صيغة الفرد ، ويجب علينا أن نقبل خير المجموع باعتبار أنه المعيار الأقصى الذى به نحكم (حين يجب أن نحكم) على سلوك الفرد .

أما العبارة التى وضعناها بين قوسين فهى السبيل الممهد إلى النتيجة التى نريد بلوغها . فمتى يجب أن نحكم ؟ وكما أن أفضل حكومة هى التى تحكم أقل ، كذلك أفضل أخلاق ما كانت أوامرها أقل . وحرية الحياة نعمة عظيمة ، حتى ليعد بحق أولئك الذين يرغبون فى فرض الأخلاق على جيرانهم أعداء الجنس البشرى . وقد رأينا إلى أى حد من التزعزع يبلغ الحكم الأخلاقى ، وأن الأمر المنافى للأخلاق قد لا يكون إلا مرحلة انتقال تتحسس طريقها بين قانون أخلاقى وآخر . وفضلا عن ذلك فهذا الزهد فى الحكم الأخلاقى « يوصف » لعلاج الرجال والنساء المصابين بالعبقرية . فمثل هؤلاء الأشخاص ، كما يقولون ، تعزلهم الطبيعة لتجربة أساليب جديدة من العمل والشعور والتفكير . فإذا أخضعناهم لأخلاقنا الاجتماعية المألوفة والضرورية كنا كمن يبطل الغرض نفسه الذى من أجله وجدوا . ولسنا فى حاجة إلى أن نكون أكثر قسوة مع هؤلاء العباقرة من البابا بولس الثالث الذى قال حين نصح بسجن شليني[1] Cellini لما ارتكبه من أعمال القتل فى ساعة من الحماسة : « يجب أن تعلموا أن قوماً مثل بنفنوتو Benvenuto الأفذاذ فى مهنتهم هم فوق القانون » . فلنبسط على عباقرتنا بعض التساهل الذى نمنحه لأصحاب الملايين عندنا .

لقد انتهينا بعد انحراف إلى نتيجة من أقدم النتائج وأشدها احتراماً ، وهى أن معيار الأخلاق هو الصالح العام . ولكن لا ينبغى أن يخدعنا النظر البيولوجى

---

(١) بنفنوتو شليني (١٥٠٠ - ١٥٧١) نحات مشهور إيطالى ولد فى فلورنسا ، ودعاه فرانسوا الأول إلى البلاط ، وله تماثيل مشهورة فى فونتنبلو (المترجم) .

فنفترض أن غرائزنا تتفق مع العقل . فالطبيعة لا تعرف جماعة ولا أخلاقاً إلا مايتصل بالخلية والأسرة والقطيع . لقد كان بيكون و دارون وكروبتكين متفائلين فى اعتقادهم أن الغرائز الاجتماعية أقوى من غرائز الذات . وقد يكون الأمر كذلك داخل الأسرة حيث نجد التضحية بالذات أمراً طبيعياً ولا تحتاج إلى مؤثر من خارج أكثر من الحب أو المدح . أما خارج هذا الميدان الصغير فالدوافع الفردية هى المحركة لنا فى سلوكنا ، ولذلك كانت البطولة heroism متصفة بالنجدة heroic لندرتها . وهذا هو السر فى ابتداع المجتمع شبكة واسعة من النظم التى تقوى الدوافع الاجتماعية كالدين ، والتعليم ، والنشرات ، والتماثيل المقامة فى الميادين . ولسنا أكثر الأنواع ميلا إلى الاجتماع ؛ فنحن فى وسط الطريق بين فردية حيوان الغابات وتعاون النمل . وأقصى ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن الغرائز الاجتماعية — التى تبدو أحدث من حيث أصلها من المنافسة والاكتساب ، وأضعف مؤقتاً بسبب تدهور الدين والأسرة — آخذة فى التقوى ببطء مع نمو قيمة التعاون وأثره فى البقاء . وفى المستقبل البعيد لعل أولئك الذين تعلموا العمل مع أقرانهم فى ائتلاف وعدل يقضون على أولئك الذين يتعطشون إلى التملك الفردى وإلى السلطان . ولكن سنكون عندئذ قد انتقلنا إلى عالم آخر .

وإذا كان المحافظون راضين كل الرضا عن صيغة هذا المبدأ الخلقى ، فليتأملوا بعض نتائجه . فلا شىء ينافى الأخلاق إلا إذا أضر بأقراننا ، وبناء على ذلك فالانتحار فى بعض الظروف ليس جريمة . وإذا اعتقد المرء أن الموت نعمة ، وأنه أدى واجبه نحو بنى جنسه ، ولم يخلف من بعده محروماً أو عاجزاً ، فحياته ملك نفسه يفعل بها ما يشاء . ثم إذا دعتنا الغريزة أو اللذة فلا ضير من تلبية ندائهما بشرط ألا يصاب أحد أقراننا بأذى ، وبشرط ألا يصيبنا نحن أى ضرر جسمى أو عقلى على حساب الجنس . وليس « للجريمة » أى معنى إلا إذا تعرض صالح المجموع للخطر .

ويجب أن نسلم آخر الأمر بأن التعاون الذى تقوم الأخلاق على أساسه لا ينشأ من نمو النفس بمقدار ما ينشأ عن اتساع ضروريات الحياة الاقتصادية .

فكما تخرج الزهرة من الأرض ، تنتشر الأخلاق مع ازدياد الوحدات الاجتماعية والاقتصادية . ويزداد المجموع الذى يجب أن تتعاون الأجزاء وإياه على السلامة عظماً ما دام نسيج العالم يغزل من وحدات يتزايد عظمها مع انتشار القطارات والبرق والسفن وأمواج الأثير التى تربط أطراف العالم . لقد أحالت التجارة والمصالح المشتركة القبائل فى الزمن القديم إلى أوطان ، وانحلت الأخلاق القبلية فلا يتبعها إلا سفلة القوم . وشيئاً فشيئاً تحيل التجارة والمصالح المشتركة الأوطان إلى جماعات وطنية مترامية الأطراف ، وتصبح أساس أخلاق دولية . وسوف يؤمن العالم فى المستقبل القريب بأن الوطنية ليست كافية .

٣ — ميزان الأخلاق

هناك إذن ميزان خلقى يبدو صالحاً فى كل مكان وزمان مهما تختلف الألسنة التى تنطق . ولكن كل حل هو أيضاً مشكلة ؛ إذ لا نكاد نبلغ تعريفنا الأخلاق أنها تعاون الجزء مع الكل حتى تبرز مئات الأسئلة . أى جماعة سنتعاون وإياها ؟ مع الأسرة ، أو الدولة ، أو الإنسانية ، أو الحياة ؟ وماذا نحن فاعلون إذا تنازع حلفاؤنا ؟

عندما يبلغ المرء الأربعين من العمر يصبح أعظم همه أن يتصور الأخلاق فى إخلاصه لأسرته فقط . وليس معنى ذلك أنه يعيش بهذا التصور فقط ، إذ لو فعل ذلك فأكبر الظن (كما رأى كونفوشيوس) أنه لن يحتاج إلى أى أخلاق أخرى . ولو نمت الدولة نمواً عظيما حتى تبتلع حقوق الأبوة ووظائفها الواحد بعد الآخر ، فليس ذلك فقط لأن الحياة الاقتصادية أدت إلى تطور العلاقات والمنازعات المعقدة التى تحتاج إلى سلطة منسقة وحاكمة فى قلب الجماعة ؛ بل أيضاً لأن فردية الصناعة قد ضعضعت سلطان الأبوة وانتزعت من الأسرة مهامها القديمة . فعندما كادت كل أسرة أمريكية أن تكوّن مملكة اقتصادية ، تزرع طعامها ، وتغزل لباسها ، وتقتل بنفسها الهنود الحمر ، وقلّ أن تتعامل مع غيرها من الجماعات ، فقد كان من الممكن أن تكفى أخلاق الأسرة . فإذا كان الأب فاضلا ، والأم صالحة ، وسلم الأبناء بسلطة الأب على أنها السلطة

العليا ، كانت الأسرة وحدة قوية فى النظام الاجتماعى تبلغ من الاكتفاء الذاتى حدًّا يجعل الدولة إلى جانبها كمية ضئيلة تكاد أن تكون مهملة . ولك أن تتخذ من الصين مثلا يوضح ما نذهب إليه . أما إذا تمزقت أوصال الأسرة ، أو إذا لعبت العلاقات بين أفرادها وغيرهم من الأفراد والجماعات دوراً حيوياً فى حياتها الاقتصادية والخلقية ، انهارت عندئذ الأخلاق الطبيعية القديمة ؛ فقد يكون الرجل كريماً مع أبنائه ، قاسياً لا يرحم عماله ؛ وقد يبيع الرجل وطنه من أجل حفنة من المال ، ويكون مع ذلك نموذج الزوج والأب . وقد يلجأ الرجل إلى السرقة أو الغش خلسة ليقتنى من المال ما يسد به حاجة زوجته ، ويمجد مع ذلك فى كل كنيسة يذهب إليها . فأخلاق الأسرة ليست كافية .

فهل نحن مساقون إذن إلى أحضان الدولة المشرفة على كل شىء ؟ أيجب أن يذوب قانوننا الخلقى ولاء للساسة — لرئيس الضبط ، وقائد المنطقة ، و « المنظمة » ، والحاكم ، وعضو الشيوخ ، وقائد الجيش أو الأسطول ؟ هذا هو الجواب الذى يقول به رجال السياسة . ثم تُسْكت الدولة وهى مؤيدة بالسلاح وثقة الناخبين كل صوت يرتفع للحد من سلطانها . وفى ذلك كثير من الحق ، إذ إلى أن يصبح النظام العالمى حقيقة واقعة ، وتنظم الإنسانية بحيث تأمن وتؤمن إخلاص الفرد ، فلن تكون الأخلاق المثالية الكاملة — أى تعاون الجزء مع المجموع الكامل — إلا مجرد نصيحة لتحقيق الكمال ، كالأمر بعدم مقاومة الشر . فكل نظام فى العالم يجب أن يستند إلى القوة حتى تظهر جماعة أكبر . فإذا كانت الحال على وجه الأرض كما نرى من تزايد عدد سكانها وتحركهم بغير رقابة ، وتهافت أهلها للحصول على أفدح الأجور محطمين كل تجربة فى مكافحة الفقر ، فمن الخير أن تحمى أعلى وحدة منظمة نفسها من عدوان الوحدات الأدنى ، كما يجب على الإنسان مهما يكن مخلصاً للحياة أن يحمى نفسه من الحيوانات المتوحشة . ومن الخير على مر الزمن لسائر البشر أن تحمى الطبقة الممتازة نفسها على هذا النحو ، إذ لا غنى فى التطور عن وجود فئة ممتازة تكون نموذجاً يحتذى مثاله . فإلى أن تبتدع الصناعة لوناً من الرقابة الدولية ، فإن المجموع

الذى يجب أن تتعاون وإياه ، والذى لا يجب أن تضر بمصالحه ، سيكون المجتمع الوطنى [1] .

ولكن ضميرنا لا يزال ناقص التكوين حتى فى داخل حدود هذا المجتمع الأصغر . فهناك أخلاق للصناعة والسياسة ، كما توجد أخلاق للحب والزواج . وأولئك الذين يتذمرون من أهواء الجنس فى الوقت الحاضر قد يكونون ممن يختلسون المنافع أو يخونون الأوطان . إننا نغضب لفساد الفتاة ، ولا نجد فى قلوبنا الشجاعة للزج بالمفسدين فى غياهب السجن . إننا نفترض الرقابة على الكتب ، ولا نحفل بأصحاب مصانع السلاح الذين يثيرون الحروب . والصعوبة الوحيدة التى تلفت النظر من بين الصعوبات غير الجنسية التى تواجه الأخلاق اليوم هى تلك الخاصة بشرب الخمر إلى حد السكر . ولا ريب فى ظهور نتيجة أخلاقية عن ذلك ، لأن الخروج على القانون ، معارضة لقانون هو موضع خلاف ، مما يضعف النسيج الخلقى للجماعة بأسرها . ومن دلائل عدم نضوجنا أن تدور أحاديثنا ومعاركنا بالجدل حول شرب الخمر ، فى الوقت الذى تفسد فيه مشروعاتنا الجوهرية لحاجتها إلى العناية والفهم .

ها نحن أولاء بإزاء أضخم نظام صناعى عرفه التاريخ ، فماذا يحدث لو أنه أدير بغير تفكير صادر من الجميع ، وبغير نظر إلى السياسة الصناعية والتجارية والمالية وأثر ذلك على مستقبل الوطن والجنس البشرى ..؟ أهذا شىء يسير؟ عندما نقول : « الشغل شغل » business is business نعنى فى أكبر الظن أن الشغل لا يعرف الأخلاق ، وأن العملية الصناعية بطريق الإنتاج الواسع النطاق ، بصرف النظر عن أصحاب العمل والمنافسة غير المشروعة ، قد أصبحت غير إنسانية وغير شخصية ، أصبحت نظاماً آلياً للشراء الرخيص والبيع الغالى ، أصبحت آلة تحيل المدارس (ورشاً) ومصانع عسكرية ، تؤثر استخدام النساء

---

(١) ليس معنى ذلك أن قيودنا الحالية المفروضة على الهجرة معقولة أو عادلة . بل على النقيض ليس لهذه القيود فيما يبدو أى أساس آخر سوى الخوف والتعصب الجنسى . وسوف يحد رجال الدولة الهجرة ، ومن المحتمل أن يشتد تقييدها عما هو اليوم حتى تتم القضاء على البطالة . ومع ذلك فلن يتم هذا التقييد بالتمييز العنصرى الباطل الذى لا يعتمد على أى سند من العلم ، بل برفع مستوى الصحة والثقافة المطلوب من المهاجر .

على الرجال ، والأطفال على النساء ، وتهدم كيان الأمة وأخلاقها . . . ولكنها تجنى أرباحاً . وهذا التصور عن الحياة الاقتصادية صحيح بالنسبة إلى الطبقة العاملة ، كما هو صحيح بالنسبة إلى أصحاب المصانع . فصاحب المصنع يفكر فى مصلحته الذاتية أو فى مصلحة طبقته ، وقلما يفكر فى صالح المجموع . فكل فئة لها « مثلها » ، ولكن المثل الأعلى فى الصناعة أو السياسة هو عادة الرغبة المكبوتة لطبقة من الطبقات تغلف فى أثواب كريمة من العقل . ومعظم نظرياتنا الأخلاقية ليست إلا أفكارنا نحن لما ينبغى أن يكون عليه سلوك غيرنا من الناس .

ولقد قال ناسو سنيور Nassau Senior : «علم الاقتصاد علم الثروة لا الرفاهية» . ومعنى ذلك أن الصناعة يجب أن تقصر نفسها على إنتاج أكبر قدر ممكن من البضائع بصرف النظر عن النتائج التى تصيب المنتج أو المستهلك . وكان علم الاقتصاد سابقاً أفضل ولو أن كارليل وصفه بالكآبة . وكان ذلك العلم يسمى نفسه « الاقتصاد السياسى » ، واعترف بأن الاقتصاد على صلة بالهيئة الحاكمة . وشاع فى بعض الأوقات الحديث عن « حقوق » الإنسان . ومع أن هذا الاصطلاح فقد الآن ما كان له من شهرة إلا أنه كان يصيب كبد الحقيقة ويدل على قيمة كبيرة ، وهى أن ثمة بعض الحاجات يتطلبها الفرد أو الطبقة من المجتمع ، وأن هذه الحاجات إذا أشبعت تؤدى إلى صالح المجموع . ومن المعقول أن مثل هذا الطلب قد يسمى «حقاً» . فاذا كانت الزراعة مثلا ضرورية لسلامة الوطن من الحصار والمجاعة ، فللفلاحين عندئذ « الحق » فى معونة حكومية قد يحتاجون إليها للاحتفاظ بمستوى معتدل من الحياة . وقد أخذت انجلترا تعى هذا الدرس . وإذا كانت الصناعات الكيمائية تفسد صحة العمال ، فلهؤلاء العمال « الحق » فى كل حماية تستطيع الدولة تقديمها لهم ، لأن صحة مواطنيها تخص الجماعة كلها . وإذا كانت النساء قد أصبحن غير صالحات للأمومة بما يشغلنه من وظائف ، فمن الحق أن تحمى الحكومة من ترغب منهن فى الحماية . وإذا اتبع المخترعون والتجار من الأساليب ما قد يثير عداء الدول الأجنبية ضد أمريكا . فمن حقنا إخضاع مثل هذه الاختراعات والتجارات للوائح الحكومية . ففى كل خطوة تؤثر العمليات الاقتصادية على ثروة المجتمع وتصطدم بالأخلاق .

ولكن الأداة الوحيدة فى الوقت الحاضر التى يمكن عن طريقها إخضاع الصناعة للصالح العام هى الدولة . وليست الدولة أمراً أخلاقياً، بل مزيجاً دائم التغير من المنتخبين . ويتطلع المصلح إلى حكومة مطلقة القوة ناسياً أن مثل هذه الحكومة تقتضى حكماً سياسياً مطلقاً . والخير ألف مرة أن يبتدع الناس أساليبهم الخاصة فى التعاون والرقابة من أن يعتمدوا على العمد ورجال البوليس . ولعل نظاماً اجتماعياً فى سبيله إلى الظهور مقتصراً على طبقات العامة فى التوزيع ، وعلى الجمعيات التعاونية التى تتكون كل عام (وتكاد أن تفشل كل عام) حتى يسد الثغرة الواسعة، ويتجنب جيش الوسطاء المتزايد بين المنتج والمستهلك . وهنا نجد أن الاقتصاد يمس الأخلاق مرة أخرى ، ويتحمس فلاسفة الأخلاق للفكرة القائلة بأن مجهود وتجربة قرن آخر قد يستبدل المنافسة الفردية بالتعاون الذى يجب أن نعتمد عليه فى تسيير أمور العالم . إن صورة قوم يعملون معاً ، ويوظفون الفنيين والإداريين جنباً إلى جنب ، ويقتسمون الأرباح والخسائر سوياً ، قد تبدو بعيدة عن الحقيقة، كما بدت صورة التعاون الحديثة بعيدة التحقيق أيام أن كانت الصناعة آخذة فى الظهور .

وغرائزنا فردية على الإطلاق (١) ، ولكن منظماتنا وحاجاتنا الاجتماعية تصوغنا أكثر فأكثر نحو التعاون . فالصناعة الحديثة أكثر رحمة بالنسبة إلى فظاعة نظام المصنع منذ مائة سنة مضت . فالرفاهية أصبحت جزءاً فى كل مؤسسة حديثة ، وأخذت الصناعة تمول بجانب كبير من أرباحها المستشفيات والمدارس والمكتبات والبحوث العلمية . ولا يزال العالم يلد القديسين ، وما زلنا نقابل أهل النجدة فى كل ركن من الشوارع ، ويمكن أن نجد الفتاة ذات الحياء إذا رغبنا فى البحث عنها ، وتنزوى الأمهات الصابرات فى آلاف البيوت ، ونقرأ عن منافسة البطولة للجريمة فى الصحف اليومية . فهذا فيضان يغرق البلاد ، وإذا بآلاف من الناس يهبون للمساعدة ، ويساهم الملايين فى تقديم المعونة المالية . وهذه أمة يصيبها القحط وتتعرض للموت جوعاً ، فيسرع أعداؤها لنجدتها . ويضل الجوّابون الطريق فيعرض زملاؤهم أنفسهم للخطر إنقاذاً لهم . الحق لم

(١) هذا يناقض ما ذهب إليه المؤلف قبل ذلك من أن بعض غرائزنا اجتماعية . (المترجم).

يستطع أحد أن يبلغ أغوار قوى الإنسان فى سبيل الخير . فوراء ما عندنا من فوضى وما نرتكبه من جرائم تقوم الشفقة المتأصلة فى النفس الإنسانية . إنها تنتظر حتى تزول الثورة العابرة ، ثم يظهر نظام جديد من الأخلاق يتحسس طريقه بالتجربة ليرفع بالنفس إلى مراتب الشرف والنبل .

٤ – الأخلاق الكبرى

أكبر الظن أننا فى الوقت الذى ننتحى فيه جانباً نتأمل الأمور فى سخرية ينشأ عالم من النظام العالمى تحت بصرنا دون أن نراه . وهو عالم تخلقه التجارة والتمويل ، وذلك بالرقابة على الاستثمار ، والرغبة فى ضمان المدين وازدهار السوق . وليس العمال هم اليوم أكبر أعداء الحرب ، بل أصحاب الملايين . وإن كنت فى ريب مما نقول فاستمع إلى تهليل الجمهور حين تتحدث الحكومة عن الحرب. ثم ارقب آلة تسجيل الأخبار وانظر كيف تشل آلاف الأعمال خوفاً كلما انتشرت أنباء الأعداء . ولم يكن الأمر كذلك فيما مضى من الزمان ، ولكنه يجرى على هذا النحو الآن .

وهذا بالضبط ما كان العالم ينتظره ، نعنى أن شبكة التبادل التجارى الكبرى ، التى وحدت بين الولايات ، وجعلت من الدول إمبراطوريات ، يجب أن تبنى آخر الأمر نظاماً عالمياً اقتصادياً . ذلك أنه كما أن الانفعالات المثالية فى الفرد تكون ضعيفة ومزعزعة إذا لم تقم على أساس فسيولوجى طبيعى ، كذلك الآراء الخلقية والسياسية لا تقف على أقدامها فى ثبات إلا إذا قامت على حقائق اقتصادية . وحين يكون لنا نظام عالمى اقتصادى سيكون لنا نظام عالمى سياسى . فإذا تم لنا هذا النظام العالمى السياسى سيكون لنا أخلاق عالمية . فالضمير يتبع رجل البوليس، لأنه ينشأ من الخضوع للنظام ، وينمو مع التعود . ومن الواضح أن نظاماً عالمياً أخذ اليوم فى الظهور . ونحن الآن كلما بدا لنا الصالح الوطنى معارضاً لمصالح البشرية ، فليس ثمة ما يمنعنا من الولاء للإنسانية، ومن التسامى بالأخلاق والدبلوماسية إلى ذلك الشعور بالمجموع وهو سر الحياة الفاضلة ، كما أنه السبيل الذى يهدى إلى الحكمة ، والمعيار الذى يزن الحق .

من أجل ذلك فلنرحب بكل تجربة ، ولنشجع كل محاولة تتجه نحو نظام العالم الجديد . وليستمر العلم فى تنظيم نفسه على أساس يتجاهل الحدود . وليجدد العمل عهوده التى نقضت ضد الحرب . وعلى الرغم مما فى عصبة الأمم [1] من ضعف ، وجبن ، وإبعادها روسيا ، ودستورها المستحيل التحقيق (عن قصد) فلننضم إلى العصبة نقويها بالتعاون ، ونضع حداً لنزعتنا الإقليمية ، ونعرتنا الوطنية ، وتنافسنا على التسليح ، وحلم بعض الأوغاد للسيطرة سراً على العالم . الحق أننا نجد هنا – كما قال ميرابو – الأخلاق الصغيرة هى عدو الأخلاق الكبيرة . La petite morale est l'ennemie de la grande. فلا يمكن أن نتوقع من الدولة أن تلقن الضمير العالمى لأبنائها فى المدرسة ، ما دام خطر الحرب قائماً . أما نحن أحرار الفكر البعيدين عن الأحزاب فما بالنا نظل منقسمين على أنفسنا فى هذه المسألة ؟ ما الذى يمنعنا من قبول الأخلاق الكبرى ، ومن الولاء لسائر ألوان الحياة ؟

وخلف هذا الانقسام المستمر بين الأحرار توجد الفردية التى تختفى كالسوس الذى ينخر فى عظام كل حرية . فأشهر المحامين عن المجرمين الأمريكيين [2] يطرب لسخف عصبة الأمم ، على أساس أن نظاماً سياسياً يتجاوز حدود الأوطان هو ضرب آخر من الطغيان ، وأن انفصال الدول ، وتحاربها بين حين وآخر ، أفضل من سلطة سياسية هائلة قد تقف كما يقف الطاغية غير المسئول فى سبيل تفكير البشرية وحركتها . وهذا شك صادق ومعقول . ولكن إذا كان قد أمكن التجاوز عن هذه المخاطر بتوحيد المستعمرات ، فلا بأس من مواجهة هذه المخاطر ذاتها بتوحيد الدول اليوم ، وقد بلغ العلم حداً يستطيع معه فى يوم واحد أن يمحو جيوشاً بأكملها ، وأن يدمر مدناً بأسرها ، وأن يرد كل حياة ، وكل نظام ، وكل حرية ، وكل فكر إلى مستوى الهمجية مرة أخرى . إن الخطر على الحرية يكمن فى الحكومات الضعيفة لا القوية . ذلك أن الدولة لا تقيد الحريات إلا حين تشعر بالخطر الذى يهددها . وعلينا أن نختار بين سلم رومانى أو عالم بلقانى .

---

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٧ .

(٢) هو كلارنس دارو Clarence Darrow

٥ – الحياة الجنسية والأخلاق

لا شيء يحزن له صاحب المذهب الفردى كهذا التعريف للأخلاق الذى يكاد يكون فسيولوجياً بأنه التعاون بين الأجزاء والمجموع . سيحتج بأن الأخلاق الوحيدة الصحيحة هى الذكاء[1] ، أو يمضى إلى آخر الشوط ويقول مع أناتول فرانس: «الصحة هى الأخلاق الوحيدة L'hygiène est la seule morale» ولكن المجرم قد يستعمل جميع وسائل النظافة ، ومع ذلك يحصل على ثروة كبيرة من الاتجار فى المخدرات . وقد يكون رئيس وزراء فرنسا على ذكاء نادر ومقدرة ممتازة ، ومع ذلك يقتل مليوناً من الفرنسيين ليفرض ضريبة على الألزاس واللورين. وقد يقلب الفسق النظيف الزواج إباحية ، والأطفال كلاباً مدللةً ، والرجولة الوطنية انحلالا . قد يكفى الذكاء إذا كان كاملا ،وأمكن أن يستحيل إلى حكمة . ولكن ماذا نعمل فى انتظار كماله ؟ سيسرق الناس ويقتلون ويموتون قبل أن نجعل منهم فلاسفة . كلا ، يجب أن نبدأ بالشباب ونعلمهم التعاون فى صبر . يجب أن نبث التعاون فى عادات الفرد الناشىء وشعوره . يجب أن نلتمس طريقة ما نعطى بها حتى الأذكياء من الناس المعنى الرادع للمجموع . ومن يدرى لعل هذا المعنى لا يختلف فى النهاية كثيراً عن الذكاء الحقيقى ، ذلك أن النظرة الكلية للفكر ستشمل النظرة الكلية للمجتمع ، وسوف يؤدى الفهم إلى الولاء .

بل إن خلفاءنا الصغار سوف يفهمون حين يكبرون أنه ما دامت حياة الجماعة تقوم على صفات الجنس والعناية بتربية الأطفال ، فينبغى أن تخضع شهواتنا الجنسية لبعض القيود الأخلاقية . قد نتجاوز عن لا أخلاقيتنا المبتكرة ، وقد نرغب فى دراسة ألوان من الشذوذ الجنسى كالجنسية المثلية ، ومباشرة الحيوانات ، وعشق القذارة . . . وقد نبتسم حين نرى على المسرح محاولات جريئة تتحسس على غير هدى ضرباً آخر من القانون الخلقى . ولكن قلوبنا لن ترضى عن أى أخلاق تتجاهل الجماعة . وإنا لنشعر عقب أى فعل يتنافى مع

---

(١) كما فعل المؤلف فى كتابه « الفلسفة والمشكلة الاجتماعية » .

المجتمع بالحاجة إلى حياة أصح وأنظف، ونحن فى حاجة إلى حياة لا نعرف فيها لذات البدن فقط ، بل رضا النفس الناشىء عن حسن الصحبة والتعاون . نريد أن نكون حيوانات سليمة ، كما نريد أيضاً أن نكون مواطنين .

أيمكن أن نفعل شيئاً لنبدل أخلاقنا من الفوضى إلى النظام ، ومن الترخص إلى المسئولية ؟ ولا ينبغى أن نجسم تأثير الجدل والآراء فى هذا الأمر . فهذه التغييرات فى العلاقات الجنسية لم تنشأ عن طريق التفكير ، ولن يخيفها منطقنا . ذلك أننا نواجه عملية غير شخصية تختص بالتحول الاقتصادى وأثره على الحياة الخلقية . فإذا لم يساير فكرنا ذلك التيار من الاختراع الذى يحدد مجرى التاريخ ، فسوف يلقينا التيار على الشاطىء ، مستقيمين ولكن عاجزين .

ومع ذلك فلن تدعنا شهوة الفهم فى راحة ، إذ علينا أن ننتحى بهذا التغيير الخلقى جانباً ، فنحلل أسبابه ونتائجه . ولن نفقد الأمل فى أن المعرفة هنا أيضاً هى القوة ، وأن الوضوح مطية الإحكام ، فلنبدأ من البداية ، ولنفحص تلك الشعلة من الحب التى تنفذ فى كل قانون خلقى ، وتستهلك الفرد ، وتحفظ الجنس. ولندرس صفات الجنسين ، لنتبين طبيعة هذين الكائنين الغريبين — الرجل والمرأة — اللذين يولد تجاذبهما وتنافرهما مشكلات الأخلاق الجنسية . ولنتأمل بعض الوقت المرأة المتحررة ، وننظر فى أثر تحريرها المفاجىء على أخلاق هذا العصر ومستقبل البشرية . وسنكون بعد ذلك مستعدين لمواجهة إخفاق الزواج مسلمين بشىء من العلم بأصله وأسبابه . وسنقدم فى تواضع بعض الاقتراحات للتوفيق بين هذا النظام العسير وبين سعادة المرء وصحة المجتمع . وأخيراً سوف ننزل الأخلاق من السماء إلى الأرض ، ونناقش تربية الأطفال وتكوين الخلق . وبهذا تكمل الدائرة .

الفصل السابع

الحب LOVE

١ – لماذا نحب ؟

الحب باعتراف جميع الناس أمتع صور التجارب الإنسانية جميعاً ، ومع ذلك فمن الغريب أن يعنى عدد قليل جداً من المفكرين ببحث نشأته ونموه . وما أكثر ألوان الأدب التى تحدثت عن الحب فى كل لغة وبكل أسلوب ، من أناشيد ، وتمثيليات ، وقصص ، وشعر يزخر بالعاطفة ، ومع ذلك ما أقل المباحث العلمية وما أندر الجهود التى بذلت لفحص هذه المسألة العجيبة فحصاً موضوعياً ، ومعرفة أصلها فى الطبيعة ، والكشف عن أسباب نمو الحب العجيب من اندماج البروتوزوا البسيط إلى إخلاص دانتى ، وهيام بترارك ، ووفاء هلويز لأبيلارد .

نعم لا نزاع فى اشتياق الرجال إلى النساء ، وفى أن الحب « الذى يحرك الشمس وغيرها من الكواكب » يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة . ولكن لم كان ذلك ؟ لقد أعلن الشعر وجهة نظره فذهب إلى أن الحب ينبع منذ الأزل من قلب البشر . ولكن أين يوجد الينبوع الخفى لماء الحب ؟ لماذا يهتاج الفتى عند رؤية خصلات الشعر المتهدلة فوق الحاجب ؟ أو عندما تلمس أصابع المرأة ذراعه ؟ أيكون ذلك لأن الفتاة جميلة ؟ ولكن ألا يخلق حبه جمالها ، كما يخلق جمالها حبه ؟ ولماذا يحب ؟

ولست تجد فى أمور الإنسان أغرب من إقبال الرجال – مع ما فى ذلك من خوف – على مطاردة النساء ، اللهم إلا أن يكون استعداد النساء – وهذا من جانبهن رزانة – لقبول المطاردة . ولست تجد فى سلوك الإنسان أثبت من نظرة الرجل الفاحصة التى يرمى بها المرأة فى كل لحظة من النهار . تأمل هذا

الحيوان الخاتل وهو يختلس النظر إلى فريسته زاعماً أنه يقرأ فى الصحيفة . استمع إلى حديثه وكيف يدور به حول صيده الأزلى . تخيل ما يتخيله فى خياله وكيف يرفرف حائماً حول هذه الشعلة المغناطيسية . فلماذا ؟ وكيف حدث ذلك ؟ وما جذور هذه الرغبة العميقة ، والمراحل التى اجتازتها حتى بلغت ما هى عليه من سمو وجنون ؟

فلنجازف بالبحث عن إجابات لهذه الأسئلة التى لا تخطر أبداً على بال المحبين . ولنضم أطراف هذا العلم بقدر ما نستطيع راجعين إلى ستندال ، وإليس Ellis ومول Moll ، وبولش Bölsche ، وديجور مون De Gourmont ، وفرويد ، وستانلى هول ، لنرى أيمكن أن نركب صورة فيها نظرة شاملة تكشف عن وظيفة الحب ومعناه . ولنتتبع بقدر الطاقة الطريق الذى يسير الحب فيه .

٢ — من الناحية البيولوجية

كما تدور حياة الفرد بالتبادل بين الجوع والحب ، كذلك الحياة فى مجموعها تدور على التغذى والتناسل باعتبارهما المركزين الكبيرين فى فلك الحياة . فالتغذى سبيل إلى التناسل ، والتناسل طريق إلى التغذى . فنحن نأكل كى نعيش ، وننضج ، ونحقق أنفسنا عن طريق الأبوة . وبالتناسل تنفصل من جسدنا الصائر إلى الموت حياة جديدة فيها القوة على التغذى والنمو من جديد ، ولعلها تبلغ فى المستقبل هيئة أبدع مما كانت عليه من قبل .

ومن الواضح أن النمو فى أبسط الخلايا هو الدافع إلى الانقسام ، الذى يعد أحط أنواع التناسل . ذلك أن جسم الخلية ينمو أسرع من غشائها الذى تتغذى من خلاله . ولكى تحتفظ الخلية بالتناسب بين جسمها المتزايد وغشائها تنقسم قسمين ، بحيث يتكافأ الغشاء مع الجسم . وإذا كنا فى التفسير العلمى نلجأ إلى افتراض نظرية من النظريات فهذا الانقسام نفسه من الوقائع التى لاتحتاج إلى تفسير . فالبكتريا — وهى أصغر الكائنات الحية المعروفة — تتكاثر بالانقسام ، ثم تكرر الانقسام إلى الحد الذى يتعب الذهن من حسابه . وتنفصل

عناصر جسم الأميبا المركزى ، أو النواة ، انفصالا غريباً إلى نواتين ، ثم تنقسم الخلية كلها وتكون أميبتين جديدتين . فهذه أبوة ، ولكن تمايز الجنسين يوجد بعد ، وأكبر الظن لا يوجد حب .

مثل هذا الانقسام للكائن الحى قسمين هو جوهر حيلة الطبيعة للاستمرار فى الحياة ، حتى فى الحيوان العاقل Homo sapiens . ومع أن الطبيعة تتطور بهذه الصيغة إلى آلاف من الصور المعقدة إلا أنها لا تهجرها أبداً . ويسود هذا التوالد عن طريق الانقسام البروتوزوا (أى الحيوانات ذات الخلية الواحدة) . فالهيدرا (١) Hydra الصغيرة تبرعم من ساق هيدرا أكبر ، وتنمو بالتغذى من حياة أبيها ، حتى إذا تم نضوجها برزت للبحث عن الغذاء فتنافس الكائن نفسه الذى برعمت منه . وأخيراً تنفصل فى حرية ، وتلتمس مكاناً آخر ، وتهيىء لنفسها معيشتها .

وفى بعض الأحيان تبقى خلايا البروتوزون المنقسمة كالحال فى بعض الفطريات Volvox مستقرة فى قالب هلامى وتكون « مستعمرة colony » . وعندئذ يظهر تميز غريب فى الوظيفة ، إذ تتخصص الخلايا الخارجية بالتغذى ، والداخلية بالتناسل . وتصبح المستعمرة كائناً اجتماعياً تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض وتتعاون . فمنذ بداية مظهر الحياة ، تقدم الحياة لنا مثالا عن « انعزال جرثومة البلازما » ذلك الانعزال الذى أقام فايسمان Weismann على أساسه النظرية السائدة الخاصة بالوراثة فى الإنسان .

ولكن مع أن الانقسام عام إلا أنه لا يكفى ، إذ يأتى وقت بعد عدة أجيال يبدو فيه أن البروتوزوا التى تكرر انقسامها تفقد الطاقة اللازمة لتكوين كائنات جديدة . وهنا تظهر ظاهرة جديدة ، إذ تتحد اثنتان ضعيفتان من البروتوزوا ، وتصب كل منهما من نواتها تياراً من البروتوبلازما ينفذ إلى جسم الأخرى . ثم

---

(١) اسمه الشجاع – بالعربية (قاموس شرف) وهو ثعبان مائى متعدد الرءوس ، إذا قطعت إحداها نمت أخرى . أو هو جنس من الديدان المائية التى تتكاثر بالانقسام . وفى حياة الحيوان للدميرى : الشجاع الحية العظيمة ...... وتزعم العرب أن الرجل إذا طال جوعه يعرض له فى البطن حية يسمونها الشجاع (المترجم) .

تنفصلان، ويظهر مع الغرابة أنهما قد قويتا بهذا « التزاوج المجدد للشباب » ، إذ تنقسم كل منهما بقوة فطرية ، ويحقق الانقسام لعدة أجيال مرة أخرى أغراض استمرار الحياة . فالشأن فى البروتوزوا فى هذه الحالة شبيه بأنفسنا الإنسانية وجماعاتنا ، إذ يقوى المرء عندما يتزوج ، ويتجدد شـــباب الأجناس عندما تختلط .

وعلى ما فى هذا الاتحاد البسيط من دلالة فهو لا يشبه ذلك التزاوج بين الأفراد المختلفة ، وهو أصل زهرة الحب . أيمكن أن نجد مثيلا لذلك فى الحيوانات الدنيئة ؟ نعم ، نقترب من ذلك فى البندورينا Pandorina ، وهى مستعمرة بروتوزوية مكونة من ستين خلية ، وتنقسم كل منها لا إلى خليتين مستقلتين ، بل إلى أجزاء متناهية الصغر أو إلى « خلايا جرثومية Spores » كلها متشابهة فيما يبدو ، ولا ينشأ كائن جديد إلا باتحاد جرثومتين . ولننتقل إلى مستعمرة بروتوزوية أخرى هى الإيدورينا Eudorina فنجد الظاهرة نفسها ؛ إذ تنقسم كل خلية إلى جراثيم مختلفة ، بعضها كبير وساكن ، وبعضها صغير ونشط ، ولا يتكون كائن جديد إلا عندما تنفذ جرثومة صغيرة فى داخل جرثومة كبيرة . ففى الإيدورينا تبدأ الطبيعة فى اكتشاف الجنسين .

وهنا نجد أن الطبيعة تتردد بعض الوقت ؛ ففى بعض الفطريات نرى طريقة التناسل القديمة تتبادل بغرابة مع الطريقة الجديدة . ففى الجيل الأول تتكاثر خلايا المستعمرة بالانقسام المعروف ، ولكن خلايا الجيل الثانى التى حدثت بالانقسام ، تتكاثر كالإيدورينا إلى جراثيم غير متشابهة ، ويجب أن تتحد جرثومتان لتكوين خلايا الجيل الثالث . وهكذا لا يمكن أن يستتب أمر الأشياء الجديدة إلا إذا ألقت بنفسها فى أحضان القديم . . . وهذا درس يتعلمه الشباب بعد أن يولى الشباب ! !

وبعض أعضاء الجسم فى الكائنات الأكثر تعقيداً ، كأعضاء التذكير والتأنيث فى النبات تتخصص لإنتاج الجراثيم ، فيتميز نوعان من الجراثيم تميزاً كبيراً ويصبح كل نوع منهما فى المراحل المتأخرة من تطور الحياة البويضة ova والنطفة sperm . ولكن هذين العنصرين المتضادين لا يزالان فى كثير من الأنواع يحدثان

فى الجسم نفسه بوساطة الأب (أو الأم)[1] فقط . فدودة الأرض مثلا تفرز فى فلقة من فلقها بويضات ، وفى فلقة أخرى فى موسم آخر نطفا . والحال كذلك فى المحار والهلاميات الأخرى ، وبعض ذوات الأغشية ، وسمك الفرخ perch ، بل الرنجة herring المعروفة . ولما كانت الطبيعة قد ترددت فى التمييز بين العناصر المولدة ، فقد ترددت كذلك قبل التمييز بين الذكر والأنثى فى الكائنات التى تولدهما .

ويظهر أبسط صور التمييز المعروفة فى السنجام syngame — وهو طفيلى يعيش فى داخل الطيور . وهنا نجد كائناً كبيراً يبدو أنه أنثى ، أى يفرز بويضة . ثم كائنا أصغر منه كثيراً يعيش متصلا على الدوام بجانب الأنثى ، ولا يعطى بسبب صغر حجمه أى فكرة عن سيطرة الذكر . ويشبه هذا الكائن الصغير الذى يفرز النطفة طفيلياً يعيش على طفيلى أكبر منه ، أو يشبه عضواً فى كائن . ولن يشك أحد فى أنه زوج الأنثى .

وانظر كذلك إلى دودة البحر المسماة بونيليا bonellia ، ويبلغ طول أنثى هذا النوع نصف قدم ، وهى عريضة إلى حدما ، أما الذكر فهو شحمة ضئيلة يبلغ طولها جزءاً من ستة عشر جزءاً من البوصة ، أى إنه أصغر مائة مرة من أنثاه . وتعول كل أنثى نحو عشرين ذكراً من هذه الذكور الضئيلة ، التى تنفذ من داخل مجرى الهضم فى الأنثى إلى جسمها ، حيث تلتقى بالبويضات الموجودة داخلها وتلقحها . وأنثى الحشرات تكاد تكون دائماً أكبر وأقوى من الذكر . فأنثى الفراشة أطول من الذكر خمس عشرة مرة وتزن عشرات أضعاف وزنه . وفى بعض أنواع الحشرات يبلغ الذكر من الصغر حداً يكون فيه « أشبه بالنملة التى تدب على ظهر الخوخة »[2] . ولا يتفوق الذكر إلا فى الطيور والثدييات ، وهنا نجد أن قوته ترجع إلى أن الأنثى بعد اضطلاعها بمعظم أعباء التناسل تغلب جسمانياً على أمرها فى الحرب الجنسية الأزلية .

---

(١) فى الأصل parent ، وهى فى الإنجليزية تدل على أى الوالدين ، لا الأب فقط أو الأم فقط (المترجم) .

(٢) Gourmont, R. de, The Natural Philosophy of Love.

ويبلغ هذا الاعتماد الذى نراه فى الذكر وهو أصغر الجنسين على الأنثى ذروته فى تضحية الذكر بنفسه عند عملية التلقيح . فى كثير من الأنواع تأكل الأنثى الذكر بعد الاتصال الجنسي مباشرة . ويعيش ذكر العنكبوت من فصيلة إبيروس Epirus بعيداً عن الأنثى طلباً للسلامة إلى أن يصاب بنوع من القلق . وعندئذ يقبل فى حياء كأنه دانتى يقترب من بياتريس ويتصل بالنسيج الخارجى للأنثى ، ويبنى لنفسه بعناية طريقاً للانسحاب والخروج ، ثم يتقدم بحذر . والغالب أن الأنثى تلتهمه فى الحال دون أن تسمح لهذا المسكين بمعرفة أى شيء عن لذة الحب . ولعلها تظنه من الأعداء ، وقد تكون ممن يؤثر الطعام على الغرام . أما إذا سادها مزاج السفاد فإنها تمارس شعائر الحياء ، فتتراجع فى خفر مع أنها أكبر وأقوى من الذكر ، وتنزل خيطاً من نسيج بيتها وترفع خيطاً آخر ، على حين يتبعها الذكر الهائج ، وأخيراً تستسلم لقبضة الذكر وتهيىء له وهم السيطرة اللذيذ . ويبلغ انفعالهما فى هذه المرحلة مبلغ الرومانتيكية والسمو ، فيربت أحدهما برقة على صاحبه بملامسة peelers ، ويفصحان عن رغبتهما برشاقة . ولا يكاد ينتهى التسافد حتى تنقض الأنثى على الذكر وتلتهمه بكل ما فى الحب الكامل من سخرية . وقد يكون الذكر فى بعض الأحيان يقظاً إلى الحد الذى يجعله يهرب من قبضتها المهلكة ، فينزلق متراجعاً على خيطه ناجياً بحياته العزيزة . ويصبح بعد ذلك فيلسوفاً ، حتى ينتابه القلق مرة أخرى .

ويقول فابر Fabre إن أنثى الجراد mantis تأكل عشاقها بمثل هذه الوحشية مع شراهة أعظم . وترفض الحشرات الأخرى اقتراب الذكر منها بعد تلقيحها ، ولكن أنثى الجراد تسمح لاثنين إلى سبعة من الذكور وتقبل مغازلتهم ، ثم تأكلهم الواحد بعد الآخر فى وقت فراغها . وفى كثير من الأحوال لا تستطيع الأنثى أن تصبر فى انتظار وجبتها ، فتدير رأسها وتأكل الجزء الأعلى من الذكر حين يكون مشغولا بتأدية مهمته الجنسية . ويروى بوارى Poiret حالة أنثى أطاحت برأس الذكر بمجرد ظهوره ، ولكن المغرم المقطوع رأسه مضى فى أداء وظيفة التناسل وكأن شيئاً لم يحدث له ، وكأن الرأس لا قيمة له فى الصلة الجنسية . وقطع جاك لوب Jacque Loeb بطن الجاماروس gammarus

وهو ذكر من القشريات حين كان يسافد ، ولكنه استمر فى عمليته دون اضطراب ، ومن الواضح أن سائر قواه الحسية اتجهت وجهة أخرى . وفى ذلك يقول لوب :

« الواقع إلا إذا كانت ذاكرتى تخدعنى أن هذه الذكور المنزوعة بطونها على استعداد إذا أبعدت عن الإناث أن تتصل بغيرها متى وجدتها »(١) .

وإنا لنعجب حين ننظر إلى تبعية دور الذكر فى الأنواع الدنيئة ، أيمثل ذلك ضرباً من التخصص تطور إليه أخيراً بالطبيعة عن نوع من الكائنات مثل دودة الأرض ، حيث يعيش كلا الجنسين فى جسم واحد . وكل ما كان لازماً لظهور الجنس هو تباين يحدث لبعض الكائنات التى مع تولدها من أنواع خنثى bisexual إلا أنها تصبح مع ذلك متخصصة الجنس unisexual ، أى قادرة على إنجاب نوع واحد فقط من الأعضاء التناسلية .

ولكن ما الذى أعان على ظهور هذا التباين ؟ وما فائدة هذا الانفصال الجديد فى الحياة إلى أنثى وذكر ؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأن الذكر الجديد لا غنى للأنثى عنه ، فالطبيعة والتجربة تشكان فى ذلك . فهناك حالات كثيرة تستطيع الأنثى ، حتى فى الأنواع التى تم فيها انفصال الجنسين ، أن تنجب فيما يبدو بغير معونة الذكر . مثال ذلك أن بق النبات المسمى أفيس aphis يتسافد الذكر والأنثى عادة وقت سقوط الأوراق ، وتضع الأنثى « بيضة شتوية » كبيرة تعيش حتى الربيع ، على حين يموت سائر النوع . وتفقس هذه البيضة الكبيرة فى الربيع إناثاً بغير أجنحة ، وهى ، مع أنها لم تر أى ذكر من جنسها ، إلا أنها تنجب خلفاً كلها من الإناث حتى نهاية الصيف . ثم تظهر فجأة بين اليرقات ذكور ، ينضج بعضها ، وتلقح إناث جيلها التى تضع بيضات شتوية من جديد .

لعل هذه الحالات من التوالد بغير تلقيح parthenogenesis ترجع (كما يظن ترمبلى Trembley) إلى انتقال بعض ما اختزنته الإناث الملقحة فى موسم سقوط الأوراق إلى البيض الملقح من الأجيال التالية غير الملقحة ، وليست هذه النظرية مؤكدة . أما إمكان الاستغناء عن الذكر بالفعل فقد ثبت بالتجربة

---

(١) Comparative Physiology of the Brain, p. 231.

فى كثير من المعامل . فقد شجع جاك لوب البيض غير الملقح لأصداف البحر sea-urchins ، ونجمة البحر starfish على الفقس والنمو بأن يضع البيض فى الكحول والأثير والكلوروفورم والاستركنين والسكر والأملاح والحوامض والقلويات ، فكانت هذه الأصناف المتعددة بديلا عن الذكر المفروض أنه لا غنى عنه .

فمن الواضح أن ظهور الذكر فى الطبيعة لا يرجع إلى الحاجة إلى التلقيح . فإلى أى شيء يرجع إذن؟ أكبر الظن أنه يرجع إلى ضرورة التهجين cross-fertilisation ذلك أن انفصال الجنسين جعل اتحاد الصفات والقوى الوراثية فى الذرية ممكناً ، وهى صفات وقوى تنحدر عن أصلين متميزين من الأسلاف . وتبلغ مزايا هذه الوراثة المزدوجة من الوضوح ما يجعلنا نتوقع ظهور ترتيب معين يمنع التوالد الذاتى بغير لقاح . وهذا هو الواقع : فالأزهار (وهى الأعضاء التناسلية فى النبات) مركبة بطريقة تجعل نفاذ عضو التذكير فى عضو التأنيث من ذلك النبات مستحيلا . حتى القوقعة التى تضم فى جسمها كلا الجنسين ، نجد أن أعضاءها مرتبة ترتيباً لا يسمح باللقاح الذاتى . وهكذا تدبر الطبيعة حتى نبلغ نوع الإنسان فنجد أن العوامل الاجتماعية والنفسية قد تحالفت على تحريم الزواج بين الأخ وأخته ، وتوجد محرمات taboos قوية تمنع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة . وليس تحريم الزواج من الأهل incest ، وقوانين الزواج من خارج القبيلة ، إلا أسمى صورة لذلك الاتجاه نفسه نحو التهجين ، وهو المسئول عن التمايز بين الجنسين .

والآن وقد انقسمت الكائنات إلى جنسين ، فعلينا أن نواجه المشكلة التالية وهى تعاونهما بالتقاء أعضاء التناسل . وهنا يذهلنا إسراف الطبيعة ؛ وإسرافها أعظم فى النباتات المزهرة ، إذ هناك آلاف من الأنواع تعتمد على الرياح فى نقل بذور التلقيح من نبات إلى آخر ، ويفوح الهواء برائحة حبوب اللقاح التى تكون ذراتها أريج الزهر ، حتى لتشغل ملايين من هذه الذرات مسافة تبلغ خمس ياردات . وتحمل أنثى سمك الدخس sturgeon فى جسمها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة (أى ٩٠٠ رطل) ، وهذا يكفى لعمل ٦٫٠٠٠ شطيرة (ساندوتش) من الكافيار . أما

فى سمك الرنجة فالأمر أشد إسرافاً ، إذ تتجمع مئات الآلاف من الإناث والذكور فى مكان واحد حتى ليخيل للمرء أنها قطعة كبيرة من الجلاتين ، وتفرز البيض والمنى milt بكثرة شديدة حتى يصبح لون ماء البحر كاللبن . ثم يأتى الصيادون فيمسكون بهؤلاء المغرمين جملة ، ويسحبونهم بالآلاف فى شباكهم . ومع ذلك يلقح بعض البيض بوساطة المنى ، أما الطبيعة المهملة التى تحتقر من شأن الفرد فإنها تعزى نفسها بالاحتفاظ بالنوع .

ونحن نجد هذا الإسراف نفسه فى نوعنا الإنسانى ، ولو أنه خفى ؛ إذ من بين ٧٢٫٠٠٠ بيضة تفرزها الأنثى ، وبلايين النطف التى يفرزها الذكر ، لا يستغل فى التناسل إلا قلة قليلة (فى أيامنا هذه واحدة أو اثنتان فقط) ويعتقد بولش Bolsche أن هذه الوفرة ليست مجرد نفاية ، إذ أنها تقدم المادة التى منها ينقى الانتقاء الطبيعى البيض والمنى الضعيف وينتخب الأقوى ؛ وقد يكون هذا صحيحاً . ولكننا نشك فى أن الأستاذ بولش قد أعلى من شأن الطبيعة أكثر مما تستحق ، فهى ليست من الذكاء بمقدار ما يظن . ولا ريب فى أننا قد ورثنا الغباء الذى لا ينضب له معين من أمنا الطبيعة .

ويصحح هذا الإسراف فى الحيوانات الراقية ما تتخذه الطبيعة من احتياط فى التركيب لهداية البيضة والنطفة واتحادهما من جهة ، وما يتخذه الآباء من عناية نامية من جهة أخرى . مثال ذلك أن نجمة البحر star-fish تحتضن بيضها الملقح بيديها ، وكذلك صغارها بعد فقسها . ويقود ذكر الزقزوق (نوع من السمك) أنثاه إلى حفرته لتضع البيض ، ثم تذهب إلى حالها ويعنى الذكر بالنسل بنفسه ، كما يفعل الزوج فى العصر الحديث . وتضع أنثى فرس البحر من النوع المسمى كامبوس هدسونيوس campus hudsonius بيضها فى جراب على بدن الذكر الذى يعنى بالبيض إلى أن يفقس . ويبلغ المتوسط السنوى لما تضعه آلاف الأسماك التى تكتفى بوضع البيض ثم تتركه حول مليون لكل زوج . وفى مائتى النوع التى تظهر شيئاً من عناية الأبوة فلا يبلغ المتوسط إلا ٥٦ بيضة للزوج فى العام . وتضع الطيور التى لا تبنى لها عشاً اثنتى عشرة بيضة فى العام . أما التى تبنى عشاً خشناً فيبلغ ما تضعه ثمانى بيضات ، والتى

تبنى عشها بعناية خمساً [1] . وهكذا نجد أن الحب الأبوى يحل شيئاً فشيئاً محل إسراف الطبيعة ويعوضها . وفى الثدييات التى تختص بعناية الأمومة ينجب الزوج ثلاثة صغار فى العام ، وتقل هذه النسبة فى الأنواع الراقية . ثم تنمو الأسرة ببطء كأنها رحم خارجى يعنى بالنسل خلال فترة أطول من الزمن . وكلما طال زمن البلوغ ارتفعت الحضارة التى تعتمد إلى حد كبير على فترة التربية إلى مستويات أعلى مما كانت عليه من قبل .

والآن ما موقف مشكلة الحب من وجهة نظر هذه الزاوية البيولوجية السريعة ؟ يجيب أرستوفانس ساخراً فى محاورة المأدبة لأفلاطون (١٨٩ — ١٩٢) قائلا : « كان الجنسان فى الزمن القديم واحداً ، ولكن الإله — بسبب خبث البشر ... قطع الإنسان نصفين ، كاللفت الذى يشق نصفين للتخليل ، أو كما نشق البيضة بشعرة . . . وكل منا حين انفصل لم يكن إلا نصف إنسان... يتطلع على الدوام إلى نصفه الآخر؛ فالرغبة فى الكل والسعى إلى تحقيقه يسمى حباً ». وهذا لعمرى تعريف شريف ، يحثنا على تأويل هذه الأسطورة تأويلا علمياً ، فنقول : كان كلا الجنسين فى قديم الزمان فى بدن واحد كما هى الحال إلى الآن فى دودة الأرض ، ثم فصلتهما الطبيعة إلى كائنين . ولذلك يحس الآن كل شطر منهما وهو منفصل بأنه ليس إلا نصفاً ، فيشتاق إلى الاتحاد والتكامل .

ولكن الجواب عن سؤالنا « ما الحب » يعد جواباً غامضاً . إذ يفترض ذلك وجود وعى فلسفى عال فى أحط الخلايا الجرثومية البروتوزوية . وأكبر الظن أن وظيفة الذكر حين تخصصت أول مرة فى كائن منفصل ، لم يسع إلا قلة قليلة من تلك الذكور الأولية إلى الاتحاد « بأنصافها الحلوة » . وتلك الذكور التى سعت ووفقت فى الاتصال بنصفها الآخر ، هى وحدها التى أصبحت آباء الجيل التالى . وهكذا كان المحبون فى كل جيل — أى الأفراد الذين حققوا الكمال بالاندماج فيمن يكملهم — هم الذين نقلوا شوقهم إلى الاتحاد فى مجرى الحياة . أما الذين فقدوا الشعور بهذه النزعة أو شعروا بها شعوراً ضعيفاً ، فقد انقضت

(١) Sutherland, A., Origin and Development of the Moral Instincts, Vol. I, pp. 4-5.

حياتهم بغير نسل أو بنسل قليل ، وذهب فتورهم بموتهم . من أجل ذلك نما الشوق الشديد مع كل جيل ، فلا غرابة أن يصبح هو العاطفة الغالبة ، وهى أقوى من الموت . . . ذلك الموت الذى تخدعه هذه العاطفة فى صبر بالاستمرار عن طريق التبدل . ولعل . . . لعل هذا هوالطريق الذى جاء منه الحب.

٣ – الأساس الفسيولوجى

لقد تحدثنا عن الحب بما فيه الكفاية فى تطوره خلال سلسلة الحياة . فلنتأمل الآن نموه فى الفرد ، أو كما قال أرسطو : إذا أردت أن تفهم حقيقة شىء ما فعليك أن تبحث نشأته وتطوره .

أيوجد فى الطفل ما يضاهى عاطفة الحب التى تظهر فيما بعد ؟ يجيب فرويد فى ثقة عن هذا السؤال مثبتاً إياه ، وشيد قصوراً مدهشة من علم النفس الطبي أقامها على الاحتمالات الشبقية لمص الأصابع ورضع الثدى. ولكننا حين نفصل الوقائع عن النظريات نجد الوقائع ضئيلة جداً . فهذا واطسن وأعوانه وضعوا مئات عدة من الأطفال تحت الرقابة فترة طويلة من الزمن ، فلم يجدوا عندهم أى سلوك جنسى من أى نوع(١) .

ومع ذلك فلا يلبث الطفل أن يظهر وعياً بالجنس الآخر ، فيبدو عنده ضرب من الفضول التشريحى يشجعه عليه الإخفاء والمراوغة . ويصبح كل جنس شيئاً غامضاً بالنسبة إلى الجنس الآخر ، ويثير فيه رد فعل عبارة عن مزيج من الخجل والجاذبية . ولا يكاد يوجد بين الجنسين الصغيرين أكثر من ذلك . فإذا حصل الحب قبل البلوغ فالأشبه أن يكون فى هيئة « عقدة أوديب » ، أى يتعلق الصبي بأمه ،والفتاة بأبيها . ولكن ليس ما بيّنه فرويد هو الشىء الفظيع ، فعقدة أوديب ليست لا شعورية ولا شاذة ، بل هى سبيل الطبيعة إلى إعداد الطفل لحب سليم . أما إذا كانت العلاقة على غير تلك الصورة ، أى حين

---

(١) Watson, J.B, Behavior, p. 262.

يتعلق الابن عاطفياً بأبيه ، أو تتعلق البنت بأمها ، فعندئذ يكون من المعقول أن ينزعج علماء الطب النفسى .

وعند البلوغ يغنى الحب أنشودته الواضحة . والمعنى الحرفى للبلوغ(١) puberty يدل على السن التى ينبت فيها الشعر على جلد الذكر ، وبخاصة شعر الصدر الذى يتيه به فى توحش ، وكذلك شعر الوجه والذقن الذى ينتزعه فى صبر أيوب . ويبدو أن نوع الشعر وغزارته ينبتان ويقعان (فى الظروف العادية) مع دورة القوة الجنسية ، ويبلغان الأوج عند ازدهار الحيوية . هذا الشعر الذى ينبت فجأة إلى جانب خشونة الصوت من « الصفات الجنسية الثانوية » التى تصيب الذكر عند البلوغ . أما الفتاة النضرة فإن الطبيعة تجعلها لينة الأطراف ثقيلةالأرداف حتى تفتن العين ، عريضة الحوض لتيسير الحمل ، بارزة النهدين لإرضاع الطفل .

فما الذى يسبب هذه الصفات الثانوية ؟ لا أحد يدرى . ولكن الأستاذ ستارلنج Starling اكتشف ما يؤيد نظريته التى تذهب إلى أن الخلايا التناسلية عند البلوغ لا تشرع فى إفراز البويضة والمنى فقط ، بل كذلك بعض « الهرمونات » التى تنفذ إلى الدم وتكون علة حدوث تغيير جسمانى ونفسانى . ولا يوهب الجسم فقط بقوى جديدة ، بل يتأثر العقل والخلق بألوان شتى من التأثر . وفى ذلك يقول رومان رولان : « تمر بالرجل فترات من العمل يحدث فيها تغيير عضوى صامت » — أو بالمرأة . ومرحلة البلوغ هى أهم هذه المراحل .

ثم تغمر مشاعر جديدة الجسم والنفس . ويسوق حب الاستطلاع العقل إلى الأمام ، ويرده الحياء إلى الوراء . ويصاب الشاب بالارتباك فى حضرة الجنس الآخر ، وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلا . وقد يصبح الطفل فجأة ذكياً بعد أن كان غبياً ، أو يصبح عنيداً بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعاً . وتنتاب البالغ نوبات من النظر فى باطن نفسه ، وأحوال غريبة من التأمل

---

(١) هذا من جملة معانى اللفظة فى الإنجليزية . أما فى العربية فالبلوغ من بلغ سن الرشد ، ويقال أيضاً الاحتلام والحلم والمراهقة ، وبعضها يدل على الإدراك العقلى ، وبعضها يشير إلى الحالة الجنسية المعروفة (المترجم) .

والشرود . ويتفتح الخيال وتظهر دولة الشعر ، ويطمع جميع المثقفين إذا بلغوا هذه السن فى التأليف ويحلمون بشهرة خالدة . وتسرع كل قوة عقلية فى النمو ، ويهجم العقل بأسئلة جديدة على الكون . وإذا استمر الشاب سائراً فى طريق التفكير أصبح عالماً أو فيلسوفاً ، أما إذا هجره سريعاً فقد يصبح رجلا ناجحاً فى الحياة ويرتقى أعلى المناصب .

وفى هذه الفترة يروى ماء الحب المتدفق جذور الفن للمجتمع والإخلاص له . ذلك أن الحب يتخيل الجمال ، ويبحث عنه ، وقد يبتدعه . والحب يتخيل الخير ، ويسعى إليه ، ويبرز عازماً على تحقيقه . وإذا كان الدين يعرض نفسه فى هذه المرحلة على أنه عقائدإلهية فقد يثير فى نفس الشباب شهوة الجدل ، وتتمزق بذلك أوصال الدين . أما إذا عرض نفسه على أنه يطلب الخير تأثرت به مثالية النفس المتغيرة ، وأصبح الدين جزءاً لا يتجزأ من الشخصية .

جملة القول مرحلة البلوغ أعجب مراحل حياتنا . فهو عصر العقل ، وهو مع ذلك فترة الانفعال ، إذ ينثر العقل والقلب فى كل جانب وابلا من أفكار جديدة ومن عواطف المحبة . ولن تجد العالم يبدو أغرب ومع ذلك أجمل ، وأبعد منالا ومع ذلك أسهل نيلا ، كما يبدو فى هذه السنين التى ينتقل فيها الإنسان من طور إلى طور ، حتى ليشتاق المرء فى كل عمر متأخر إلى الرجوع إليها . سن البلوغ هو ربيع كل قوة ، وزمان البذر لكل حصاد ، وفيها تجد سائر العواطف الشريفة غذاءها . هذه السن هى نهضة الحياة .

ومع ذلك أى قوة داهية هذه التى تسوق الفتى فى خوف نحو الفتاة ، وتجعل الفتيات يتمنعن وهن الراغبات ؟ أى سر غامض يعمل فى جنبات الجسم ليخلق أبهى زهرة فى جميع حياتنا . . . حب الرجل للمرأة ؟

وتأخذ الخلايا الجرثومية فى البدن تهتاج وتتفجر بالحيوية وكأنها قد عقدت العزم على مغالبة كل جهد للاحتفاظ بهذا النشاط الجديد . وكما أن الأصل البيولوجى للحب هو الانتخاب الطبيعى ونمو الغريزة إلى تحقيق الاتحاد ، كذلك أساس الحب الفسيولوجى فى الفرد هو تجمع المادة الجرثومية ، فيهتاج الكائن

بأسره ، لإحساسه بتوقف النمو وقلق الحياة المتوسعة ، ويمتلىء القلب بحزن لذيذ ولكنه ثقيل ، وكأنه قد أدرك أنه ناقص فتعطش إلى أن يكمل نفسه .

وفى ظل هذا الاهتياج يتأثر الشباب بآلاف من المؤثرات كانت تمر به دون أن يشعر بها من قبل ، وتروقه بعض الأصوات ، وتفتنه الموسيقى والغناء إلى أقصى حد ، ويتصف الصوت برخامة جديدة (لعلها بدأت فى نداء الذكر من الحيوانات الدنيئة) ، ويستمتع المحب بسماعه . ويعجب الشباب ببعض الروائح بعبير البدن النامى ، وأريج النظافة ، وقوة العطر المنبهة للغريزة ، وهى جميعاً كالخمر التى تسكب فى كأس الحب . وتفتنه كذلك بعض الحركات : إيقاع الرقص ومخاصرته ، وهزة جسم الرياضيين وثقتهم بأنفسهم ، ورشاقة الفتيات وخفتهن . أما المناظر فتفتن الشباب أكثر من أى شىء آخر ، إذ يفيض موسم الحب بالألوان ، ويفضى اللون الأحمر إلى حب الامتلاك . ويتأنق الشباب فى الملبس فى زمان الألفة ، كما ينبت العرف والريش للطير والحيوانات . ويطلى المتوحشون أجسادهم بالنقوش فيشوهون أنفسهم ليلفتوا إليهم الأنظار ويثيروا الحواس . ولا يصبح اللباس وقاية بل زينة ، ومصدراً للوحى ، وباعثاً على التأثير . وتخفق القلوب الرقيقة للشجاعة والقوة ، وتثير رؤية الأجسام البضة رغبة الشباب . فهذه التجارب الجديدة من الروائح والأصوات والملموسات والمناظر ، ومن العطر والغناء والرقص وشتى أنواع الاستعراض ، تشغل أيام الشباب وأفكارهم الحالمة ، وتصبح بواعث لا يمكن صدها إلى الحب .

ثم تجتمع سائر المؤثرات وتظهر فجأة جميع الشروط ، وتنطق حاجات الجنس بلسان جوع البدن والروح . وعندئذ يولد الحب ويشرق فى القلب كما يبزغ النور فى الصباح ثم ينتشر فيملأ الكون نوراً وناراً . وفى ذلك ينشد لوكريتيوس العظيم :

« إيه أيتها الزهرة ، إنك وحدك سيدة طبيعة الأشياء ، ولا شىء يرتفع بغيرك إلى عوالم الحياة المقدسة ، أو يصبح بهياً أو مرحاً . وإنك لتملئين جميع القلوب بالحب العميق ، وتسوقين كل قلب إلى أليفه يعملان على استمرار الجنس بالرغبة الحارة ، من خلال سائر الجبال والبحار والأنهار المتدفقة ، وأعشاش الطيور

المورقة ، والسهول المكسوة بالحشائش . إذ ما يكاد الربيع يشرق مع الصباح ، حتى تثب القطعان البرية فوق المراعى الباسمة ، وتعوم فى المياه الجارية ، وقد أسرت قلوبها المباهج الساحرة ، وساقها الحب إلى اتباعك(١) » .

٤ — النمو الروحى

على هذا الأساس الوطيد الطبيعى يقوم ذلك الحب الذى هو روح وشعر ، كما ينشأ إخلاص الأليف لأليفه من شهوة الحياة للاستمرار . ومن هذا الجوع للجسد ينبع أجمل وفاء بين روحين . ومن شهوة الهمجى فى الكهف ينشأ فى النهاية غرام الشعراء . فهذا هو السلم الذى يرتقيه الإنسان .

ويبدو أن البدائيين من البشر لم يعرفوا من الحب إلا الشىء اليسير . إذ ليس فى قاموسهم لفظة تدل عليه ، وإذا تزوجوا لم يفعلوا شيئاً يقرب من الغزل أكثر من الرغبة فى البنين ، والاختلاف بانتظام إلى تناول وجبات الطعام . وفى ذلك يقول لابوك Lubbock (وعلماء الأجناس مغرمون بالبحث فى الأماكن الغريبة) : « يحتفل أهل « يوروبا Yoruba » بالزواج بلا أدنى اكتراث . ولا يفكر الرجل منهم فى اتخاذ زوجة إلا بمقدار ما يفكر فى انتزاع سنبلة من القمح . . . ولا محل للحب على الإطلاق »(٢) وكان نيتشة يعتقد أن « الحب الرومانتيكى » من اختراع شعراء الأقاليم troubadours . ولكن لا ريب أن ثمة عنصراً « روحياً » ينمو فى الدافع التناسلى حينما ظهرت الحضارة . وكان الإغريق يعرفون القصص الغرامى ، ولو أن ذلك كان على طريقتهم الشاذة . وتدل قصص ألف ليلة وليلة العربية على أن الحب لم ينتظر حتى ظهور الأغانى فى العصر الوسيط . غير أن مغالاة الكنيسة فى تقديس العفة ، وإحاطتها المرأة بسحر ما يستعصى على النوال ، كان مما ساعد على ازدهار شعر الغزل . ويقول فى ذلك لاروشفوكو : « الحب بالنسبة إلى روح الحبيب ، كالروح بالنسبة إلى البدن الذى تحييه » . ويقول دى موسيه : « جميع الرجال كذابون وغشاشون

---

(١) On the Nature of Things, Tr. Munro, Book ii, lines 991 f.

(٢) Origin of Civilisation, p. 51.

ونفاجون ومنافقون ومختالون ، وكافة النساء معجبات بأنفسهن ومتصنعات وماكرات . . . إلا شيء واحد مقدس وجليل ، ذلك هو اتحاد هذين الجنسين الناقصين » . ويقف نيتشة يمجد الحب قائلا : « أطهر عبارة سمعتها هي قول القائل : إذا كان الحب صادقاً احتضنت الروح الجسد » .

كيف يمكن تعليل هذا التحول من الرغبة الطبيعية إلى الحب الرومانتيكى؟ ما الذى يجعل الجوع الجنسى يزدهر هذا الازدهار فيصبح ظرفاً ، واهتياج البدن رقة الروح ؟ أيكون ذلك لأن الحضارة مع نموها قد أجلت سن الزواج ، وتركت الجسد فى شوق إلى رغبة لم يحققها ، ذلك الشوق الذى انعكس فى باطن النفس إلى صورة من الخيال ، وألبس المحبوب ألواناً مثالية أضفتها رغبته التى لم تتحقق؟ إن ما نطلبه ولا نجده ، يصبح أغلى لأننا لم نجده . وسوف نرى أن جمال الشيء فى قوة الرغبة إليه . وأن الرغبة حين تضعف ، تقوى إذا أشبعت بالزهد فيها . من أجل ذلك كان الحب أكثر روحانية فى شباب الفرد وأوج الحضارة ، لأن الكبت يبلغ ذروته فى ذلك الأوان ، ويخفف الشعر ما تشعر به الأجساد من حرمان .

فلنتأمل النمو النفسانى للحب ، مهما يكن مصدره . إنه يبدأ فى الأغلب بانعطاف الفتاة انعطافاً خاصاً نحو أبيها ، وانعطاف الولد نحو أمه . ثم يتحول ذلك إلى ضرب من التعلق القوى بشخص فى مثل سن الحبيب . وتجد فى كل حجرة دراسية أطفالا يحبون المعلم المخالف لجنسهم . وكتب جيته قصة مشهورة يصف فيها غرامه بامرأة حطمت قلبه ، حين دعته طفلها . ويبلغ الإبداع الرومانتيكى ذروته فى هــذه الغراميات المؤقتة ، إذ يحرك البدن النامى الخيال فيرى صوراً بديعة ، ولا بأس أن يرفعها إلى مقام الحقيقة ، فيختزن أى شيء يوافقه فى ظلال هذا الخيال . وليس للعنصر الجسمانى أى مدخل يشعر به الإنسان . وفى ذلك يقول جيته : « إن أول نزعة للحب عند الشباب الصالح تتخذ وجهة روحانية خالصة »(١) .

Truth and Fiction, p. 178. (١)

ثم تأتى بعد ذلك مباشرة تلك التجربة اللطيفة التى نسىء تسميتها بقولنا حب « العجل calf. »[1] — ولو أن المرء لا يمل النظر فى جمال ذلك الحيوان الوديع . ويكون مثل ذلك الحب خفياً لا يصرح به ، ولا اسم للمواهب اليسيرة التى تنشأ عنه . والبنات فى هذه المرحلة أكثر شجاعة من الصبيان ، ومع أنهن يفقدن (فى الظاهر) بعض هذه الجرأة حين تتقدم بهن السن الواعية ، فإنهن يحتفظن إلى آخر الأمر بدراية ممتازة فى فنون الحب . ويبدو الصبى خجولا ، ولكن البنت تحتفظ بكيانها وتظل سيدة الموقف . وفى بعض الأحيان يبتعد الصبى عن الطريق حتى يتجنب الفتاة التى يشتاق إليها ، وينفق ساعات طويلة وحيداً فى ظلمة الليل ، أو يهيم على وجهه فى النهار ، يتفكر فى مرارة فى تلك الحركات الطائشة التى صدرت منه أو العبارات السخيفة التى بدرت منه فى حضرة محبوبته. وقد تبلغ هذه الحساسية عند بعض الشباب الذين يستظلون بظل الأمومة ويتعلقون بها مبلغاً يجعلهم يتقيدون بها ، فيظل الشاب عَزَباً إلى آخر عمره . وعندما يشتد ساعد الصبى يغذى فى نفسه روح حب الظهور ، حتى إذا رأى فتاة أحلامه خاطر بحياته فى الألعاب ليضع تحت قدميها إكليلا من الغار . ويولد الشباب فى ميدان الألعاب البدنية ، تلك المصارعات الدامية بين ذكور الحيوان لامتلاك الإناث ، كما يمهد لتلك المنازعات الاقتصادية التى يتنافس فيها الشباب الناضج للحصول على الفاتنات ، والاحتفاظ فيهن بابتسامة الرضا . وهكذا نرى أن الحب يدير عجلة الحياة .

وينتقل الحب من هذه المظاهر المبكرة التى تعقب تمام البلوغ مباشرة إلى مراحل مختلفة تكون سوية إذا عبرت وزالت ، وشاذة إذا دامت . فالانحراف perversion ارتداد atavism إلى صورة قديمة من السلوك كانت ، فى الأصل سوية ونافعة ، ثم ظهر ما يفضلها ويسمو عليها . ويتقلب الكائن السليم فى هذه الشروط المبهمة كما تقلب دانتى فى الجحيم ، فهو يجربها ، وتصهره تجربتها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحب البالغ والسليم .

وتظهر فى هذه الآونة أيام الغزل، وهى أبهى أوقات الحياة الإنسانية .

---

(١) يقال فى العربية النعجة بدلا من العجل ، والمقصود اتباع العجل أمه . (المترجم)

وليس معنى ذلك أن الغزل ظل ينتظر حتى سن النضوج ، لأن نصف ألعاب الطفولة هى ألعاب حب ، حتى إن الطفلة فى الخامسة تستطيع أن تغازل ببراعة . ويخدم الغزل أغراضاً حيوية ، فهو يدفع الحب إلى آفاق أرحب ، ويفسح المجال لانتخاب الأفضل ذلك الانتخاب الذى يرفع تدريجاً نوع الحياة . وتمتاز شعائر الغزل عند البالغين بهجوم الذكر للظفر ، وانسحاب الأنثى إغراء ، ولو أننا نجد ضروباً من الاستثناء لهذه القاعدة . فى غينا الجديدة تغازل الفتيات الرجال ويغدقن عليهم الهدايا ، ولكن هذه العادة البديعة لم تغز بعد بلادنا . وقد نجد فى بعض الأحيان امرأة مثل حنة Anne تغرى بعد روية وبصيرة المستر تانر Tanner فى شباكها . . . على الأقل فى رواية برنارد شو . ولكن الذكر عادة هو الذى يلعب الدور الإيجابى والهجومى ، لأنه بالطبيعة هو المحارب وهو الحيوان المفترس . والمرأة بالنسبة إليه غنيمة يجب أن ينتصر عليها ويمتلكها . فكل غزل مغالبة ، وكل سفاد غلبة .

ويقول ستانلى هول : « من الجنادب ما تبلغ من شدة البأس فى القتال حداً يجعلها تتمكن من المنازلة كالديكة . وتحارب ذكور السمك حتى الموت فى أثناء موسم التوالد وفى مناطق بيض السمك ، وتصبح أسنان ذكور السلمون البالغة حادة وتختلف اختلافاً تاماً عن أسنان الإناث . وقلَّ أن تلتقى السحالى فى الربيع دون أن تتقاتل . وتقاتل معظم الطيور فى الربيع فتستعمل المنقار والمخالب والصياصى التى تكون على الأجنحة وتبرز من الأرجل . ويتفق موسم الحرب عند هذه الضروب من الحيوان مع موسم الحب »(١) . وتنقلب الحرب عند الرجال منافسة على التجارة وضرباً من المباهاة. فنحن نتحارب «بالشيكات» لا بالأنياب ، وتختفى مخالبنا وراء آداب التجارة .

والمرأة إذا كانت حكيمة حاربت بالفرار والعفة . والعفة انسحاب وفق خطة موضوعة ، وهى تنشأ من الخوف والطهارة ، وتنمو بالمداهنة والدهاء . وليست العفة من خصائص النوع الإنسانى ، لأننا نجد لها شبهاً واضحاً وأصلاً فى إحجام أنثى الحيوان عن المسافدة فى غير موسم أو فى غير موضع . ولكن

---

(١) Adolescence, vol. II, p. 368.

الإنسان، كما قال بومارشيه، يختلف عن الحيوانات فى أنه يشرب وهو غير ظامىء، ويطأ فى كل موسم. والعفة عند المتحضرين من أبهى مراحل النمو النفسانى للحب. فهى ترتفع إلى مرتبة فذة من العظمة، وقد تقهر فى بعض الأحيان أعمق دوافع النفس. واتبع حكماء المشرعين فى الملايو قديماً طريقة يقضون بها على موجة من الانتحار سادت بين النساء، بأن أصدروا أمراً يحتم أن تحمل جثث المنتحرات عارية فى الشوارع (١).

وكان وليم جيمس يرى أن العفة ليست غريزية بل مكتسبة، فقد اكتشفت المرأة أن البذل يولد الابتذال، ونقلت هذا الاكتشاف إلى بناتها. وذهب ديدرو أبعد من ذلك وأرجع هذه المسألة إلى غيرة الأزواج الذين أدى إحساسهم بالملك إلى فرض العفة على زوجاتهم. وفى كثير من القبائل لا يأتزر إلا المتزوجات فقط، إذ يعتقد أزواجهم (وهم فى ذلك أعقل من خالق «جزيرة بنجوين»)(٢) أن ذلك يعين على الاحتفاظ بحقوق الملكية. وعندما حل الشراء محل الأسر، وأصبح ذلك بدعة الزواج الشائعة، ورأى الآباء أن الأبكار أغلى مهوراً، شجعوا — فى فضيلة — على العفة.

وقد نشأت العفة من هذه المنابع المتعددة حتى أصبحت إحدى مفاتن المرأة الداهية. ذلك أن العاهر غير جذابة إلا فترة عابرة للرجال. والتحفظ فى العرض والاقتصاد فى إبراز المفاتن أفضل سلاح فى اصطياد الرجل. ولو أنهم علمونا تشريح الأعضاء التناسلية على قارعة الطريق لأثار ذلك فينا الانتباه، دون أن تتحرك فينا «النوايا». وينجذب الشاب إلى ناعسة الطرف لأنه يشعر دون أن يفكر فى ذلك أن هذا التحفظ البارع يخفى فى المرأة رقة هى أجمل ما فيها. فالعفة، بما تحتفظ به من ثمن، تحث على إبراز قدرة الذكر وشجاعته، وتحركه إلى أعمال عظيمة النتائج وتبعث الطاقة المختزنة وراء المستوى المتوسط المريح الذى

---

(١) Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, vol. I, p. 24.

(٢) قصة لأناتول فرانس يعرض فيها تاريخ فرنسا متهكماً، وفيها يتصور القسيس أنه يعمد هذه الطيور بدلا من الناس. (المترجم)

نعيش فيه . ومن يدرى إلى أى حد ترجع أعمال الرجال الإنشائية إلى المنافسة الجنسية وحب العرض ، كما هى الحال فى عظمة ألوان الطيور ؟

ولنفرض أن الفتنة سارت فى طريقها ، وتكامل الحب بالأبوة ، واكتملت دائرة الرغبة بانجاب طفل . وأكبر الظن أنه ليس ثمة غريزة نوعية باسم التناسل ، بل ثمة فقط غرائز الصلة الجنسية mating وعناية الآباء بأبنائهم . فالطبيعة تحقق أغراضها بوسائل منحرفة ، والنوع الإنسانى ثمرة عرضية لأعظم ما فيها من لذة . ولن تجد شيئاً أكثر سخرية من هذه الطريقة التى تنشر الطبيعة بها المواليد الحمر بالدماء المتفرعة عن أمهاتهم : وإن كنت فى ريب فاستمع إلى صراخ النساء وصيحات الولاء فى المستشفى . ومع ذلك فما أبرع طريقتها الشيطانية فى تهدئة ثائرة الأم بالنشوة المخدرة ، وقلق الأب بزهو أعمى يجعله يدفع باسماً الأجور الباهظة المفروضة الآن لأولئك الذين يجرأون على استمرار جنسنا الذى ربما لم يكن ضرورياً .

ويتجدد حب الآباء حين يظهر الطفل إلى الوجود ، ولكنه حب يختلف عن تلك الشعلة التى كانت تحترق من قبل . حقاً لقد كانت تلك الشعلة خليقة أن تذبل فى تلك الأيام إلى ذؤابة ضعيفة عند ولادة الطفل ، والطفل نفسه جدير أن ينتزع من قلبى الأبوين بعض العاطفة التى جعلتهما مؤقتاً شخصاً واحداً . فالأم تجنح إلى نسيان الأب فى غمرة عاطفتها الجديدة ، ويميل الأب إذا كانت الأعجوبة الصغيرة بنتاً إلى أن يخلع عليها هيامه الذى كان يضفيه على زوجته . على أن هذا اللهو يفقد آخر الأمر سحره ، وتنشأ روابط جديدة تصل بين الزوجين مرة أخرى .

وبعد فهذا هو الأوان الذى يجعل التآلف بين الزوجين كاملا . ذلك أن تلك الأعوام من الأبوة تزخر بكثير من التجارب والمحن ، وصروف الدهر ، وآلام البدن ، ومخاوف القلب . ويجلب المرض للخيال المتقلب شيئاً من العمق والاعتدال ، ويسير الحب فى ركاب حياة جديدة مصيرها إلى الموت . وحين يشترك الزوجان فى عمل المشروعات ومحاولة تنفيذها ، ويظفران معاً بالنجاح ، ويبتسمان ، يتداخل عقلاهما المتجانس فى شركة روحية قد ترتفع إلى حد

امتزاج الشخصيتين ؛ بل إن وجهيهما قد يتشابهان . ذلك أن مراقبتهما معاً مهد الأطفال ، ورؤيتهما إياهم ينمون ، ومنحهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً حباً أصغر ، كل ذلك يصوغهما شخصاً واحداً .

حتى إذا لم يبق فى البيت الذى كان يردد رنين ضحكات الأطفال إلا ذكراهم الصامتة ، أظل الحب وكأنه يعزى الزوجين بجناحيه رفيقى العمر الطويل. ذلك أن أنشودة الحب لا تبلغ تمامها حتى تسرى بنغمتها الحارة وحدة العمر واقتراب « العدو الأكبر » . والذين عرفوا الحب على أنه رغبة لم يعرفوا منه إلا جذوره وجسده ، أما روحه فهى الباقية الآن وقد تبدد كل عنصر جسمانى . وفى هذا التآلف الجديد بين القلبين القديمين يبلغ الازدهار الروحى لحوع البدن التمام .

فهذه هى دورة الحب . ولنتأمل هذه الدورة مرة أخرى فى لمحة واحدة ... فى خلايا البروتوزوا المندمجة ، وفى شهوة الحيوان العنيفة ، وفى غلمة الهمجى الغليظة ، وفى عيون الشباب الحالمة الذائبة ، وفى قصائد إليزابيث برونتج أو قصة فرنشسكا ، وفى الرفيقين العجوزين وهما يرتعشان سعادة كلما تجمع أبناؤهما وأحفادهما لإحياء ذكرى نصف قرن من الحب . أهناك أغرب من هذا التحول ، هذا التسامى البطىء من مغناطيسية العناصر إلى أناشيد الهيام والإخلاص لجميع ميادين الحياة ؟ وإنا لنذكر فى هذا المقام كلمات سنتايانا العميقة التى يقول فيها : « لكل شىء مثالى أساس طبيعى ، ولكل شىء طبيعى نماء مثالى » . فقل للحب : لا تخجل من أصلك ، وللرغبة أن تذل إذا لم تسم إلى مراتب العبادة.

لقد كان حب الفلسفة هو الذى ساق أفلاطون إلى أن يقول : « إن الذى تمسه نار الحب يمشى فى الظلام »(١) . ولام لابلاس عندما حضرته الوفاة أصدقاءه الذين أرادوا تعزيته بشهرة كتبه واكتشافاته ، فقال لهم آسفاً : إن هذه الأمور ليست أهم شىء فى الحياة ، فسألوه : « وماذا إذن ؟ » وأجابهم العالم الشيخ وهو فى النزع الأخير : « الحب » .

---

(١) المأدبة ، ١٩٧ .

فكل شيء إلى موت ، ما عدا الحب الذى يهرب وحده من الفناء . ذلك أنه يتخطى القبور ، ويسد ثغرات الموت بالتوليد . وما أقصر ما يبدو الحب فى مرارة الحقيقة البعيدة عن الأوهام ، ومع ذلك فما أدومه إذا نظرنا إليه من خلال البشرية . . . وكيف ينقذ بضعة منا آخر الأمر من الهلاك ، فيحتفظ بحياتنا مجددة فى شباب الطفل وقوته . ونحن قد نمـــل الثروة ، وقد تكون حكمتنا بصيصاً من النور لا يبعث حرارة ، ولكن الحب يدفىء القلب بسلوان لا يمكن التعبير عنه ، ويزداد دفء القلب إذا كان عاشقاً لا معشوقاً .

الفصل الثامن

الرجال والنســـاء

١ – حرب الحب

كان جوركي وتشيكوف يتجولان فى القرم فأقبلا على تولستوى الذى كان يجلس بجانب الشاطيء وقد مال برأسه يتأمل حتى مست لحيته الرمال . فجلسا إلى جانبه وشرعا يتحدثان عن النساء . وظل تولستوى ساعة يصغى فى صمت ثم قال فجأة : « أما أنا فلن أحدثكم عن حقيقة المرأة إلا حين أضع قدمى اليمنى فى القبر . سأعلنها صريحة ، ثم أقفز فى التابوت ، وأغطى نفسى وأقول : « افعلوا ما شئتم بى الآن »[(١)]. وحين دعا الكونت كيسرلنج برنارد شو للمساهمة فى كتابة فصل فى « كتاب الزواج » رفض شو قائلا : « لا يجرؤ أى رجل أن يكتب شيئاً عن حقيقة الزواج حين تكون زوجته على قيد الحياة » . ومع ذلك فسوف نشرع فى الكتابة عنه ، مقتصرين فى هذا الفصل على تحليل أنواعه المتوسطة والتقليدية موجلين الفحص عن تحرير الأقلية الحديثة من النساء إلى الفصل التالى.

وتعد آداب هذا الموضوع أمتع الآداب وأبعدها عن الثقة . فهى ممتعة لأنها تتصل مباشرة بأنفسنا ، إلا إذا تحدثت عن أخطاء البشرية ورذائلها . أما أن هذا الأدب مما لايعول عليه فلأنه حكاية عن السيرة الشخصية ، وكل سيرة شخصية فهى ، قصة خيالية fiction ، لأنها فى الغالب صوت الانتقام ، ولا يقدم على كتابتها إلا المحارب المهزوم . وحين يؤلف أحدنا كتاباً عن النساء يدونه بجروحه (وهذا لا ينطبق على مجرد الفصول من كتاب) . وعندما يكسب الرجل قلب المرأة (إذا كان شخصاً مهذباً) فذلك على أمل الزواج منها كما كان يفعل اليونان بعد رقصة الحرب ، ثم يحتفظ بعد ذلك بصمت حكيم . . . لأن

(١) Gorki, M., Reminiscences of Tolostoi, p. 65

اثنين لا يتكلمان فى وقت واحد . أما إذا خسر ، فإنه يؤلف الكتب . وأمتع من المقالات التى كتبها شوبنهور ونيتشة وفيننجر وغيرهم من المصابين بداء الغرام الذين كتبوا عن الجنس اللطيف ، هو ذلك التحليل الذى يكتبه عن الرجال النساء اللاتى يفهمن الطبيعة البشرية ويعاملنها بذكاء أعظم من ذكاء الرجال المشوب بالتردد . ولكن النساء أمكر من أن يفحصن عن ذات أنفسهن فى صفحات الأدب ، فهن راضيات بتحقيق رغبتهن ، وعلى عدوهن إذا شاء أن يؤلف الكتب.

وكل شخص عادى لا بد أن يكون متحيزاً بشأن هذا الموضوع ، فهو لا يعرف إلا نصفه معرفة ذاتية ، وأكبر الظن أنه لا يعرف إلا شطراً من هذا النصف معرفة وثيقة ، وحتى هذا الشطر فهو لا يعرفه معرفة صادقة أو جيدة . وكذلك من العسير أن يكون الإنسان منصفاً فى زمن الحرب . من أجل ذلك كان العلم ضعيفاً فى هذا الميدان . أما ملاحظات الأستاذ ثورنديك البسيطة والعرضية ، ونتائج اختبارات الذكاء، فإنها محاولات سريعة لفرع من البحث لم يكد يقدم على النمو . ذلك أن آخر بحث فى النوع الإنسانى هو الإنسان ، وآخر علم هو علم النفس ، وآخر فرع فى هذا العلم هو المرأة .

ومع ذلك فلنكن على حذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . سنقسم الطبيعة البشرية تقسيما مريحاً ولو أنه صناعى ، إلى الغرائز الأساسية التى تتكون الطبيعة البشرية منها ، وسنسأل فى كل حالة كيف يختلف عقل المرأة وخلقها عن عقل الرجل وخلقه . وسنفترض (مع احترامنا للسلوكيين) أن الإنسان خلق مزوداً ببعض الاستعدادات السابقة والميول الخاصة بالاستجابة والشعور ، التى سماها الفلاسفة وعلماء النفس منذ شوبنهور غرائز . وسنصطنع تصنيف الأستاذ مارشال لهذه الاستعدادات الموروثة بحسب تحقيقها لأغراض الفرد أو الجماعة أو الجنس[١] . فهناك بعض الغرائز — مثل الحصول على الطعام ، والقتال ، والهرب ، واللعب — تتجه إلى خدمة الفرد . وتتجه بعض الغرائز الأخرى مثل حب الاجتماع Gregariousness وحب التوافق approval — إلى حفظ الجماعة . وغرائز أخرى أيضاً — مثل الاتصال الجنسى والعناية بالبنين — ترمى

(١) Marshall, H.R, Instinct and Reason.

إلى حفظ النوع . وها هنا بعض المسائل موضع مناقشة ، ولكننا لا يجب أن ندخل فى مجادلات فنية لا تؤثر فى هذه المشكلة تأثيراً حيوياً (١) . كل ما نحتاج إليه هو أن نسأل هل يختلف الرجال والنساء فى الحصول على هذه الغرائز نوعاً أو درجة . وسوف نبدأ بالغرائز الجنسية أو التناسلية لأنها بالنسبة إلى غرضنا الحاضر أهم سائر الغرائز ، وتكاد تفيض عن عملياتها المختلفة جميع تلك المميزات التى تفصل بين الجنسين فى الجسم والخلق والعقل .

٢ ــ اختلافات الخلق Character

(١) الغرائز الجنسية Racial

يصدم الذكر بامتياز الأنثى فى عالم الحيوان، لا فى الحجم فقط (كما رأينا) بل فى تفوقها الحيوى باعتبار أنها هى التى تحمل مباشرة جسم الجنس . وفى المراتب الدنيا للحياة يجرى التناسل بالانقسام ولا يوجد جنسان ، وفى النوع الإنسانى تتم عملية التوليد فعلا فى الأنثى التى تولد بالانقسام تماماً كالحال فى الأميبا. أما وظيفة الرجل فعرضية وسطحية ، وليست مما لا غنى عنه ، فقد أيدت تجارب المعمل مظاهر الطبيعة فى البرهنة على أن الذكر زائد عن الحاجة على الإطلاق . ويترتب بوضوح على ذلك أن الأنثى من جهة النوع فى مرتبة أولى وأساسية ، وأن الذكر ثانوى ومساعد . فالذكر يتضمن الوظائف ويتخصص فيها، وهى تلك التى كانت تؤدى من قبل بدونه . وهو يلعب فى مأساة التناسل التى تدور عليها الحياة كلها دوراً صغيراً ، يكاد أن يكون زائداً عن الحاجة . فهو ينتحى فى أزمة الولادة جانباً خجلا عاجزاً ، ويفطن آخر الأمر الى مقدار تفاهته وتبعيته فى تطور الجنس . ويعرف فى تلك اللحظة أن المرأة أشد منه التصاقاً بالنوع ، وأن تيار الحياة العظيم يفيض صاخباً عن طريقها ، وأن الخلق

---

(١) الأسلوب الذى جرت عليه العادة فى نفى وجود الغريزة هو بيان أنها ليست متبعة فى الصبا . ولكن معظم الغرائز لاتظهر بطبيعة الحال إلا فى فترة معينة من الحياة معتمدة اعتماداً أساسياً على نمو القوى الفسيولوجية المطلوبة . ومن أوضح الأمثلة على ذلك المشى والقتال والحب .

من دمها ولحمها ، ويفطن عندئذ لم كان البدائيون وأصحاب الديانات الكبرى يعبدون الأمومة .

ومن الواضح أن عفة المرأة الشديدة تخدم أغراض التناسل . ذلك أن تمنعها على استحياء يعين على الانتخاب الجنسى ، إذ يمكنها من التمييز بين المحبين واختيار ذلك الذى سوف يظفر بأن يكون والد أطفالها . وهنا نجد أن مصالح الجنس والجماعة تتخذ من المرأة سبيلا إلى التعبير ، كما أن المصالح الفردية تجد صوتها القوى فى الرجل . حتى إذا نفذت غرضها وحققت ذاتها بالأمومة زال حياؤها . وإنك لتجد الأم الفلاحة التى كانت قبل أمومتها شديدة الحياء ، تفخر بأن ترضع ابنها أمام الناس فى بساطة بهيجة ، وهى على حق فى ذلك لأن هذا المنظر هو أحب المناظر والصور فى عالم الحياة والفن .

والمرأة أبرع فى الحب من الرجل ، لأن رغبتها عادة أقل حدة من رغبته ، فلا تغشى أحكامها بالغموض ، وهذا هو سر حكمتها التى اشتهرت بها منذ القدم . ويذهب دارون إلى أن أنثى معظم الأنواع لا تحتفل بالحب نسبياً . ويصور لنا لومبروزو ، وكيش Kisch ، وكرافت إبنج Krafft-Ebing ، وغيرهم من الباحثين الذين اقتحموا أبواب هذا الموضوع الذى يخشى الملائكة بحثه ، أن أربعين فى المائة من الجنس الضعيف يتمتعن بمثل هذا البرود apathy ، وبلادنا على العكس من ذلك . ويقولون أيضاً إن المرأة لا تنشد اللذة الحسية بمقدار ما تنشد الإعجاب الشامل بحاجاتها والعناية الشديدة بها . وكثيراً ما يرضيها مجرد اللذة بشعورها أنها مطلوبة . وفى ذلك يقول توماس هارى : « حب المرأة أن تكون محبوبة يرضى نفسها غاية الرضا »(١) .

ويجد ما سميناه بشكل غامض بالعنصر الروحانى spiritual فى الحب — هذا الجانب من الحب الذى لا يفكر فى البدن — صدراً رحباً فى المرأة أكثر مما يجد فى الرجل . ويعتقد بعض الباحثين فى قلب المرأة المغلق أن حبها أمى maternal أكثر منه جنسى . أو كما يقول لومبروزو : « ليس حب المرأة

---

(١) Jude the Obscure, p. 286.

فى طبيعته الأساسية شيئاً أكثر من صفة ثانوية للأمومة ، ولا تنشأ كافة مشاعر الحب التى تربط بين المرأة والرجل من الدوافع الجنسية ، بل من غريزتى الخضوع والاستسلام المكتسبتين بالتكيف subordination »[1] . وكان ألفريد دى فينى يظن أن حب الرجل ذكرى رضاعته ثدى أمه ، ورغبته فيه . ومن يدرى لعل كل محب بالنسبة إلى المرأة ليس إلا طفلا آخر يدلل . . . ويطعم ؟

ومع أن حب المرأة أقل فى عمقه من حب الرجل ، إلا أنه أعظم عرضاً ، حتى لينفذ إلى كل زاوية من حياتها . فهى لا تعيش إلا إذا كانت محبوبة ، والالتفات إليها محور حيويتها . ويروى أن أحد حكام فرنسا أنب امرأة لمعيشتها إلى جانب لص ، فأجابت : « لست شيئاً إذا لم أحب » . ولعل هذه الحاجة النفسانية هى التى كانت فى ذهن فينجر حين ذهب إلى أن المرأة لا « روح » لها . . . أى أن حياتها تتجه (أو كانت تتجه ؟) إلى أن تتركز حول رجل . وهذا وهم ، لأن المرأة لا تحاكى إلا أفكاره ، أما فيما بينها وبين نفسها فإنها تظل وحدها ، وتحتفظ بعزمها . وهى تعرف أن الرجل فى حبه غير المحدود لذاته قد ينفر منها إذا أبرزت الشيء الكثير من شخصيتها .

وإذا كانت المرأة تتفوق على الرجل فى فن الحب ، فهو يمتاز عنها بالصداقة . وقد يرتفع الرجال إلى مرتبة الأصدقاء ، أما النساء فلا يتجاوزن نطاق المعارف . وإذا ذكرت المرأة غيرها من النساء بخير اضطربت النجوم فى أفلاكها . ويجد النساء صعوبة فى الحديث ، ويشعرن بضجر شديد فى حضرة بعضهن البعض ، ولا يحتملن ذلك إلا بالتحدث عن الرجال . وهذا شيء طبيعى ، كما لاحظ لاروشفوكو[2] La Rochefoucauld منذ زمن طويل فقال : « العلة التى من أجلها لا يقبل معظم النساء على الصداقة ، هى ما يشعرن به بعد هجر الحب من أن الصداقة لا طعم لها » . فالحب كما قال الشاعر يشغل جزءاً

---

(١) In Kisch, The Sexual Life of Woman, p. 133.

(٢) (١٦١٣ – ١٦٨٠) أحد دوقات فرنسا ، ألف مجموعة من الحكم أو التأملات (١٦٦٤ – ١٦٦٥) و مذكرات نشرها ١٦٦٢ ، يصف فيها هزائمه السياسية ضد الكردينال ريشليو . أما حكمه فهى نظرات صائبة حكيمة عن الحياة بوجه عام . (المترجم)

من وقت الرجل ، ولكنه يملأ حياة المرأة كلها . وبعد ، فأحوالنا هى ما يجب أن نكون عليه .

وغيرة الرجل كحبه أكثر عمقاً ، وأقل عرضاً أو طولا . فالإحساس بالامتلاك أقوى فى الرجل ، ويؤلف نصف حبه . فليس الحب مجرد نكران الذات فقط ، بل هو على ما فى ذلك من تناقض توسيع للنفس وانتصار لها . والغيرة هى غريزة الكسب التى يضايقها التنافس . إنها إجراء محاكمة للاعتداء على الأصل . أو كما قيل : « أنا السيد يا ربى ، اللهم لا تجعل أرباباً أخرى تقف فى طريقى » . ولا تهتم المرأة اهتمام الرجل بأن يكون زوجها خالى القلب من قبل. ولكن غيرتها التى تفقدها فى الشدة والعمق تزيد فى السعة والعرض ، فهى لا تغار فقط ممن يحب زوجها ، بل من أصدقائه ، وغليونه ، وصحيفته ، وكتبه . ثم تسعى شيئاً فشيئاً إلى الفصل بينه وبين أصدقائه ، فإذا لم تستطع أن تفعل ذلك غازلتهم ، فتجمع بين المكر والخطيئة . ولا يزعجها أن يبدى الرجل غيرة من المعجبين بها ، بل يلذ لها هذا الشعور ، وتشجعه فيه ، لأنها تعلم أنها لا تكون مطلوبة إلا حين يجد امتلاكه إياها مزعزعاً . وهى تدرك بحكمتها الفطرية أن الغيرة لا يفضلها دواء آخر للحب الزائل . ومع ذلك فلا بد من أن نغفر لها هذه الأخطاء البديعة لأنها فى مركز ضعيف وتحتاج إلى هذه الفنون توازن بها امتياز الذكر الجسمانى . يجب عليها أن تحمى نفسها بأى ثمن ، لأن الجنس يعول عليها فى استمراره وقوته . إنها تدفع ثمناً غالياً جداً لنصيبها الصغير فى الحب تبرر به شكوانا من خداعها . ويقول نيتشه : « لا يستطيع أحدنا أن يكون عظيم الرقة مع النساء » (١) .

(٢) الغرائز الفردية

وظيفة المرأة خدمة النوع ، ووظيفة الرجل خدمة المرأة والبنين . وقد يكون لهما وظائف أخرى ، ولكنها تتبع بحكمة هاتين الوظيفتين . ذلك أن الطبيعة قد بثت فى هذين الغرضين الأساسيين وشبه اللاشعوريين مافينا من معنى وسعادة .

(١) Reflections, no. 440.

من أجل ذلك كان عمل الذكر الطبيعي هو الحماية ، والكسب ، والمغامرة . ومهمته أن يترك العش أو البيت بحثاً عن الطعام ، فهو سبيل الحياة إلى التغذية ، كما أن المرأة أداة الحياة للنسل . والطعام غايته القصوى ، وهو إذا أصبح محصلا لأشياء أخرى ، أو لأى شيء آخر ، فذلك لأن (ولو أنه لا يشعر بذلك) هذه الأشياء الأخرى تمثل الثروة التي تؤمن فى الأزمات الحصول على الطعام . وكان مترودورس Metrodorus يقول : إن كافة الأشياء الجميلة ذات صلة بالبطن . ومع أنه ليس من الأدب ذكر هذا القول إلا أنه صحيح إلى حد كبير عن ذكور النوع الإنساني ، فالرجل يحب الطعام حباً جماً ، ويمكن بسهولة إخضاعه عن عن طريقه . وهو أكثر غراماً من المرأة بالطعام والشراب . ومنذ أن قدمت حواء التفاحة لآدم ، والمرأة تحكم الرجل عن طريق معدته ، مفسدة هضمه وأخلاقه فى آن واحد .

وأصبح الذكر محارباً بعد أن ضرب فى الأرض يبحث عن الطعام . وذكور الحيوان تحارب بالأنياب والمخالب ، ويتخذ الرجال من المنافسة المالية سلاحاً ، أما الأمم فتتحارب بالجيوش والأساطيل والصحف . وكان كبلنج يظن أن الأنثى أشجع فى القتال من الذكر . ولكن لعله قاسى من جرح (شرق قنال السويس) أفسد نظرته . ذلك أن طبيعة المرأة البحث عن المأوى لا الحرب . وفى بعض الأنواع تبدو الأنثى هادئة بغير غريزة القتال . وهى لا تقاتل مباشرة إلا من أجل صغارها ، فإذا رأينا فيها قوة توحش فذلك بسبب هذه الضرورات الجنسية . ولكن من الواضح أنها أقل ميلا إلى العنف ، وغالباً ما ترتبط جرائمها النادرة بفترات اضطرابها الفسيولوجي . وهى أكثر من الرجل صبراً . وإذا كان الرجل أكثر شجاعة فى أزمات الحياة الكبرى وأمورها ، فالمرأة تلجأ إلى قوتها اليومية الدائبة لمواجهة مثيرات العيش الصغيرة التي لا حد لها . وهى تتحمل المرض أكثر هدوءاً ، كما لو كانت تجد فيه لذة غامضة وشيئاً من الراحة من عناء عملها اللانهائي . أما الرجل فلأنه لم يتعود الحياة الراكدة فيتحمل المرض فى قلق ، ويخبر جميع الناس بآلامه .

ومع ذلك فالمرأة مقاتلة بكهانة . إنها تقبل على الجندى ، وتبتهج بالرجل

ذى السلطان . ويبدو فى صيحاتها عند رؤية القوة عنصراً غريباً من القسوة ، حتى لو كانت هى نفسها الضحية . وهى تنتخب فى جميع الأجيال الذكر المقاتل ، كأنها تفكر دون وعى فى الحماية التى يحتاج إليها بيتها وصغارها . وقد تتغلب فى بعض الأحيان هذه المتعة القديمة بالرجولة على إحساسها الاقتصادى الحديث فتتزوج من أحمق إذا كان شجاعاً . إنها تخضع بفرح للرجل الذى يستطيع أن يأمر . وإذا كانت المرأة تبدو فى هذه الأيام أقل ميلا للخضوع ، فذلك لأن خلق الرجال أضعف مما كان من قبل . ولعل روتين الصناعة المذهل ، وتكلف الحياة العقلية المثير للأعصاب ، مما عود الرجال العبودية ، وانتزع منهم الشجاعة .

ولا تنتصر المرأة بالقتال أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والثبات . وقتال الرجل أشد وأصرح ، ولكنه أقل ثباتاً . وهو أكثر منها استعداداً للصلح أو التسليم فى سبيل السلام . وقد يزمجر فى وجه زوجته أو يضربها ، ولكنها تنتصر فى النهاية بالتكرار والإلحاح ، كما ينتصر الإعلان . وإذا كانت تعاود الكرة فلأنها لاتستطيع الإضراب ، فالأنواع والشعوب والأجناس والأفراد الضعيفة غنية بالصبر والخداع . فهذا نابليون لم يستطع حكم زوجته ، مع أنه تمكن من حكم قارة . ولم تجد قوته فى ضعف جوزفين البدنى وجبنها الهدف الذى تتجه إليه ، ولم يكن عنده سلاح يقاوم به أسلحتها التى كانت تستعملها . وفى ذلك يحدثنا نابليون قائلا : « كثيراً ما كانوا يتحدون قوة خلقى ، ومع ذلك فلم أكن فى نظر أسرتى إلا رجلا ضعيفاً ، وكانوا يعرفون عنى ذلك . وكانوا يتغلبون على غضبى بالمثابرة والعناد ، ويفعلون ما يريدون منى لمجرد السأم »(١) . ويعبر هذا الكلام عن الأنشودة اليومية التى تغنى فى كل بيت . ولم تكن الأمور فى صالح الرجل فى تلك الأيام المترفة حين كانت زوجة الطبقة المتوسطة تعيش وتزدهر عاطلة فى بيتها الخالى من العمل ومن الأطفال . فالرجل يعود إلى منزله منهوك القوى بعد عمل اليوم ومتاعبه ليجد عدوه القديم فى انتظاره على نشاط جم متجدد فينهزم قبل أن تبدأ المعركة . أما إذا حالفه الحظ وانتصر ، فليس على المرأة إلا أن تبكى فينهزم أمامها . وكانت

Johnson, R.M., The Coriscan, p. 45.8 (١)

ماريا لويزا تفخر بأنها تحصل دائماً على ما تطلب إذا بكت مرتين . وتتخذ الزوجة الحكيمة هذه القاعدة الأساسية فى الحرب : « إذا لم تنجحى أول مرة ، فعليك بالبكاء مرة أخرى » .

ويبدو أن الأنثى تتخذ موقفاً أقل إيجاباً من الذكر مما قد نسميه غرائز الحركة ، كالحبو ، والمشى ، والقذف ، والقفز ، والتسلق ، والجرى ، واللعب . فالذكر أميل إلى الحركة عديمة النفع ، والأنثى إلى الاستقرار الزائد عن الحاجة . والمرأة أكسل ، وهى كذلك أخطر الجنسين ، لأن البطالة رأس الفساد . ولكى يكون المرء فاضلا ، كما يكون سعيداً أو لطيفاً ، يجب أن يشغل نفسه بشىء ما .

(٣) الغرائز الاجتماعية

رأينا فى مجموعة الغرائز التى استعرضناها أخيراً ، وهى الغرائز التى تحفظ الفرد ، أن تفوق الرجل واضح وطبيعى . أما الغرائز التى تحفظ الجماعة ، فالمرأة تتفوق كما تتفوق فى الغرائز التى تحفظ الجنس . فهى أشد ميلا إلى الاجتماع والمعاشرة من الرجل ، وتحب الصحبة والمجتمعات ، وتستسلم فى سرور لإجماع الجماهير . إنها لا تسأل عن أفضل التمثيليات ، أو الحفلات الموسيقية ، أو أماكن اللهو ، بل تسأل عن أكثرها امتلاءاً بالحضور ، ولو أن الفرق بينها وبين الرجل فى هذه الناحية ضئيل . (على أقل تقدير تسعى المرأة أن تحب الأفضل ، فى حين لا ينقاد الرجل العادى إلى حضور الحفلات الموسيقية ، ومعارض الفن ، والتمثيليات إلا خوفاً من زوجته) . وهى أقل من الرجل قدرة على العزلة ، وقل أن تجد من بينهن ناسكات . وإنها لتشعر بالنقص بدون الرجل ، أكثر مما يشعر هو بدونها . . . ولا ريب أن ذلك يرجع إلى حاجتها لحمايته ، وعادة لقيادته . إنها حيوان اجتماعى .

لذلك كانت المرأة أكثر ثرثرة . ويقال إن المرأة لا تحفظ سراً . وكان فرانكلين يظن : « أن السر لا يحفظ بين ثلاثة إلا إذا مات منهم اثنان » . فإذا أردنا أن يكون هذا القول صحيحاً عن الجنسين فلا بد أن نرفع نسبة الوفيات . ومع ذلك تستطيع المرأة أن تقاسى فى صمت مدة أطول من الرجل ، وذلك

كما يقول مرديث Meredith : « على طريقة النساء اللاتى تشبه صدورهن القبور »[1] . والمرأة أكثر من الرجل تعبيراً ، لأنها فى الغالب أشد خضوعاً للوجدان والانفعال . وهذا هو السر فى أنها أكثر قبولا للأمراض العصبية — كالكوريا chorea ،والرجفة ، والهستريا ، والتلبس obsession ، والخوف phobia ، والأوتوماتزم ، والوساطة الروحية ، وغير ذلك — كما يرجع ذلك إلى الكبت القوى الذى يفرضه المجتمع على دوافعها الشهوانية . ونحن نجد أن وجه المرأة يكاد يكون متحركاً كحديثها ، فهى لم تتعلم كرجل الشعب الصابر أو رجل الأعمال الحذر ، أن تحتفظ بسحنة جامدة إزاء تيار المكسب والخسارة ، واللذة والألم . ويصاحب هذا التعبير السريع فى وجهها مقدرة أعظم على استقراء علامات الشعور والتفكير فى غيرها من الناس . ولذلك كان خداع المرأة أصعب من خداع الرجل — كما يتبين لكل من جرب الاثنين .

ويختلف حب الاجتماع كما وضح جالتون باختلاف الحياء والمحاكاة . فالمرأة تترك عادة المبادأة للرجل ، حتى (على الرغم من شو) فى الحب . وهنا تظهر قبل كل شىء سيادته . أما إذا لم تسكره أول كأس من الرغبة ، فقد يظل مبقياً إياها سنوات تنتظر حسابه وجمعه وتجاربه الجنسية . والمرأة غير واثقة بنفسها ، إذ تخضع دائماً لضعفها الجسمانى وتبعيتها الاقتصادية ، مما يحد من شجاعتها ، ويحجبها عن الثورة أو العمل . إنها تتشبث بالمألوف والمتعارف ، محاكية الماضى فى تقوى ، و مقلدة بحالة عصبية كل ريح حديثة تحمل البدع فى الملابس أو السلوك أو الأفكار . وهى أسرع من الرجل إلى اعتناق (التقاليع) والخزعبلات التى تتجه فى أمريكا نحو اتخاذ مكان التقدم الفكرى السليم . وينقب المحلل النفسانى

---

(١) Ordeal of Richard Feverel, p. 32.

جورج مرديث (١٨٢٨ — ١٩٠٩) روائى انجليزى اشتهر فى رواياته بتحليل المشكلات الاجتماعية والدراسة الإنسانية ، وأشهر قصصه « محنة رتشارد ففريل » كتبها سنة ١٨٥٩ ، وخلاصتها أن ريتشارد يقع فى العشرين من عمره فى حب فتاة ريفية وهى لوسى ويتزوجها ، فيغضب أبوه ويفرق بينهما ، ويتصل رتشارد بفتاة من بنات الهوى ، وتقع لوسى فى حبائل أحد النبلاء . ويرجع رتشارد فتعلم بسيرة زوجته ويغضب (المترجم) .

تنقيباً شهوانياً فى نفسها المضطربة ، ويهدئها الوسيط الروحانى بظهور الأشباح ، ويجد كويه M. Coué فى خيالها السهل التصديق مادة سهلة .

والمرأة لا تجسر على مخالفة المعايير والمتوسطات دون اهتمام كالرجل ، وهى تخرج للعالم عدداً أقل من البلهاء ومن العباقرة . وهى أكثر شبهاً ببنات جنسها من الرجل بغيره من الرجال . ذلك أن ضغط البيئة المتغيرة ، وتعدد الوظائف والمهن والحرف أدى إلى تميز الرجال إلى أصناف كثيرة . ولكن صناعة البيت التقليدية ، واشتغال المرأة منذ القدم بالبحث عن زوج وتربية الأبناء ، كل ذلك أثر فى معظم النساء وصاغهن فى بوتقة واحدة ، وإذا كانت وجوههن مختلفة فأنفسهن دائماً واحدة . ولعل إلى هذا يرجع بعض السبب فى انتقال الرجل فى يسر من محبوبة أو من خليلة ، إلى محبوبة أخرى أو خليلة أخرى ، ولا يحتاج فى ذلك إلا إلى معرفة اسم جديد لا إلى تعلم فن جديد ، بل قد تفيد الحروف القديمة فى بعض الأحيان . أما المرأة التى أحبت وهجرها حبيبها فقد ترى جرحها مما يصعب اندماله ، لأنها ربطت روحها بصورة خاصة ، وسيعيش قلبها على الذكريات أنى ذهبت .

وآخر ما يترتب على غريزة الاجتماع فى المرأة غرامها بالتأييد الاجتماعى ، فرأى جيرانها له وزنه بالنسبة إليها أكثر مما هو بالنسبة إلى الرجل ، لأن العلاقات الاجتماعية تمتص من حياتها الساعات التى لا تشغلها فى الحب والأمومة . وهى تمتاز عن الرجل بالزهو ، لأنها أكثر وعياً بفضائلها وجمالها ، وقد تقضى نصف ساعة تضع المساحيق على وجهها ، ولو أن الفرق ليس كبيراً بين زهو المرأة وغرور الرجل . ويؤدى إفضاؤها عن ذات نفسها إلى القيل والقال ، ويقودها التقليد إلى التطابق . وهى أشد من زوجها شوقاً إلى الظهور فى العالم . وتعطشها إلى المنزلة عبارة عن نصف الريح التى تدفع شراع سفينة زوجها . ولذلك كانت تحس بنقص شديد عمن هم أعلى منزلة منها ، وأسمى كثيراً ممن هم أدنى منها . ولكنها لنفس هذا السبب أكثر أدباً من الرجل ، ولحساسيتها الاجتماعية مع أمومتها أكثر منه عطفاً وشفقة . ويعوض عن زهوها اللطيف حسن اعتبارها ،

ورقتها ، ومسارعتها إلى العناية بالمريض ومساعدة الضعيف ، وصفاتها الموهوبة التى تميل بها إلى الإيثار والخلق الحميد .

وأخيراً فإن هذه المميزات العقلية والقلبية تجعلها أكثر تديناً . ذلك أن انفعالها المرهف يهديها إلى سرعة الإحساس بنداء الدين العميق الذى يتجه للحواس والمشاعر . هذا إلى أن الكبت الشديد على ميولها الشهوانية يتركها مثقلة بولاء غامض يرتبط بكل موضوع للعبادة . وشعورها بألوان الحرمان التى تجعل الحياة حزينة أكثر حدة من شعور الرجل ، كما أن رغبتها فى الاتحاد مرة أخرى بأولئك الذين أحبتهم وفقدتهم يقنعها بالاعتقاد فى الخلود . والطبيعة نموذج رائع لها . ومن يدرى لعل المرأة فى عجزها المتواضع عن الفهم ، قد تكون ألصق بسر الطبيعة من علمنا الميكانيكى ؟ إنها تعبد الله بالغريزة ، فى الوقت الذى قد ينشد فيه الرجل الرقابة على نفسه. وهى لعجزها الجسمانى تلتمس حماية الله القادر على كل شىء ، وتطلب هداية السماء فى صلاتها حين يضل عقلها فى هذا العالم . وهى تتعطش إلى الوجود فى الحضرة الإلهية خوفاً من العزلة وحباً فى المجتمع ، وتعمر الفضاء بالأرواح التى تؤنسها فى وحدتها وتعينها على حاجتها . وهى أول من يرحب بالصور الجديدة من الاعتقاد ، وآخر من يتخلى عن القديم . ولقد يقتل الإنسان نفسه فى ساعة اليأس ، أما المرأة حين تفقد كل أمل فإنها تعتمد على رحمة السماء ، وتلتمس القوة والعزاء فى الرب الحبيب .

٣ — الاختلافات العقلية

هذه هى غرائز الرجال والنساء . لكن لا يجب أن نفترض أن مثل هذه الميول الأولية تظل دون تغيير مع التجربة والتعليم . فى كلا الجنسين تنمو العادة ويقوم العقل على أساس هذه الاستعدادات . فكيف يختلف هذا البناء العقلى فى الرجال عنه فى النساء ؟

العقل فى الرجال أوسع وأعلى . فقد خرج الرجال منذ أجيال كثيرة من البيت المعروف إلى فضاء العالم المتعدد الجنبات ، وكان عليهم أن يواجهوا مواقف جديدة ومؤثرات جديدة لا تصلح لها استجابات الغرائز القديمة ، فاضطروا

بالضرورة (بعضهم فقط) إلى تنمية هذه القوة اللينة لتستجيب بنجاح فى المواقف الجديدة ، وهذه القوة هى التى تكون ذكاء الغريزة . ذلك أن الغريزة أيضاً يمكن أن تكون على ذكاء . وليكن المؤثر أو الموقف من النوع التقليدى الذى واجهته الإنسانية قروناً طويلة ، تجد أن الغريزة خليقة بالكفاية ، بل هى أجدر أن تكون أكثر ذكاء ، نعنى أفضل تكيفاً وأكثر نجاحاً من عمليات الفكر المزعزعة . وكانت المهام الأساسية فى حياة المرأة إلى عهد قريب البحث عن زوج وتربية الطفل ، ولا يزال هذا الأمر صحيحاً بالنسبة لجميع النساء ما عدا نساء المدن الكبيرة ، وهو صحيح بالنسبة لجميع نساء المدن ما عدا نساء الطبقة الوسطى . وهاتان المهمتان الرئيسيتان من أقدم المشكلات التى واجهتها كل امرأة بمقدار ما تعى الذاكرة . وقد هيأت الطبيعة لهذه المواقف استجابات غريزية قد تؤدى فى بعض الأحيان إلى نكبة ، ولكنها عادة نافعة ومعقولة .

لذلك تفضُل المرأة (ما عدا الاستثناءات المدنية دائماً) الرجل فى وحدة غرائزها وكمالها ودقتها . أما الرجل فأكثر نقداً وشكاً ، وأعظم بهيئة التفكير سقماً. فقد تعطلت غرائزه بالمرونة ، وفقدت ما فيها من مباشرة وثقة . وهو يرتبك دائماً فى حضرة المرأة ، لأنها أشد بنفسها ثقة وأكثر استعداداً للعمل ، وأبرع فى وضع الخطط وأسرع فى تنفيذها ، حيثما كانت المشكلة تتعلق باصطياد الزوج أو الإبقاء على المحب ، أو إقامة البيت . ولا تجد رجلا فى الثلاثين يبارى امرأة فى العشرين فى حرب الحب اللطيفة . راقب أى رجل مهما يكن شيخاً يحب امرأة مهما تكن صغيرة ، وانظر أيهما يطوى صاحبه فى إصبعه . فهناك بعض الأمور تعرفها المرأة قبل أن تولد ، وذلك بالحق الأزلى للصبغيات الثانوية ، أما الرجل فلا يعرفها إلا بالتجربة الشاقة بعد زوال الوهم عنه . والمرأة تبصر أكثر مما تقرر ، والرجل يقرر أكثر مما يبصر . المرأة تفكر بغير فكر ، وتكذب بغير تفكر سابق . إنها تسبق الرجل فى الكذب المخترع بمراحل واسعة ، وهى التى تفسر بغير اضطراب أى أزمة يكتشف فيها أمرها .

ولما كانت المرأة مهيأة منذ الولادة أفضل من الرجل لمهام الحياة العادية ، فإنها تنضج أسرع ، ومرحلة بلوغها أقصر . وقد وضعها بعض الرجال من أجل

ذلك فى مرتبة أدنى من حيث النوع . وفى هذا الحكم شىء من التسرع ، إذ على هذا الأساس تكون السلحفاة أشرف مخلوقات الله . وقد يكون من المعقول أن نستنتج امتياز المرأة العقلى من نسبة وزن مخها الكبيرة ، بالإضافة إلى مخ الرجل ، إلى وزن جسمها . ولعل بلوغها السريع مكتسب ، وقد فرض عليها فى ظروف قديمة قاهرة للأمومة المبكرة . ويستطيع الرجل كذلك أن يصبح أباً فى منتصف السن التى يتزوج فيها الرجل حديثاً ، ولكن الظروف الاقتصادية لا تسمح بذلك . والبلوغ يكون فى العقل كما يكون فى الجسم ، وله فروق كثيرة . فبعض الرجال يتم نضجهم مبكراً ، والبعض الآخر متأخراً ، والبعض الثالث لا ينضجون أبداً . ومن الواضح أن بلوغنا الإنسانى يطول ، لأن عجزنا يزداد فى وجه عالم يصبح كل يوم أكثر شمولا وأبعد عن التجانس لاستعداداتنا وفنوننا الفطرية . وقليل من الرجال فى الزمن الحاضر هم الذين يتم بلوغهم العقلى قبل أن يصلوا إلى منتصف الحياة . أما المرأة التى تقوم حياتها على إدراك الأمور الطبيعية والعميقة ببساطة ، فإنها تنضج جسماً وعقلا فى سن مبكرة . وهى أسرع إلى تعلم مباهج السلوك الاجتماعى . وهى أبرع فى المدرسة من الصبى الذى يماثلها فى العمر . وقد أثبتت أخيراً فى كلية ردكليف Radcliffe امتيازها فى الاختبارات العقلية على شباب هارفارد المثقفين . ولكن هذا النمو السريع يتجه إلى بلوغ التمام فى وقت أسرع عند المرأة منه عند الرجل . فالمرأة لا تنمو بعيداً عما كانت عليه منذ الولادة كما يفعل الرجل المجرب المحنك . وهى تتشبث بالوراثة ، وهو يغامر فيتمايز . إنها أداة استقرار الجنس وأساسه ، وهو سبيل التغير ونذيره . والمرأة جذع الشجرة الإنسانية ، وجذورها تتشبث بشدة فى الأرض التى تنمو عليها ، وتمد جذورها فى أمان كما تتطلع بفروعها فى السماء .

أما الجانب من هذا الثبات فهو ضرب من المحافظة فى الوجدان ولون من القصور فى الفكر . ذلك أن مصالح المرأة تتعلق بالأسرة ، وبيئتها عادة هى البيت . فهى عميقة عمق الطبيعة ، ضيقة ضيق الجدران الأربعة . وتلائم الغريزة بينها وبين التقاليد ، ولذلك تحب التقاليد كما تحب الخبير الوسط الذى يكشف عن امتيازه . وهى أقل تجريباً فى العقل والأخلاق (ما عدا بعض الاستثناءات

المدنية) . وإذا لجأت إلى « الحب الحر » فليس ذلك لأنها تجد فيه الحرية ، بل لأنها تيأس من إتمام زيجة عادية مع رجل مسئول . وكم تفرح إذا استطاعت أن تجذب الرجل إلى جانبها وتضمه فى البيت ! وحتى إذا كانت فى شبابها قد راعتها عبارات الإصلاح السياسى ، وبسطت عاطفتها رقيقة على الإنسانية كلها ، فإنها تسحب هذه المحاولات حين تجد الزوج الأمين . وسرعان ما تفصله ، وتفصل نفسها ، عن هذا الإخلاص العاملى ، وتعلمه الولاء العميق المحدود بالأسرة . يقول الشاب فى نشوة الغزل : «كم أود أن أهبك العالم » . فإذا تزوج فعل ذلك .

والأمر كذلك فى البيت . فالمرأة تعرف دون حاجة إلى التفكير أن الإصلاحات الوحيدة السليمة تبدأ من البيت . وهى تخدم الجنس حين تحيل المثالى الهائم إلى شخص يخلص لأبنائها . والطبيعة لا تحفل إلا قليلا بالقوانين والدول ؛ وغرامها بالأسرة والأبناء ، فإذا استطاعت حفظهم فلا تبالى بالحكومات والأسر الحاكمة ، وتسخر من أولئك الذين يشغلون أنفسهم بتعديل الدساتير . وإذا كانت الطبيعة تبدو اليوم مخفقة فى مهمة حماية الأسرة والطفل فذلك لأن المرأة قد نسيت الطبيعة فى هذا الزمان . ولكن الطبيعة لن تنهزم طويلا ، إذ تستطيع فى أى وقت أن تغترف من مئات الوسائل المدخرة . فهناك أجناس وشعوب أخرى أكثر منا عدداً وأعظم انتشاراً تستطيع بوساطتهم أن تحتفظ باستمرارها الثابت العزم ، والذى لا تلوى فيه على شىء .

٤ — المرأة والعبقرية

تولد المرأة مزودة بالذكاء ، الذى يحصله بعض الرجال ، ويستحثه معظمهم . وقد أصبحت الحياة بالنسبة إلى الرجل فى ظل فوضى الثورة الصناعية المتغيرة ميداناً فسيحاً من المسئوليات المتعددة الألوان ، وليس له يد فى اختيارها ولا يتوقعها . وقد انهارت أعصاب كثير من الرجال ؛ وتطور عقل كثير غيرهم تطوراً واسعاً ولامعاً بحيث يستخدم سائر الطاقة المخترنة فى الجهاز العصبى ، وينشأ عن هؤلاء القوم عدد من العباقرة والمجانين لم يعهد من قبل . وكما أن الصناعة

تبتلعهم ، كذلك تخضع المرأة لهذه القوة القاهرة من النمو العقلى . ولكن على الرغم من سرعة تغيرها فإنها لا تزال مختلفة عقلياً عن الرجل . ويبدو أن المرأة لاتستريح إلى الفكر المجرد ، فهى تلمح الوقائع وتحسن تذكرها ، غير أنها لا تحسن التعميم ، أو التأويل المبتكر . وقد تنحرف عن الغرض وتغرق فى التفصيلات . وهى تهتم بالأشخاص أكثر مما تهتم بالعمليات العقلية أو الأشياء . وهى لا تناقش المشكلات بمقدار ما تناقش الرجال ، لأن الرجل مشكلتها . وقد كتب عليها أن تشغل نفسها بالأشخاص ، بالزوج والطفل . وكتب على الرجل أن يدور فى عجلة التجارة والصناعة ، وأن يفكر فى الأسباب والعمليات والمسببات كما يتعامل مع النساء والرجال . ومن الأيسر على الرجل أن يسلى نفسه بقراءة كتاب ينشر فكرة . أما الكتاب الذى تقرؤه المرأة فيجب أن يقص قصة . . عن رجل. إنها لا تزال من أصحاب مذهب « الأنيمزم » فترى شخصيات إلهية وإرادة أبطال حيث ربما لا يوجد إلا عمليات غير شخصية لتغيرات كونية واجتماعية واقتصادية.

ومن بواعث رضا الذكور من الباحثين عن الاختلافات العقلية بين الجنسين ملاحظة قلة عدد العباقرة الذين قدمتهم المرأة للعالم . وحتى فى الفن الذى قد يقال إن له بعض الصلة بالجمال ، وفى الموسيقى التى تضرب على الحساسية العاطفية ، فالمرأة قد أنتجت أقل مما يظهر أن جهودها وظروفها تسمح بذلك . وهناك نساء يعزفن الموسيقى أكثر من الرجال ، وعدد الرجال الذين يؤلفون المقطوعات الحية أكثر من عدد النساء . وعندما يعترف الرجال بالعبقرية العقلية أو الفنية فى المرأة فذلك ربما يسترجعون هذه العبقرية للرجل معلنين أنها تخص الذكور . ويؤكد لنا شوبنهور أن ثمة حرباً بين العبقرية والأمومة . فإذا صدقناه انتهينا إلى أنه لا توجد امرأة متفوقة عقلياً دون أن تكون فى مثل الشذوذ الخطر الذى كان عليه شوبنهور . وكانت جورج ساند [١] George Sand تدخن سيجاراً خاصاً بالرجال ، وكان سبنسر يجد جورج إليوت [٢] شديدة الذكورة

---

(١) جورج ساند (١٨٠٤ – ١٨٧٦) روائية فرنسية اسمها الأصلى أمانتين لوسيل ، ثم ترجلت وأسمت نفسها جورج ساند ، وأخفقت فى زواجها وأنجبت طفلين ، ولها مغامرات غرامية كثيرة . (المترجم)

(٢) جورج اليوت (١٨١٩ – ١٨٨٠) روائية انجليزية اسمها الأصلى مارى آن إيفانز وتمتاز قصصها بدراسة الشخصيات والمشكلات الاجتماعية . (المترجم)

بحيث يصعب الانعطاف إلى روحها الباردة . وتذهب مدام جيراردين إلى أن المرء يستطيع أن يتتبع فى كل رواية من روايات جورج ساند أثر آخر محبيها وسلوكه . وفى ذلك تقول : « إننا حين ننقد أعمال الكتاب النساء نكون غالباً مضطرين إلى القول فى تعجب مع بيفون : — الأسلوب هو الرجل »(١) .

وأسباب قلة العباقرة فى النساء كثيرة وعسيرة البحث . ولعلنا نعرف اصطلاح العبقرية فى تحيز ناسين أنه قد يكون ثمة عبقرية فى الأمومة كما يكون فى السياسة أو الأدب أو الحرب . ويجب أن نحكم على المساواة فى العبقرية ، لا بالقدرة على عمل كل شىء بمهارة متساوية ، بل بالقدرة على أداء المهام والوظائف الطبيعية لكل سن وجنس أداء ممتازاً . إننا هنا نقع فى نفس الخطأ الذى يرى العبقرية أقل فى عصرنا من عصور سابقة يبعث فيها الزمن سحراً . فنحن نميل إلى البحث عن العباقرة اليوم فى الميادين ذاتها التى ازدهرت بها فى الماضى ؛ ولعل بعض القوة العقلية التى أبدعت الأدب والفن قديماً قد امتصتها الآن ميادين العلم والصناعة الواسعة . فنحن مستغرقون فى الوقت الحاضر فى بذل المجهود لصياغة العالم الطبيعى صياغة جديدة فى ضوء معرفتنا وقوتنا الجديدتين . وعندنا الآن كبار المخترعين والعلماء والمنفذين للأعمال الدولية والماليين العالميين ، فلا ينبغى أن نتوقع فى العصر نفسه أن يظهر أمثال أفلاطون وشكسبير وليوناردو وبتهوفن .

ولعل الرجال قد تفوقوا على النساء فى العبقرية ، لأن العباقرة يظهرون عادة بين الأقلية المتعلمة من كل جنس ، لذلك كانت الموازنة كريهة إلى أن تتكافأ نسبة المتعلمين تعلما عالياً فى كلا الجنسين . فالعباقرة من الذكور خلاصة ملايين من الرجال المتعلمين . والعباقرة من الإناث زبدة بضع مئات فقط من المتعلمات ، فإذا أفسح المجال والتدريب للمرأة أخرجت كبار الشعراء مثل سافو Sappho ، والروائيين مثل جورج إليوت ، وعلماء الطبيعة مثل مدام كورى ، وعلماء الرياضة مثل هيباتيا Hypatia وسونيا كوفالفسكى ، والمفكرين مثل أسباسيا ومدام دى ستال ، بل كذلك حكاماً أقوياء مثل الملكة إليزابيث وكاترين دى مديشى . ومن الملاحظ أن الظروف إذا كانت مواتية ظهرت كثيرات من

---

(١) Brandes, G. Main Currents of Nineteenth Century Literature, vol. III, p. 71, note.

العباقرة . ومن المحتمل مع ذلك أن المرأة ينقصها الحيوية الجسمانية الخالصة التى يحتاج إليها العمل الفنى ، ولعلهن أقل من الرجال موهبة فيما يختص بحاسة الجمال التى تفتن النفس وتبعثها إلى الإنتاج الروحى . وقد يمكن أن نشير هنا مرة أخرى إلى هذا الضرب من الفتور الجنسى — أو قل إنه حساسية متأخرة — فى النساء ، والذى يؤكده لنا كثير (من الرجال) من علماء الأمراض العصبية ، ولكن ليس له دليل كاف فى الأخلاق المعاصرة . والمرأة على وجه العموم لا تنشد فى زوجها الجمال بل القدرة والقوة كعهد بالحماية . أما الذكر فهو الذى ينتخب ناظراً إلى الجمال ، لا لأنه (كما نجد فى عبارة ستاندال) سبيل إلى اللذة ، بل لأنه عادة عنوان القوة والصحة . وإذا كانت المرأة تفقد شيئاً من الهوس بالجمال فذلك لأنها لا ترغب فى الامتلاك بمقدار ما ترغب فى أن تمتلك . فهى لذلك تلهم الفن أكثر مما تنتجه . ولعلها لا تجد فى الرجل ، هذا الرجل المتكبر المضحك ، الجمال الذى يبعث على الخلق . ولماذا تنشد الجمال وهى تتجسده ؟ إن الجمال الحىّ أفضل من أبهى فنون النحت والتصوير ، وأشرف حتى من الذكاء ؛ لأنها أصل الفن وغاية الذكاء. ولو أن الحياة كانت جميلة ما احتاجت إلى الذكاء ، أما إذا كانت الحياة ذكية فإنها تسعى جاهدة كيما تصبح جميلة .

٥ — هل الاختلافات موروثة ؟

ليس أمامنا إلا سؤال أخير : هذه الاختلافات العقلية أهى موروثة أم مكتسبة ؟ والجواب عن هذا السؤال صعب ، لأن هذا الميدان ينافس فيه العلم الفلسفة فى زعزعة المعرفة وكثرة الفروض ،وقد يمكن أن نجازف فنفترض بأن هذه الاختلافات ولو أنها مرتبطة بالاختلافات الموروثة للبنية والوظيفة ، إلا أنها فى معظم الأحيان تنتقل اجتماعياً وتكتسب فردياً . وهى تتوقف إلى حد كبير على المثل العليا التى كونها الرجال لمنفعتهم الخاصة عن النساء ، وفرضوها عليهن من خلال آلاف المؤثرات البيئية . وفى ذلك تقول إحدى الأساتذة محتجة : « يشجع الصبيان على الفردية ، فيدربون على الاستقلال فى الفكر والعمل . . . ويشجعون على التجريب وعلى عمل الأشياء بأنفسهم .أما البنات فيعلمن الطاعة ،

والاعتماد على الغير ، والانقياد . ويحملن على الشعور بأن الإسراف فى الاستقلال بالرأى أو العمل منقصة لهن ، فلا يليق بهن ، أو لا يوافق أنوثتهن . أما الصبى فيعلم أن يشعر بأن نجاحه فى الحياة . . . يتوقف على قدرته على أداء عمل جديد... ولسنا نجد مثل هذا الدافع الاجتماعى مطبقاً على البنات » (١) .

ويمكن من بعض الوجوه نتيجة تجارب واسعة أن نجيب إجابة علمية عما إذا كانت الفروق العقلية والخلقية بين الرجال والنساء فطرية أم غير فطرية وقد وجهت الظروف الاقتصادية التجارب ، وكانت الحياة نفسها المعمل ويبدو كما لو أن الطبيعة قد وضعت لنفسها المشكلة التى تحيرنا ، وعزمت على حلها باختبار يكاد يكون كونياً . فقد كان الرجال متفوقين عقلياً على النساء : أذلك بالوراثة أم بالبيئة ؟ وللجواب عن السؤال كان لابد من إخضاع عدد كبير من النساء للحياة الاقتصادية المتغيرة والمتباينة التى كانت تصوغ الرجال ، ثم نلاحظ بأى سرعة وعمق غيرت هذه الوظائف الواسعة عقل النساء العاملات وخلقهن . وأصبحت جميع انجلترا ونصف أمريكا مسرحاً للتجربة الكبيرة ، وفتحت المصانع والوظائف والمهن أبوابها لكلا الجنسين. وانتزعت الضرورة الاقتصادية الملايين إثر الملايين من النساء عن البيت القديم وقذفت بهن فى طيش وحشى إلى المنافسة الاقتصادية والتجارية مع الرجال . فماذا كانت نتيجة التجربة ؟

كانت النتيجة تحولا نحو المرأة « المتحررة » بلغ من السرعة حداً جعل العالم كله يفغر فاه دهشة . ففى خلال أجيال ثلاثة شق العاملات الجديدات بالصناعة طريقهن فى كل ميدان حيث لا غنى عن القوة الجسدية . واكتسبن فى جميع هذه الميادين من صفات الرجل العقلية والخلقية ما يكفى لأن يجعل أى عالم أخلاقى فى الممالك المسيحية يأسف على ترجل الجنس الذى كان ذات يوم ألطف وأضعف . وأبرزت المحاميات وعالمات الطبيعة والحاكمات وقاطعات الطريق قدرة المرأة ، المحدودة بنطاق فرصهن التى لا تزال ضيقة ، على منافسة الرجل فى فنونه التى أسسها من قديم . وتخرج فى كليات الجامعات نساء لا يود أى رجل الزواج منهن ، لأن امتيازهن العقلى يتنافى مع بعض مزاعم الرجال فى

---

(١) Thompson, H.B., Mental Traits of Sex, p. 178.

القيادة ، وهى مزاعم من لوازم الزواج ومصاحباته . لقد تناقصت الثغرة العقلية والخلقية بين الجنسين بالسرعة التى حلت فيها الورش والمصانع محل المزارع والبيوت .

وسندرس فيما بعد هذا التغيير بتفصيل أوفى . ولكننا لا ننظر إلى هذا التغيير الآن إلا على أنه دليل على أن النساء إذا رغبن فى حياة الرجل المهنية تماماً ، فعليهن منافسته والتماثل وإياه فى الصفات العقلية والخلقية . ولكن أكبر الظن أن المرأة ستفصح عن ذوق أفضل من هذا . وسوف تنقضى هذه الفترة الحاضرة من التقليد ، وتكتشف المرأة أن الرجال لا يستحقون هذا الإطراء . سيدركن أن العقل يختلف عن الذكاء ، وأن السعادة كالجمال والكمال فى تحقيق ذواتنا الطبيعية . ولن تسعى أولئك النساء السائرات فى طريق التحرير أن يكن رجالا ناقصات بل نساء كاملات . سيجعلن من الأمومة فناً يحتاج إلى إعداد وذكاء كما تحتاج إدارة الروافع والطنابير والمفاتيح والعجلات . وقد يكتشفن أن الأمومة هى أعظم سائر الفنون .

لقد جلبت عليهن حريتهن الجديدة مشكلات من التعقيد والصعوبة كتلك التى كانت فى عصر عبوديتهن . ولا يستطيع الرجال مساعدتهن فى هذا المجال ، لأن عقل الرجل من الميكانيكية والخشونة بحيث لا تسمح له أن يفهم بدقة وعطف التغييرات الخطيرة التى تجعل حياة المرأة وعقلها مضطربين . معرفتها الجديدة وحدها هى التى تستطيع تلمس الحل لهذا الموقف الجديد . وأكبر الظن أنها سوف تنجح . فالطاقة التى حققت حريتها سوف تواجه المطالب التى بعثتها هذه الحرية . ستجد سبيلا يجمع بين الحنان الذى يزدهر فى الحب والأمومة ، وبين القدرة المتنوعة ، والذكاء النافذ ، والجمال الزائل ، مما تتميز به اليوم .

الفصل التاسع

المرأة الحديثة

١ — التغير الكبير

لقد أغفلنا فى التحليل السابق الحديث عن المرأة المصنعة فى المدن الحديثة إلى دراسة منفصلة ، لأن هذا الصنف فذ بين النساء ، عزيز على التصنيف ، ويكاد يكون بغير سابقة فى التاريخ . ولو تخيلنا أنفسنا فى سنة ٢٠٠٠ ، وتساءلنا عن أبرز ملامح الأحداث الإنسانية فى الربع الأول من القرن العشرين ، لرأينا أنه ليس الحرب الكبرى ولا الثورة الروسية ، بل تغير حالة المرأة . ولم يشهد التاريخ مثل هذا التحول المذهل فى مثل هذا الوقت القصير . « فالبيت المقدس» الذى كان أساس نظامنا الاجتماعى ، ونظام الزواج الذى كان حائلا دون الشهوة الإنسانية وعدم الاستقرار ، والقانون الأخلاقى المعقد الذى رفع البشر من الوحشية إلى المدنية والتهذيب ، من الواضح أنها وقعت بين براثن ذلك الانتقال المضطرب الذى أصاب جميع نظمنا وسائر أساليبنا فى الحياة والفكر ، منذ أن اغتصبت المصانع المزارع ، وامتصت المدن موارد الريف الطبيعية والإنسانية . فإذا كانت عقولنا قد تزعزعت بعض الشىء فى هذا العصر الهائج فلها العذر فى ذلك .

أما أن تكون المرأة مجرد جارية فى البيت ، أو زينة اجتماعية ، أو متعة جنسية ، فتلك ظاهرة عرفتها عصور سالفة غير زماننا ، فهى مجرد ظاهرة وضرب من الشذوذ الأخلاقى يستحق الملاحظة العامة والالتفات . وقد طالب أفلاطون فى جرأة بفتح باب كل عمل ، والمساواة فى جميع الفرص ، دون نظر إلى اختلاف الجنسين . ولكن أرسطو كان أكثر موافقة لميول عصره فوضع المرأة فى مرتبة متأخرة من النمو ، وفسر وجودها على أنها إخفاق الطبيعة فى أن تنتج رجلا . فهى

تتعلق بطبقة العبيد من حيث تبعيتها الطبيعية ، وعدم جدارتها بالمشاركة فى الأمور العامة .

وتلك كانت كذلك نظرة يهوذا Jehovah الذى جمع الأزواج والأمهات مع الماشية والأملاك الثابتة فى آخر الوصايا العشر التى يقال إنه أنزلها على موسى . وقد صاغ اليهود (يهوذا) على صورتهم ، وكانوا كأى شعب محارب يعتبرون المرأة كارثة ، وشراً لا بد منه يحتمل باعتبار أنه المصدر الوحيد للحصول على الجند فى ذلك الوقت . ولم يكن قدماء اليهود يوقدون أى شمعة إذا كان المولود بنتاً . وكان على الأم التى تلد أنثى أن تتطهر مرتين . أما الصبى ، فخوراً بالآية التى كانت عهد (يهوذا) عليه ، فكان يردد بانتظام فى صلاته : « أشكرك يارب لأنك لم تخلقنى كافراً ولا امرأة » (١) . ولكن اليهود لم يشذوا عن غيرهم ، ولو أنهم كانوا فى كثير من الأمور خارجين على القوانين الأخلاقية فى زمانهم . ففى كل مكان من الشرق كانت المرأة محتقرة حتى تصبح أم بنين ، ولا تَشْرُفُ تمام الشرف حتى يخر أبناؤها صرعى فى ساحة القتال . وحتى أفلاطون نصير المرأة فقد حمد الله لأنه ولد ذكراً .

ومنذ تلك الأيام حتى عصرنا الحاضر تغيرت دون شك أحوال النساء ومعاملتهن تغيراً عظيما واختلفت اختلافاً بيناً ، ولسنا فى حاجة إلى تفصيل ذلك على هذه الصفحات ؛ فالقيان Hetairai اللاتى أضفين على الحياة الأثينية قديماً صورة بديعة ، والمحظيات اللاتى كن يعمرن بلاط الملوك فى العصر الحديث ، التمسن الحرية من سيادة الرجل بإبراز مفاتنهن الجنسية والعناية باظهارها : فكانت أسباسيا Aspasia ، وفرينا Phryne تختلطان بالفلاسفة والفنانين ، كما كان صالون مدام دى بارى وبومبادور مراكز عقلية لأسمى ثقافة عرفها العالم . وكانت الثورة الفرنسية تبشر فى زمانها بحرية عالمية . فقدم كوندورسيه للمجلس الوطنى طلباً بحق المرأة فى الانتخاب ، وأضافت مارى ولشتنكرافت حقوق المرأة إلى حقوق الرجل . حتى إذا انقشعت دماء الثورة بعد أن قدمت المرأة نصف مليون من بنيها لتحرير فرنسا ، وجدت أن أحداً لم يفكر فى تطبيق الحرية

---

(١) Royden, A.M., Woman and the Sovereign State, p. 45.

والمساواة على البيت ، وأن الثوار الذين استولوا على التويلرى أمكنهم أن يحكموا زوجاتهم بيد قوية كالرومان الذين كانوا يحبون اصطناع أسمائهم . كانت الحرية وقفاً على الرجال لا غير ، وكانت مؤنثة لغوياً فقط .

وظلت هذه الآراء سارية فى هذا القرن . فمن منا اجتاز الأربعين ولا يذكر الرسالة العنيفة التى أثبت فيها أتو فاينجر أن المرأة لا روح لها ؟ ومن منا نحن الرجال لم يستمتع بقراءة كتاب شوبنهور « مقال عن النساء » حيث يقول : « هذا الجنس القمىء ، ضيق الكتفين ، عريض الحقوتين قصير الرجلين » ؟ ألم تملأنا نشوة التفوق حين نصحنا نيتشه قائلا : « إذا أقبلت على المرأة فلا تنس أن تحمل سوطك ؟ » لم نلتفت إلى أن هذه الكتب التى استمتعنا بها أعظم متعة لم تكن إلا جزءاً من الحرب الأزلية بين الجنسين ، فهى كتب حربية للذين ضرب عليهم الحصار تعبر عن حكمة المنهزمين من الرجال . وفاتنا أن نلاحظ ، لأننا نشبه هؤلاء الشهود فى تحيزهم ، أن شوبنهور هجرته عشيقته البديعة وآثرت عليه لقب بيرون وحسن مظهره . وأن نيتشه قد هجرته عشيقته السمراء لو سالومى Lou Salomé بعد أن تتبعها فى نصف ممالك القارة متقرباً إليها بفقه اللغة والأمثال . وأن فاينجر ذلك العبقرى المتعجرف هجرته قينة فى إحدى حانات فينا ، وفى ساعة من ساعات اليأس قتل نفسه رمياً بالرصاص فى بيت بيتهوفن . إننا نقرأ تلك الكتب راضين لأنها تعبر بدهاء وأمن عن عدائنا الكامن للجنس الذى سوف نظل على الدوام نكنّ له الحب .

لم يكن للمرأة حتى سنة ١٩٠٠ أو ما يقرب من ذلك أى حقوق يرتبط الرجل قانونياً باحترامها . وفى القرن التاسع عشر كان نساء أفريقيا يشترين ويبعن كالرقيق أو كالآلات الزراعية . وكن فى جزر تاهيتى وبريطانيا الجديدة يرضعن الخنازير[١] . وفى مرى إنجلند قد يضرب الزوج امرأته ولا يحاسبه القانون إذا بقيت بعد (العلقة) على قيد الحياة . وقد يرتكب الفحشاء كل ليلة ، وليس لها أن تفعل مثله إلا إذا هجرها . وإذا اكتسبت مالا فهو من نصيبه ، وإذا كان لها

---

(١) Thomas, W.I., Sex and Society, p. 138.

مال وقت الزواج فله أن يتصرف فيه . أما أن يكون للمرأة حق العمل فى مصنع ، أو شرف العمل فى مصنع ، فشىء لم يخطر على بال أى رجل .

ثم حدث التغيير الكبير ، فأخذت تلك النساء اللاتى كن عبيداً يتحدثن عن الحرية وغيرها من التمائم ، وعن المساواة وغيرها من المستحيلات ، وحطمن النوافذ وصناديق البريد ، واشتركن فى مواكب لا حصر لها ، ومظاهرات صاخبة . الخلاصة فلننقل على « طريقة كوميديا الأخطاء »(١)

فى الفراش لم يغمض لنا جفن لاستعجالهن الأمر
وعلى المائدة لم نذق طعم الأكل لاستعجالهن الأمر
وفى صحبتهن كن يدمن النظر إلى هـــذا الأمر

لقد ركبت المرأة رأسها ، وشقت طريقها . ولا يمكننا اليوم أن نضربها ، ولن تطهى لنا الطعام ، بل لن تبقى إلى جانبنا فى البيت ليلة واحدة . وبدلا من القلق على خطايانا فهن فى شغل بخطاياهن . لقد كسبن نفوساً وأصواتاً فى الوقت نفسه الذى يبدو أن الرجال قد فقدوا النفوس ونسوا الأصوات . فالمرأة تدخن ، وتحلف ، وتشرب ، وتفكر ، على حين يجلس الرجل الفخور الذى احتكر فى الماضى تلك الفنون فى البيت يشرف على تربية الطفل .

٢ — الأسباب

كيف نفسر هذا الانقلاب السريع للتقاليد والنظم الثابتة والمحترمة المنحدرة من عصور أقدم من المسيحية ؟ السبب الشامل لهذا التغيير هو تكاثر الآلات . أما « تحرر » المرأة فكان عرضاً نشأ عن الثورة الصناعية .

فأول كل شىء دفعت الثورة إلى تصنيع النساء على نطاق لم يعرف من قبل ولم يحلم به . كن عاملات أرخص من الرجال . وكان صاحب العمل يؤثر توظيفهن على الذكور الأغلى أجراً والأكثر ثورة . وكان الرجال فى انجلترا منذ

(١) كوميديا الأخطاء Comedy of Errors ، تمثيلية لشكسبير ، تقوم على الخلط بين توأمين شكلهما واسمهما واحد ، وتخطىء زوجة أحدهما وتختلى بالآخر (المترجم) .

قرن مضى يجدون مشقة فى الحصول على عمل ، ولكنهم كانوا يقرأون فى الإعلانات دعوة نسائهم وأولادهم يرسلونهم إلى أبواب المصنع [1] . فأصحاب العمل يجب أن يفكروا فى صيغ من المكاسب والأسهم ، ولا يجب أن تشغلهم اعتبارات الأخلاق والنظم والدول . والرجال الذين تآمروا ببلاهة على « هدم البيت » هم أصحاب المصانع الوطنيين فى انجلترا فى القرن التاسع عشر .

وأول خطوة قانونية لتحرير جداتنا كان تشريع عام ١٨٨٢ الذى نص على أن نساء بريطانيا العظمى لهن الحق فى التمتع بمزية لم تكن لهن من قبل ، وهى الاحتفاظ بما يكسبن من أجر . كان ذلك التشريع أخلاقياً ومسيحياً إلى أقصى حد ، فرضه أصحاب المصانع فى مجلس العموم ليجذبن فتيات انجلترا للعمل فى مصانعهم . ومنذ تلك السنة حتى وقتنا هذا ظل الدافع الذى لا يدفع إلى الحصول على الكسب يجتذب النساء من عبودية البيت إلى رق الورشة . ونصف نساء انجلترا اليوم يشتغلن إما فى المكاتب أو المصانع . وتتزايد نسبة العاملات فى الصناعة أربعة أضعاف السرعة التى تتزايد بها نسبة الرجال . وأكبر الظن أن كل امرأة فى مدينة المستقبل ستعمل خارج البيت فيما عدا فترات أمومتها النادرة. وقد يبدو هذا المنظر لبعضنا كريهاً عند التأمل فيه ، ولكننا سنعتاده بعد جيل أو جيلين ، لأن العادة تجعل كل شىء يبدو معقولا .

ومن الطبيعى أن ينشأ عن تصنيع المرأة فساد الحياة المنزلية . وكلما ولدت الآلات آلات جديدة بكثرة متزايدة مستمرة ، وأدى الإنتاج الواسع النطاق المزود بأساليب جديدة من القوة إلى رخص الأسعار ، غلب المصنع البيت وتفوق عليه فى مئات الحرف التى كانت تنوع حياة المرأة ، وانتزع منها عملها السابق شيئاً فشيئاً ، وأخذت المهن التى أدت إلى عبوديتها تفر واحدة بعد أخرى ، تاركة البيت خالياً من الاهتمام ، والمرأة نفسها عارية عن الوظيفة وغير راضية .

والمرأة هى التى خرجت لحسابها الخاص من البيت إلى المصنع . لقد بحثت عن العمل الذى طار من يدها . وكانت تعلم أنها بغير هذا العمل لا بد أن تصبح طفيلية لا معنى لها ، وترفاً لا يقوى على اقتنائه إلا ذوو المال الوفير ، أو

(١) Hammond, J.L. and B. : The Town Labourer, 1760-1832.

ذوو العاهات من الرجال . وتلقت المرأة أول أجر لها بالاعتزاز والسعادة التى يشعر بهما الصبى الذى أراد أن يثبت رجولته بالعمل فى المصنع والتدخين يوم الأحد ، كى يهرب من المدرسة . فالابتهاج الذى استقبلت به المرأة عملها الجديد كان فرحة عثورها على شىء تعمله . فهذه هى السعادة بالوظيفة مرة أخرى .

فلما أصبح البيت فارغاً ، ولم يعد فيه مكان لعمل شىء أو الاستمتاع بالحياة ، هجره الرجال والنساء ، وأخذوا يعيشون فى صناديق أو خلايا تسمى شقة فى بيت ، وعنابر ينام فيها أولئك الذين يقضون حياتهم ليلا ونهاراً فى الخارج فى صخب الشوارع وزحمتها . فهذا نظام استمر عشرة آلاف سنة انهار فى جيل واحد . وقد تعلمنا من علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعى أن النظم والتقاليد والأخلاق لا يمكن تبديلها إلا بالتدريج البطىء غير المحسوس ، ولكن ها هنا أحد التغييرات الكبرى فى تاريخ الحضارة ، والذى يكاد يبلغ الأوج ،وقع فى زمن لا يزيد عن طفولة شخص واحد إلى كهولته . وقد حذر الكتّاب والوعاظ والساسة من السماح للاشتراكيين بهدم البيت ، ومع ذلك لعبت العمليات الاقتصادية هذه المأساة تحت أبصارهم وفى قلب حياتهم قبل أن يتمكن علماء الأخلاق من التحقق من أسبابها .

وقد يمكن أن يظل البيت قائماً لو أن الأطفال كانوا يملأونه بالمتاعب والصخب ، غير أن الثورة الصناعية قد انتزعتهم بعيداً جداً . ذلك أن الأطفال الذين كانوا عوناً أى عون وبهجة فى المزارع الفسيحة ،أصبحوا عائقاً فى المدينة المزدحمة والشقة الضيقة . وكان فى العالم كثرة كثيرة من العمال ، لذلك وجب أن يحد الإكثار من النسل على الطريقة القديمة ،حتى لا يظل الناس فى فقر دائم وجهل مستمر . وأدى ظهور الآلات إلى وجود المصانع ، وأفضت المصانع إلى نشأة المدن ، وخلقت المدن الديمقراطية والاشتراكية وتحديد النسل . الحق أن أحداً لم يُرِد شيئاً من ذلك ، ولم يكن لمظاهرات حقوق النساء البراقة المطالبات بشىء من التوقف عن كثرة الحمل إلا أثر ضئيل جداً فى إحداثها ذلك التغيير ، ولم يكن فى مقدور عظات رجال الدين والحكام وقف موجته . وكان من الواجب على تاريخ أوربا وأمريكا فى مائة العام الأخيرة أن يتبدل ليستبقى هذه

النتائج . ولكن التاريخ كالطاقة لا يسير إلى الوراء ، فهو يحمل فى طياته ضرباً من القدر المحتوم ، ويجب أن يجرى فى مجراه إلى المصير .

ولم يكن الأطفال ضرباً من الترف فى المدن حيث لا يمكن دفعهم إلى العمل فى الخامسة من العمر ، وحيث يزيد كل طفل جديد فى أجرة البيت ، نقول لم يكن الأطفال ترفاً فقط ، بل الحمل نفسه لم يعد حادثاً طبيعياً ، ولكنه عملية خطرة . ذلك أن المرأة الحديثة لاشتغالها فى المصنع ، أو ابتعادها عن العمل فى البيت ، أصبحت أضعف فسيولوجيا من أسلافها . ومما زاد الطين بلة تدهور حاسة الجمال عند الرجل فى العصر الحاضر لشغفه بالقوام الرشيق الخائر . أما أمثال النساء اللاتى عرفهن روبنز Rubens [1] ، أو الأمهات من مثل لايتشيا Laetitia أم بونابارت ، فلا يرقن فى نظر فنانينا أو رجالنا فى المدن الذين يحكمون على الجمال فى ظل الفتنة الجنسية العابرة أكثر مما يحكمون عليه نذيراً لأمومة قوية . وهكذا أصبح النساء أكثر فأكثر عجزاً عن حمل الأطفال ، وتجنبن الحمل ما استطعن إلى ذلك سبيلا ، ونزلن به إلى أضيق حد . ووافقهم أزواجهم فى معظم الأحوال على ذلك ، وهم لا يعلمون فى براءتهم أن الأطفال تكلف من النفقة أقل مما يبذلونه فى ملاهى الليل .

ثم جاءت تلك المبتكرات الجديدة المسماة وسائل منع الحمل فكملت الدائرة ، وتعاونت فى صمت على تحرير المرأة . فلما تحررت من هم الولادة وتحررت بناء على ذلك من آخر عمل كان يمكن أن يجعل البيت مكاناً محتملا له معنى ، ذهبت إلى المكاتب والمصانع وإلى العالم . وافتخرت بأنها أخذت مكانها إلى جانب الرجل فى الورشة أو المتجر . فهى تؤدى نفس العمل ، وتفكر نفس الأفكار ، وتنطق بنفس الألفاظ كالرجل . والأغلب أن التحرير جاء عن طريق التقليد ، فاصطنعت المرأة واحدة بعد أخرى عادات الرجل التقليدية البالية حسنة كانت أم قبيحة ، فحاكته فى تدخينه ، وفجوره ، وإلحاده ، وفى طريقة تصفيف شعره ولبسه السراويل وأدى هذا التقارب بين الرجال والنساء فى أثناء النهار إلى تأنث الرجل واسترجال المرأة . وصاغت المهن والبيئة والمؤثرات

(١) رسام مشهور من بلاد الفلمنك (١٥٧٧ – ١٦٤٠) (المترجم) .

المتماثلة الجنسين فى جنس يكاد يكون واحداً . ولن يمر جيل حتى يصبح من الضرورى أن يميز كل منهما بعلامة تمنع الوقوع فى مشكلات معقدة يؤسف لها . فلا يستطيع أحدنا الآن أن يكون واثقاً .

فما أعمق التغيير الذى تمثله المرأة العقيم أو ذات الطفل الوحيد بالإضافة إلى المرأة فى الزمن السابق ، وما أعظم أثره حين نذكر فزع كلا الرجل والمرأة من تصور العقم . وكان احترام المرأة حتى بداية القرن العشرين يتغير مع عدد الأطفال الذين أنجبتهم . وكانت وظيفة المرأة إما أن تكون أماً أو عاهرة ، وفى كلتا الحالين كانت تلد فى الغالب ما أمكنها . وكانت ملايين الصلوات تقام كل يوم فى أوربا المسيحية والعالم الوثنى يطلب أصحابها من الآلهة أن يهبوهم نعمة البنين ، وكانوا يتلون الأدعية ، ويزورون الأضرحة ، ويتمسحون بالحجارة المقدسة . ومن عادة شعب المايا Maya أن يصوم الزوجان العقيمان ويصليان ، ويقدمان الهدايا اللطيفة لاستعطاف الآلهة لتجود بكثير من الأولاد . وسئل أحد ملوك أفريقية عن عدد أبنائه فأجاب حزيناً إنهم عدد قليل ، لا يزيد على السبعين .

لم تؤثر صور الأمومة فينا إلى شغاف القلب وتبعث الدمع إلى العين ؟ لأننا قبل ظهور المدن كنا فى حاجة إلى عدد كبير من الأطفال ، وكانت مشاعرنا تعكس تلك الحاجة . أما الآن فليست المدينة فى حاجة إلى النسل ، لأنها بأنوارها الساطعة ولياليها الطويلة تستطيع أن تجتذب ذرية أسود الريف الأقوياء . وليس على الإله الحديد إلا أن يبسط ذراعيه ويحمل فى أطراف أصابعه ملايين المصابيح المتعددة الألوان حتى يهرع إليه الأطفال ، آلافاً وآلافاً كل عام ، ويرتفعون بدورهم إلى الحكمة والعقم . فالمدينة لا تعتقد أن الأطفال لازمون ، وهى لذلك تعلم النساء أن يصبحن محظيات ، ولا تلوثهن بالحمل . إن الحنان إلى الأمومة الذى يذيب فى بعض الأحيان حتى أرواحنا الجامدة المتشككة هو ثمرة عهد الشباب فى الريف ، والذى لا يزال النساء يحملن فيه الأولاد بين حين وآخر ؛ ومشاعرنا تبقى بعد تغير الظروف التى نشأت فى ظلها وذهابها . ونحن الذين ولدنا فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونشأنا على مقربة من الحقول الفسيحة ، وسنظل نعتقد إلى النهاية (كما يحذرنا المثل العربى) « أن أولئك الذين بغير ولد لاسعادة لهم » ، وأن تشييد أسرة مكونة من بنين تسرى فيهم الرجولة ، وبنات ينطبع فيهن

الحنان ، عمل يحتاج إلى خلق أعظم ، وقد يكون له ثمرة أهم من رسم الصور التأثيرية الحديثة ، أو تأليف الموسيقى المعاصرة ، أو كتابة مقالات عن المرأة فى العصر الحاضر .

٣ – بناتنا

فالمرأة المتحررة ثمرة تطورات اقتصادية ليس لإرادتها يد فيها ، ومن التناقض الشنيع أن توجه إليها الحملات الأخلاقية تلومها على ما هى عليه . أما نحن فقد نستطيع بهذه العين أن ننظر إليها نظراً إلى حد ما موضوعياً وبعيداً عن التحيز . فهلم بنا نتأملها .

فالمرأة فى الصناعة تكيف نفسها بمرونة مدهشة ، مع مرونة عقلية لا شك فيها . ومعظم حيل الذكاء وعاداته التى أعلن علم النفس الحديث أنها موروثة فى الرجال يظهر أنها مكتسبات سطحية يمكن للمرأة أن تصطنعها بمثل السهولة التى تتجمل فيها بالأحمر . راقب فتيات المكاتب الموظفات فى كل مكان ، قد تنقصهن المبادأة بعض الشىء (إلا فى المسائل الجنسية Erotica) ولكن ما فيهن من منافسة هادئة ، وأدب صابر ، واضطلاع بمعظم أعمال المكتب الحقيقية – على حين يدخن الرئيس الذكر سيجاره ، ويتكىء إلى الخلف فى كرسيه ، وينظر بعظمة حوله – كل هذا مصدر دهشة مستمرة ، وإعجاب متواضع . لم يمض إلا جيل أو جيلان حتى حقق الجنس الأضعف من التقدم فى الظفر بمركز فى الصناعة ، وفى غزو كل ميدان فيها ما عدا الأعمال الجسمانية الجسيمة ، حتى لقد يعجب اليوم جون ستيوارت مِلْ الأمين حين يرى إلى أى حد أصبحت آماله المتواضعة عن الجنس الذى اضطلع بحمايته لا ضرورة لها . « إنى لأتصوره واقفاً فى دهشة ينظر إلى نساء البوليس يرشدن حركة المرور فى أكثر المناطق ازدحاماً فى القسطنطينية » (١) . ولا أحد يعرف إلى أى حد سوف يبلغ هذا النفوذ النسائى فى الصناعة . فقد يأتى اليوم الذى توازن فيه سياسة المرأة العالية ومهارتهن فى القيام بالتفصيلات قوة الرجال الأعظم منهن وجرأتهم فى

---

(١) Montreal Gazette, April 2, 1928.

المبادأة . وحين تضطلع القوة الكهربية بمجهود الصناعة القذر والعضلى ، فسوف ينبغى حتى على الرجل أن يصبح ذكياً للاحتفاظ بمكانه فى العالم الاقتصادى .

ولن تستمتع بناتنا فى السياسة بمثل هذا الحظ . ولا ريب فى أن المرأة المصنعة يجب أن تشترك فى هذه اللعبة المؤسفة لحماية نفسها من القوانين التى يفرضها الرجل ، ومن هذا التمييز فى العصر الحاضر . ألم يحط الذكر الشرير امتيازاته التى شاخت بآلاف من الحواجز التشريعية ، وحصن قوته فى نقط كثيرة بقوانين موقرة ؟ يجب أن تحل هذه القوانين ، وأن يفتح كل طريق للطاقة المدخرة لهذا الجنس الذى تخلص فجأة من العمل المنزلى وتحرر من أثقال الأمومة المتكررة كل سنتين . أى قدرة حماسية قذفت بها المرأة فى هذه المعركة من التحرير ؟ لم يسبق لنصف العالم من المقاومة أن انهزم بمثل هذه السرعة ورباطة الجأش . ففى الوقت نفسه لم تستطع البروليتاريا (الجبهة الشعبية) فى انجلترا وأمريكا أن تحقق شيئاً مع ما لها من قوى تماثل المرأة فى الصوت والعدد . إن شجاعة المجندين من الرجال السكارى بأصوات الحرب وغضبها لم تستطع التغلب على شجاعة هذه النساء المطالبات بحق الانتخاب ، القارعات أبواب كل سلطان ، حتى فتحت الأبواب وأرغمت الديمقراطية على قبولهن . وبعد خمسين سنة من اليوم سوف يتحققن إلى أى مدى من الكمال بلغن .

ويدرك بعض النساء الآن أن حق الانتخاب ليس هو التحرير ، وأن الحرية ليست سياسية بل عقلية . فثمة ملايين من البنات اليقظات السعيدات يملأن حجرات الدراسة والعنابر والساحات المدرسية بالبشر والبهجة ، تلك الأماكن التى كانت وقفاً على المختالين من ورثة الكون . إننا نراهم فى آلاف الكليات وقد علا الجد وجوههن بما فى العالم من أدب وعلم ، وأعينهن تسطع بالشهوة إلى المعرفة ، وأجسامهن الرياضية تفيض بإحساس أكمل من الحياة . لعل جمالهن يعمى أبصارنا فنغالى فى الحكم على مرحهن الصاخب وطيشهن العميق . ولكن هلا سمعتهن يسألن المعلمين ؟ أراقبتهن وهن يمزقن النظريات إرباً إرباً ، ويصفن العالم من جديد بحيث يكون أدنى إلى رغبات قلوبهن ؟

ما مصير كل هذا التعليم ؟ أيتعاون مع حياة المرأة الحديثة المتوسعة ومع

آلاف التجارب الجديدة التى تصوغها صياغة جديدة فيها ذكاء قادراً على كفاح هذا العالم المتغير ؟ أيمزق هذا التنوع الجديد فى العقل والاهتمام وحدة الغريزة وحكمتها ، تلك الغريزة التى أحسنت خدمة المرأة قديماً فى حربها الأزلية مع الرجل العقلى المتردد ؟ أيزعج ذكاء المرأة الجديد طلاب الزواج ويخيفهم ، فيصعب على المرأة المتعلمة التوفيق إلى زوج ؟ مما يروى أن المواطن الرومانى كان يمتلىء رعباً من صورة الزوجة المتعلمة . وكذلك شأن كل رجل ، فهو لا يجد سعادة فى صحبة امرأة يكافىء عقلها عقله . إنه لا يحب إلا من هى أضعف منه ، كما أن المرأة لا تحب إلا من هو أقوى منها . من أجل ذلك كانت الفتاة ، التى تقوم ثقافتها على المعرفة والأفكار أكثر مما تقوم على السحر الطبيعى والمهارة شبه الواعية ، بعيدة عن مزية التوفيق إلى زوج . إنها تنتهك حرمة الميادين التى احتفظ بها الرجال قروناً عديدة لأنفسهم . ويدل الإحصاء على أن ستين فى المائة من المتخرجات فى الجامعة يبقين غير متزوجات [1] . وكانت سونيا كوفالفسكى العالمة الممتازة تشكو من أن أحداً لا يقبل على التزوج منها ، وفى ذلك تقول : « لم لا يستطيع أحد أن يحبنى ؟ إننى أستطيع أن أقدم أكثر مما تستطيعه معظم النساء ، ومع ذلك فإن أتفه النساء تحب ولا يحبنى أحد » [2] . الفتاة الذكية هى التى تخفى امتيازها العقلى حتى تبلغ سناً كبيرة .

لقد أثبتت المرأة إذن خلال خمسين عاماً أن الفوارق العقلية بين الجنسين ترجع إلى البيئة والمهنة أكثر مما ترجع إلى الطبيعة الثابتة . وهذا لا يدل على أن المرأة ستتغلب فى زمن قريب على العوائق العقلية التى أحاطها الزمن والعرف بها . فلم يكد تطورها الثقافى يبدأ ، وليس وراءها تقاليد وشدائد انحدرت مع الزمان ، ولا مثل كبيرة تلهمها الثقة أو تتخذها نماذج فى تطورها . ولم تتمتع المرأة المتوسطة بفرص التعليم إلا فى عصرنا الحاضر فقط ، وذلك على نطاق يكاد يقرب من المساواة بالرجل . وستظل نسبة الإناث إلى الذكور فى كليات الجامعة لعدة أجيال أقل من نسبة النساء إلى الرجال فى عدد السكان عندنا . وأكبر الظن أن

(١) Siegfried, A., America Comes of Age, p. 111.

(٢) in Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex. vol. VI, p. 141.

الحمل كذلك على ما هو عليه فى الوقت الحاضر من نسبة ضئيلة ، سوف يمتص شطراً كبيراً من طاقة المرأة . ولعلها تعتبره مرة أخرى مهمتها العظمى ، وتقنع بالتنازل عن مثل هذه الوظائف العرضية للرجال كالفن والأدب . وقد تكتشف أن ثمة فى هذا العالم أموراً أعظم من الألفاظ المكتوبة ، وأن ثمة بعض الفرق بين العاقل والذكى .

ماذا حدث فى أثناء ذلك لجسم المرأة الحديث ؟ هل أدى هجرها البيت وإقبالها على المصنع إلى فساد جسمانى ؟ من المحتمل جداً ، فهى لا تبدو فى قوة جدتها الريفية أو المنزلية ولا فى صحتها . إن لون بشرتها أقل نضارة ، ولا تستطيع أن تلد أطفالا دون شعور بالعجز والألم مما يجعل أى فتاة بدائية تنظر إليها باحتقار ، ولكن هذا صحيح بالنسبة إلينا جميعاً ، فالرجال كذلك فقدوا العافية منذ أن هجروا الحقول . حقاً العقل الحديث أكثر يقظة ، فهو يستعمل الآلات المعقدة والماكينات بثقة ثابتة وأمن نسبى . ولكن الجسم الحديث عاجز عن حمل الأثقال والمجهودات التى كان يحتملها كجزء من الروتين اليومى .

وعلى الرغم من جميع متاعب المرأة الحديثة فإنها لا تزال جميلة إلى الحد الذى يبهر الفلاسفة حين تخطر أمامهم . ولا يمكن أن نسر منها كثيراً لهذه الفنون الماكرة التى تحافظ بها على جاذبيتها المغرية إلى عمر كان يصل بنساء القرون الماضية إلى الشيخوخة . كانت المرأة إذا بلغت الأربعين عجوزاً متقاعدة وموضع السر . أما اليوم فلا خطر عليها من ذلك . حتى أحمر الشفاه والمطريات هى من هذا الوجه من محلوبات الفن والحضارة ويمكن أن تغتفر ، ولو أن اللون الطبيعى أبدع بديل عن الدهانات .

قد يكون هذا الوهن البديع وهذا الضعف الجسمانى فى المرأة الحديثة شيئاً عارضاً وسطحياً . ففى عالم يدور بقوة الكهرباء ستكون المصانع من النظافة كما كانت البيوت قديماً . وستنبسط المدن ويتنفس الناس الهواء الطلق مرة أخرى . ولعل الفتاة الحديثة مع رياضة المشى والتنس وكرة السلة تستعيد ذلك التورد الذى انتزعته الصناعة المدنية من خديها . ولقد تغلبنا على الملابس المشدودة المعوقة ، إذ تحرر جسم الفتاة المعاصرة من تلك المهمات المحترمة التى كانت إحدى معوقات

الحمل . فالسراويل القصيرة نعمة لجميع العالم ما عدا حائك الملابس . وضررها الوحيد هو فى ضمور خيال الرجال – وأكبر الظن أن المرأة لا جمال لها إذا فقد الرجال الخيال . جملة القول لقد أضافت المرأة الحديدة الشيء العظيم إلى ألوان الحياة الحديثة وتعددها ، إذ أصبحت أكثر حيوية وسعادة بدافع حريتها . قد يكون من العسير على بعضنا اعتياد الشعر القصير (ولو أن هذه البدعة قديمة) وتدخين النساء ، ولكن الجيل المقبل لن يحفل بهذه التغييرات السطحية . وأى شيء إذا أحسنت صنعه أيدى الحسان يبدو فى نظر الرجل العادى جذاباً . والعادة تكوّن الأخلاق ولها كذلك يد فى تكوين الجمال . فى سالف الأيام كانت العجائز تدخن (البيبة) ذات الرائحة الكريهة ولم يحفل العالم بهنّ . ولن يحفل العالم بعجائز اليوم حين يغازلن ، وتنفخ الشابات سحب التبغ فى وجه حبيبها . قد يكون التدخين مضراً كما يكون لذيذاً ، فإذا كان الرجال والنساء يؤثرون حياة قصيرة وممتعة ، فلهم فى ذلك الخيار . أواثقون نحن من أن المرح ليس أحكم من الحكمة ؟

وماذا نقول فى هذا « الهوس الاهتزازى delirium tremens » المسمى بالرقص الحديث . أهى المرأة التى اخترعته أم بعض العصبيين من الرجال ؟ أيمكن أن يثور أجدادنا ثورة خلقية كما نفعل اليوم ، حين كان (الفالس) الشهوانى يحل محل الرقص الدائرى pirouetting أيام الأرستقراطية (١) ؟ وماذا نقول أيضاً فى براعة السيدات النامية فى فنون السرقة والقتل والسياسة ؟ فى عام ١٩٢٦ كما تروى إحدى صحف (٢) بلتيمور المحترمة قائلة : « نقل شخص مجهول الشخصية إلى المستشفى فى حالة خطرة ، متألماً من إصابات شديدة يقال إن ثلاث فتيات اعتدين عليه فى غابة بالقرب من هيرلوك . كان الرجل ماشياً . . . حين مرت به الفتيات فى سيارة وعرض عليه الركوب معهن ، فقبل . وبعد ركوبه مسافة قصيرة أوقف الفتيات السيارة عند طريق منعزل . وفى خلال صحبة صاحبة بعد ذلك . . . غضبت إحدى الفتيات لقلة غيرته ، ونشبت معركة ، وكتفته

(١) Cf. De Musset, Confessions of a Child of the Century, p. 112.

(٢) Quoted in the American Mercury, March, 1926.

اثنتان منهن وأخذت الثالثة تطعنه بدبوس كبير . ثم هربت الفتيات بعد أن تركنه على الأرض عاجزاً .. ! » أيمكن بعد ذلك أن نشك فى تحرير المرأة ؟

ويبدو أن هكسلى كان على حق فى قوله : « فضيلة المرأة أعظم خرافة شعرية للرجل » . فنى النساء على الدوام هذه الشهوات ، ولكنهن يجتهدن فى إخفائها فى الزمن السابق لأنهن كن يعتقدن أن الرجال يؤثرون الحياء . أما اليوم فيبدو أن الرجال أسرع استجابة لعدم الاحتشام. وتميل الفتاة العصرية إلى الصراحة الجسمية والنفسية مما يفتن الحواس فتنة موقتة ، ولكنها قلّ أن تجتذب الروح . والرجل الناضج يطرب للتمنع ويحب فى المرأة الأدب الرقيق . ولا ريب فى أن الرجل حين يظل ناقص النمو ، منغمساً فى الفسق ، غافلا عن مباهج الصحبة البريئة والإخلاص ، غير شاعر بأى سحر ما عدا سحر الجسد ، فلا بد من اتخاذ وسائل شاذة لبعث اهتمامه واجتذابه إلى الزواج . فإذا أثمرت هذه الحرارة الملائمة زيجة شرعية فإنها سرعان ما تتحطم مع انطفاء شعلة الهوى بألفة الزواج . لقد كان شو مخطئاً إذ ليس الزواج غاية ما يكون من الإغراء مرتبطاً بغاية ما يكون من الفرصة ، لأن الفرصة باقية ولكن الإغراء سرعان ما يتناقص إلى أقل حد .

٤ — ربات بيوتنا

إن صورة فتاة الطبقة العاملة الحديثة ، مشغولة بالعمل فى العالم وممتلئة بالحيوية والحرية ، أمتع عند النظر إليها من صورة امرأة الطبقة الوسطى الحديثة المتزوجة ، المطمئنة إلى دخل ثابت ، والتى تحيا حياة تقوم على لعب البردج ، وبالشراء من المحال التجارية ، والاشتغال بالإصلاح الاجتماعى .

فلننظر إلى أنفسنا من خلال عين أجنبية . يقول الكونت كسرلنج [١] : « لقد أصبح الزوج فى أمريكا مستبداً به كما كانت الزوجة فى الشرق القديم ، مع ما يصحب ذلك من انتكاسات نفسانية تتزايد وضوحاً يوماً بعد يوم » .

---

(١) الكونت كسرلنج Keyserling (١٨٨٠ — ١٩٤٦) فيلسوف اجتماعى من أستونيا ، أنشأ فى مدينة دارمستات « مدرسة الحكمة » بعد قيام الثورة الروسية ومصادرة أملاكه . رحل إلى بلاد كثيرة واتصل بثقافات عدة حتى لقد سمى الفيلسوف المتجول (المترجم) .

ويضيف إلى ذلك أن نساء أمريكا أصبحن مسترجلات ضامرات الثدى حتى ليطبعن المرء بطابع من « البرودة والخشونة وانعدام الروح »[١] — ولو أنا نقول ماذا كان الكونت ينتظر فى أول زيارة ؟ وعلينا أن نسمح هنا ببعض الحذف لآراء مستمدة من ميراث أرستقراطية براندنبرج . ولكن القدر الباقى قد يكفى لأن يكشف لنا عن خضوع الرجال فى المستقبل ، وحاجتهم الواجبة إلى امرأة مثل سوزان أنتونى[٢] . ولا ريب أنه سيكون عندنا فى القريب المرأة المتعددة الأزواج وسيجمع النساء ذوات السلطان حريماً من الرجال العاملين يحرسهم خصيان من الإناث. وأكبر الظن أن سيكون لنا فى المستقبل ثلاثة أجناس كما هى الحال فى النمل والنحل . فبعض النساء يلدن الجنس ، وسيهب البعض الآخر نفسه هبة كاملة للنشاط الاقتصادى بحيث يفقدن أولا الرغبة فى الحمل ثم القدرة عليه . وليس فى التطور أى سبب يجعلنا نتوقع من المستقبل أن ينحصر فى الماضى .

كيف جاء هذا الانقلاب فى الأدوار ؟ أكبر الظن بسبب زوال سلطان التفوق الجسمانى[٣] . فقد قام خضوع النساء على أساس بسالة الرجال العضلية . كان الرجل هو السيد ، لأنه كان يستطيع أن يضربها فيطرحها أرضاً فى آخر الأمر (ولم يكن يؤجل هذا العمل طويلا) . وإلى الآن يستطيع الرجال أن يغلبن النساء ، وأصبح من المسائل الدقيقة فى الفلسفة تعليل إقلاع الرجال عن تلك العادة القديمة . ومن المحتمل أن تكون الحاسة الخلقية النامية فى الرجل قد جعلته يخجل من استعمال آخر حيلة . وكلما كان تحرر المرأة من الرغبة الجنسية أعظم ، كان موقفها موقف التى تعطى الرجل ما يطلب . ولكن وراء هذه الظاهرة الثانوية توجد الحقيقة الاقتصادية الأولية من أن تعقيد الأمور الحديثة الذى يستدعى ذكاء أكثر فأكثر ، ويتطلب قوة أقل فأقل ، قد ذهب بسمعة مجرد القوة العضلية ، وانتزع من رجل الطبقة المتوسطة تفوقه الوحيد على زوجته ، وأكسبها بعد ذلك تفوقها فى الدهاء والتشبث امتيازاً على خجله وحساسيته وتعبه .

---

(١) Europe, pp. 66-67.

(٢) Susan B. Anthony (١٨٢٠ — ١٩٠٦) زعيمة أمريكية مشهورة قادت حركة مطالبة المرأة بحق الانتخاب وغيرها من الحركات (المترجم) .

(٣) Mill, J.S., The Subjection of Women, p. 4.

أما حيث لا تزال سمعة قوة العضلات عالية كما هى الحال فى الطبقة العاملة ، فلا يزال الرجل رب البيت ، وتظفر المرأة ببقائها انتقاماً .

تأمل بعد ذلك المرأة العالة على غيرها ، تجد أنها بعد أن تحررت من العمل المنزلى بسبب هجرة الصناعة من البيت ، وبعد أن تحررت من الحمل بأساليب منع الحمل أو الممرضات والخدم ، قد تُركت بيدين ورأس وقلب كلها فارغة غير مستقرة ، وأرض خصبة لزرع غريب . ثم يمضى النمو الطبيعى فى طريقه ، فكلما كانت أفرغ من العمل أصبحت أشد كسلا ، وأقل رغبة فى أداء ما يتبقى من العمل الذى جعلها فى القديم رفيقاً معيناً لا دمية .

ولسنا نوجه فى هذا المقام أى سبة للمرأة التى تعمل فى البيت أو فى الورشة منتجة للحياة الإنسانية ، أو للبضائع الثمينة للإنسان . أما السبة إذا كانت تستحقها فللمرأة التى تتاجر بجمالها فى الزواج وفى غير الزواج ، والتى تسرف فى ترفها وزينتها إرضاء للشهوة ، والتى تنفق أيامها تظل تتأنق وتتعطرى تصفف شعرها وأخيراً تلبس ، وتمضى الليالى فى اللهو والغزل . ولست تجد فى سائر مناظر الحياة الحديثة المتنوعة أشد إساءة من هذه النساء المسرفات فى الفراغ . وليس لهن إلا قليل من الأطفال أو بغير ولد ، ومع ذلك يحتجن إلى كثير من الخدم ؛ وليست لهن وظيفة ولا تفرغ لهن حاجة . إنهن يتقن فن عمل لا شىء بألف أسلوب . ونتيجة هذا كله دفع الرجل إلى التهالك العصبى على العمل ، وإلى الشعور بمرارة أن أهميته ليست إلا مجرد كاتب حسابات .

وإذا كانت المرأة اليوم تنتظر بما لم يعهد من قبل أن يعرض عليها الزواج ، فذلك يرجع إلى حد كبير إلى غلطة هذه الطبقة التافهة . لأن مثل تلك المرأة لا تقدم إلى الرجل إلا اليسير جداً ، حتى لقد يجد فى تنويع العلاقات والارتباط فيها بمدة قصيرة أمناً عن الزواج . وفى ظل هذه الظروف لا يبدو الزواج فى نظر الأعزب البصير تحقيقاً لغاية الرجل الناضج ، بل تسليما متحضراً بعد فترة طويلة لأمر عزيز على الطبيعة فى عالم الحشرات ، حيث نجد الأنثى كما رأينا تلتهم الذكر بشكل ليس له مثيل على حين يكون مستغرقاً فى شباك الغرام . فلا غرابة أن يتراجع

الرجال أمام فكرة القيد الذهبي للزواج ، وهم يرون عجز هذه السيدات التام اللاتى زايلهن الشباب . وهكذا تبدد ملايين النساء حياتهن فى العزلة لأن ملايين الزوجات بعد اصطياد فريستها يلتهمنها علانية ، فتنسحب كل نفس مطلوبة فى عزلة ثقافية . وهنا نجد بشاعة عصرنا المنافية للأخلاق لا فى الشعر المقصوص أو السروال القصير للفتاة النشيطة .

إنا لنأمل أن تكون هذه الصعوبات مجرد فترة انتقال ، وأن تكون فوضى العقل والأخلاق والسياسة والفن مرحلة مظلمة بين نظام آخذ فى الزوال ، ونظام آخر يبرز بطيئاً ، لا من مراثينا وحججنا ، بل من تلمس التوفيق بين الدوافع الإنسانية وبين الظروف الجديدة الصناعية لعصرنا الدنيوى والمدنى والصناعى . وقد يكون طول فترة البلوغ الذى أخر الزواج وبدل الأخلاق دليلا ماكراً على مستوى أرقى سوف يبلغه الرجل فى القريب ، لأن طول مرحلة البلوغ فى تاريخ الإنسانية وما يتبعه من تعليم وتدريب كان أحد الدوافع العظيمة إلى تقدم الجنس. وأكبر الظن أننا لا نشهد نهاية الحضارة كما يفترض بعض علماء الأخلاق ، فنحن الشعب الشاذ اللاأخلاقى أقلية صغيرة ، قد تكون مريضة وعصبية ، ومصيرها إلى الزوال مع العقم . وسوف تظل الكتلة العظيمة من الشعب البسيط من حولنا تتزوج وتتناسل حتى يرث أبناؤها الأرض . وثمة ألف سبب وسبب يجعلنا نعتقد أنها سوف تمضى بالعالم قدماً إلى أن يرفعها النظام الجديد ، والاستقرار الجديد فى السلوك والفكر البشرية ، ويقيمها فى المستوى الأعلى الذى قد تقودنا إليه تجاربنا العمياء .

الفصل العاشر

انهيار الزواج

وبذلك نصل إلى الزواج .

وأكبر الظن أن برنارد شو هو القائل إن الزواج هو الموضوع الذى دار حوله الكلام الفارغ أكثر من أى موضوع آخر فى العالم . ومن البساطة أن يستغفل المرء فى الحديث عن الزواج كما يستغفل فى الزواج نفسه ، وعذره فى الأولى أقل . وعندما نحاول البحث فى هذه المشكلة يدرك المفكر الخالص أن الأفكار ليس لها إلا أثر متواضع (Modest — ولو أن هذه اللفظة ليست المقصودة تماماً) فى العلاقات الجنسية . وأن التغييرات الاقتصادية تتغلب على الفلسفات والأخلاق . وأن أفضل ما يمكن أن يفعله الفكر هو تحليل هذه التغييرات ، والتنبؤ بنموها ونتيجتها ، والتماس شىء من التوافق البصير فى السلوك قد يحمى الفرد والنوع . وفى مثل هذه الأمور لا خير فى الوعظ ، والفهم أعون .

لقد عميت أبصارنا فى غمار حروبنا وآلامنا عن هذا الأمر الواقع وهو أن حقيقة الحياة الأساسية ليست فى السياسة ولا فى الصناعة بل فى العلاقات الإنسانية ، أى فى ارتباط الرجل بالمرأة ، والآباء بالأبناء . وتدور الحياة كلها حول هذين المحورين من المحبة ، حب الزوج ، وحب الأم . تأمل قصة العشيقة الثائرة التى حين دفن عاشقها (الذى قتل فى ثورة موسكو فى ديسمبر ١٩١٧) فى « الجنازة الحمراء Red Funeral » ، قفزت إلى القبر واحتضنت التابوت الذى يضم جثته صائحة : « ادفنونى أيضاً ، فماذا يهمنى الآن من الثورة بعد أن مات » . قد تكون واهمة فى الاعتقاد أنه فذ بين الرجال لا يمكن تعويضه — ونحن نشبهها إلى حد أن قلوبنا وعهودنا المحطمة هى كذلك غير معقولة . ولكنها علمت بحكمة موروثة فى دماء المرأة أن هذه الثورة الهائلة شىء تافه عابر

بالإضافة إلى هذا النهر من الزواج والأبوة والموت، وهو التيار الأساسى للحياة الإنسانية . لقد فهمت – ولو أنها لم تجد الألفاظ المعبرة – أن الأسرة أعظم من الدولة، وأن الإخلاص واليأس أعمق فى القلب من السعى الاقتصادى ، وأن سعادتنا فى آخر الأمر ليست فى المال أو المنزلة أو السلطان ، بل فى تبادل المحبة .

١ – تطور الزواج

ما معنى الزواج ؟ لعلنا إذا استطعنا كشف الغطاء عن أصله أن نحسن التحقق من معناه .

تصور نجمة البحر ، وهى من أدنى الحيــوانات ، تبسط زعانفها rays أو أذرعها فوق بيضها الملقح وصغارها التى فقست . إنها بداية إحدى الظواهر الأساسية فى الطبيعة . . . عناية الأبوة . ففى عالم النبات والحيوان بوجه عام يحفظ النوع لا بهموم الأمومة بل بالتناسل المسرف الضائع ؛ فالزهرة يجب أن تملأ الجو باللقاح ، وأن تفتن بعض الحشرات تتخذها رسلا إلى الزوج الذى لن تراه. ومن المعروف أن القوقعة الصغيرة ذات الدم الأحمر المسماة Haematococcus تحيل منطقة شديدة البياض إلى قرمزية بنشاطها التناسلى فى ليلة واحدة . والمحارة Oyster التى تشبه فى نسلها الزهور البرية May flower ، تضع ملايين البيض ، ثم تتركها بلا اكتراث لمصيرها فينمو قليل منها ، ولكن معظمها يتخذ طعاماً أو يضيع كأنه مجرد نفاية .

وقد اكتشفت الطبيعة ببطء ، كما رأينا ، عناية الأبوة ونمتها بديلا عن هذا الإسراف الطائش . فمن أدنى الفقريات إلى أرقى فصائل الإنسان يتناقص حجم البطن أو الفقسة أو الأسرة ، وتزداد عناية الوالدية مع كل مرحلة من النمو فى الجنس والنوع والفصل والأمة والطبقة والفرد . وظهر الزواج لا لإباحة الصلة الجنسية بل لتحسين نوع الحياة بربط الزوجين برباط دائم للعناية بالذرية التى يلدونها .

وليس الزواج ظاهرة تعد وقفاً على الإنسان ، فبعض أنواع الطير وحيدة الزوج أكثر منه . وكتب دى كرسبينى De Crespigny عن إنسان الغاب

المسمى أورنغوتان orang-utangs فى بورنيو يقول : « إنهم يعيشون فى أسر ، ويبنون أعشاشاً مناسبة فى الشجر ، ولا يشغل العش بمقدار ما أمكننى ملاحظته إلا بالأنثى والصغار — أما الذكر فيمضى الليل على فرع الشجرة نفسها أو المجاورة لها » . ويصف وسترمارك الغوريلا بأنها « تعيش فى أسرة ، ويقوم الأب ببناء العش وحماية الأسرة . وهذه هى الحال أيضاً فى الشمبانزى » . ويقول سافدج Savage « ليس من الغريب أن ترى (الزوجين العجوزين) فى أسرة الغوريلا يجلسان تحت شجرة يتسليان بأكل الفاكهة وود الحديث على حين يقفز صغارهما من حولهما ويتأرجحون من فرع شجرة إلى فرع آخر فى مرح صاخب » (١) .

ثم يستأصل الانتخاب الطبيعى بالتدريج تلك الأنواع التى لا تعنى إلا قليلا بذريتها ، وينمى فيمن يبقى تلك الغريزة الخاصة بالعناية الأبوية التى ترفع شيئاً فشيئاً الفرد والجنس . ومن المعروف عن أمهات القردة أنها تموت حزناً لموت صغارها . وهناك نوع من القردة تحمل الأم رضيعها تحتضنه بذراع واحدة بغير انقطاع أشهراً عدة (٢) أما فى الإنسان فإن هذا الدافع يكاد يصبح هو الشهوة المتحكمة الأقوى حتى من الصلة الجنسية . وما حب المرأة لزوجها إلى جانب حبها أطفالها ؟ ومن أمهات الأجناس المتوحشة من ترضع أبناءها فى بعض الأحيان اثنى عشر عاماً . وليس من النادر فى بعض القبائل مثل نيوهبريدز New Hebrides أن تقتل المرأة نفسها للعناية بابنها الذى مات ودفن فى القبر (٣) . حقاً لن تجد فى العالم إلا القليل أعجب فى تاريخ البشرية من هذا التحول الذى يكاد يكون كاملا لحب المرأة ذاتها إلى حبها طفلها .

ونشأ جنباً إلى جنب هذا الدافع القوى للحماية الأبوية نظام سائد حاكم هو الأسرة . ويرجع الأصل فى وجود الأسرة إلى عجز الطفل غير

---

(١) Westermark, E., History of Human Marriage, p. 14.

(٢) McDougall. W.M, Social Psychology, p. 70.

(٣) Kropotkin, Prince, Mutual Aid, pp. 89,101.

كروبتكين (١٨٤٢ – ١٩٢١) جغرافى وفيلسوف اجتماعى روسى ، عاش فى انجلترا وروسيا ، وزار أمريكا سنة ١٩٠٠ (المترجم) .

القادر ، وإلى قابليته المتزايدة للنمو والتدريب بعد الولادة . والتطور فى الحيوانات بيولوجى قبل كل شىء ، فهو يختص بنمو أعضاء جديدة . أما التطور فى الإنسان فهو اجتماعى ، يختص بالانتقال المتزايد لميراث من الصناعة (تكنولوجيا) والثقافة يتجمع وينحدر من جيل إلى جيل . لقد خلقت الطبيعة الأسرة لتربط الذكر إلى خدمة الأنثى التى قيدتها الطبيعة لخدمة الطفل . والرجال بالطبيعة عبيد للنساء ، والنساء بالطبيعة عبيد للأطفال والجنس . وفى هذه العبودية الطبيعية أعظم سر لكيانهم ، وأكثره دواماً .

فلنفهم إذن الزواج لا على أنه صلة بين رجل وامرأة صلة تهدف إلى أن تجعل الشهوة شرعية ، بل على أنه صلة بين الآباء والأبناء الغرض منها حفظ الجنس وشد أزره . ولوكان الزواج أمراً شخصياً لاأمراً يختص بالجنس ، ما كان أول ما تعنى به التقاليد والشرائع الإنسانية . ولأمر ما عنيت الدول هذه العناية بتشريع الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة وأسرفت هذا الإسراف فى تنظيمها ؟ ولماذا كل هذا الجهاز من وثائق الزواج ، وأفراح العرس ، ومحاكم الطلاق ، والنصائح والتحريمات الأخلاقية ، إذا لم يكن ذلك بسبب أن الزواج أعظم أساس لجميع النظم ، وهو الذى يصون مجرى الحياة الإنسانية ويسد نقصه ؟ ومن الواضح ، والله يعلم ، أن الزواج لم يقصد أبداً إلى سعادة الزوجين بل إلى الألفة وتربية الأطفال (١) . وكان متوسط الانتفاع بالحياة الإنسانية فى سالف الزمان من القصر بحيث يظهر أن أحداً لم يكن يعنى بالفرد . ولم يبحث الفرد إذا كانت سعادته الخاصة فى الزواج أولى من استمرار الجنس ورفعه إلا بإطالة الحياة الحديثة ، وإشراف الإنسانية (البضاعة الوحيدة التى لا تخضع للعرض والطلب) ، واقتصار الأبوة على مظهر أكثر من مجرد القناعة بالزواج . حتى إذا ساد « عصر الفرد » ارتفعت الثورة على الزواج إلى هذا الطوفان الحاضر العسير على المقاومة .

وجاء تطور الزواج عقب اتساع مصالح النوع . وإذا رجعنا إلى فجر

---

(١) Cf. Shelley: "A system could not well have been devised more studiously hostile to human hapiness than marriage". — notes to Queen Mab.

التاريخ وجدنا أن حرية الفرد فى اختيار الزوجة كان مقيداً تقييداً شديداً بالحاجة الاجتماعية . ويبدو أن أول المحارم الجنسية كانت تهدف إلى منع الاتصال الجنسى بين الآباء والأبناء ، ثم بين الإخوة والأخوات . وانتشر التحريم بالتدريج حتى وصل إلى حد الزواج من خارج العشيرة exogamy الذى يمنع بناء الرجل بالمرأة من قبيلته نفسها . وكان علماء الاجتماع الأوائل مثل لويس مورجان يميلون إلى إرجاع هذه القيود إلى تصور عقل البدائى مساوىء العقم . أما المتأخرون من الباحثين مثل وسترمارك وإليس فيعزون هذا الأمر فى شىء من التهكم إلى الاستخفاف الذى ينشـأ عن الألفة ، ولكن هـذا لا يفسر مغالاة عجز أجدادنا المتوحشين عن جمع كل زوجين معاً ، وإنشاء نظامهم الخاص بالمجتمع . وأكبر الظن أن مصلحة الجنس كانت فى أذهانهم حين قيدوا الفرد .

وتطور الزواج مع تغير العلاقات الاقتصادية . ففى مرحلة الصيد كان الرجل ، وهو صياد ذو بأس يجيزه رئيس القبيلة ، يصطحب عصاه وقد يتخذ صاحباً ويتسلل إلى قبيلة أخرى ، ويختطف فتاة جميلة من خيمتها ، ويحملها بعيداً على طريقـة الاغتصاب السابانى[1] Sabine . ثم تحسنت الأخلاق مع نمو الثروة وانتشار السلام ، ولم يعد الرجل يحمل العصا ، بل هدية ثمينة ، أو عرضاً بالخدمة الطويلة المدى ، يتقدم به إلى والد الفتاة التى يرغب فيها . وبذلك حل الزواج بالشراء محل الزواج بالسبى . واليوم يعد نظام الزواج مزيجاً غريباً من السبى والشراء .

كانت الحرب فى ذلك الزمن القديم كثيرة الوقوع وكانت المخاطر متعددة. وكان الذكر يصاب بالموت بأسرع مما تصاب به الأنثى ، فحاول الباقون من الرجال أن يحلوا المشكلة باتخاذ عدة زوجات لحماية النساء اللاتى يزيد عددهن عن الرجال زيادة كبيرة . ولما كان النساء يرضعن أطفالهن عدة سنين ، ويمتنعن عن الصلة الجنسية حتى فطام الطفل ، فقد رأى الرجل أن راحته تقتضى اتخاذ عدة زوجات لتلبية مطالبه المستمرة . هذا فضلا عن أن تعدد الزوجات يفضى

(١) قبائل قديمة كانت تعيش فى إيطاليا . (المترجم)

إلى كثرة النسل أكثر من الاقتصار على زوجة واحدة . يضاف إلى ذلك أن وفرة الذرية كانت نعمة لقوم مهددين على الدوام بالحوادث والأمراض والحروب .

فلما قلّت الحروب ، وأصبحت الحياة والموت أكثر أمناً ، تناقصت نسبة النساء العددية المتفوقة ، وظهر نظام الزواج من واحدة ، فكان مزية للأطفال الذين يتلقون عناية موحدة ، وحباً مركزاً ، وطعاماً أكثر وفرة لقلة عدد الطاعمين . وكان ذلك النظام مزية للرجل إذ يسر له تركيز إرثه فى أسرة بدلا من تشتيت ثروته ، كما شتت نطفته فى عشيرة من الذرية . ورأى نفسه لا يزال حراً ليشبع شهواته الحمراء سراً ، على حين يستطيع أن يصون إخلاص زوجته بجميع ألوان الحماية من العرف والسلطان ، فيؤمن بذلك انتقال أملاكه إلى أبناء أكبر الظن أنهم من صلبه . وفوق هذا كله ، وعلى الرغم من هذا المستوى المزدوج (المتغلغل فى نظام الميراث) فالاقتصار على زوجة واحدة كان منفعة للمرأة ، لأنه حل جانباً من مشكلة الغيرة التى لا بد أنها كانت تجعل من تعدد الزوجات مارستاناً . على أقل تقدير منح هذا النظام المرأة ضرباً من المساواة البيولوجية بالرجل ، ويسر لها أن تتحرك من هذا المستوى المتواضع وترفع العالم .

أما الباقى من تاريخ الزواج فكان صراعاً بين المرأة والملك ، بين الثروة والزواج . وكان المفروض أن المرأة مع نمو الثروة يجب أن تسيطر بلا منازعة على اختيار الزوج وحكمه ، وأن خضوع المرأة كنظام لإنجاب الذرية ، وبديل اقتصادى عن العبودية ، كل ذلك يصبح ثابتاً لا يمكن استئصاله من العادات والجنس . ولكن الأمر كان على العكس ، لأن الثروة أدت إلى التعليم ، وهذب التعليم شهوة الرجل المتوحشة ، وبعد قرون من التطور حل الهوى العذرى على نطاق واسع محل شهوة الجسد للجسد .

وظل زواج الاستمتاع قائماً ، وفى كثير من الدول كان الآباء لا يزالون يزوجون بناتهم لأحد الأثرياء لأنهم يتوقعون أن يصبح من أصحاب الملايين . ولكن فى انجلترا وأمريكا ، وهنا وهناك فى كل أمة ، انهارت الملكية ، وانتصر أنصار زواج الحب ، وشيئاً فشيئاً إذا بالمرأة التى جعلتها شراسة الرجل رقيقة ، تهذب برقتها شراسته . وشيئاً فشيئاً رفعته بحنانها وتضحيتها بالحمل من حاله التى

يقرب فيها من الحيوان ، وعلمته أن يرى وينشد فيها بعض الصفات ليست من الحسية والجسمانية كتلك التي كانت تجذبه إلى أحضانها . ثم أقامت الحضارة بالتدريج فوق هذا الأساس الطبيعي بناء واهياً وثميناً من الحب الشعري .

لقد درسنا في مكان آخر النمو الملحوظ الرائع للحب الروحي منذ أناشيد المغنين في العصر الوسيط ، إلى العاطفة الخارقة في قصة كلاريسا هارلو (١) وهلويز الجديدة (٢) ، ثم إلى القصص التي كتبت في القرن التاسع عشر لإشباع النزعة الرومانتيكية السائدة . من يستطيع أن يقول : إلى أي حد طهر هـذا الفيض من القصص بعض المظاهر الخشنة للحب الحديث ، مصورة ابتداءً حقيقة اشتياق الروح للروح الذي لعله كان في أول الأمر الوهم الذي يعزى العذارى وقد تقدمت بهن السن والرجال الخياليين ؟ لا ريب أن الحب الرومانتيكي أصبح حقيقياً ، فقد أقبل الشباب عند البلوغ على الأغاني والأناشيد الغرامية مخلصين ، وركع الرجال أمام النساء ، وانحنوا يقبلون أيديهن ، وأحبوهن لشيء أسمى من نعومة الجسد . كانوا يتبارزون للظفر بابتسامة ، وابتدعوا الآداب في غمرة من نشوة الإخلاص . ثم وضعوا بالتدريج كل ثروتهم التي كانوا يفخرون بها تحت أقدام مخلوقات تافهة ليس لها من قوة عليهم إلا بطريق الجمال والرياء . وحين انقلبت الرغبة في كثير من القلوب إخلاصاً لا امتلاكاً ، وقدم الرجل خاطباً ود المرأة بولاء شديد ، ثقته بها بكل سبيل حتى الموت ، بلغ الزواج أوج تطوره الطويل ، وغاية رقيه البطيء من الوحشية إلى الحب . أكبر الظن أننا لن نعرفه في جميع كمالاته بعد الآن .

٢ — انحلال الزواج

لما كان اليوم هو عصر الآلة ، فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قلّ أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي . وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم

---

(١) قصة لصمويل وتشارسون كتبها عام ١٧٤٧ ، عبارة عن رسائل كتبتها كلاريسا لصديقتها تفصح فيها عن صدوف قلبها عن الزوج الذي يريده أبواها ، وتنتهي القصة بموتها كمداً . (المترجم) .

(٢) قصة كتبها جان جاك روسو تدور حول زوجة ضيق عليها حبيبها السابق الخناق. (المترجم)

أمناً مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة مما يجعل الخطر جاثماً كل لحظة . أما الشباب الذى أصبح أكثر إقداماً وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت سنوات) ، ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفى للزواج ؛ ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة ، فيحتفل الزواج بموت الحب .

حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية . فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً فى مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

وأخيراً تجد الرفيق الذى يطلب يدها للزواج ، ويعقد عليها لا فى كنيسة ، لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقى الذى ظل جاثماً على إيمانهما المهجور أثر فى قلبهما . إنهما يتزوجان فى قبو المكتب البلدى (الذى يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة لهما الحرية فى أى وقت فى التحلل منه . فلا مراسم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة فى الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ، ويتوجهان إلى البيت فى صخب .

إنه ليس بيتاً ، فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهم الزهور والخضراوات التى يشعرون بأنها أبهى وأحلى لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلا

كأنهما فى زنزانة سجن ، فى حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلا ، ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذى كان يتخذ مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً ، بل مجرد شيء مادى فيه من الجفاف والبرودة ما تجده فى مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الزرع النضر بل سيلا من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح فى السماء أو أى ألوان على أوراق الشجر ، بل المتاعب والذكريات الحزينة فقط .

وتصاب المرأة بخيبة أمل ، فهى لا تجد فى هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل فى الليل والنهار ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تهجره فى كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول فى أنحاء هذا البيت يعزى شعوره ببنائه وإصلاحه ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التى كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبهاً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التى كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد فى هذا البيت، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للأطفال ، وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة فى المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب ، فيعتزمان على منع النسل ... إلى أن يقع بينهما الطلاق .

ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .

وإذا كانا بغير أطفال فإنهما يلتمسان ألف سبب وسبب للشقاق . وتصبح لفظة « عزيزى » التى كانت تهز مشاعرهما عند سماعها ، أشيع لفظة فى اللغة ، يسيرة ولا معنى لها . وتحزن المرأة على أيام الرقة السابقة ، فتهمل لذلك وهى فى البيت العناية بجسمها وملبسها وحركاتها وحديثها مما كان سبباً فى اجتذاب الرجل نحوها ، لأنه وجد فيها شيئاً أبهى وأسمى منه . وإذا كان بينهما شىء من عدم التوافق الجنسى أصبح ذلك حاجزاً منيعاً ، لأنهما ينظران إلى الزواج على أنه مجرد صلة جنسية . وإذا كانا فقيرين أسف الرجل على الأثقال التى يحملها ، وشغفت المرأة بالبرنس أوف ويلز . وإذا كانا غنيين تنازعت فيهما شيوعية الحب والزواج وفردية الجشع والخوف . وتنشب المنازعات على المال عندما تهبط حرارة الحب . وإذا كانا عصريين عبثا على هواهما على قدم المساواة ، وينشب بينهما صراع ينتهى بسيطرة أحدهما . وإذا كانت المرأة تتكسب استنكرت عبوديتها المستمرة . وإذا كانت عاطلة ، يثقل الزمن عليها حتى تجد لها عملا . كانا يظنان أن ليس فى استطاعتهما إنجاب طفل ، ثم يكتشفان — كما قال بلزاك — «أن الرذيلة أقل نفقة من الأسرة » . إذا كان لأحدهما أصدقاء غار الآخر منهم ، وإذا كانا بغير أصدقاء انطويا على نفسيهما فى عزلة لا سبيل إلى الفرار منها ، وتجرى فيها الحياة على نمط واحد لا يحتمل . ثم تختفى فيهما الحرية اللازمة للشخصية أمام أهواء التملك وحب الاستطلاع . ولا تجد النفس لها ملاذاً تسكن إليه فى عزلة وسلام . ويصبح الحب الذى كان على الدوام مطاردة وقنصاً ، حرباً ، وليست فترة أحضان الليل إلا هدنة مؤقتة .

وفى أثناء ذلك تتبدد عن عيونهما غشاوة الوهم ، ويكتشف الرجل والمرأة على حد سواء أن شعلة الحب لم تحترق قبل كل شىء لمتعتهما بل لاستمرار الجنس. وترى المرأة نفسها قد تحولت من إلاهة إلى طاهية — اللهم إلا إذا وقعت على زوج رقيق يجعل الطاهية إلاهة . وتشعر برغبات الرجل فى التنويع ، فتأخذ فى مراقبته تأكلها نار الغيرة ، لأنها تعلم أنها لا تستطيع أن تثق فيه أكثر من ذلك . فهى تلاحظ أن عنايته بها أقل وتصدر عن تفكير ، وأنه يتصل بها ، إذا فعل ذلك ،

صلة عادة وهو شارد الذهن . ويفقد الزوج الخيال الذى يرى من خلاله زوجته كما يراها الأجنبى ، أو الذى يرى من خلاله زوجة الأجنبى كما تبدو فى الساعة التاسعة صباح اليوم التالى . وفى جميع تفكيره (وفى تفكيرها) يؤدى البعد إلى فتنة النظر ، ويحملان الجديد على محمل الجميل . فإذا أضفت إلى جانب الزوجة التعطل والعقم تجدها قد شرعت هى أيضاً فى الاشتياق إلى وجه جديد أو منظر جديد يعيد إلى نفسها مباهج الرغبة . حقاً لا يفكر أحدهما فى الزنا ، كل ما فى الأمر أنهما يتوقان إلى « الحياة » . وفجأة تنتصر الحواس على الحكمة ، ويتسلل عنهما الإخلاص ، ويدب إليهما الشك على قدمين غادرتين ، وتنتهى ثورة الغضب الأخيرة عند انكشاف الأمر بتبسيط موقف كان من التعقيد بحيث لا تتيسر معه حياة التصنع والسيطرة .

وهكذا ينتهى الأمر بالطلاق . انظر إليهما أولا فى ساحة المحكمة الشرعية ينتظران فى حزن انتهاء مآس أخرى ، ثم استمع إلى مغالاة كل منهما فى بيان قساوة صاحبه بألفاظ نابية تقذف فى وجوه كانت معززة بالأشواق . قد يوفق بينهما ، ولكن إلى حين . إن كلا منهما يبغض الآن صاحبه بغض أولئك الذين يذكرون وعود الغرام . ثم لا يلبثان أن يستعيد كل منهما حريته ، كالصحراء الحرة ، وقد يعودان إلى التجربة بعد الطلاق ، ولكن الظروف لا تزال كما كانت من قبل ، فكيف يمكن أن تتغير النهاية ؟

وسنة بعد أخرى يتأخر الزواج ويتقدم الطلاق ، ولا يجد الإخلاص إلا قلة بسيطة من الناس يمجدونه . وبعد زمن قليل لن تجد رجلا يهبط إلى سفح الحياة مع امرأة تسلق معها قمة الحياة ، وسيكون الزواج نادراً كالعذراء ليلة الزفاف . ومع ذلك فالمطلقات لسن إلا عدداً قليلا من التعيسات فى الزواج . لن نتحرى كم يطول بهم الزمن دون انفصال ، ولكننا لا نجرؤ على السؤال . فكم سئل متزوجون وأنكروا . لا تبحث فى قلوب غيرك ، فلن يخبرك أحد عما يمكن أن تطلبه . إنهم يخشون العار ويعدلون عن الطلاق ، ويستبدلون الاستخفاف بالحب ، والخداع بالإخلاص . لعله من الأفضل أن يتفرق كذلك شملهم ، وأن يقف إخفاق الزواج عارياً مزعجاً أمام الأبصار ، يتحدى كل

حاكم يفكر فى مستقبل الأجيال ، وكل محب يحترم الحب إلى الحد الذى غب فيه ألا يموت سريعاً .

٣ — إعادة بناء الزواج

الوصف سهل ، والعلاج صعب . فماذا يمكن أن نقوله ولم يقل ألف مرة ومرة من قبل ؟ أى دواء ننصح به ولم يجرب ووجد ناقصاً ؟ أى نصيحة نتقدم بها لا تؤذى الجراح التى نريد أن نأسوها ؟

لعلنا نهجر المشكلة ونقول مع قول قدماء المسيحيين : سد جميع أبواب الهرب ، وسينسى المحابيس أنهم فى السجن . فإذا كان الغرض من الزواج إنجاب الأطفال وبقاء النوع لا متعة الأفراد والأزواج ، فيجب لمصلحة الأبناء أن يكون الزواج أبدياً ، فلا يفصل العبد ما ربطه الرب . وبعد فالفرق بين امرأة وأخرى ضئيل جداً ، وإذا كنا نجد صعوبة مع هذه الزوجة فسنجد صعوبات مماثلة مع غيرها . الحق أن الرجل لم يخلق للسعادة بل ولد للشقاء ، فليتزوج وليعش فى سلام .

ولكن أنسمى العهود التى قطعها الشباب الغرير أبدية ؟ أنربط بين روحين معاً طول الحياة مع أن حبهما قد انقلب بغضاً ؟ نحن بين أمرين أحلاهما مر : غواية الشيطان ، والغرق إلى الأذقان.أما الآن وقد أصبح عدد الأطفال أقل ، ولا ينتهى دور الأبوين بمجرد ولادة الذرية أو نضجهم كما رتبت الطبيعة المسرفة فى عالم الحياة الأدنى ، فلا بد أن ننظر إلى الزوجين بعين الاعتبار . ومن المضحك أن نخضع حياة تبلغ سبعين عاماً لاعتبارات نشأت حين كان النساء يلدن الأطفال بالجملة ، ويذوى جمالهن فى الخامسة والأربعين . إن رقى الجنس فى الكيف يتوقف على تقليل التضحية المطلوبة من أفراده . وليس الجنس أعظم من الفرد إلا لأنه ينتج عدداً أكبر من الأفراد . وفيما عدا ذلك ليس الجنس إلا اسماً وتجريداً ، وبذلك تتصل نظرية الزواج فى العصر الوسيط بمذاهب الاسميين nominalists فى تلك الأيام وقبلها .

وقد نشأت عن عصرنا الفردى نظرية معارضة لها أكثر طرافة وتطرفا .

أتدرى ما اسمها الجذاب ؟ « الزواج الحر Free Love » . فما دامت العهود تقطع ثم تنكث ، فأى حاجة إلى أخذ العهد على الإطلاق ؟ وما دامت الزيجات لا تلبث أن تعقد حتى تحل فلماذا نشغل آلاف المحاكم بالملايين من عقود الزواج ووثائق الطلاق ؟ وإذا كان الحب أفضل دافع إلى الزواج ، فموته سبب كاف للطلاق . وكيف يمكن أن يكون الحب حقيقياً إذا لم يكن حراً ؟ دع المحبين يرتبطون بإخلاصهم وشرفهم فقط . حتى إذا ذوى الحب فليبحثوا دون عائق عن رفقاء آخرين ، وليجددوا حبهم وشبابهم .

ويزيد أنصار هذا الحل لمشكلة الزواج كل عام . وقد جاء فى تقرير القاضى لندساى أن عقود الزواج نقصت عام ١٩٢٢ عن عام ١٩٢١ بمقدار ٢٥ فى المائة ، وعلل هذا النقص بانتشار الزيجات الحرة . وقد يمكن أن يؤدى هذا الارتباط الحر إلى مخرج بديع من الشرائع الجارية عندنا لولا استمرار اعتماد المرأة اقتصادياً على الرجل واعتمادهانفسانياً عليه قبل أن يربطه الزواج بأهوائها . ذلك أن العجز أيام الحيض ، واحتمال الحمل ، يقللان من مقدرة المرأة على الكسب . وإلى أن تتمكن المرأة من تأمين مسكنها وحماية نفسها حماية مستمرة إزاء المخاطر التى تواجهها فإن مزية الزواج « الحر » تبقى كلها فى جانب الرجل . وفى الوقت الحاضر – ولو أن هذا الشعور أصبح فى الميزان ، ويتجه إلى الضعف يوماً بعد يوم – تنقص المرأة فى عين الرجل إذا استسلمت له . والرجل محارب ، أو يجب أن يرى نفسه كذلك ، ويلذ له على الأقل أن يجد مظهراً للمقاومة يعظم به انتصاره ، حتى إذا بلغ غاية الظفر فتش عن ميادين أخرى ينتصر فيها . ويحب الرجل فى الوقت الحاضر – وهذا أيضاً عرضة للتغيير – أن يعتقد أن المرأة التى يختارها زوجته الدائمة لم يسبق لها التعلق برجل آخر . إنه على أتم استعداد للموافقة على ارتباط مؤقت مع امرأة مجربة ، ولكن قل أن يرغب فيها زوجة شرعية . إنه يفعل كما لو كان يوافق على حكم فاينبجر القاسى ، إن المرأة إما أن تكون أماً أو عاهراً ، وكأنه يرتاب فى عودة المرأة التى أحبت جيرانها كنفسها إلى الإباحية أول ما تزول جدة الزواج أو أثقال الحمل . ولا يفكر الرجل أبداً فى تطبيق هذا الفحص أو الحكم على نفسه . إنه يفترض فى نفسه القدرة على الانتقال من

التنويع إلى الاقتصار على واحدة دون أى شبهة فى الانحراف عن الإخلاص الزوجى . الواقع أن ما يحركه ليس العقل بل حب التملك ، وترتد مشاعره إلى عادة الزواج بالشراء تلك العادة القديمة التى تكاد تكون عامة . فهو يشترى شيئاً من السوق ، ولا يود أن يدفع ثمناً غالياً لبضاعة مستعملة . إنه يظن المرأة هى المقصودة بالوصية العاشرة من الوصايا العشر (١) .

وكل ذلك مصيره إلى التغيير . وأكبر الظن أنه حين يكمل استقلال المرأة الاقتصادى ، وتفصل وسائل منع الحمل تمام الفصل بين الصلة الجنسية والأبوة ، سيطبق الرجال على النساء نفس المستوى المتساهل الذى يحكمون به على أنفسهم ، وتزول قوانيننا الأخلاقية القديمة تمام الزوال . ولكن المرأة فى أثناء فترة الانتقال الطويلة ستقاسى من أنانية الرجل المستهترة وعدم تحمله أعباء المسئولية . فالزواج الحر زواج تقتصر حريته على الزوج . إنه فخ تقع فى شباكه المرأة المتحررة مع رجل مسرف فى التحرر . وقد يأتى اليوم الذى تصبح فيه المرأة سيدة نفسها ، فلا تتركها الأمومة تحت رحمة رجل يميل إلى التعدد بطبعه . وقد يأتى يوم ، فى المستقبل البعيد ، نجد فيه طريقة للعناية بالأطفال دون أن نربط بين الرجل والمرأة التى أنجبتهم . وعندئذ يصبح الزواج الحر نعمة للجميع ، والحالة المثلى لجنس نال حريته فى نهاية الأمر . وإلى ذلك الوقت يحسن بنا أن نخضع للقانون .

ويخلط العامة بين الزواج الحر وزواج المتعة Companionate marriage ويتصور المهوسون هذا الزواج بأشكال مختلفة . إنه لا يبدو عظيم البشاعة إذا تبين لنا أن أجرأ المدافعين عنه يعرفه بقوله إنه : « زواج شرعى ، يمنع الحمل بوسائل مشروعة ، مع الحق فى طلب الطلاق بموافقة الزوجين بشرط عدم وجود أطفال ، ولا تدفع له فى العادة نفقة » . وليس فى هذا الضرب من الزواج (فيما عدا شرط النفقة القاسى) شىء لا يجرى بالفعل بين الأسر المفروض أنها محترمة . والطلاق برضا الطرفين وحيث لا أولاد أفضل من الطلاق بفضيحة أو من « الهجر » . وما يخشاه الناس من هذا المشروع هو بلوغ المرأة مرتبة

---

(١) يريد هذه الوصية : « لا تزن » (المترجم) .

المساواة الكاملة بالرجل . ثم إن المترفات من نساء الطبقة المتوسطة آخذات بسرعة شديدة فى الانتقام لجميع بنات جنسها من الرجل المجهد . فالزواج سائر فى طريق التغير إلى صورة لن تسمح بوجود المرأة المتعطلة من العمل ولا تصلح إلا زينة لكثير من البيوت ومصدراً لمتاعبها . وأخذ الرجال يطلبون من زوجاتهم العمل لكسب المال اللازم لمصاريفهن . ومن مزية زواج المتعة أن المرأة تذهب إلى العمل إلى أن يثقل عليها الحمل . وفى هذا يكمن السر الذى يحرر المرأة تحريراً كاملا ، لأنها ستدفع من الآن فصاعداً جميع نفقاتها . ينبغى أن تسير الثورة الصناعية إلى نتيجتها المنطقية والتى لا ترحم ، إذ يجب أن تلتحق الزوجة مع زوجها فى المصنع ، وبدلا من بقائها متعطلة فى مخدعها مرغمة زوجها أن يتكسب ضعف ما يكسب لمواجهة العجز الاقتصادى ، ستصبح كفواً له فى العمل والكسب ، وفى الالتزامات والحقوق . وهكذا يكون التحرير .

ويقع على عاتق الرجل كثير من المسئولية ،لأنه استمع لغواية الشيطان وحطم جميع التقاليد الموروثة ليقترح علاجاً لداء الزواج الحديث . ولكنّ فى هذا المشروع شيئاً من الصعوبة والمجازفة مما يعده المتمسكون بالفتوة ظلماً ، ما دامت مساواة المرأة الاقتصادية والخلقية بالرجل غير كاملة . ذلك أنّ الرجل — كما قلنا — بينه و بين نفسه فيه شراهة للتعدد . امنح الرجل صورة من الزواج يكون فيها حراً فى هجر زوجته عندمايفقد فيها فتنة الطرافة ولذة المقاومة ، وستجده يتحرق شوقاً لمباهج أخرى وقلاع لاتزال حصينة .سوف يودعها إن قريباً أو بعيداً . ولا يفيد القول بأن موافقة الطرفين لازمة للطلاق ، لأن المرأة ستجيب بالموافقة متى طلب منها . وبعد ؟ ثم تجد نفسها « حرةومستقلة»مرة ثانية ،وترجع إلى الصناعة وما فيها من أشواك ومتاعب وهى أخس من الرجل قيمة .

هذه كلها صعوبات صغيرة ، وأكبر الظن أن المشروع معروض للتعديل مع التجارب . وأكثر ما فيه من إنشاء هو التشجيع الذى يقدمه للزواج المبكر ، إذ ها هنا قبل كل شىء نجد لب مشكلتنا الأخلاقية . ولو تيسر لنا أن نجد سبيلا نعيد به الزواج إلى السن الطبيعية ،لاستطعنا بضربة واحدة تقليل نسبة البغاء إلى

النصف ، وكذلك الأمراض السرية ، والعزوبة العقيمة ، والعفة الممقوتة ، والانحرافات التى تصم جبين الحياة العصرية .

تأمل مرة أخرى هذه القلة القليلة من الرجال أو النساء الذين يتزوجون أفضل من يحبونه . ذلك أن عاطفة الشباب المشرقة تغزو القلوب بأسرع مما تطيقه حالتنا الاقتصادية ، ولهذا نفزع من المخاطرة الكبرى ، وندع الحب يسير إلى الزوال . ومع ذلك كلما كان الحب مبكراً كلما كان أبهى وأعمق ، ولن تجد رجلا بعد الثلاثين من العمر يقوى على الحب بقوة الشباب وإنكاره ذاته[1]. والإخلاص الذى يبعثه أول حب فى النفس يكون من العمق بحيث يصعب زواله بعد سنة من العشرة والتجربة . فهذه الرقة الجديدة عند الصبى ، وهذه الثقة الواضحة عند الفتاة ، لا بد أن يحملاهما فى سعادة على مرِّ السنين ، وتصبح ذكرياتهما الأريج الذى يعطر حياتهما .

تصور زواجاً هو ثمرة أول حب . انظر إلى العروسين الجديدين ، كما هما فى المثال ، كيف يختاران لا مخدعاً فى شقة بل بيتاً صغيراً مستقلا حيث لا يزال سلطان الطبيعة قائماً . ثم ينسقان فيه الأثاث بعد مناقشات بديعة حول ما يجب أن يشترى ، وأين يجب أن يوضع . ثم يزرعان الحديقة بالأزهار التى تنمو مع نموهما ، ويملآن البيت بألوان من البهجة والموسيقى والكتب والأصدقاء ، فيصبح أمتع من صخب الشوارع وأنوارها الساطعة . ثم يكللانه فى النهاية بصياح الطفل وزينته . وكثيراً ما وصفنا أنفسنا بالبراعة للتغلب على قيود الزواج ، ومع ذلك ففى أعماق قلوبنا سننظر دائماً إلى الوراء فى شوق إلى تلك الأيام العاطفية حين كان الحب فى عنفوانه[2] .

وثمة اعتراضات كثيرة على الزواج المبكر . وأول كل شىء ، من العبث تقديم نصائح تحث على الكمال ، فنحن لا نستطيع التغلب على تبصر الشباب الاقتصادى

---

(١) هذه هى العبارة التى جعلها أحد المحررين عنواناً لإذاعات فى جميع أنحاء المملكة ، وهى « لا يقوى رجل على الحب بعد الثلاثين » . فالدعاية تؤثر فينا وتحطمنا .

(٢) للتوسع فى تأييد الزواج المبكر من وجهة نظر بيولوجية ، أنظر
Holmes, S.J., Studies in Evolution and Genetics, pp. 177-8.

بالمواعظ الأخلاقية والأملاك الخيالية ـ ولكن الآباء لا الأبناء هم الذين ينصحون بتأخير الزواج ويعملون اقتصادياً على إرجائه . ولا مفر بعد ذلك من استهتار الشباب . فلنقنع الآباء المخطئين أنهم بالعمل على تأخير الزواج يدفعون أبناءهم إلى ألوان من العادات السيئة عوضاً عنه ، وإلى كثير من الانحرافات المنافية للخلق. وأن الحكمة ليست فى إقامة الحواجز فى سبيل الزواج لمن بلغ تمام الرشد ، بل بإعانة الأبناء ، والبنات أيضاً ، بمنح مادية يوازنون بها عجزهم الاقتصادى وتثبت عزائمهم على مواجهة مصاعب العالم . سيكون ذلك دين شرف يدفعه الأبناء للجيل القادم . ولن يخسر أحد ، وسيكسب الجميع . لقد مضى الوقت الذى كان الآباء يبذلون فى هذا الأمر بسخاء .

بمثل هذه المعونة قد يستسلم حتى الشاب الحريص لنداء الحب . فإذا تزوج الشاب فسوف يجد شيئاً من الحقيقة فى ذلك المثل القديم : « الله ولى التوفيق » . وسوف يصلب بالعزة عوده ، ويقوى ساعده ، وتستمر شجاعته . وترغمه المسئولية على التعمق ، فيستوى بالزواج رجلا . فإذا لم يصلح شيء من ذلك ، فلتذهب الربة الصغيرة إلى عملها اليومى كما كانت تفعل من قبل حتى تواجه الحمل . ومن الأفضل أن يكون فى يديها عمل من أن تقبع فى الدار كقطعة من الزينة سهلة الانكسار . ومن الأفضل إرجاء الحمل من التململ بتأخير الزواج تأخيراً غير طبيعى . يجب أن نسمح بالتمييز بين الزواج وبين النسل ، حتى يقل ابتعاد الجنس عن الزواج . فإذا استمرأ الرجل هذه المعونة ، فالعلاج الوحيد لصلاحه هو الأبوة ، لأن وجود الطفل سيبعث فيه الرجولة ، اللهم إلا إذا لم يكن رجلا على الإطلاق .

والصعوبة الثانية التى يثيرونها هى جهل الشباب . وفى ذلك يقول نيتشه : « عندما يقع الرجل فى حبائل الحب فلا ينبغى أن نسمح له باتخاذ قرار يختص بحياته ، وأن يقرر إلى الأبد نوع زوجته التى ترافقه نتيجة النزوة . يجب أن نعلن على رءوس الأشهاد أن مواثيق الغرام غير صحيحة ، وأن نرفض السماح للمحبين بالزواج(١) » . حقاً الشباب أعمى فلا يستطيع أن يحسن الحكم ،

---

(١) Dawn of Day, sect. 151.

ولكن العمر عجوز ولا يستطيع أن يحب . لعله لا يجب أن يسمح لنا فى أى وقت باتخاذ قرارات حاسمة أو أن يطلب منا ذلك . وليس من الواضح أن الرجال أحكم فى الاختيار وهم فى الثلاثين منهم فى العشرين فى مسائل اتخاذ الزوجات . ولما كان جميع الأزواج وجميع الزوجات متشابهين فى الجوهر ، فليس الفرق بينهم كبيراً . وإذا فرضنا أن رجلا لا يستطيع العيش فى وفاق مع زوجته ، فالعلة فى أغلب الحالات ترجع إلى عيب فى سلوكه أو فى فلسفته بحيث تؤدى إلى النتيجة ذاتها ، إذا غير زوجته وعقد على زوجة جاره . فالطلاق يشبه رحلة لا خير فى الاستمتاع بها إذا لم نغير أنفسنا .

وعلى الرغم من هذا كله فجهل الشباب حقيقة واقعة . وقل لى بربك متى يقف جهلنا عند حد فى مثل هذه الأمور ؟ من منا نحن الرجال يفهم النساء ، وكم منا يستطيع سياستهن ؟ ولكى نقلل الخوف من الحكم على المجهول فلنعد إلى تلك العادة القديمة وهى عقد خطوبة رسمية مدة ستة أشهر قبل الزواج . سيكشف المحبان كل منهما عن عقلية صاحبه فى أثناء هذه الأشهر الممتعة . ولعلهما يشرعان فى النزاع كما يتشاجر الزوج وزوجته ، وعندئذ تكون ثمة فرصة للانفصال قبل أن يجعلهما رباط الزواج واحداً . وقد تضفى هذه الأشهر الستة على أنظمة زواجنا قوة أخلاقية وجمالا هى فى أشد الحاجة مع الأسف إليه . وقد تقدم لنا فاصلا موسيقياً وسط عجلة الحياة الاقتصادية .

وآخر صعوبة وأعظمها هى العبث أن نشجع الشباب قبل أن تهدى التجارب حكمته على الدخول فى بيت قد يصبح فى أى لحظة سجناً يختنق فيه مدى الحياة . فإذا أردنا أن ندبر للزواج المبكر ترتيباً معقولا ، فيجب أن نلتمس للزواج مخرجاً كما فتحنا له الأبواب ، ويجب أن يتمكن الزوجان من الطلاق برضا الطرفين . وقد يبدو من السخرية بعد الاحتجاج بأن الطلاق شىء يؤسف له ، وبأن الزواج يعقد للعناية بالأطفال أكثر من متعة الزوجين ، أن نحث على التوسع فى الطلاق على حساب الأسرة والأطفال . ولكن من يدرى هل يكون قبول الطرفين سبباً كافياً لكثرة الطلاق ؟ أو هل يكون الارتباط القسرى لزوجين لا يثق أحدهما فى صاحبه ويكثر التنازع بينهما أفضل للأطفال من توزيعهم أو تبادلهم

تحت سقف بيتين منفصلين يسودهما السلام ؟ وإذا رفضنا طلاق زوجة من زوج لمجرد اتفاقهما على طلبه ، فإننا ندفعهما إلى صورة من الانفجار تلائم طلباتنا غير المعقولة . ولا ريب فى أن التمهل بعض الوقت أسلم ، فقد تؤدى هذه المهلة إلى الحكمة وتنصح بتجربة الافتراق وقتاً معقولا قبل الموافقة على قرار نهائى . فقد يكتشف المحاربان باستمرار فى هذه الفترة أن العزلة أسوأ من التنازع ، وقد يكشف البعد عن فضائل خفيت مع القرب .

وقد حدث أخيراً فى إحدى مدن الغرب أن اتفق أحد أعضاء مجلس الشيوخ وزوجته على طلب الطلاق ، ورفض طلبهما على أساس أنهما لم ينتهكا مقداراً كافياً من الأوامر الإلهية والشرائع الإنسانية . واعتبرت المحكمة أن رغبتهما فى التحرر غير مقبولة ، « وكبلا بالحديد » مدى الحياة . مثل هذه الشروط تدفع إلى الفسق . فليس للرجل أن يفعل فى ضوء هذه الظروف إلا أن يتحايل على القانون الغشوم . لقد سمحت اليابان منذ سنوات عدة بالطلاق المشروط برضا الزوجين مع أن نسبة الطلاق عندهم أقل من بلادنا . وأخذت روسيا بهذا النظام منذ عام ١٩٠٧ . وكان هذا النظام موجوداً فى روما ، وأدخله نابليون فى جملة القوانين البونابارتية ؛ ولكن البربون ألغوه لأنهم لا يعلمون شيئاً . ومن المحتمل جداً ألا تزيد نسبة الطلاق إلا قليلا إن لم تزد على الإطلاق بسبب إصلاح من هذا الضرب الذى يزيد فى شرف سلوكنا ووقار محاكمنا .

ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء فقد فَقَدَ الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب فى أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما هى إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة مثل هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج »

وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً فى كل طبقة ، يضحى الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة ، وتحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت . وهذا كل شىء .

٤ — فى إنجاب الأطفال

ومع ذلك فالكلمة الأخيرة يجب أن تكون للزواج المقتصر على امرأة واحدة ، فالرابطة المستمرة مدى الحياة تظل أعظم تصور عن الزواج الإنسانى ، ولا تزال هى الهدف الذى يرمى إليه المحب الصحيح الكامل حين يبرم عقده . وثمة ضرب من الجبن فى الطلاق أشبه بالهرب من ميدان القتال ، ومن عدم الاستقرار والسطحية فى الشخص الذى يتنقل من زوجة إلى أخرى . أما الرجال والنساء ذوو الخلق فسيتغلبون على هذه الصعوبات كلما نشأت ، لأنهم يعرفون أن ثمة صعوبات شبيهة بها ستواجههم فى ميادين أخرى من القتال . وهم يحصدون ما زرعوا بعد انقضاء السنوات الشاقة من التوافق المتبادل ، وبعد أن تحل العاطفة الثابتة التى رسخت مع العناية بالأولاد والمشاركة فى صروف الدهر محل الشوق العابر إلى الرغبة الحسية ، فتجمع بين عقلين وجسمين فى واحد . ولن يعرفا الحب فى كماله إلا حين تمر بهم هذه التجربة النفسية .

ولن يتيسر وجود ذلك الكمال بغير إنجاب الأطفال ، إذ من أجلهم اخترع الزواج ، الذى لم يكن يهدف إلى الجمع بين زوج وزوجة بمقدار ما كان يرمى إلى استمرار النوع بربط الآباء بالأبناء فى حبل من الولاء والعناية . ومهما نكن متحررين ، ومهما نكن قد خلصنا أنفسنا من ميول الماضى ، فإن المرأة العقيم بإرادتها لا تزال تشيع فى أنفسنا الإحساس بالشذوذ والنفور . إن الجمال الموضوعى كالسعادة الشخصية فى سهولة تحقيق الأغراض والوظائف الطبيعية ، ولذلك نسخر من النساء اللاتى يبقين إلى آخر الحياة بغير أطفال ، ولا نقتنع أنهن يعرفن صميم الحياة . ولو أن المرأة وجدت وظيفة أخرى خلاف الأمومة

تستغرق فيها طاقتها وتملأ حياتها ، فلا بأس بذلك ، وستعينها الطبيعة . أما إذا هامت على وجهها بلا غرض ولا رضا ، تتحرك من مكان إلى مكان ، وتتنقل من رجل إلى آخر ومن تسلية إلى أخرى ، دون أن تجد اهتماماً فى أى مكان ، فذلك لأنها ولت ظهرها الغرض الطبيعى من الحب . فالمرأة كما قال نيتشه : لغز لا يحله إلا الطفل .

ستضحك الفتاة العصرية من هذا الاقتراح العتيق ، وتعلن للعالم أن الزمن الذى قد تستغل فيه كآلة للحمل قد ولىّ . وفى الوقت الذى نتجادل فيه حول آرائنا المتطرفة تمر الحياة بجدلنا مر الكرام . ولن تجد أحداً يملك حاسة التاريخ أو الإدراك بأن التطورات الاقتصادية لا تعود إلى الوراء يخطر بباله أن يسأل المرأة عن الأسرة الواسعة التى كانت من نصيبها فى الريف . وكل شخص يدرك (ماعدا أعضاء المجلس من الفلاحين الذين لا يزالون يحكمون مشرعى الدولة) أن تكاثر الآلات و تناقص نسبة الوفيات قد وضع حداً للحاجة إلى إنجاب الأولاد على نطاق واسع . وإذا كان صالح الجماعة يبدو فى حاجة إلى عدد كبير من السكان ، فذلك لأننا نغرق أنفسنا بالتفكير فى الكم ، أو نطمع فى التوسع الاستعمارى والعسكرى ، أو نتخيل مملكة مزدحمة كالصين تفيض بسكانها على الغرب . ولكن الكم لم يكن قط سبيلا إلى الغلبة ، بل العقل والآلة هما الطريق إلى النصر . وعندما يحين الوقت الذى تتكافأ فيه الصين وإيانا فى الآلات ، فسوف ينقلون عنا تلك الأساليب الخاصة بالرقابة على زيادة عدد السكان ، وهى أساليب حديثة تعد بديلة من قتل الأطفال والإجهاض . فليس ثمة حاجة اجتماعية ، أو دعوى أخلاقية لوجود أسرة كبيرة . وإذا اقترح أحدنا أن تظل المرأة إلى حد معقول محتفظة بوظيفة الأمومة ، فالأرجح أن ذلك لتحقيق ذاتها وسعادتها أكثر من تحقيق مصلحة الجماعة .

ومن الملاحظ أن الزواج يذبل مع ابتعاد الأطفال ، ويزدهر مع إقبالهم . كان الزواج فى الماضى عقداً تجارياً لتحقيق اللذة الشهوانية للجنسين . أما الآن فقد استعاد الزواج معناه الطبيعى ، إذ يرفع النفسين الصغيرتين إلى نفس واحدة تجمع بينهما ، وينبت هذا الارتباط ويزهر كالزرع الذى نسقيه بالماء . وتجد المرأة وسط هذا الصخب والمتاعب والمصاعب والآلام شيئاً غريباً أشبه بالنشوة

الهادئة . فلم تكن قط فى تعطلها وبذخها سعيدة السعادة التى تجدها فى هذه المهام والالتزامات التى تنميها وتكملها ،حتى حين يظهر أنها تضحى بها فىسبيل النوع . وينظر إليها الرجل فيقع فى حبها من جديد ، فهى امرأة أخرى تختلف عما كانت من قبل ، لها موارد وقوى جديدة ، ولها صبر وحنان لم يشعر بهما قط فى عنفوان الحب . ومع أن وجهها قد يكون مصفراً الآن ، وقوامها مشوهاً إلى حين فى عين الرجل الفاسد الشاذ ، فإنها تبدو فى عين زوجها وكأنها قد انتزعت من براثن الموت ومعها عطية سخيفة ولكنها ثمينة . إنها عطية لن يستطيع مكافأتها عليها . ويصبح الآن العمل الذى كان مشقة مريرة طبيعياً وبهيجاً كالنحل الذى يجمع الشهد . وتصبح الدار – التى لم تكن إلا جدراناً وأسرة للنوم – بيتاً يمتلىء بضحكات الحياة المتجددة الشباب . ويحس الرجل لأول مرة فى حياته أنه أصبح كاملا .

ذلك أن الرجل عن طريق الأبوة (إلا إذا كان عبقرياً تتركز شهوته وكماله فى الأبوة العقلية) لا يؤدى فقط وظيفته كفرد فى جماعة أو كفرد فى نوع ، بل يحقق « نفسه » – فهو يقبل المسئوليات التى تنضجه وتوسع أفقه ، ويستمتع بإشباع غريزة الحب الأبوى العميقة التى جاءت على غير انتظار ، ويدخر رفقة الأطفال سلوان العمر ، ويبعد عن نفسه إلى حد ما شبح الموت ، الذى لا يحصد بغير حساب إلا الأجساد البالية والعظام النخرة ، إذ يجب أن يزيلها من الطريق ليفسح المجال للشباب . ولكن فى الشباب الذى يحميه تجرى دماؤنا نحن ، وحياتنا ، وأرواحنا . إننا لا نسلم إلى القبر إلا شطراً من أنفسنا ، أما الشطر الآخر الذى تولد من جوهرنا ، وتغذى بأيدينا ، وتربى بعنايتنا ، فإنه قد يعيش متجسداً إيانا فى تيار الحياة . سيجلب لنا الأطفال متاعب يومية ، وآلاماً مريرة ، وربما خيبة الأمل فى النهاية ، ولكنهم يوفرون لنا بلا نزاع متعة لا حد لها تفوق حتى نشوة الغرام . دع الرجل يكمل نفسه ، لا على أنه جزء ، ولا على أنه فرد يتنافس بلا اكتراث ويعيش منعزلا محدوداً ، فهل يمكن أن يحقق ذاته ويصبح كلا ؟ فليكمل نفسه على أنه شركة فى نفس أكبر ، وعلى أنه محب يعطى أكثر مما يأخذ ، وعلى أنه أب يفرح بخدمة النوع ، ويرضى بأن يبتلعه تيار الحياة وخلودها . ذلك أنه سوف يجد جوهر جميع الأخلاق فى هذا التعاون بين الجزء والكل ، ويجد سر جميع الكائنات الحية ، وبصيصاً من السعادة يضىء حياته سنوات كثيرة .

الفصل الحادى عشر

فى الأطفال : اعتراف

١ — نظرة شخصية

والآن بعد أن غنينا أنشودة الأبوة ، فلنبحث فى صراحة وإخلاص تلك المهمة القديمة والشاقة ، نعنى تربية الأطفال ، أى تحويل صغار الحيوانات والوحوش إلى سيدات ورجال مهذبين . وأستأذن القارىء فى اتخاذ طابع شخصى فى هذا الفصل ، وأن أستعمل ضمير المتكلم المحبوب بحرية ، لأن الأساليب والنتائج التى أقترحها ثمرة تجربة محدودة جداً ، وأود أن أقدمها كما هى عليه . . . إنها مغامرة أبوين مع طفل واحد . وإنى أسلم منذ البداية أننى مهتم اهتماماً عميقاً بهؤلاء الأشخاص الثلاثة أكثر مما يسمح به أى خيال شامل . فالطبيعة تلقحنا بحب الذات حتى نرضى بالعيش ، فمن ذا الذى يحتمل أن يرى نفسه فى ضوء الأزل ؟

إنى شغوف شغفاً سخيفاً بفتاة صغيرة ، ومن العسير أن أتصور أى طفلة أخرى تفوقها صحة أو ذكاء ، أو تورد خدين ، أو غزارة شعر . وعندما أصحبها إلى المدرسة ، وأودعها عند آخر منعطف الطريق ، وأرى انطلاقتها الملائكية وهى تجرى راقصة تدرك فصلها المدرسى ، أعد متاعب هذه الحياة الدنيا وآلامها من التفاهة بمكان . فهذه الطفلة اللعوب تكشف عن كل سر ، وتبدد كل حزن . وعندما أعود إلى مكتبى أجد نشوة أبوية عجيبة تسرى فى نفسى ، ويبدو كل شىء فى نظرى مغتفراً — الألم والحزن والموت — لأن هذه الأشياء موجودة فى طبيعة أخرجت قسوتها العادلة والرقيقة من بين الآلام غير المعقولة طفلا محبوباً .

فمن الواضح إذن مبلغ تحيزى ، وأنى أبعد الناس من القدرة على مناقشة

مشكلات الأبوة فى هدوء موضوعى أو ثقة كلية . لذلك لن يكون هذا الكلام بحثاً بل اعترافاً ، ولا كتاباً فى التربية بل تسليما بمسلك يستوجب اللوم . وثقتى بهذه الأمور مزعزعة كثقتى بمشكلات الميتافيزيقا المعقدة . وعلى الرغم من هذا كله ، فإنى فى أعماق قلبى أعتقد أن آرائى فلسفية وعميقة ، و « قمقم مفتوح » للأجيال المشرقة . وإنى لأحلم وأنا أنظر إلى رأس صحيفتى أن بعض الناس قد يرى فى هذه الاعترافات شيئاً من الضوء الذى ينير بيوتهم وحبهم الأبوى .

٢ — فى الأمور الجسمية

أظن أننا قد نظرنا منذ البداية إلى أثيل Ethel ، كما جاء فى تعاليم الدين على أنها مخلوق مركب من جسم وروح . فقد خلق البدن أولا ثم خلقت الروح عندما ابتسمت « أثيل » . ومنذ ذلك الوقت تحققنا أن هذا الجسد الوردى ، وهذه الأذرع والسيقان الممتلئة ، وهاتين العينين الزرقاوين ، والشفتين الحمراوين والشعر الأصفر ، كل أولئك مهما تكن بديعة فى ذاتها ليست إلا آلة وأداة لحياة غير مادية سرعان ما تحب وتكره ، وترغب وتحلم ، وتعجب وتنمو ، إلى أن تصبح ذاتاً أخرى ، ومركزاً يبدو أن العالم كله يدور حوله . سوف تعتمد هذه الحياة بطريقة ما على هذا البدن . وقد تكون شعلتها أبهى فيما نظن إذا كان الجسم الذى يحملها أصح وأقوى . وكنا قد عقدنا العزم على أن نضع بدن « أثيل » ودمها تحت رعايتنا الشديدة إلى أن تبلغ العاشرة ، معتمدين على الطبيعة أن تخرج لنا من الجسم الكامل أول زهور الرقة والذكاء . وكنا نشتبه فى وجود علة جسمانية تختفى وراء انحراف سلوكها أو بطء مواهبها ، وبدلا من إجراء تحليل نفسانى على أثيل أو تهذيبها بالمواعظ الخلقية ، كنا نقدم لها الهواء الطلق والغذاء الصحى .

وارتكبنا فى الأشهر الثلاثة الأولى غلطة فظيعة لأننا سمحنا لطفلتنا أن تكون معملا نجرب فيها نوعاً جديداً من اللبن المجفف . إنها جريمة لم تستطع عدة سنين من القلق أن تمحوها من أذهاننا . وإنا لنعتقد اليوم مع بن فرانكلن أن الجنس البشرى ينبغى أن يحذر من الطبيب الشاب والحلاق العجوز . وحالفنا الحظ فعالج غلطتنا ، إذ على الرغم من سوء الغذاء تفتحت أثيل وترعرعت بشكل

عجيب . فلما اكتشفنا خطأ أسلوبنا لم نستطع أن نعزو هذا الحظ الحسن إلا للهواء الذى تمتعت به أثيل فى ربع السنة الأولى ، هواء قرية ساكنة فى التلال حيث يكفى أن تتنفس ليصح بدنك . ومنذ ذلك الحين أصبحت القاعدة رقم ١ عندنا أن الهواء يأتى أولا ، حتى قبل تلك المعجزة المدهشة ، وهى اللبن القادر على كل شيء . فى كل ليلة ، مهما يكن الموسم ، تجلب النوافذ المفتوحة الهواء الذى يحيل خدى أثيل بنفنوتا Ethel Benvenuta (سميناها مرحبا Welcome) ورد ولهيب .

وكم رشتنا بألفاظ عذاب وذراعين تتشبثان بهما حول العنق لنسمح لها بالبقاء بعد الساعة المقررة للنوم . ولكننا فى هذه المسألة كنا مصممين فى هدوء ، فلم نكن نرضى حتى بمناقشة مثل هذا الاقتراح السخيف ، فنبعد الفكرة كأنها جرم ، ونرسل أثيل إلى مورفيوس (١) Morpheus كل ليلة فى الساعة المقررة المبكرة . والآن مع أنها فتاة كبيرة فى العاشرة من العمر ، فإنها لا تزال تختفى بانتظام فى الثامنة والربع ، راجية لنا من أعلى السلم « نوماً عميقاً وأحلاماً سعيدة » ، ولا تكاد الساعة تبلغ الثامنة والنصف حتى تستغرق فى النوم . كان القانون يخرق بين حين وآخر عندما يزورنا مثلا أحد لاعبى البيانو المشهورين . ولكن فى معظم الأحيان كانت تلك القاعدة مقدسة عندنا ، ووقفة عابرة يسيرة فى فلسفتنا .

بعد الهواء يأتى الطعام . ورأينا أن أثيل كانت تزدهر بتناول غذاء نباتى ومعه كمية كبيرة من اللبن وخبز القمح . وأخذت تنمو فطالت قامتها وأصبحت قوية رياضية نشيطة ، وخيل إلينا أنها كانت تحصل على كل عنصر تحتاج إليه لكمال النمو . ولكن النباتيين سيسخطون علينا حين يسمعون أننا أضفنا بعد قليل إلى قائمة طعامها (الكتاكيت) مرة أو مرتين فى الأسبوع . كنا نسميها «الكتكوت النباتى » . وظل البيت الصغير يعيش على هذا الغذاء العجيب القائم على غير أساس مزدهراً جسمانياً عشر سنوات . وليس التقرير الصحى عن أثيل نقياً . فقد

---

(١) إبن إله النوم ، ورب الأحلام ، فى أساطير اليونان . وسمى كذلك من اللفظة اليونانية مورفى Morphé : أى هيئة ، لأن الأحلام تجعل الهباء صوراً محسوسة (المترجم) .

أصيبت بالحصبة الألمانية فى طفولتها وشفيت منها بعد أسبوع . وفى الرابعة من العمر انتقلت إليها عدوى السعال الديكى من طفلة أخرى وتغلبنا عليه بالمصل الحديث . وفى الثامنة أصيبت باحتقان اللوزتين وأجريت عملية لاستئصالهما . فهذه هى النقط السوداء فى بطاقتها ، وفيما عدا ذلك فهى غريبة عن الأطباء والأدواء ، حتى لقد رغبت أن تعرف : « ما شعور المرء بألم المعدة ؟ » .

ويأتى اللعب بعد ذلك فيأخذ هذه العضلات والحواس والأطراف النامية ويعلمها التوافق والضبط والوحدة . والأب الكامل هو الذى يعتمد على فن التربية ، فيعرف بالضبط أى اللعب يشترى لتشجيع نمو كل عضو وكل قوة . ولا شك أن أول مبدأ نعتمد عليه فى هذا الأمر أن تكون الألعاب بحيث تحتاج إلى إدراك مضبوط ، سهلة التناول ، وتحتاج فضلا عن ذلك إلى حركة فى الهواء الطلق . فالقبقباب ذو العجل ، والدراجات scooters ، والنبال ، والحلقات quoits ، وحبال القفز (النط) ، والبسبول ، والتنس ، والبسكليت (إذا كنت تعيش فى الريف بعيداً عن أماكن النفط) هى أول معين للطبيعة التى تنصح فى حكمة باللعب كيما تتدرب جميع القوى لتبلغ الكمال . وأفضل جميع الألعاب العوم والتزحلق skating ، فقد خلق الصيف والشتاء لأجلهما ، إذ تعمل كل عضلة فى تناسق ، ويسرع التنفس ويعمق ، ويدور الدم بسرعة ، وينبض القلب فرحاً . وإنى لأعترف فى خجل أنى لا أعرف التزحلق . ولكننى مصمم فى هذا الشتاء حين تتعلم أثيل ، أن أجرب أنا أيضاً وأقع . إنى لأتخيل الفتيان والفتيات ينزلقون وقد أخذ أحدهم بذراع الآخر أو أمسك بخصره ، والعيون ضاحكة والخدود ملتهبة ، وهم يغنون فى انسجام مع الحركة تحت سماء الشتاء . سوف نذهب للتزحلق معاً ؟ حتى الكاتب العجوز يستطيع أن يدفع المركبة الجليدية ويتزحلق بها على الثلج . فما أمتع الوقت الذى نقضيه ثلاثتنا حين تتطاير نتف الثلج .

٣ — فى الأمور الأخلاقية

الجسم يأتى أولا ، وبهاء جماله وهو ينمو مصدر بهجة مستمرة . حتى إذا أقيم هذا الأساس المتين ، وانتظمت عملية الهضم انتظاماً صحياً وأصبحت عادة

آلية ، عندئذ تبرز أمامنا مشكلات الخلق والتربية كثيرة متشابكة . فالطفل جشع فى تناول الطعام على المائدة ، ومخرب للألعاب ، مشاكس فى اللعب ، مغتر بهيئته ، كثير الثرثرة ، غشاش ، متقلب المزاج ، كتوم ، يكره الماء والصابون . فكيف نعالجه ؟

أول كل شىء تجنب كلمة « لا » . إذا أساء الطفل السلوك فالتمس له العذر ، لأنك إما أسأت تغذيته أو معاملته . والنواهى ضرورية ، ولكن كل أب يجب أن يتقيد بعدد محدود جداً منها ، كالطبيب حين يصف الخمر دواء ، ولعله يفعل كالطبيب الذى يستنفد الكشف على العدد المقرر عليه سنوياً فى شهر يناير ويرتاح بقية العام . لا ريب أننا يجب أن نقول « نعم » كلما كان ذلك ممكناً . وبعض الآباء الذين يفشلون فى المال أو الحب ينتقمون لأنفسهم من الحياة بأن يصدروا النواهى ويوجهوا الاعتراضات فى طريق الطفل . إن سلطان الأب آخر ملاذ يلجأ إليه وَغْد . فالضعاف من الناس يحبون السيطرة ، وحق المرأة فى النكد عزاء لها عن الحمل . فلندع الطفل سعيداً ولا نخدع أنفسنا بتضحية كثير من الحاضر فى سبيل المستقبل . أما نحن فقد عزمنا أن نحتفظ بأثيل باسمة إلى أن تتزوج ، والله يعلم ماذا يحدث لها بعد ذلك .

إن إصدار الأمر للطفل يبعث فيه المقاتلة والمقاومة . وهذه القاعدة تكاد تكون يقينية كقوانين نيوتن فى الحركة ، وأدنى منها فى اللحاق بأينشتين . فنحن حين نصدر أمراً نثير علينا غضبات الكرامة النائمة ، ونحرك جيوش الدفاع . اطلب يجب طلبك ، ومر يرفض أمرك . كن عادلا مع الطفل ، واكسب محبته وثقته ، تجد أن طلباتك وإيحاءك أوقع من الأوامر . ومن المخجل أن نقرر كم حصلنا نحن أب أثيل وأمها منها على كثير من الأشياء بالإيحاء . نذهب إلى المدرسة برفقة أثيل ، ونعبر لها عن حسدنا إياها لأيامها السعيدة بالمدرسة . إنا لنعجب كم يعينها أن ترى غيرها يقدر سنوات الطفولة على الاستمتاع بها . ونلح عليها ساعة الغداء بالسؤال عن حظها فى الفصل ، فتفرح لاهتمامنا بها ، وتنتقل إليها عدوى اهتمامنا بالتاريخ والجغرافيا والإملاء بل والحساب . الإيحاء يرسخ فى نفسها الاعتقاد بأن هذه الأشياء لا يجب أن تكون خاملة ، وأنها قد تكون مثيرة كالمعارك ، أو الرحلات ، أو رسائل الغرام ، أو تقارير الدخل .

وكذلك الحال فى البيانو. إنها مشكلة كل بيت –: « اذهبى لتأدية تمرينك». هذه جملة سخيفة لأنها توحى فى الغالب بما يأتى : « البيانو حمل ثقيل ، والتدريب عليه عذاب . اذهبى وتألمى . إنك تستحقين ذلك » . ولكنا جربنا طريقة أخرى مع أثيل . هيأنا لها فقط فرصة تعلم البيانو إذا شاءت ، وتركنا ذلك لاختيارها . غير أننا ظللنا عدة أسابيع ، قبل أن نطلب منها ، نتحدث عن عظمة الموسيقى ، والمزية الكبيرة للعزف أو التأليف . ثم بحثنا عن معلم لا يبدأ بتعليمها السلالم الثقيلة والتمارين المزعجة ، بل بألحان بسيطة يسهل على الأذن التقاطها مما يجعل سائر أهل البيت يرددونها . ولم نكد نجد المدرس حتى انطلقت الأنغام فى أرجاء البيت تلعبها أصابع رقيقة دائبة ، حتى لقد كنا نحن الكبار نذهب إلى عملنا نغنى الألحان التى ترددها أثيل . كان يسرها أن تلحظ بهجتنا ، وشعرت بنفسها قد أصبحت فنانة . كان البيانو منذ البداية يعنى فى نظرها الموسيقى لا الضوضاء والألم.

وحدثت بعد قليل وقفة فى تقدمها ، ولم تعد ترغب فى أداء تمريناتها ،وكنا نكبح جماح أنفسنا عن شهوة الأمر وعادة القسر . كنت أختلف بدلا من ذلك إلى البيانو وأتمرن على الدرس بنفسى فى حدود مقدرتى . ثم دعوت أثيل إلى مصاحبتى وأن نعزف بأربع أيد ، فجاءت وتمرنت معها مدة أسبوع . و إذا لم تحفل بالمجىء كنت أعزف مقطوعاتها وحدى . وأمدنا المدرس ببعض الأغنيات الزوجية البسيطة تعلمناها معاً . (فى هذه اللحظة نادتنى بنتى قائلة : « أبى تعال نتمرن معاً ») وسرعان ما استعادت لذتها فى العزف على البيانو . ولم يمض إلا قليل حتى كانت تعزف منتخبات بسيطة من بتهوفن ، وموزارت ، وشومان ، وشوبرت ، وهاندل ، وهايدن ، وباخ . كنا نغنى هذه الألحان المشهورة فى سرور ، وأشعرناها بمقدار شكرنا لها لأنها ملأت قلوبنا بالغناء . وأخذت تشعر أن الموسيقى نعمة كبرى جديرة بجميع المتاعب التى تستدعيها . أصبحت تقول وهى تنصرف عن البيانو : « الآن فهمت علة شغفكما إلى ذلك الحد ببتهوفن » .

وأنتقل خطوة أخرى فى التوضيح من البيانو إلى بحيرة السباحة ، ولو أن هذا الانتقال لا يعد شرفاً كبيراً . أراقبت الأمهات والآباء يعلمون الطفل كيف يحب الماء ؟ إنهم يلاطفونه بعض الوقت ، ثم ينهرونه ، ثم يحملونه قسراً ويغمسون

كل جسمه فى الماء . وتنجح هذه الطريقة بعض الوقت ، ثم تخيفه فتبعث فى نفسه فزعاً من الماء قد يمنعه من تعلم السباحة على الإطلاق . وهنا نجد أن درهماً من المثال خير من قنطار من القسر . ولم تكن أثيل شغوفاً بالنزول فى الماء كأى طفل آخر . فخوفها شيء طبيعى وسليم متأصل فى أجيال من مخاطر التاريخ . كنا نحملها معنا إلى حمام السباحة ونتركها تلعب فى الرمل ، على حين نقفز نحن فى الماء ونعوم ، ونوحى إليها بأن الماء شيء بديع . وثارت الغيرة فى نفسها ، وأخذت من تلقاء نفسها تخوض فى الماء . واشترينا لها حزام نجاة ، ربطناه بجسمها ، وبينا لها أنها تستطيع بمساعدته السباحة فى الماء العميق ولايكاد شعرها يبتل . وأخذت تراقب الأولاد والبنات وتقلد حركاتهم ، حتى أصبحت قادرة بعد زمن يسير على السباحة فى أى اتجاه . وتعلمت فى آخر موسمها الأول بدون قسر من أى نوع ، بل وبدون زجر ، حركة العوم على الصدر بضع ياردات . ثم انتزعنا عنها الحزام ، فتعجبت حين رأت أنها تعرف السباحة . وفى الموسم التالى تعلمت دون قسر وبإرشاد صديق ماهر عومة « الكرول crawl » والغطس تحت الماء . والآن تعلم أباها ، وتجعله يخجل من قوة ضرباتها وتنوعها .

الحق أن المثال إذا كان حسناً فهو من القوة بحيث لا تحتاج فى تعليمك إلى شيء آخر . وأفضل بيت ، وأفضل مدرسة ، وكذلك كل شيء آخر ، ماقل الحكم فيها . إن الطفل المهذب بغير عقاب وأمر جدير بالملاحظة . وعندما تخفق أساليب الحرية فى التربية فالأغلب أن ذلك يرجع إلى أننا نحن الآباء نخرق القواعد التى نريد من أبنائنا طاعتها . إننا ننصح بالاعتدال ، ونسرف فى الطعام والشراب . ونعلم الطفل أن يكون لطيفاً ، ونتشاجر على رءوس الأشهاد. ونذم مساوىء الحلوى وأفلام الإجرام السينمائية ، ولكننا ننغمس فى الإقبال عليها إلى حد يخرجنا عن الصواب . إننا نطلب الأدب الرفيع ، ونأمر باللياقة فى فظاظة . ننصح بالعفة ، ونتصنع هيئة الآلهة المعصومين . ولكن الأطفال يتعلمون بما يروننا نفعله لا بما نأمرهم به . فإذا كانوا مشاغبين ، فأكبر الظن أنهم يحاكون ما كنا نفعله . أرنى أطفالك أخبرك من أنت .

إذا شئت أن يكون ابنك مؤدباً ، فكن مؤدباً . وإذا شئت أن يكون

مرتباً ، فكن أنت كذلك . ولست بعد ذلك فى حاجة إلى شىء آخر . إنك حين تلجأ إلى اللغة العنيفة والألفاظ المثيرة توجهها إلى الطفل ، حتى تحت ضغط الإثارة الشديدة ، إنما ترسخ فى نفسه بالمحاكاة ذكرى العبارات النابية . فآداب السلوك لا يمكن أن تعلم إلا مع الصبر بالمثل المستمر . وهذا شىء صعب يكاد يتطلب منا أن نعيد تربية أنفسنا . وبهذا الطريق يربينا أطفالنا . وكم نزل رجال الأخلاق فى العصر الحاضر من هذه المبادىء الرفيعة إلى حضيض التصايح المبتذل ، وفقدوا صوابهم وذكاءهم ولجأوا إلى الأوامر والعنف . إننى أسوق هذه النصائح الداعية إلى الكمال لتشجعنى حتى أطبق ذات يوم ما أبشر به .

وقد حاولنا توجيه كل غريزة فى أثيل نحو غاية مفيدة . فهى محبة للتملك كأى حيوان صغير ، ولم تكن على استعداد للسماح بالمشاركة فى ألعابها كالحال فى معظم الأطفال . ولكنها تأثرت بطريقتنا فى اقتسام الأشياء معها ؛ ومساعدتها كلما نستطيع . وأدى الشعور بالأمن الذى نشأ عن هذه المعونة الصديقة إلى أن تكون أكثر حكمة وتسامحاً . وظلت بعض الوقت تهفو إلى القروش والملاليم ، فعالجنا هذا الأمر بتخصيص « مرتب » شهرى لها بشرط أن ترتب حجرتها ، وتنظم فراشها ، وتستيقظ فى الوقت المناسب ، وتذهب إلى المدرسة فى الميعاد ، وتؤدى دروسها على ما يرام . وظن أصدقائى أننى أعمل على « إفساد » أثيل بهذا المرتب الشهرى . وغالباً ما كنت أشك فى حكمة هذه الطريقة . ومن الصعب الحكم بعد هذه الفترة القصيرة على رأى أصدقائى بالخطأ أو الصواب ، ولكنى أظن أن الدلائل ليست فى جانبهم . فقد جعل المال أثيل زاهدة — شيئا ما — فى التملك . فهى تشترى به ألعابها الخاصة ، ولا تنفك بين حين وآخر تقبل علينا تحمل هدية لنا . وفى ذهنها مشروعات هائلة لعيد ميلادى ، وتقول : « فيم تظننى أقتصد المال إذا لم يكن لشراء طرفة بديعة لك ؟ » . وفى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذا الكلام ألحت علينا فى شراء عقد من عقود الأطفال . وبعد أن أجبناها إلى طلبها أخبرتنى قائلة : « بالطبع سأدفع ثمنه من مالى » . ولكنى أخشى هذه المرة إفلاسها .

والحال فى حب التملك كالحال فى الكبرياء ، فقد يكون مضراً

وسخيفاً ، كما يكون مصدراً للخلق والنمو . ولست أريد من الطفل أن يكون وضيعاً وخانعاً . وعندما أرى عناد أثيل أعزى نفسى بأنها ستكيل الصاع صاعين لكل من يحاول استغفالها حين تكبر . فالخلق يحتاج فى تكوينه إلى شيء من المقاتلة ، والرغبة فى المقاومة أحياناً . أما الكبرياء فهى رأس الشرف ، وعمود الشجاعة ، ويمكن أن يستغل إلى غير حد فى الأغراض الحميدة . إننا نوحى إلى أثيل أنها من العزة بحيث لا تسمح لأحد يراها غير مرتبة أو قذرة ، وأنها أكبر من أن تأخذ أكبر من نصيبها فى أى شيء ، وأنها أكرم من التهالك على الهدايا والمنن والأفضال ، وأنها أعز من أن تسمح لأحد يتفوق عليها فى عملها ، (أرجو ألا تطلع على اعترافنا بهذه الأسرار) . فالكرامة أفضل بديل من العقاب ، فهى دافع إيجابى لا مانع سلبى . وهى التى تولد الصلابة والشجاعة ، وتتغلب على الحياء والجبن . ولقد تساءل نيتشه : «ما الفضيلة ؟ » وأجاب : « أن يكون المرء شجاعاً» . ولكن كيف يمكن أن يكون المرء شجاعاً بغير كرامة . ؟ !

ولعلنا كذلك يمكن أن نستبدل الذم بالمدح فى تكوين خلق الطفل . فاللوم يقيد النفس ، ويجعل العمل الناقص مكروهاً إلى الأبد . أما المدح فإنه يبسط كل خلية ، وينشط كل عضو ، ويجعل حتى أصعب المهام مغامرة تفضى إلى النصر . إن حب الذات هو الرافعة التى نستطيع بها تحريك العالم . وبدلا من مهاجمة العمل الذى لم يحسن صاحبه أداءه مصوبين إليه سهام اللوم ، فلنلمح الأعمال التى أحسن أصحابها أداءها ونوئثرها بألوان المديح التى ترسخ حلوة فى صفحة الذاكرة ، وتدفع إلى التقدم فى العمل . فإذا جاء تقرير أثيل منبئاً عن تأخرها فى الحساب (وهو خصمها اللدود) أبدينا الأسف ، دون أن نلومها. ولعلها لن تعرف أبداً أن درجاتها فى الحساب أعلى مما كنا نحصل عليه فى مثل سنها . أما حين تدخل البيت وتخبرنا عن الدرجات النهائية التى حصلت عليها فإننا نرقص طرباً ونحتفى بها ، ونبذل جهدنا فى إظهار الفرح من جديد عند كل سبق . وحين تعمل شيئاً نبتهج له بوجه خاص ، نمنحها دولاراً تضيفه إلى رصيدها على الرغم من نصيحة أصدقائنا . وأى بأس فى أن تكون طريقة المدح والعطف أقل صلاحية من أسلوب القدح والعقاب ؟ إننا نوئثر أن نخسر بالطريقة الأولى

على أن نكسب بالثانية . سنقف فى صف أى مشروع يؤدى إلى سعادة أثيل . فإذا كان لنا الخيار ، فنحن نفضل أن ندللها بالعطف من أن نصهرها بالعذاب . فالعطف ، لا التجهم وجمود القلب ، هو المعين لنا جميعاً فى الأزمات .

ولست أدرى أيكون ما رسمه القدر لنا من إنجاب طفلة واحدة مشكلة أم نعمة . إنى لأعترف أننا أنفقنا فى تربية أثيل من الوقت أكثر مما كنا نمنحه إياها لو كانت الذرية أكبر . لقد رأيت بيوتاً فيها طفلان أو أكثر ، فوجدت فيها من الضوضاء ما يتنافر مع ذوقى . إننى أؤدى عملى بالمنزل فأرى لذلك أثيل كثيراً . ولو كان لها أخوات أو إخوة لبحثت عن مكتب أو حجرة فى سطح ، بعيدةعن البيت ميلا على الأقل.وأثيل بحالتها الراهنة لا تزعجنى ،بل هى مصدر سرور لا يمكن التعبير عنه . إن صوتها فى الحجرات الأخرى ، بل فى بعض الأحيان حين تقتحم حجرتى ، ينشطنى وينعشنى . إنى لأعد نفسى حسن الحظ حين أعمل لا فى فوضى المدينة ، بل فى الصحبة الهادئة لمثل هذه الفتاة النامية السعيدة .

ومع ذلك فهذه النعمة الوحيدة تثير صعوبات ، نحاول حلها باستقبال أترابها فى المدرسة للعب معها ، وتشجيعها على رد هذه الزيارات ، ودعوة ابن عم صغير يعيش معنا فى الأجازات ، وتمضية آخر الأسبوع فى بيوت أخرى ، هذا فضلا عن أننا أنفسنا نلعب لعب الأطفال فنشاركها فى دروسها وألعابها . إنها تأخذ دروساً فى اللغة الفرنسية ، فنحفظ معجمها الأسبوعى معها ، ونتبارى فى ذلك العمل ، ونحفر كل لفظة فى صفحة الذاكرة بأفانين مختلفة . أو عندما يصادفها مسائل صعبة فى واجب الحساب فنختلف إلى مائدة حجرة الطعام ، وتجمع الأسرة كلها وتطرح وتضرب وتقسم فى آن واحد مدة ساعة . أهذا مضيعة لوقت الآباء ؟ ولكن كيف تضيع وقتك « أنت » ؟ أيمكن أن ننفق وقت فراغنا بأفضل من هذه الأساليب المجددة للشباب ؟

إن سر الأبوة فى القدرة على العود إلى الشباب مرة ثانية ، واطراح أى وقار أولقب ، واللعب فى مساواة تامة مع الطفل . ومن المحتمل أن نكسب بهذه المودة المتواضعة تلك الثقة والمحبة الكاملتين ، وهما حجر الزاوية فى التربية . كيف ننجح

فى تربية الخلق إذا لم نستطع بالصراحة أن نجتذب الصراحة والشرف من قوى الطفل الأخلاقية الطبيعية ؟ (١) . نقول لأثيل إن كل فكرة تغير دون وعى وجهها ، وعلى مرّ الزمن تسطر جميع عناصر الخلق على صفحة الوجه فتقرأها أى عين . ولكننا لا نقنع بمثل هذه العبارات العقلية المتهافتة . فنحن نعلم أننا إذا شئنا أن تكون ابنتنا صريحة فلنكن نحن أنفسنا صرحاء حتى إذا كانت الصراحة مؤذية ، وأننا يجب ألا نخيفها بالحذر من أى عقاب أكثر من أن ندعها ترى أن انحرافها عن الصراحة قد جلب الغم لأهل البيت طول اليوم . إنا واثقون أن المثال والعطف يدفعانها إلى الصراحة معنا . قد يكون الكذب مباحاً فى بعض الأحيان مع البالغين (كما يذهب إلى ذلك قليل من علماء الأخلاق) لأن البالغ يستنكر الحقيقة . ولكن ذلك ليس من الحكمة فى شىء بالنسبة للأطفال الظامئين للمعرفة — ولو أن فلاسفة الأخلاق يحاربون بوجه خاص سعى الأطفال إلى معرفة الحقائق الجنسية . لقد ابتعدت أثيل عن المثل الأعلى فى هذه المسألة وفى غيرها من الأمور ، وأظن أن ذلك يرجع إلى أننى لم أكن صريحاً معها إلى النهاية . سنحاول مرة أخرى .

٤ — فى الأمور الجنسية

أقسى امتحان للصراحة هو التربية الجنسية للطفل . لِمَ نقاوم ذلك الفضول القوى الذى يعد أصل العلم ولباب التربية ؟ أظن أن السبب القريب فى ذلك يرجع إلى أن ميراثنا البيوريتانى فى أمريكا ، قد خلف فينا شيئاً من الفزع من الجانب الشهوانى فى الحب . وأن السبب البعيد يرجع إلى السرية التى كانت تحيط العملية الجنسية دائماً ، حتى فى المملكة الحيوانية ، للابتعاد عما ينشأ عن ذلك من خطر الهجوم . وأن السبب الرئيسى يرجع إلى أن ازدياد تأخير الزواج من زمن البلوغ إلى سن متأخرة قد ترك فترة خطيرة يجب الابتعاد فيها عن أى مثير لا لزوم له للغريزة الكامنة والقوية . إنها مسألة صعبة متعددة الجوانب . ولكننا عازمون حتى

---

(١) لا أستطيع أن أضيف شيئاً إلى الفصل العظيم «الصدق» فى كتاب برتراند رسل « التربية والحياة الفاضلة » .

فى هذه المسألة أن نحاول بلوغ الحق . سنبذل أقصى وسعنا لاستبعاد هذه المسائل بعيداً عن أذهاننا إلى آخر لحظة ممكنة . وعلى كل حال ستأتى سريعاً مع جو الحياة العصرية الشديد الحرارة . ولكنا نود الإجابة عن هذه الأسئلة قبل أن يجيب عنها أطفال جهلاء أو شهوانيون . ولن نعالجها بأى طريقة أخرى أو بأى نغمة على خلاف المسائل الأخرى . « فالوقار reverence » فى هذه المسألة هو الطريق الباطل ، لأنه سبيل إلى الأسرار والأضرار . يجب على المرء أن يتحدث عن الأمور الجنسية كأنه يتحدث عن الهضم أو التنفس ، بهدوء العالم غير المتحيز. والصدق أسلم فى نهاية الأمر بشرط ألا يُشَابَ بالخوف .

المعرفة والصحة أفضل طبيبين نفسانيين ، فحيثما كان البدن صحيحاً والعقل سليما ، فلن تجد « العُقَد » سبيلا إلى النمو . كان ديدرو Diderot يقول إن التشريح أول الأمور التى يعلمها ابنته ، ولو أنى لست متعجلا فى تعليم ابنتى ذلك . ولا ينبغى أن تزعجنا الاضطرابات العادية للشباب بالنسبة لهذه الأمور . سندع الطبيعة تأخذ مجراها ، دون عظات أو أكاذيب . ولكنا سنقدم للطفل جميع الألعاب الرياضية المفيدة التى تفتنه تحت ضوء الشمس . حين أرى الصبى يلعب البسبول فى ابتهاج أعلم أن أخلاقه حسنة .

حين تمتزج حياة الحب عند الطفل بالصدق تصبح هذه الحياة كأى شىء آخر حولها موضع جمال وبهجة . هاهى ذى أثيل مثلا تعود من المدرسة ، وتجلس على مسند الكرسى ، « وتطوقنى بذراعيها » كما تقول ، وتهمس فى أذنى بخجل « أبى ، إنى أحب » فماذا أفعل ؟ هل أعنفها لهذه القصة المخيفة ؟ لا أستطيع ، بل بدلا من ذلك أضحك ، وأطلب منها تفاصيل كاملة . لماذا نطفىء بالأخلاق هذه النفس المضيئة ؟

ولكن ماذا نفعل حين يأتى دور البلوغ ؟ سنملأ الموقف بالمعرفة عند أول علامة له . لن ندخر وسعاً فى تجنب الحساسية ، والشعور بالذات ، وحب الانطواء الذى كثيراً ما يغير لون الحياة فى هذه اللحظة الدقيقة من مدها . دع هذه السنة الأولى من البلوغ بعيدة عن الاضطرابات والمأساة ، ولتكن ربيع الروح ، تبذر فيها بذور الإخلاص والمثل العليا ، وموسم المخاطرة والشعر ، وشهر الصحة

والنمو للجسم والعقل . فالذكاء ينبت الآن بخطى سريعة ، ويتراجع الجسم إلى المحل الثانى ، ويقف الخلق فى مكانه بعد أن تكوّن ، وتتركز مهمة المربى آخر الأمر فى مشكلات العقل .

٥ — فى الأمور العقلية

لست أدرى متى بدأ « عقل » أثيل . ولكننا لم نلق إلى ذلك بالا حتى أصبحت تقول مع ميلن Milne [١] : « الآن بلغنا السادسة » . إنها لا تريد منى أن أستنتج أنها لم تكن ذات عقل قبل ذلك . ألم تأخذ دروساً كل حين فى تعلم الشاذ فى اللغة الإنجليزية ؟ وهنا أيضاً كان علينا أن نختار بين أمرين : الأوامر والأمثلة . وسلمنا بأن أثيل إذا كانت لا بد أن تتعلم الإنجليزية صحيحة فيجب أن نتعلم نحن أن نتكلمها صحيحة ، وإذا أردنا أن نبعد من معجمها الاصطلاحات السوقية ، فلا ينبغى أن تجرى على ألسنتنا . ليس معنى ذلك استبعاد التشبيهات العامية الحلوة ، فقد تبعث الحياة إلى العبارة ، وتفيد اللفظة الواحدة ما يحتاج الدكتور جونسون إلى جملة طويلة للتعبير عنه . ولكننا آثرنا سلامة اللغة على الابتذال ، ووضعنا فى طريق أثيل حينما استطاعت القراءة أحسن الآداب المناسبة لسنها .

وكان لا بد أن نواجه فى أثناء ذلك مسألة المدارس الخاصة : أنرسل أثيل إلى المدرسة العامة المجاورة لنا ، أم إلى معهد خاص ذى سمعة حسنة ولكن مكانه غير ملائم ؟ لقد زرنا كلتا المدرستين ، ودهشنا عندما رأينا مدى التقدم الذى بلغته المدارس العامة منذ الأيام التى كنت أقوم بالتدريس فيها لقاء عشرة دولارات فى الأسبوع . فالحجرات المدرسية مشرقة ، والفصول أقل عدداً ، ولكل تلميذ (تختة) خاصة ، والمدرسون متنافسون ومبتهجون ، إلى جميع الأدوات والتسهيلات المدرسية ؛ فلم نصدق أعيننا . كنت أسمع الشىء الكثير عن المدارس ، بل لقد كتبت أنتقدها باعتبار أنها سجون نظامية يدخلها الأطفال آلهة فى المهد ويتخرجون فيها آلهة فى اللحد . فهل كنت أنطق بعبارات منمقة فقط ؟

---

(١) روائى إنجليزى مشهور ولد سنة ١٨٨٢ ، وله شعر ونثر كتبه لابنه الصغير كرستوفر . وله روايات كثيرة (المترجم) .

وجربنا المدرسة العامة ، وسار كل شىء على ما يرام . لعلها كانت تغلو بعض الشىء فى النزعة الوطنية ، ولكننا فى الجملة لم يكن لنا اعتراض أن تتعلم أثيل حب بلادها بحيث يسمح لها أن تقدر عظمة البلاد الأخرى كذلك . وسنراقب ذلك . كانت المدارس العامة الأربع التى التحقت بها أثيل نموذجاً فى الكفاية والنزعة الإنسانية . كان بعضها أفضل من بعضها الآخر ، لا بسبب المدارس ذاتها بل للعلاقات التى تعقدها فيها . كنا نلحظ تغير بنتنا الصغيرة فى العادات والميول كلما انتقلت من مدرسة إلى أخرى . أما الآن فهى فى أفضلها جميعاً مما يبعث فى أنفسنا الامتنان والسعادة .

لا ينبغى أن أعمم بناء على هذه التجربة ، وأعترف أنه لو كنا فى مكان آخر ما لجأنا إلى المدرسة العامة إذا تيسر لنا ذلك . فالعلاقات بين الناس نصف لعبة الحياة ، ويجب أن يغفر الله لنا اختيارها . وكان إمرسون يقول : « ارسل ابنك إلى الكلية وسوف يعلمه الصبيان » . وقد دفعنا هذا الاعتبار فى إحدى الحالات لتجربة مدرسة خاصة من أبدع مدارس نيويورك . وتبينا فى الحال أن أثيل لا تحبها ، فكانت تشكو من الضوضاء واختلال النظام مما كان مدير المدرسة يسميه حرية . ومع أنها تعلمت بعض الأشغال الصغيرة المفيدة ، وكانت تلعب كثيراً فى الهواء الطلق تحت إشراف دقيق ، إلا أنها كانت تسألنا بين حين وآخر : « متى يعلموننى شيئاً ؟ » وفى نهاية السنة الدراسية بالمدرسة الخاصة ألحقناها بمدرسة عامة (كانت الدراسة بها ممتدة شهراً) ووجدنا أنه على الرغم من ارتفاع مستوى ذكائها عن عمرها كانت متأخرة فى مواد كثيرة لازمة لنقلها إلى فصل أرقى ، فاضطررنا إلى إثقال الصيف بالدروس .

الخطوة التالية لوجود المدرسة هى التعاون معها ، بألا نسمح بالغياب أو التأخير إلا لأسباب حيوية ، وبأن نراقب تقدم أثيل اليومى وتقاريرها الشهرية ، ومتابعة واجباتها المنزلية ، والعناية بدروس كل يوم فهذا كله جزء من مهمة الأبوة ، لا يعين المدرسة فقط بل يساعد الطفل كذلك ؛ وكل نظام أو ترتيب فضيلة تضاف إلى الخلق . وكنا إذا تمشينا فى الحقول أو الغابات ندير الحديث ما استطعنا حول التاريخ أو الجغرافيا أو الأدب ، وتعنينا قصص مشهورى الرجال المثيرة أكثر من الحكايات الخيالية والخرافات .

هل الجغرافيا ثقيلة ؟ إذن لم كانت السفينة الراسية فى الميناء ، أو الجارية بالشراع أو البخار إيحاء لا يقاوم بقصة خيالية ؟ وحيث كان كل طفل يشتاق إلى رؤية البلاد الأجنبية فطريقة تعليم الجغرافيا هى الرحلة الحقيقية أو الخيالية . يرسو المدرس بتلاميذ الفصل فى شنغهاى أو سنغافورة ، فترحب بهم سائر أسرار آسيا . أو يرتقون نهر النيل من الإسكندرية إلى الحبشة مارين بمثات من القبائل الغريبة إلى جوهانسبرج ومدينة الكاب ، فتصبح أفريقية حقيقة لا مجرد اسم . لم لا تجهز كل مدرسة بأفلام رحلات ناطقة كتلك التى يعرضها هولمز ونيومان ، فيها مناظر وصور متحركة أمتع ألف مرة من الصور الثابتة ؟ والتاريخ . . . لا ريب أنه بالنسبة للأطفال يجب أن يكون ما سماه كارليل « سيرة العظماء » . ذلك أن تعويد الطفل تمجيد العبقرية يجعله يخلص لها إخلاصاً لا يمحوه العمر حتى إذا ذوى كل حب آخر .

ولكى ندخل تلك المملكة من العقل حيث لا يزال العباقرة المذكورون يعيشون ويعلمون يكفى أن نقرأ ونرى . علينا أن نرى غير متعجلين تلك الصور والتماثيل التى دوّن فيها الفنانون فلسفاتهم فى الحياة على صفحة الوجوه وهيئة الأجسام . وأن نتجرع على مهل عظمة البارثينون Parthenon (١) أو رقة شارتر Charters (٢) ورشاقتها . وأن نقرأ فى غير عجلة تلك الكتب التى صفاها الزمن لنا من نفاية كل عصر تحمل الميراث العقلى للإنسانية . ما أبهج أن نستمع لأثيل تروى القصص التى سمعتها فى المدرسة ، عن روفائيل ورمبراندت ، وليوناردو وميكائيل انجلو ، ورينولدز وجنزبورو ، وروبنز وفانديك . عندما كنت فى سنها لم أكن أحلم بوجود هؤلاء الرجال . وأبهى من ذلك أن نجذبها إلى عالم الأدب لتستمتع بحياة شكسبير ، وشللى ، وملتون ، وبيرون ، وجوته ، وهوجو ، وهويتمان ، وبو .

إنها لم تكد تتم مقرر الأدب المؤلف خاصة لمن هن فى مثل سنها . والفصول

---

(١) البارثينون معبد كبير فى أثينا أنشىء فى القرن الخامس قبل الميلاد وزينه فيدياس المثال المشهور بالتماثيل . (المترجم) .

(٢) كنيسة مشهورة فى فرنسا بنيت على النظام القوطى فى القرن الثانى عشر الميلادى واشتهرت بزجاجها الملون ، وأصبحت علماً على الكنائس فى العصر الوسيط . (المترجم)

القديمة فى هذا الأدب مثل «أليس فى بلاد العجائب Alice in Wonderland»[1]، و « الكتاب الفارغ بقلم لير Nonsense Book »[2]، بديعة جداً . ولكن معظم الكتب المتأخرة المؤلفة للأطفال فاسدة بسبب سوء تقدير ذكاء الطفل ، وليس فى مادتها ما يثير ، ولا تبعث على القراءة أو تعمل على تنميتها . إنها تفاهة عقلية قد يفقد معها الأذكياء من الأطفال كل ذوق للقراءة إذا كان غذاؤهم هو هذا اللبن الخاثر . وثمة آداب كلاسيكية للبالغين يمكن أن يستمتع بها الطفل فى التاسعة أو العاشرة ، مثل « الفرسان الثلاثة » و « الطِلَّسم » بل« والبؤساء » ، ثم إن الطفل يزيد استمتاعه بها حين نخبره أنها لم تكتب للأطفال ولن تجد فى سائر أنحاء العالم أفضل للطفل من «روبنسن كروزو» و« رحلات جالفر» ، ومع ذلك لم يكتب أى واحد منهما للأطفال ، ولا يفهمهما البالغون حتى الآن .

ومن الممتع فى كل بيت يعتز بالكتاب أن يخصص صاحب الدار ساعة للقراءة بصوت عال ليلة أو أكثر فى الأسبوع . ويستطيع الأطفال والبالغون أن يتناوبوا القراءة ، على أن تؤجل التصويبات حتى يتم قراءة الفصل كله ، ثم يصحح الوالد أخطاء الطفل على حدة . إنى لأذكر كيف كانت أثيل وابن عمها لويس ذو العينين السوداوين وثلاثة من الكبار يقرأون « إنوك أردن Enoch Arden »[3] بهذه الطريقة ، وكيف كان الطفلان يستقبلان كل سطر باهتمام شديد ، وكيف سادنا الصمت جميعاً فى نهاية القصة إلى أن اتجهت أثيل نحو أمها وأخفت وجهها فى ذراعيها وبكت . وقد رتبنا الآن الحصول على عدة نسخ من « تاجر البندقية» ، لنوزع الشخصيات فيما بيننا ، ونقرأ التمثيلية بكل ما فيها من بلاغة ونحن جالسون أمام نار المدفأة .

---

(١) قصة غريبة للكاتب لويس كارول كتبها عام ١٨٦٥ ، يصور فيها أليس وقد وقعت فى بئر فوجدت نفسها فى مملكة غريبة ، حيث أصبحت هى جنية ووقعت لها مغامرات مع الأرنب الأبيض والقطة العزيزة ، ألخ . (المترجم) .

(٢) ادوارد لير Lear (١٨١٢ - ١٨٨٨) كاتب انجليزى ومصور مشهور بأشعاره الفارغة الغريبة الخيالية . (المترجم) .

(٣) شعر منثور لتنيسون ، البطل بحار تحطمت سفينته على جزيرة مهجورة ، ثم عاد بعد غيبة سنوات ليجد زوجته قد تزوجت غيره ، فلما رآهما سعيدين صمم على التخفى وبارح المكان ومات كسير القلب . (المترجم) .

وإنى لأعتقد أننا نحصل آخر الأمر على « التربية الحرة » عن طريق القراءة لا عن طريق المدارس العالية والكليات . وقد شرح المستر إفرت دين مارتن[1] Everett Dean Martin شرحاً حسناً معنى هذا الاصطلاح ، وإنى أوصى بحرارة بهذا الكتاب لأولئك الذين يرغبون فى معرفة حقيقة النضوج . إننا نظن فى الوقت الحاضر أن الرجل يكون متعلماً إذا استطاع قراءة الصحف فى الصباح والظهر والمساء . ولكن على الرغم من أن جامعاتنا تخرج كل عام كثيراً من المتخصصين ، فثمة جدب واضح فى الثقافة الحقيقية فى حياتنا . نحن أمة فيها مائة ألف مدرسة ولا يكاد يوجد فيها عشرة متعلمين .

فلا غرابة أن يتساءل «ولز» وغيره عن فائدة التعليم الجامعى . وهذه مغالاة فى التشاؤم لإبراز هذه النقطة . ومع ذلك فمن الخير أن ينهض أحد لينقد فكرتنا بأن الإكثار من المدارس والمتخرجين فى الجامعات قد يجعل منا شعباً ذكياً . لقد عانت مدارسنا وكلياتنا معاناة قاسية من تصور سبنسر التربية على أنها تكيف الفرد بالبيئة التى يعيش فيها . كان ذلك التصور تصوراً ميتاً وتعريفاً ميكانيكياً منتزعاً من فلسفة ميكانيكية تنفر منه أى روح خلاقة ، وكانت نتيجة ذلك أن غزت مدارسنا العلوم الميكانيكية والنظرية مع استبعاد إلى حد ما تلك المواد « غير النافعة » كالأدب والتاريخ والفلسفة والفن . وهكذا نخرج صنفاً حسناً من الموظفين والكتبة والفنيين الذين يلتهمون بعد انقضاء عملهم اليومى الصحف المصورة ويزدحمون فى الملاهى التى يرون فيها دائماً على الشاشة نفس صور الحب ، وعلى المسرح نفس الموضوعات .

هذا التعليم الميكانيكى و « العملى » يخرج أشباه رجال لا رجالا كاملين . فهو يخضع الحضارة للصناعة ، والبيولوجيا لعلم الطبيعة ، والذوق وأدب السلوك للمال . ولكن يجب أن يكمل التعليم الإنسان فينمى فيه كل قوة خالقة ، ويفتح عقله على جميع مظاهر العالم الممتعة والنافعة . فصاحب الملايين الذى لا يجد فى بيتهوفن أو كوروت أو هاردى ، أو فى توهج غابات الخريف عند غروب الشمس ، إلا أصواتاً وألواناً لا دلالة لها ، إن هو إلا مادة إنسان فقط ، تحجب

---

(١) عالم أمريكى فى التربية (١٨٨٠ – ١٩٤١) له كتاب « سلوك الجماهير » وغيره (المترجم) .

نوافذ روحه الملوثة نصف هذا العالم . إن التعليم العلمى الخالص يجعل ممن يخرجه مجرد أداة ، ويترك صاحبه غريباً عن الإحساس بالجمال ، ويهبه قوى بعيدة عن الحكمة . ولو أن سبنسر لم يكتب قط عن التعليم لكان ذلك أفضل للعالم .

ومن الخير أن تأخذ اللغتان اللاتينية والإغريقية فى الزوال من جامعاتنا لأنهما كانتا تستنفدان من الجهد مئات المرات أكثر مما تستحقان ، وفى ذلك يقول هاينى : « لو كان على الرومان أن يتعلموا اللاتينية أولا ما بقى لهم من الوقت ما يغزون به العالم » (١) . ولكن مع أن لغتى اليونان والرومان لازمتان لفقهاء اللغة فقط ، فإن أدب هذين الشعبين يكاد يكون مما لا يستغنى التعليم عنه . وقد يتجاهل أحدنا عامداً فرجيل وهوراس ، ولوكريتيوس وشيشرون ، وتاسيتوس ومرقص أوريليوس ، ويكون مع ذلك ناضجاً . ولكن ليس من بين سائر أدوات التعليم التى أعرفها شىء أبدع وأوثق من دراسة حياة الإغريق فى شتى مظاهرها ، فى حكوماتها الديمقراطية والمستبدة ، وخطابتها وتمثيلياتها ، وشعرها وتاريخها ، وبنائها ونحتها ، وعلمها وفلسفتها . دع أى طالب يستوعب حياة عصر بركليس وآدابه ، وعصر النهضة ، وعصر التنوير ، وسيحصل على تعليم أفضل من أى جامعة يمكن أن تقدمه إليه . ليس معنى التعليم أن نحصل على إجازة تثبت خبرتنا فى العمل أو التعدين أو النبات أو الصحافة أو الفلسفة . ولكنه يعنى أننا نصل إلى فهم أنفسنا والعالم الخارجى والرقابة عليهما بوساطة استيعاب ميراث الإنسانية الخلقى والعقلى والذوقى ؛ وأن اختيارنا قد وقع على أفضل معين لنا فى الروح والجسد جميعاً ؛ وأننا قد تعلمنا أن نجمع بين الأدب والثقافة ، وبين الحكمة والمعرفة ، وبين التسامح والفهم . فمتى تخرج جامعاتنا مثل هؤلاء الرجال ؟

٥ — نشوة

ما أبهى أن أرى أثيل جالسة على مقربة من نار الموقد ذات مساء ، وقد مدت ساقيها القويتين إلى جانب الكرسى ، وكشفت عن ذراعيها البضتين ، وتلمع شريطتها الحمراء فوق قميصها ، وقد تهدل شعرها فوق كتابها ، وأضاء

---

(١) Memoirs, vol. 1, p. 12.

وجهها بالاهتمام والإحساس ، وهامت روحها بعض الوقت إلى أماكن بعيدة وأزمنة سحيقة ، مسافرة موسعة حدودها ، رافعة نفسها يوماً إثر يوم أكثر ملاءمة لصحبة عظماء الرجال والنساء . ستغرم بهم واحداً بعد واحد وتستمع إليهم ، من سافو إلى ديوز ، ومن أنبادقليس إلى نيتشه ، ومن بوذا إلى دستوفسكى ، ومن لاوتسى إلى أناتول فرانس . إننا نراها تنمو فى صحبتهم عاماً بعد عام ، فتتعلم الحكمة من سقراط ، والإخلاص من ليوناردو ، والتسامح من المسيح . إننا نحلم بكل ما يمكن أن تكون عليه .

إنا لنرجو ألا تصبح مسرفة فى التعليم حتى تحب الحياة ، وأنها لن تؤثر الكتب على الأصدقاء ، أو الطبيعة ، أو الأمومة . لن نعدها كاملة مهما تكن سيرتها فى الحياة ، إذا لم تعمل على رفع طفل آخر إلى مرتبة أعلى من مرتبتها كما نحاول أن نرفعها فوق أنفسنا . ولكنها ستكون حرة ولو لتخيب أملنا . الحق أن أحداً لا يستطيع أن يهدى غيره إلى الصواب . إنها ستختار طريقها الخاص ، وتحدد صالحها الخاص . ويكفينا أن الله قد وهبنا إياها ، وأن ضحكتها وصراحتها قد أشاعا ألواناً من البهجة فى هذه الحياة المشكوك فى أمر أصلها والغامضة المصير .

الفصل الثانى عشر

إعادة بنـاء الخلق

١ — عناصر الخلق

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن التربية الأخلاقية والعقلية للطفل . أما نحن الكبار — أثمة أى احتمال يمكننا من صياغة أنفسنا فى قالب أفضل مما نحن عليه ؟

من المزايا التى يتمتع بها المفكر فى هذا العصر الجبار المعقد أن يتمكن من ملاحظة مولد علم من العلوم . ويبدو واضحاً من هذا الصخب الذى نراه فى المعامل أن « الفلسفة» ، وهى أم العلوم (الجاحدة) ، تتولد الآن عن طفل آخر ، وأن دراسة « العقل » آخذة فى الانتقال ببطء ومشقة من ظلمات الميتافيزيقا إلى أنوار الملاحظات والتجارب المضبوطة . ولم تتم الولادة بعد ، وحتى فى فلسفة فرويد لا يزال العلم الرضيع متعلقاً بأمه تكاد تخنقه النظريات والأساطير .

إن علم النفس يقف اليوم حيث كان علم الطبيعة يقف حين كتب فرانسيس بيكون كتابه « تقدم العلم » منذ ثلاثمائة عام . فقد وضع بيكون فى شجاعة أفزعت حتى رجال النهضة الأبطال خطة للعلوم تبرز المشكلات الحيوية التى كانت تحتاج إلى الحل ، كما تنبأ فى كل صفحة بالانتصارات التى تجلبها المعرفة الجديدة . وأصبحت هذه الانتصارات الطبيعية اليوم حقائق كلية وعميقة أبعد مما كان يتصورها حتى خيال بيكون . وغيرت الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيكا وجه الأرض فى كل مكان ، وجعلته أكثر خضوعاً لإرادة الإنسان . والإنسان فقط بما فيه من إرادة وخلق هو الذى يبدو أن يد التغيير لم تتناوله .

ماذا لو كان علم النفس آخذاً فى التحرك صوب نتائج مماثلة ؟ لو ظهر

فيلسوف آخر مثل بيكون يضع خطة مشكلاته ويتنبأ بانتصاراته ، فمن يصدقه ؟ إننا لا نزال على شاطىء البحر الغريب يغشيه ظلام الخرافات والأساطير ، ولا ندرى مسالكه وأطرافه المترامية ولا الجزر السعيدة التى توجد فيه . ولكن العلم الجديد سيخاطر بالإبحار مهتدياً بالمحاولة والخطأ trial and error فى وجه رياح التحيز وسحب الجهل . سيقف علم النفس بعد ثلاثمائة عام حيث يقف علم الطبيعة اليوم ، ولا يزال ناقصاً أشبه بلوحة لرودين[١] Rodin ، ولكنه مع ذلك سيد تقبض فيه يد العلم فى النهاية على « العقل » و « القلب » و « الروح soul » ، وعلى المادة الأولى لإرادتنا المهوشة التى تصوغها المعرفة ببطء فتحيلها إلى جنس أرقى فى قوته ورقته .

أنفسنا هى محور اهتمامنا ؛ وبمقدار ما يبحث علم النفس فى أنفسنا لا فى تجريدات فهو أشبه بالمأساة التى يمكن أن نكون نحن أبطالها . وبعد ، فمن نحن ؟ قردة ؟ . . . أم آلهة ؟ أم قردة فى طريقها إلى أن تصبح آلهة ؟ ما هذه « الطبيعة البشرية » التى يبدو أنها تحدد تواريخ لا عدد لها ولا تتكرر مآسيها ؟ ما أسس الخلق والسلوك وعناصرهما ؟ أهى كلية وراسخة بحيث لا يمكن أن يتغير الخلق أبداً ؟ أو هل يمكننا — كالبارون منشاوزن Münchausen — أن نرفع أنفسنا برباط أحذيتنا من تيار ميراثنا وفيضانه ؟ فلننس إلى حين كل شىء آخر ، ولنبحث فى طبيعة الخلق character ، واضعين إياه تحت مشرحة الملاحظة والفهم . وسنضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض فيما بعد — إذا استطعنا .

حين تنازل علم النفس القديم ليبحث فى مثل هذا الشىء الأرضى الذى يسمى سلوك الإنسان ، قسم الخلق أربعة أنواع : الدموى ، والسوداوى ، والصفراوى ، والبلغمى . هذه القسمة سخيفة وغير طبيعية . إنها تدل فقط على أن الناس إما فَرِحُون أو مكتئبون أو ناريون أو أنجلوسكسون[٢] . قد يكون الأمر كذلك ، ولكن هذه الألفاظ صفات لا تفسيرات . ونظن أن الذى اخترعها كانت له

(١) فرنسوا رودين (١٨٤٠ — ١٩١٧) مثال فرنسى له لوحات مشهورة : « القبلة » و « المفكر » و « الرجل الذى يمشى » وله تماثيل لفكتور هيجو ، وبرنارد شو ، وبلزاك وغيرهم . وكان يبرز العاطفة بالحركة فى الرخام . (المترجم) .

(٢) يريد المؤلف أنهم باردون (المترجم) .

نظرة فسيولوجية طريفة عن الخلق ، باعتبار أنه يرجع إلى الدم أو المرارة ، أو الصفراء والبلغم – ولو أننا نتردد فى هذين الأخيرين . واقترح بين « Bain » أن يقسم الخلق إلى فكرى ووجدانى وإرادى ، تبعاً لتغلب الفكر أو الشعور أو الإرادة . ولكن لما كان الصنف الإرادى قد يكون وجدانياً كذلك (كالحال فى الإسكندر أو إليزابيث) أو فكرياً أيضاً (مثل قيصر ونابليون) ، وحتى الفكرى قد يكون وجدانياً (مثل أفلاطون وأبيلارد ونيتشه) ، فلن نظفر بنتيجة إذ نخرج من الباب الذى دخلنا منه .

وثمة طريقتان كما رأينا (١) لبحث الإنسان ، الأولى تبدأ من خارج بالبيئة وتعتبر الإنسان آلة للتكيف ، وترد الفكر للأشياء و« العقل » « للمادة » ، وتشيع فى مادية سبنسر المقنعة ، وسلوكية واطسن . إنها وجهة نظر يمثلها أسماء لامعة : دمقريطس ، أبيقور ، لوكريتيوس ، هوبس ، بل وسبينوزا الرقيق . وأخرجت لنا فى البيولوجيا دارون ونظرية الانتخاب الطبيعى ، باعتبار أنها تحدد التطور عن طريق البيئة . وأخرجت فى علم الاجتماع باكل Buckle وسبنسر وماركس وتفسير التاريخ فى ضوء المؤثرات الاقتصادية ، والجماهير غير الشخصية ، والأحداث اللاإرادية .

والطريقة الثانية تبدأ من الداخل : فهى تنظر إلى الإنسان كنظام من الحاجات والدوافع والرغبات التى تحثه على دراسة بيئته واستغلالها والسيطرة عليها . وهى تؤثر أن ترد الأشياء إلى الفكر ، والمادة إلى العقل . إنها تبدأ من « الكمال الأول Entelechy » الذى قال به أرسطو (وكان يذهب إلى وجود غاية باطنة تحدد كل صورة) ، وتسود فى مذهب برجسون الحيوى ، وبراجماتية وليم جيمس . وبالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة يتصل بهذه النزعة أفلاطون وديكارت وليبنتز وكانط وشوبنهور . وأخرج لنا هذا الاتجاه فى البيولوجيا لامارك ونظرية التطور عن طريق الجهود المتكررة الناشئة عن رغبات لم تشبع . وأدت فى علم الاجتماع إلى ظهور جوته ، وكارليل ، ونيتشه ، وتفسير التاريخ فى ضوء المؤثرات النفسانية ، والعبقرية الخالقة ، والإرادة المتغلبة .

---

(١) الفصل الثالث .

وتحليل الخلق الذى نورده هنا يصطنع الطريقة الثانية ، على الرغم من علمنا بالمزالق التى تعترض الطريق . وهذا التحليل يعتبر الإنسان معدلا للبيئة أكثر مما يعتبر البيئة معدلة للإنسان . فكل حديقة فى الطريق ، وكل طائرة فى السماء ، دليل ورمز على إبداع الحياة . والخلق فى ضوء هذه النظرة مجموع ميول ورغبات موروثة . إنه خليط من الغرائز تلونها البيئة والمهنة والتجربة وتعيد ترتيبها . ويمكن أن نصنف الدوافع الأساسية لخلق الإنسان فى قائمة أولية تتميز فيها العناصر الأولية من الثانوية .

جدول عناصر الخلق

غرائز		عادات		وجدانيات	
موجبة	سالبة	موجبة	سالبة	موجبة	سالبة
١ طلب الطعام	التجنب	الصيد	النظافة	الجوع	النفور
		الاستهلاك		القسوة	
		الادخار		الجشع	
		الامتلاك			
٢ القتال	الهرب	الاقتراب	التراجع	الغضب	الخوف
		الاستطلاع	التردد	التعجب	الشك
		القبض باليد	التفكير		
		السيطرة	الخضوع	الكبرياء	الضعة
٣ الحركة	النوم	اللعب	الراحة	النشاط	التعب
٤ حب الاجتماع	العزلة	الكلام	الانطواء	الابتهاج بالجماعة	الخجل
		الاستهواء			
		التقليد			
		الاستحسان			
٥ التناسل	الامتناع	الغزل	الحياء	الرغبة الجنسية	العفة
الأبوة				الحب الأبوى	

هذه الغرائز والعادات والوجدانيات هى العناصر العامة فى خلق الإنسان ، وجميعها موجودة فى كل رجل وكل امرأة ، وإنما يرجع اختلافنا فى الخلق والمزاج إلى أن هذه العناصر لاتتكرر فى أى شخصين بدرجة واحدة . وتحدد نوعنا وجنسنا الغرائز التى تكوننا ، وتحدد البيئة الموضوعات التى ستبحث عنها ، والعادات التى ستتولد منها . فالبيئة الخالية من المخاطر تقلب القتال جعجعة . فإذا ازدادت المخاطر تحول هذا القتال نفسه إلى مكر ؛ فالغريزة واحدة ، ولكن التعبير عنها مختلف . والأضرار البسيطة توجه الهرب إلى الحذر ، والأضرار البليغة قد تجعل الهرب جبناً . فجميع التجارب هى على هذا النحو كشفٌ للغرائز أو كبت لها . ففى كل يوم يقوى ميل بالنجاح ، ويضعف آخر بالكسل أو الفشل . وفى كل منا عدة أخلاق كامنة (خليط من العادات) تنتخب البيئة بعضها بالتدريج وتقويه ، كبرادة الحديد التى يجذبها المغناطيس من الخشب. لذلك كان أول مبدإ يعمل على تغيير الخلق هو البحث عن بيئة أخرى تفسح المجال لقوى جديدة تلعب على الأوتار الخامدة فتخرج من أنفسنا أنغاماً أحلى وأبهى .

ويزيد فى توضيح غرضنا من قائمة العناصر التى بسطناها إذا وجهنا إليها بعض الملاحظات العارضة . فنحن نلاحظ أن كل غريزة هى تعبير نفسانى عن نظام فسيولوجى . فطلب الطعام ثمرة الخلايا الخاوية القلقة . والقتال والهرب يظهر أنهما خلقا للأيدى والأرجل . وفى ذلك يقول لنكولن دفاعاً عن الفارين من صفوف القتال : « إذا كان الله القدير قد وهب الإنسان ساقين قائمتين على الجبن فكيف يستطيع مغالبة الفرار بهما ؟ » . وغرائز الحركة (الحبو ، المشى ، الجرى ، التسلق ، القذف ، إلخ) هى القصيدة التى تنشدها جميع أعضاء البدن فى اتساق . والتناسل نتيجة احتقان العناصر ؛ وحب الاجتماع ، الذى يبدأ فى صورة الأسرة ، هو ثمرة التناسل . فكل غريزة ترسخ جذورها فى بنيتنا ، وكل تغيير فى الخلق يقطع أوصال الغريزة يضر الجسم كما يسىء إلى النفس .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن كل غريزة لها مصاحب انفعالى ، وهو ضرب من الشعور يبلغ من الأصالة والعمق مبلغ الدافع الذى تقابله . وهكذا يصاحب الجوع البحث عن الطعام ، والاشمئزاز تجنبه ؛ ويصاحب الغضب القتال ،

والخوف الهرب ؛ والتعجب الاستطلاع ، والشك التردد ؛ والكبرياء السيطرة ، والضعة الخضوع ؛ والنشاط الحركة ، والتعب السكون ؛ واللذة الاجتماعية حب الاجتماع ، وضرب من الحزن مع العزلة ؛ وتصاحب الرغبة الصلة الجنسية ، والخجل الضعف الجنسى ، والأمومة والأبوة العناية بالأطفال . فكما ترتبط كل غريزة فينا باللحم والعظام ، تحترق كذلك فى طبائعنا إلى حرارة الشعور .

ونلاحظ أخيراً أن كل غريزة لها ما يضادها فى الفرد نفسه ، فثمة موجب وسالب فى الغريزة ، كما ذهب أنبادقليس بالنسبة لجميع الأشياء . فنحن مزودون ، كما يقال ، بدوافع للبحث عن الطعام وتجنب المضار ، وأخرى للقتال والهرب ، وثالثة للسيطرة والخضوع ، ورابعة تدفعنا إلى التقدم مستطلعين والتوقف شاكين ، وخامسة للحركة والتلمس باليدين والجلوس والسكون والنوم ، وسادسة للغزل والتمنع والخفر، والعرض والاحمرار خجلا ، وسابعة للقيادة والاتباع والابتداع والتقليد ، وثامنة للانغماس فى الجماعة والاعتكاف فى عزلة . جملة القول نحن مهيأون بالطبيعة (أى بالخلق الطبيعى) لأن نقبل وأن نتجنب فى آن واحد دافعاً أو مشكلة أو موقفاً .

فى هذه القسمة الثنائية للعناصر سر التمييز الأساسى بين السجايا الإنسانية. فلن يتيسر لنا فهم التاريخ أو التعامل مع جيراننا إذا قسمنا الرجال والنساء إلى دمويين ومكتئبين ، وإلى أخيار وأشرار . أما التمييز الوحيد الذى تقبله الطبيعة ويسلم به التاريخ فهو الذى يفصل فى السجايا بين الموجبة والسالبة ، والقوية والضعيفة . إننا نبنى آلافاً من المشروعات المثالية فى عبارات من الفضيلة ، ويحطمها الواقع بلسان القوة . ومن الواضح أن هناك أشخاصاً تسودهم الدوافع الإيجابية ، حيث يوجد عندهم الميل إلى التقارب والبحث والتغلب والتملك . وهؤلاء فلنسمهم أصحاب الخلق الإيجابى . وثمة آخرون تسودهم الدوافع السلبية ، وهم أولئك الذين يتغلب فيهم الميل إلى التردد وإلى التراجع وإلى البحث عن ملاذ وأمن وإلى الخضوع ، وسنطلق عليهم أصحاب الخلق السلبى . ولست تجد رجلا أو امرأة يتصف بإحدى المجموعتين فقط . ويشبه هذا التمييز ما بين الذكر والأنثى ، ويسمح بكل ضرب من التدرج وكل لون من الامتزاج . ولكن إذا

حاولنا تصور هذه النماذج المتعادية فى صورتها الكاملة ، فينبغى أن نعرف القطبين اللذين يتأرجح الخلق الإنسانى بينهما ، والمكونات الأخيرة لكل شخصية .

٢ — الخلق السلبى

هذا شخص سلبى ؛ إنه يميل إلى التهوين من شأن نفسه . ومع أنه يعجب إعجاباً شديداً بكل صفة حسنة فى وجهه وهيئته وعقله ، فإنه يشعر دائماً شعوراً سخيفاً بضعفه الجسمانى ، وينظر بطرف عينه حاسداً العامل الطويل القوى ، أو رجل الأعمال الذى يخطر أمامه منتصب القامة معتزاً بهيئته وصحته . إن ما يفتقده الشخص السلبى قبل كل شىء هو الجسم والطاقة والقوة المحركة . إنه يفتقر إلى الدم الكافى للقوة .

انظر إليه وهو يجلس إلى المائدة تجده فاقد الشهية ، متبرماً بالطعام ، سريع التقزز . لا يأكل االلحم دون أن يفكر فى المذبح ، ويعتقد صيد السمك توحشاً . ولا يجد لذة فى طعامه . إنه (ينقنق) وينتقى كالعصفور الذى لم يعرف الدود . وينظف أصابعه بعناية . ويخرج من الحجرة وهو يود ألا يراه أحد ، وكأنه يشعر بأن كل إنسان يراه .

إذا لقى إنساناً راقبه خلسة ، ناظراً إلى جميع أعضائه ما عدا عينيه ، وازناً قوته ونواياه . وإذا شتمه أحد أو هدده خطر ، ارتعش دهشة وخوفاً . إنه لا يحس بالغضب المحرك ، ولكنه يحترق فى غيظ مكتوم . وعنفه قناع من يعرف أنه سيخضع . إنه يحجم عن تحمل المسئولية ويهرب من التجربة إلى الأمن الهادىء والعزلة الساكنة فى بيته . إنه يهوى القراءة وخاصة قصص المخاطر والمغامرات وفلسفات الإرادة والقوة . إنه يعجب براعى البقر والسوبرمان ويعتقد أن العالم إذا كان ذكياً أودعه ثقته فى قيادته . وإذا نجح فى أمر نسبه إلى نفسه ، وإذا أخفق فالذنب ليس ذنبه ، بل البيئة (أى غيره من الناس) هى المذنبة ، أو الحكومة ، أو نحس الطالع . إنه متشائم بالنسبة للعالم ، متفائل فيما يختص بنفسه.

ومع ذلك فقد يكون عظيماً بقوة ذلك الخيال العريض نفسها ، وهو خيال يزدهر فى نفسه بسبب ضعفه الجسمانى . وإذا لم يصطدم خياله بعمل أو بملاحظة

موضوعية سبح طليقاً فى عوالم روحية من الفلسفة والشعر ، ويستطيع أن يخرج منها ، إذا قيد نفسه ساعة يصبر فيها على العمل بين حين وآخر ، فنوناً رائعة الجمال ، أو أفكاراً مثالية ، أو صوراً وشخصيات جديدة فى الأدب والفن . فإذا ارتفع فى هذا المجال إلى القمة قد يصبح شاعراً عبقرياً . وإذا بقى فى المرتبة الدنيا كان رجلا فكرياً intellectual – لا مفكراً thinker بل شخصاً يفكر فقط . وكلما نمت الحضارة ، وأصبحت الحياة معقدة كثيرة المتاعب ، وأضحت القدرة الجسمانية أقل حيوية للبقاء ، ازدحمت المدن بهؤلاء المراوغين المحترفين الذين يشبهون دون كيشوت فى الخيال وهاملت فى العمل .

ولما كان التراجع والتوقف عن العمل جوهر نفسه ، فإنه يتجنب حقائق الحياة ومهامها القاسية ، ويلقى بنفسه فى أحضان أحلام اليقظة التى يظفر فيها بكثير من الانتصارات ، ثم يتحول خجله إلى اعتكاف بينه وبين نفسه ، وتصبح خلوته مراوغة بارعة تسود أولئك الذين خلفتهم الطبيعة ضعافاً . وهو اجتماعى بمعنى أنه يخرج من عزلته إلى صحبة عاطفية فى جماعة صغيرة يأتلف وإياهم . فإذا وجد من أحد أذناً صاغية فهو فى نعيم الجنة . وتزدحم المقاهى بهذا الصنف من الناس . وهو اجتماعى أيضاً فى تعطشه لاستحسان الجمهور ، فهو يتوافق فى حياء مع العرف ، وإذا كان يفتقد الإحساس الأرستقراطى بالنبل فعنده إلى حد ما الضمير الديمقراطى الذى يعكس فى أمانة أخلاق الجماعة . جماع القول أنه طيب القلب ، وعطوف ، وشكور ، ومخلص ، ومحترم . ولا يتصف بالقسوة وإن كان على شىء من الغلظة . وهو يميل إلى الشذوذ الجنسى ، ولكنه لا يرتكب إلا الذنوب الصغيرة .

وضعفه ناشىء قبل كل شىء عن أن دوافعه لا ينسقها غرض يتحكم فى حياته ويوحدها . فهو فى قلق مع أنه ينشد دائماً الاستقرار . ويتنقل ساخطاً من مشروع إلى مشروع ومن مكان إلى آخر ، فهو كالسفينة التى لا ترسو على أى ميناء إلى أن تفسد شحنتها . وهو عاجز عن النظام أو العمل ؛ ومع أنه يبدو فى بعض الأحيان مشغولا بحالة عصبية إلا أنه يجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار فى تحقيق غرض محدود احتجاجاً برتابة العمل ، أو بغضه ، أو صعوبة

وسائله . إنه شديد العزم إذا عقد النية ، كثير التراخى عند التنفيذ ، وتجتاحه موجات من الهوى تبعث القوة ، ولكنها تنتهى بالإجهاد السريع والتسليم بالاضطراب . إنه يشتهى ألف رغبة ولا إرادة له لتنفيذها .

وأخيراً فهو يؤثر فى مسائل الحب أن يكون مطلوباً لا طالباً . وحتى إذا ظهر بمظهر من يقترب من المرأة ، ويضيق عليها الخناق ، ويتغلب عليها ، فهى التى تدبر له ذلك بكياسة السياسى الذى تخفى أساليبه . حقاً إنه يخجل بعض الشىء من ظفره ، ويحمر وجهه إذا استعاد ذكره ، ويتساءل : ألم تكن متعته فى الخيال أشد وأقل نفقة. ولكنه يستسلم للقدر ويصبح زوجاً أميناً، مخلصاً لبيته، مظهراً حبه فى كل مناسبة ، مضحياً بنفسه وهو ساخط فى سبيل أولاده . ويموت قبل أوانه يلفه سواد من الإحساس بالتفاهة ؛ ويعجب لِمَ خلق ، وإذا لم يكن الأولى ألا يولد .

٣ - صاحب الخلق الإيجابى

هذا الصنف إيجابى ، عنده من الصحة والبأس واللحم والدم ما يجعله ينفذ بنظره إلى صميم العالم ، ويلبس قبعته على هواه . إذا نظر إليك واجهك وجهاً لوجه ، ولكنه لا ينظر إليك لأنه مستغرق فى عمله ، سائر إلى غرضه ، فهو يؤثر الاهتمام بالأغراض على الأشخاص .

وجميع دوافع الإقبال على الأمور قوية فيه ، فهو يأكل بلذة وبغير تكلف ، ويذبح الذبائح ليخمد شهوته . وتتطور النزعة الطبيعية لتسوير نباتات إقليمه وحيواناته إلى شهوة عامة للكسب والامتلاك . وشعاره : « التحصيل والتملك » . ولما كان أكثر اعتداداً بنفسه من الرجل السلبى وأعظم منه نجاحاً ، فهو يجعل كل أمة حديثة صورة من نفسه — مسرفة فى الكسب والتحصيل . (أو لعل له زوجة مسرفة) .

كان يمكن فى قديم الزمان أن يصبح باروناً إقطاعياً أو جندياً بدلا من أن يكون رجل أعمال ، أو تاجراً ، أو رئيساً للغرفة التجارية ، أو مهندساً . ولا يزال كثير من نزعة القتال القديمة موجوداً فى نفسه ، وهى على الرغم من

تهذيبها واختفائها ، إلا أنها إيجابية كتلك التي كانت تدفعه إلى رمي النبال . هذه النزعة إلى القتال هي التي تمنحه القوة على تحقيق أغراضه . فليست الرغبة عنده طموحاً على استحياء ، بل دافعاً لا يمكن تجنبه . وعنده من الشجاعة أكثر من الفضيلة ، ومن الضمير أقل من الكبرياء . وأطماعه قوية ، فهو يحتقر الحدود ويبتعد عن الصغار . وإذا لقي رجلا أقوى أو أثبت منه لا يجنح إلى الانحناء أمامه في خضوع ، بل يمجده ويحاول مناظرته ومنافسته ، ولا ينهزم إلا بعد كفاح يستنزف كل جهده .

وهو محب للاستطلاع ، يفتنه كل عمل ، ويبحث عقله بنشاط في كل جديد وغريب . ولكنه لا يميل إلى النظريات ، بل يتجه بفكره رأساً إلى العمل وإلى تحقيق غرضه . إنه لا يستطيع أن يفهم لم يزعج المرء نفسه بالرياضيات العالية أو الشعر أو التصوير أو الفلسفة . وإذا كان فيلسوفاً اشتغل بالأعمال كما يشتغل بالفكر . إنه أشبه بسنيكا منه بأرسطو ، وببيكون منه ببركلي ، وبفولتير منه بكانط .

إنه يؤمن بالأفعال أكثر مما يؤمن بالأفكار ، ويعتقد كقيصر أن الأمر لا يتم إذا بقي منه شيء لم ينجز . يحب الحياة الصاخبة ولا تغريه بساطة الريف وما فيه من دعة ، لأنها أنسب للشيخ ولاتليق بالرجل . وهو بناء متحكم يحب أن يشعر بأن الناس حجارة تحت يده يشيد بهم ما يشاء ، ويجدون لذة خفية في الانقياد إليه ، وهو بذلك واثق ومتأكد وسعيد . ونشاطه يفيد صحته ، ولايترك له وقتاً للتفكير أو التأمل . إنه يستمتع بالحياة على قبحها ، ولا يفكر كثيراً في الماضي أو المستقبل . إنه يشك في المثاليات ، ولو كان الأمر بيده لبادر بالقضاء على كل تطرف. إنه يمقت المثاليين — أولئك الذين يخطبون ، أويكتبون المقالات ، ويقررون العلاقات الدولية من أبراجهم العالية .

ومع ذلك فهو في بعض أحواله رجل فكر : ليس شاعراً ، ولا مصوراً ، ولا فيلسوفاً نظرياً ، ولا عالماً يقبر نفسه مع المخابير أو المجلدات القديمة ، بل مخترعاً ، ومهندساً معمارياً يخلق التصميمات المبتكرة ، ومهندساً ميكانيكياً عنده من الشجاعة ما يجعله يذرع الأنهار العظيمة بقصائد منظومة من الصلب والحديد ،

ونحاتاً يبعث الحياة فى الرخام ، وعالماً على استعداد لمواجهة العالم كله دفاعاً عن حقائقه الجديدة . وحتى فى هذا الصدد فإنه يعيش مائة حياة من العمل مقابل حياة واحدة من الفكر .

وهو عادةً اجتماعى ، يساير جميع من يلقاهم ، اللهم إلا إذا كانت آراؤهم متطرفة فى البعد عن المألوف . يحب الاعتكاف ليلا ، ولكنها عزلة يقضيها مع أسرته لا خلوة فكرية ينفقها وحيداً بينه وبين نفسه . وقلما يتوقف ليتأمل نفسه ، و « عقده النفسية » قليلة ، ولا يتكلم فى علم النفس أبداً . إذا أثارته زوجته انصرف إلى ناديه ، وحين يضيق بناديه ينغمس فى عمله ينسى نفسه فيه . إن روتين حياته النشيطة يحميه من ثورة الأعصاب .

أما ما يمتاز به قبل كل شىء فهو الإرادة . ليس عنده إرادات بل إرادة واحدة ، ولا خليط من المطامح والرغبات التى يلغى بعضها بعضها الآخر متعادية فى غير توافق ، بل وحدة فى الهدف ، وترتيب للأغراض ونظام شامل للغايات تنسجها فكرة مسيطرة دائمة فى طبيعة خلقه . إرادته منظمة ، فهو يرسم دائرة تبين حدود المحتمل ،ويسوق بداخلها الوسائل التى تكفل إرادته القوية تحقيقها . وإذا أنتج عملا أخرجه كاملا لا أجزاء من عمل أو « خواطر » . وهو إذا انطلق استغرق فى العمل غير حافل بما يقال عنه . إنه هادىء ، لا يكثر من الكلام ، ولا يعنف فى العمل أو الحديث فيحترق . وهو صاحب أهواء ، عظيمة ، ولكنها تجتمع فى هوى واحد يحركه إلى هدف واحد ، لا أهواء متناثرة تنتهى إلى الفوضى . إنه يعلم لذة ضبط النفس ، ويستطيع مغالبة الرغبات والدوافع المباشرة ، ثم ينظم نفسه تدريجاً إلى كُلٍّ واحد . إنه ثمرة الصحة والذكاء .

وهو فى الحب صاحب المبادأة ، ويقتحم بابه رأساً وبسرعة تحبب فيه جميع النساء . ويتزوج مبكراً لأنه سريع العزم ، ويؤثر فضول القرب على حذر التمنع . والأفضل فيما يظن أن يحتمل عبء الزوجة والأبناء من ثقل العزلة وبنات الهوى . وتعينه واجبات الأبوة المفروضة على أن يصبح قوياً ، ولكنه يعرف كيف يمزج الرقة والحنان بما عنده من بأس . ولا يحبه أولاده فقط بل يحترمونه . ويتعلم فى منتصف العمر بعض فنون الفراغ ، وفى الشيخوخة يجدد مع أحفاده شباب

نفسه . وتحضره الوفاة فلا يشك أبداً فى أن الحياة كانت نعمة ، ولا يأسف على شىء إلا على أنه سيترك اللعبة لصغار اللاعبين .

٤ — بناء خلق جديد

لقد رسمنا صورتين مثاليتين ، وقسمنا الإنسانية قسمة تكاد تكون مانوية[1] Manichaean إلى صنف ضعيف وآخر قوى . وإذا تركنا هاتين الصورتين على حالهما ، متباعدتين متطرفتين ، بقيتا بغير نفع . أما إذا قاربنا بينهما فقد يسهل علينا تحليل أنفسنا وربما معرفتها . أيمكن إلى حد متواضع أن نخلص أنفسنا من السلبية والضعف ، وأن نصطنع بعض الصلابة الإيجابية التى نعبدها خفية فى أعماق قلوبنا ؟ أيمكن بالفكر أن نضيف يداً جديدة إلى جسمنا ؟

يجيب الناس عادة عن هذا السؤال بالتشاؤم . يقولون : كلا ؛ خلق الإنسان مكتوبٌ عليه ، وما كان عليه المرء منذ ولادته يجب أن يبقى معه إلى آخر الرواية . ويقولون إن الطبيعة البشرية لا تتغير أبداً ، وإن السجايا مغروسة فى الغالب فى شروط الجسم ، فى الصحة والقوة وتكوين الأعضاء وأدائها وظيفتها . فكيف يمكن لهذه الصفات العميقة الجذور أن تتعدل ؟

وثمة حقائق تلقى شكوكاً خطيرة على هذا الاعتقاد العتيق فى ثبات الخلق . ذلك أن تاريخ العصر الذى نعيش فيه يعد مثالا قوياً ومدهشاً للتغير الشامل من الأخلاق السلبية إلى الإيجابية . فمنذ خمسين عاماً كنا نصف المرأة بأنها مخلوق فى العادة سلبى بالنسبة إلى الرجل ، ويمكن أن نسمها بمعظم الصفات التى وضعناها فى صورة الصنف الضعيف . فقد كان ضعفها الجسمانى أساس شعور بالنقص ، يتبين ذلك من أسفها الكامن الذى يكاد يستقر فى قلوب جميع النساء على أنهن لم يخلقن رجالا . ومن هذه « العقدة » كان ينطلق غيظ ملتهب ، كأنه صادر عن نار كامنة ، يتفجر بين حين وآخر فى حرارة كلامهن . وكانت طبيعتهن الرقة فى العمل . وإذا كانت ألفاظهن فى بعض الأحيان عنيفة ، فإنما

(١) نسبة إلى مانى الحكيم الذى ذهب إلى وجود أصلين فى العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر . (المترجم) .

ذلك كان تعويضاً « وانتقاماً » من ذلك الخضوع الجسماني الذى كن يلقينه كأنه إلاهة الانتقام فى كل ركن من طريق الحياة . كن « الجنس الضعيف » .

على ذلك الأساس الجسماني قام حياء المرأة وخضوعها . ولم تكن تتحرق كالرجل شوقاً إلى التملك . حقاً كان يبدو أن مهمتها من جيل إلى جيل ليست إلا مغامرة الأمومة فقط ودائماً . كانت تنحنى لسيدها ، وتتلقى ضرباته بحب ، وتسلم له اسمها ومالها كما تسلم له جسدها ، وتلتمس سعادتها فى تحقيق إرادته . كانت الحياة شاقة وكئيبة فى نظرها ، ولكنها كانت تعتاض عنها ، ما استطاعت ، بالانغماس فى القصص والشعر الرومانتيكى مما كان يرفعها بعض الوقت إلى عوالم أبهى .

ثم أمسكت بها الصناعة فى عجلاتها ، فدخل التنويع على حياتها كالسيل الجارف ، وظهر عندها المسئولية الشخصية والاستقلال الاقتصادى ، فهى تتناول مالها الخاص وتصوغ بنفسها أخلاقها . كانت ترتاب من قبل فى تفوق الرجل ، وكانت تراه دائماً فى الأمور الأولية سليم الطوية ، أليفاً ، سهل الانقياد ولكنها كشفت الآن ، كما اكتشف هو نفسه بعد زمن طويل ، ذلك العابد الخجول للملاكمين والرياضيين ، أن السباق فى العالم الحديث ليس للأسرع ولا المعركة للأقوى . وأن الانتخاب الآن أكثر من أى وقت مضى بالدهاء والذكاء ، وأقل بالقوة الجسدية ومجرد العضلات . وسرها أن تجد أن الضعف الجسماني ليس عقبة كؤوداً فى سبيل النجاح والسيادة ، وأن أعظم العباقرة كانوا فى بعض الأحيان أضأل الأجسام ، وأنه حتى المرأة المختنقة بالمشدات ، والمقيدة بالقمصان ، والمثقلة بالتقاليد والمنغصات ، قد ترتفع إلى مصاف الزعامة والقوة وتصبح سيدة نفسها .

من أجل ذلك كلما تقدم « التغيير الأكبر » ، تغلبت المرأة على سلبيتها واصطنعت صفات إيجابية ، وأصبحت شخصية قادرة على الابتكار ، وعلى تولى أعمال الإدارة ، وعلى التفكير الواقعى ، وتشربت حب التملك وأصبحت من الباحثات عن الذهب . وأهملت هدوء البيت الهادىء ونزلت إلى الأسواق الصاخبة ، واتخذت من المطريات والمساحيق بديلا بالماء ، وأرخت المشد ،

وقصرت الفستان ، وكشفت عن نحرها للشمس . أصبحت عبادتها أقل ، ولعبها أكثر . واستنشقت إلى أعماق صدرها الهواء المنعش لحريتها الجديدة ، وأصبحت أقوى نفساً وأشجع روحاً ، حتى تكاد فى جيل واحد تتفتح وتزدهر عن إيجابية لم يسبق لها مثيل .

وذعر الرجل وصدم ، وارتفعت شكواه الأخلاقية من « المرأة الجديدة » . ولكن التغيير جاء على عينه ، واستمر بغير إذنه ، فرأى نفسه وقد واجهته المرأة فى الصناعة ، والتجارة ، والمهن ، والتعليم ، ورأى فى جميع تلك الميادين وجه المرأة ، مع أن تلك الميادين كانت من قديم الأزل وقفاً عليه بحق الملك المقدس . وامتعض لاستقلالها فى العمل والإرادة ، وتطلع إلى تلك الأيام الخوالى أيام العذارى العفيفات وإلى نعمة البيت القديم (كما تبدو لمن يتصورها بالذاكرة) الذى يمتلىء بالأطفال وكعك التفاح . لقد كافح هذا الغزو برجولة وتذمر .

ولكنه خسر المعركة . فى أمريكا على الأقل كادت المرأة تتم انتقالها المدوخ من الخضوع السلبى إلى السيطرة الإيجابية . وأخذت الصفات القديمة كوداعة العذارى وطاعة النساء تختفى ، فالرجل من بين الجنسين هو الذى يغضى الآن حياء ، ويلمح بطرف عينه فى رهبة ممزوجة بالخجل قدم الفتاة العصرية وساقها وركبتها وغير ذلك من المفاتن . واختفت من وثائق الزواج هذه الألفاظ : « تحب ، وتعز ، وتطيع » ، وسوف تعود قريباً لتكون أسئلة توجه للرجل . ولكنها ستكون زائدة عن الحاجة .

فلنحكم من خلال هذا التغيير السريع على إمكان تبديل الخلق . ومن الواضح أن تلك الصفات التى سميناها إيجابية وسلبية ليست متأصلة فى الجسد لا تنفك عنه . حقاً أساسها موجود فى قوة الجسم وضعفه ، ولكنها يمكن أن تعدل إلى ما لا نهاية له بتهيئة الفرصة وسلطان البيئة . فالمرأة نفسها قد تطورت فى آلاف الأحوال من الإحجام إلى الإقدام ، ومن الخنوع إلى السيادة . فمن الواضح أن الخلق قابل للتعديل — إذا شئنا .

وهنا تلقانا صعوبات دقيقة . فبعضنا لا يرغب فى تبديل الخلق ، إذ يرى أن أحوالنا موافقة لأنفسنا تمام الموافقة ، وأن أخطاءنا ذاتها محبوبة جداً ، وليس

من المناسب إجراء أى تعديل فى أساس الخلق . يضاف إلى ذلك ظهور مشكلة أخلاقية هى أن إيجابية الخلق لا تتفق مع الأخلاق ، وأن الأمة التى يتألف أفرادها من مثل هؤلاء الأقوياء فقط مما رسمنا صورتهم قد تصبح مارستاناً يزخر بالمنافسة القاسية والحرب البشعة . ونحن نعترف بأن مهمتنا ليست تعليم الفضيلة ، وسوف يكون فى أدويتنا بعض الأمور المنافية للأخلاق . وإذا كنا نبدو فى هذه اللحظة حريصين على تغليب القوة على الفضيلة ، فذلك لأن قوة الخلق هى ذاتها فضيلة حسنة . ولعلنا نعتمد على قسوة الظروف فى أن تمدنا بعدد كاف من الرءوس المنحنية والإرادات المحطمة .

وإذا شئنا أن نجعل أنفسنا أقوى مما نحن عليه فيجب أن نفهم أولا ما الإرادة : فهى ليست شيئاً غامضاً يقف بين عناصر الخلق كما يقف قائد الأوركسترا يشير تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك ، بل مجرد مجموع سائر الدوافع والميول وجوهر وظائفها . وليس لهذه القوة الدافعة التى تكوّن الخلق قائداً تطيعه خارج ذاتها ، فمن بينها ينشأ دافع قوى يحكم بقية الدوافع ويوحدها . وهذه هى « قوة الإرادة » أن ترتفع رغبة عليا فوق غيرها بحيث تنجذب نحوها وتتهيأ بها إلى التحرك فى اتجاه واحد نحو هدف واحد . وإذا لم يتيسر لنا أن نجد غرضاً منسقاً ، وغاية حاكمة نضحى فى سبيلها بكل رغبة أخرى من رغبات القلب ، فالوحدة بعيدة عنا ، ويجب أن نصبح فى النهاية حجراً فى بناء رجل آخر .

من أجل ذلك لا خير فى قراءة الكتب التى تصف أمثل الطرق لتكوين الخلق . فهذا مثلا كتاب الأستاذ ليلاند Leland (لندن ١٩١٢) بعنوان « أعندك إرادة قوية ؟ أو كيف تنمى . . . أى ملكة عقلية بطريقة الإيحاء الذاتى السهلة ؟» . وثمة مئات من هذه الروائع التى يمكن أن يشتريها البسطاء فى أى مدينة. ولكن الطريق أصعب من ذلك وأطول .

إنها طريق الحياة . فالإرادة ، التى هى الرغبات الموحدة ، هى (كما بين شوبنهور) الصورة المميزة للحياة النامية . ولا تزيد قوتها وبنيتها إلا حين تلتمس الحياة لها أعمالا جديدة وانتصارات جديدة . فإذا شئنا أن نكون أقوياء فينبغى أن نختار أولا هدفنا ونرسم بعد ذلك طريقنا إليه ، ثم نستمسك بذلك الهدف

مهما يحدث . وينبغى أن نحذر فى هذا الصدد ألا نضطلع من أول الأمر إلا بما يمكن أن نعتمد عليه فى أنفسنا ليمضى بنا إلى النهاية . ذلك أن كل فشل سيضعفنا ، وكل نجاح يجعلنا أقوى . والعمل هو الذى يخلق العمل ، ونكسب مع كل نصر بسيط قوة وثقة تدفعاننا إلى نصر أعظم . فالعمل يخلق الإرادة .

وعندئذ قد يكون المرء شديد الحذر فيولى ظهره جلائل الأعمال ، ويظل صغيراً على الدوام . ولكن تأكد أن الانتصارات المتواضعة لن ترضيك ، فتستيقظ فى الصباح بعد فوزك الذى احتفلت به طول اليوم ، فتبحث عن مهمة تالية أعظم . واجه الخطر واحتمل المسئولية ، واعلم أنهما قد يهزمانك ، وقد يحطمانك ، ولكنك لن تموت إلا موتة واحدة ليست شيئاً مذكوراً فى تاريخ الفلسفة . وإذا لم يؤد الخطر والمسئولية إلى موتك فسوف يشدان عزمك ، ويرفعانك فتكون أدنى إلى العظمة وأقرب من هدفك . فلتمض ولا تقف .

وتقدم لنا حالة من التحليل النفسانى فى هذا الصدد دليلا على مرونة الخلق والمصير الإنسانى . ففى نظرية أدلر المشرقة يقوم أساس العبقرية والأمراض العصبية على حد سواء فى بعض العيوب العضوية — كضعف أو تشويه لعضو فى الجسم — التى يؤدى وجودها المستمر إلى حث النفس على الكفاح للتغلب على النقص . أو كما قال فرانسيس بيكون : « كل من يصاب فى شخصه بشىء ثابت يبعث على الاحتقار ، فعنده كذلك فى نفسه حافز دائم إلى النجاة وتخليص نفسه من الزراية » . وهكذا استطاع بيرون برجله الخشبية أن يتقن الرقص ، وأن يفسق إلى الحد الذى جعله ذئباً اجتماعياً . وأصبح دمستين التهتاه خطيباً مفوهاً . وحين أصيب بيتهوفن بالصمم شق طريقه إلى موسيقى ليس لها مثيل . كذلك المرأة التى كانت تحترق باحتجاج الرجولة على الضعف والخضوع الجسمانى ، أخذت تقتحم طريقها بإقدام متخطية جميع التقاليد والحواجز . وفى ذلك يقول أدلر : « هذا الشعور الذى يحس به المرء عن نقصه يهيىء له الدافع الباطنى على التقدم » . إن أولئك الذين كانوا خلف الصفوف هم الذين يشقون طريقهم إلى الأمام ويتولون قيادة الجنس . وقد خرج من طبقة العمال أعظم المخترعين . فالأجسام العليلة كانت بين حين وآخر موئلا للنفوس العظيمة ، ومحركة لها .

٥ ـ علاجات

ولكن ماذكرناه كلام عام يبلغ من الغموض مبلغ أى نصيحة تنشد الكمال ، فلنقترب من البحث قرباً أشد . ماذا يعمل أحدنا بالذات ليظفر بقوة العقل والخلق ؟

فلتنشد الصحة أولا ، يقبل عليك كل شىء آخر ، أو على الأقل لن تحسب لغيابها حساباً كبيراً . أو كما قال نيتشه : « أول ما يطلبه الرجل المهذب أن يكون حيواناً كاملا . ويجب لذلك أن نتخير أجدادنا . ولما كان هذا الأمر عسيراً ، فيمكن على الأقل أن نختار الغذاء المناسب والعادات الصحيحة » . وكان مولسكوت يقول : « الإنسان هو ما يأكله » . وليس ثمة دواء ساحر عام لهذه المسألة ، فكل إنسان يجب أن يكتشف سمومه الخاصة به ، وعليه أن يتجنبها . ضع كل ما يزعجك فى قائمة سوداء ولا تدعه يقترب من مائدتك مرة ثانية ، إلى أن تصل بعملية من الحذف إلى معرفة الغذاء الذى يمنحك سلام الهضم . وإذا لم تستطع فضلاتك أن تخرج بدون معونة العقاقير ، فسل نفسك أى مادة شريرة تضعفك إلى هذا الحد المخجل ، أهو الدقيق الأبيض البديع ، أم الحلوى والفطائر النسائية ، أم الوجبات التى تنقصها الخضراوات والفاكهة ؟ احتفظ بأمعائك وفمك مغلقاً ، هذه هى أنشودة الحكمة .

إذا كان لا بد أن نعيد بناء أنفسنا فينبغى أن نبدأ بالمعدة ، ثم نسمح لكل عضو آخر من أعضاء الجسم بالازدهار . فالطبيعة لم تخلقنا لنكون رجال فكر ولا كتبة ولا صحفيين ولا فلاسفة ، بل خلقتنا لنتحرك ، ونرفع الأثقال ، ونجرى ، ونتسلق . لقد صاغتنا لحياة نستعمل فيها أذرعنا وأرجلنا . وأمثل مسلك لذلك هو الذى يجمع بين النشاط الجسمى والعقلى معاً أو متبادلين . لا بد أن ذلك الحاكم كان على شىء من الحكمة حين كان يحتطب الخشب كل يوم . ولكن هذا ترف لا يقوى على عمله إلا القلة القليلة منا . فالحياة من التعقيد والتنافس بحيث يظهر أننا يجب أن نهب جميع وقتنا وكل طاقتنا لموضوع واحد وغرض واحد كيما نبلغ ذروة النجاح . ولكن فلنجذ على الأقل الحشائش فى حديقتنا ، ولنهذب أسوارها ، ونقلم أشجارها ، ولنضح بأى شكل لتكون لنا

حديقة وسور وأشجار ، وقد يكون لنا من الوقت فى المستقبل ما يسمح لنا بالعمل فى البستان . وبعد فالصحة أفضل من الشهرة ، لأن العبقرية بائسة فى حياتها ، ولا تشتهر إلا بعد موتها .

وقد نحتاج فى طلب الصحة والقوة إلى بيئة جديدة . ومما يعزينا على الدوام أننا إذا كنا لا نستطيع تغيير ما ورثناه فيمكننا تعديل موقفنا . كانت الفلسفة الحتمية السائدة فى علوم العصر الفكتورى تتصور الإنسان فى تعاليمها الجديدة مخلوقاً مركباً من البيئة والوراثة . وليس هذا بالضبط صحيحاً ، ما دام الإنسان مركباً من البيئة والوراثة ، ومن هذه القوة الغريبة الدافعة إلى التقدم والإبداع التى نسميها الحياة . ومن الصحيح كذلك ، ونستطيع أن نضيف ذلك إلى علاجنا ، أننا لن نغير أنفسنا تغييراً جوهرياً إلا إذا غيرنا المؤثرات التى تؤثر فى أبداننا من ساعة إلى أخرى ، وتصوغنا آخر الأمر على صورتها . أنعيش بين قوم قذرين أو أميين لا يهتمون إلا بالأمور المادية والمأكولات ؟ — فلنبرح هذه الأرض ، مهما يكلفنا ذلك ، وننشد صحبة أفضل . أيوجد فى أى مكان سحيق نفس أصفى منا ، وعقل أعلم من عقلنا ، وخلق أمتن من خلقنا ؟ فلنفتش عنه ونشد إليه الرحال بعض الوقت ، حتى نتمكن من تلقاء أنفسنا من منافسته فى هيئته ومماثلته فى عمله . ثم لا نزال نتطلع إلى رجال أعظم . فاتباع العظماء خير من قيادة الأغرار . وقد كان قيصر مخطئاً ، إذ الأشرف أن يكون المرء تابعاً فى روما من أن يكون سيداً بين البرابرة .

وإذا لم يكن — فيما نظن — ثمة شخص أعظم منك فى الدائرة الضيقة التى ترغمك الحياة على العيش فيها ، فالتمس صحبة العباقرة فى الماضى . تستطيع أخذ نصيحتهم بقرش واحد ، والاستماع فى ألفة إلى كلامهم ، والاندماج فى الجو الصافى الذى يحيطهم . ومن الخطأ أن يظن المرء ألا أثر للكتب ، فأثرها بطىء كالماء المتدفق الذى يحفر الوادى ، وهى تنبئنا كل عام بجديد . ولا يتمكن أحد من إنفاق ساعة كل يوم فى صحبة الحكماء والأبطال دون أن يرتفع خطوة أو خطوتين بهذه الصحبة . فلا عذر لمن يجد نفسه صغيراً حين يستطيع أن يجلس إلى مائدة واحدة مع نابليون ، أو يمشى مع هويتمان ، أو يتعشى آخر الليل مع فردريك وفولتير .

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن الأمور الخارجة عنا . أما فى داخلنا فالمشكلة أصعب ، إذ ما أعجبنا من برية ، ومن حديقة رغبات بغير زرع ! كيف نعرف ما الزرع الذى يجب أن نسقيه هنا ، والذى نتركه ليموت هناك ؟

وأول قاعدة عظمى لتكوين الخلق هى الوحدة ، أو بنص عبارة جوته : « أن تكون كلاً أو تتصل بكل » . والثانية هى : أقدم ، ولا تتراجع . فهذا هو خط النمو الذى يسمح الرجل الحكيم بشىء من الانحراف عنه ، ولكن لا إلى الحد الذى يجعل الاستثناء يطغى على القاعدة . ففى المجموعة الأولى من الغرائز مثلا يمكن أن نفسح مجالا للنظافة مع أنها متأصلة فى الدافع السلبى وهو التقزز . وفى ذلك يقول نيتشه : « يجب أن يبتعث الإحساس بالنظافة عند الطفل حتى يصبح عاطفة ، وسوف يرفع نفسه فيما بعد فى أحوال جديدة على الدوام إلى فضائل جديدة » . والنظافة تأتى فى المحل الثانى بعد التدين . وكيف تكون الحال إذا لم تكن الآلهة موجودة ؟ ومع ذلك فلا نود أن ننقلب زهاداً من ذوى المظهر البارد الدائم ، ولا أبولون ذا الشعر المستعار ، ولا ضحايا كفتاة الزينة . سنشعر دائماً بحسد خفى لأحد الحكام المتأخرين الذى لم يسمح لتدينه أن يتدخل فى شهيته.

ويمكن أن نقف الموقف نفسه من غريزة القتال وطليعتها الكبرياء . فهاتان فضيلتان لا رذيلتان . ومع أننا سنقلمهما فإنما ذلك لدفعهما إلى النماء ، لا إلى المشاكسة ولا إلى الغرور : فالغرور توهم انتصارات تجىء ، والكبرياء تذكر انتصارات تمت ، والمشاكسة مقاتلة الضعيف . وليس من الضرورى أن يكون معنى المقاتلة الصياح والضرب ، فقد تعنى الثبات فى هدوء وأدب على الهدف . ولا يحتاج المرء فى طموحه إلى أن يكون قاسياً وجشعاً ، فالرجل القوى يعطى إذا كسب ، ويجد لذة فى البناء أكثر من التملك . إنه يبنى ليسكن غيره ، ويكسب المال لينفقه الآخرون . إن الخلق لا ينشأ من الاستهلاك الظاهر ، بل من البناء والخلق .

وينشأ كذلك من العمل . عليك أن تتجنب المهن التى تجعلك تفكر وتفكر وتفكر دون أن تدع لك فرصة للعمل . ولأن يكون المرء نجاراً يقطع الخشب تحت أشعة الشمس ، ويراقب الأشياء تنمو مع كل ضربة فأس ، خير من أن

يظل يجمع حساب الدائن والمدين يوماً بعد يوم ، أو يتفكر فى شقته المنعزلة فى أدلة جديدة عن حقيقة العالم الخارجى . الأفضل أن تعزف مقطوعة موسيقية من أن تسمع مئات المقطوعات . فلنلعب ولنضحك ، وإذا كانت الحياة تبدو بين حين وآخر (كالبحر فى يوم هائج) هزلا مراً ، فلنذكر المزاح ، ولنغتفر المرارة .

تزوج ، فهذا أفضل من الاحتراق ، كما جاء فى الكتاب المقدس ، إذ ييسر الزواج للمرء أن يفكر فى شىء آخر . قد تكون الشقيقة عند شخص شاذ مثل نيتشه أفضل من الزوجة ، ولكن الرجل السوىّ سيجد الأخت غير ملائمة . فإذا حلت هذه المشكلة الأولية ، استطعنا أن نتحرك فى العالم دون أن تلهينا هفهفة الفساتين عند كل منعطف . فنحن نعلم أن جوهر النساء واحد مهما تختلف ملابسهن ، وأن ثمة دائماً تحت الظواهر المتعددة حقيقة واحدة . وبذلك نصبح قانعين فى اعتدال ونتعلم حتى إن نحب زوجاتنا بعد حين . قد يكون صحيحاً أن المتزوج يطرق أى باب للحصول على المال ، ولكن المتزوج وحده هو الذى يستطيع أن ينمى فى نفسه هذه المرونة .

اتخذ أصدقاء ، وإذا لم تستطع اتخاذهم ، فانظر فى نفسك واعمل على تعديلها حتى تتمكن من المصادقة . والعزلة دواء سريع الشفاء ، ولكنها ليست غذاء . والخلق كما تصور جيته لا ينمو إلا فى تيار العالم . وإذا انعطفنا على أنفسنا جرفنا التيار ، حتى (كما يقال) إذا كان علم النفس صناعتنا . فالنظر على الدوام فى داخل أنفسنا مطية إلى الكارثة التى قد تصيب لاعب التنس إذا وقف يحسب عن وعى المسافة والسرعة والزاوية والضربة ، أو لاعب البيانو الذى يفكر فى أصابعه . والصديق خير معين ، لا لأنه يستمع إلينا حين نفضى إليه بذات أنفسنا ، بل لأنه يضحك منا . فنحن نتعلم بواسطة الأصدقاء قليلا من الموضوعية ، وشيئاً من التواضع ، وبعضاً من الأدب . نتعلم قواعد الحياة فنحسن لعبتها . إذا شئت أن تكون محبوباً فكن متواضعاً . وإذا طلبت إعجاب الناس بك فكن معجباً بنفسك . وإذا نشدت الحب والإعجاب فاجمع بين التواضع الظاهر والزهو الباطن . ولكن الزهو نفسه يمكن أن نجعله حياء ، بأن يخفى فلا يرى ولا يسمع . لا تكن مسرفاً فى الشطارة لأن النكات تلذع إذا جرحت ، ويجب

أن يكون شعارنا : لا يحيا شيء ما لم يكن حسناً De vivis nil nisi bonum . لا تكشف أبداً عورة أحد ، فلن يغفرها لك إلى الأبد . لا شيء فى العالم هو أفضل الأشياء جميعاً ، فافعل الخير ما استطعت ، وتكلم بالمعروف دائماً . ولا تتهالك على قول الصدق . يجب أن تقبل العرف الذى يفرضه المجتمع عليك ، كيما يمنحك بعض الحرية فى اصطناع قوانينه . إن المجتمع يبيح لك أن تفعل ما تشاء بشرط أن تفعله بلطف ، وبغير أن تتحدث عنه . وفى أثناء ذلك فلنتقدم إلى الأمام بهدوء دون إثارة عداوات لا لزوم لها . أقبل دائماً ، ورحب بالتجربة ، وجرب الحياة حتى تهبك أقصى ما تستطيع حمله ، قبل أن تبرح المحراب تاركاً أطفالك يحرسون اللهب .

ولكن أين موضع الذكاء من هذا كله ؟ هل الخلق مسألة دافع فقط ، ولا فائدة فى العقل والخيال ؟ كنا نود لو كان الأمر كذلك ، فكم يكون شأن الخلق بسيطاً . فأقوى الأهواء هى التى تخلق أقوى الرجال .

ليس الأمر بالطبع كذلك ، فالخيال والعقل فى النفس الكاملة كالضوء الذى يصدر عن النار . وقد نضيع فى الخيالات أنفسنا ، ولكننا قد نظفر بعظيم الانتصارات بالتبصر . وفى ذلك يقول إمرسون : « كان نابليون قبل بدء المعركة يفكر قليلا عما يفعله فى حالة الظفر ، ولكنه كان يفكر كثيراً عما يفعله إذا لم يحالفه الحظ » . أو بعبارة نابليون : « عندما أصمم خطة المعركة فلا أحد أكثر منى جبناً ، فأنا أجسّم لنفسى جميع المخاطر والأضرار الممكنة تبعاً للظروف » . فالخيال قد يحطمنا كما حطم نابليون سنة ١٨١٢ ، وقد ينقذنا من آلاف الكوارث إذا استعرضنا شتى المسالك قبل الانغماس فى العمل .

ووظيفة العقل الحسنة إعانتنا على العمل . وإذا انقلبت وظيفته صناعة فى ذاتها أخرجت لنا مناطقة أو قوماً مثل هاملت ، إذ تظل الحرب مشبوبة بينما تبلى العضلات والخلق . أما إذا أصبحت وظيفة العقل تغليب رغبة على رغبة ، ونقد دافع بدافع آخر ، وكبح جماح شهوة بشهوة أخرى ، فهذه هى أفضل حالات المرء ، حيث تتحرك العناصر الممتزجة فى نفسه هنا وهناك إلى أن تذوب فى وحدة ، وتخرج فى نظرة شاملة واستجابة كاملة .

فدوافعنا هى الريح التى تسير شراع سفينتنا ، ولكنّ كلا منها إذا لم يكبح سحبنا وراءه كالعبيد . ألم تر إلى الرجل الذى تتملكه فقط شهوة الجشع ، أو البهيمية الجنسية ، أو القتال ، أو الثرثرة ، أو اللعب ؟ إن الحرية الكاملة إذا أطلقت لكل دافع أفضت إلى حل الخلق كما فعلت بأبناء قورش ، الذين قامت على تربيتهم نساء سايرن فيهم كل رغبة حتى أضحوا ضعافاً منحلين . ومن ثـمّ كانت غلبة المعرفة على الرغبة ، وهى جوهر العقل بالذات ، الأصل فى أدب النفس وقوتها ، وفى تلك السلطة التى تكبح جماحنا ، وتعد المرجع الأخير للخلق والإرادة . فإما أن يؤدبنا العالم ، وإما أن نؤدب أنفسنا ، ولنا أن نختار بين الأمرين . جملة القول الخلق هو ما سماه « مِلْ » من زمن طويل : « إرادة كاملة الصياغة » .

ولما كان التركيب أصعب دائماً من التحليل ، فإن علم النفس لم يضم بعد أطراف الطبيعة البشرية التى فصل أجزاءها . ولا يزال الأسهل أن تصف الإنسان من أن تدله على ما يجب أن يكون عليه ، وكيف يمكن أن يعدل نفسه . لقد لمسنا جانباً واحداً من موضوع عظيم سيجتذب فى عصرنا كثيراً من المفكرين للبحث فيه . لقد حصلنا العلم بأنفسنا ، والآن نريد أن نبحث عن الفن الذى يخلقنا خلقاً جديداً كما سيطرنا على القارات والمحيطات . ولكن المعرفة قوة ، ومصير كل علم أن يكون فى آخر الأمر فناً يؤتى الثمر الذى يوسع ملك الإنسان . وسيعيش أبناؤنا ليروا الناس تصنع العقول والقلوب كما تبنى السفن والطائرات ودوافع الإنسان ، التى ظلت هادئة تكاد لا تتغير على حين تبدل جميع وجه الأرض من حولها ، ستتشكل من جديد كيما تلائم الحياة الرفيعة والسريعة التى تصنعها الاختراعات التى لا يستقر لها قرار . لقد ازدادت الآن قدرة الإنسان العقلية وتعددت حتى ليبدو أن أصحاب العقول الراقية فى العصر الحاضر ينتمون إلى نوع مختلف عن نوع الفلاح البطىء الاستجابة . وحين يأتى اليوم الذى تساير فيه أذهاننا آلاتنا ، وحكمتنا معرفتنا ، وأغراضنا قوانا ، عندئذ نسلك سلوك البشر .

الجزء الخامس

علم الجمال

الفصل الثالث عشر

ما الجمـــال ؟

١ — حاسة الجمال عند الفلاسفة

من أقوال أناتول فرانس : « أعتقد أننا لن نعرف بالضبط أبداً لم كان الشيء جميلا ؟ » [١] . هذا الحكم الصادر عن فنان عظيم وباحث كبير قد ينصحنا بأن نولى ظهورنا إلى المشكلة التى نبحثها . فإذا كنا سنمضى فى البحث فعلى أساس أن الفلسفة تحتمل كثيراً من « المطلقات Absolutes » ، ولا يقين فيها.

ومن الغريب حقاً أن الفلسفة وعلم النفس لم يفسحا لهذه المسألة مجالا كبيراً . فكل قلب يلبى نداء الجميل ، ولكن قلّ أن تجد عقلا يسأل لم كان الجميل جميلا . ويرى المتوحش الجمال فى الشفاه الغليظة والوشم الأزرق . وكان الإغريق يلتمسونه فى الشباب أو فى هدوء التماثيل وتناسبها . وكان الرومان يرونه فى النظام والروعة والبأس . وفى عصر النهضة كانت الألوان سر الجمال ، ويراه الناس فى العصر الحاضر فى الموسيقى والرقص : ففى كل مكان وفى كل عصر ، تأثر الناس بلون من ألوانه وأنفقوا أعمارهم فى طلبه . الفلاسفة وحدهم هم الذين تحرقوا شوقاً لفهم طبيعته ، والكشف عن سر قوته .

الحق أن هذه المسألة تتعلق بعلم النفس ، ولكنّ علماءه تركوا بحثها للفلسفة ، كما يفعل كل علم حين يحيل على الفلسفة المشكلات التى لا يستطيع حلها . (ولذلك اتصلت مشكلات هامة بالفلسفة ، فعذرها عن التعطل قليل) . ثم إن نزعة العلم الحديث الطبيعية ، وغرامه بالمعامل والتجارب ، واتجاهه نحو البحث

(١) On Life and Letters, vol. II, p. 176.

عن قوانين رياضية وكمية لجميع الظواهر ، كل ذلك جعله عاجزاً عن بحث مثل هذه الحقائق الزئبقية elusive [1] كالجمال (إن لم تكن دائماً غير ملموسة) . ولن توضع مشكلة الجمال فى موضعها الملائم حتى يزداد تسليم علم النفس بالتفسير البيولوجى . وفى أثناء ذلك ترى الفلسفة أن لها مزية الخوض فى هذه المسألة حيث يرهب العلم البحث فيها . وحتى عظام الميتافيزيقا الصلبة فإنها ترتعش وتفزع بعض الشىء حين يحل الجمال إلى حين محل الحق ويلتمس فى الحكمة محراباً .

ومع ذلك فلم يسرع الفلاسفة إلى البحث فى هذا الموضوع المغرى ، فبقى غامضاً إلى حد كبير . كان فيه شىء من الوثنية نفر منه رجال الدين ، وشىء من اللاعقلية جعل شُكَّاك المفكرين يقفون بلا حراك . ولما ظهر بومجارتن Baumgarten ، أول مفكر اعترف بطبيعة الجمال ميداناً مستقلا للبحث ، وأول من أطلق عليه الاسم الفظيع « استيتيكا esthetics » ، اعتذر عن إدخال مثل هذا الموضوع المزرى بين قصور الفلسفة . ولا ريب أنه كان يخشى أنه على الرغم من العنوان المنفر الذى وضعه لهذا العلم ، فالمشكلة قد تصرف أذهان قرائه إلى التماثيل والحسان . وكان وجهه يحمر خجلا لهذا الاحتمال .

وحتى حيث كان الجمال يخلق كثيراً ، ويمجد تمجيداً عظيما — فى اليونان القديمة — عجز الفلاسفة عن الكشف عن سر فتنته . وبدأ فيثاغورس لعبة الجمال بأن رد الموسيقى للعلاقات الرياضية ، وكان يصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق . ولما كان فلاسفة الإغريق السابقون على سقراط كالعلماء قبل دارون خاضعين لسلطان الطبيعة والرياضة ؛ فقد التمسوا تعريف الجمال فى عبارات كمية ومكانية : فالموسيقى انتظام فى الأصوات ، والجمال المجسم (بلاستيك) plastic انتظام فى النسب .

أما أفلاطون الذى لم يكن شيئاً مذكوراً لولا اشتغاله بالأخلاق (كان حريصاً على وقف انحلال بنى وطنه) فقد ذهب إلى الطرف الآخر ، ومزج الجمال بالخير فى وحدة رائعة . فالفن يجب أن يكون جزءاً من علم الأخلاق

(١) المقصود بالاصطلاح أن الشىء يراوغنا ويهرب منا ، وهذه هى صفة الزئبق لاتستطيع أن تضع يدك عليه (المترجم) .

وفيما عدا الفوائد التعليمية للموسيقى (وحتى فى ذلك الزمان كانوا فيما يظهر يصطنعون الشعر لتذكر التواريخ وسير الملوك) فجانب الفن ضئيل إلى أقصى حد فى مدينة أفلاطون الفاضلة . ونحن نجد عند أرسطو الإجابة النموذجية عن سؤالنا ، فالجمال هو التماثل ، والتناسب ، والترتيب العضوى للأجزاء فى كل مترابط . إنه تصور يسرنا أنه يتفق مع « تعاون الجزء مع الكل » ، هذه الفكرة التى تردد صداها خلال هذه الفصول . ويكاد يكون الإغراء بتنظيم هذه المسألة وبيان قواعدها لا يقاوم . ولكن لم كان التماثل والتناسب ، والترتيب والوحدة ، مصادر لابتهاج النفس ؟ هذا هو السؤال الذى يفتننا أكثر من قواعدنا .

لقد أضاف ونكلمان (١) Winckelmann ، ولسنج (٢) Lessing شيئاً يسيراً إلى هذه الأجوبة ، وأسلما قيادهما لسلطان الإغريق . وظل الجمال مسألة هيئة وصورة ، يختص بالرخام المنحوت والمنقوش ، وبالمعابد التى تشيد صامتة فى التلال . كان الجمال صفة تكاد تكون محلية تقتصر على البارثينون وما فيه من حلية . أما أن يكون التمثال محاكاة لكائن حى بديع تسرى فى جسمه الحرارة ، وأن يلتمس سر الجمال فى الأصل أولى من التماسه فى الصورة ، فلم نجد عند هذين المفكرين إلا قليلا من الترحيب لجمود عقلهما وأكاديميته ، فكانا أكثر كلاسيكية من الإغريق أنفسهم .

وظهرت عند كانط وشوبنهور نغمة جديدة : فالجمال صفة للشىء الذى يبعث فى أنفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه ، ويحرك فينا ضرباً غير إرادى من التأمل ، ويشيع لوناً من السعادة الخالصة . وفى هذا الإحساس الموضوعى البرىء عن الهوى يوجد ، كما يذهب شوبنهور ، سر تقدير الجمال والعبقرية الفنية . ويتحرر العقل بعض الوقت من الرغبة ، ويحقق تلك الصور الخالدة ، أو المثل الأفلاطونية ، التى تكون المظاهر الخارجية للإرادة الكلية . حتى إذا كنا مع هيجل عدنا مرة أخرى إلى الإغريق : فالجمال وحدة فى تنوع ، وانتصار

---

(١) يوحنا ونكلمان (١٧١٧ – ١٧٦٨) باحث ألمانى درس فن الإغريق، وأثر فى جيته . ونظريته فى الفن الإغريقى تقوم على الهدوء والعظمة . (المترجم) .

(٢) لسنج (١٧٢٩ – ١٧٨١) روائى وناقد ألمانى كتب عدة دراما (المترجم).

الصورة على المادة ، والمظهر المحسوس لمثال ميتافيزيقى . فلا غرابة أن تكون أثقل الكتب فى العالم ظلا ، هى تلك التى كتبها الناس عن الجمال .

٢ — حاسة الجمال عند الحيوان

ماذا نفعل إذا كان ما سبق كله طريقاً للبحث فاشلا ؟ من يدرى لعل الجمال وظيفة للحياة لا مادة ولا صورة ؟ ومن يدرى لعل علم الحياة يفيدنا ها هنا حيث لم يستطع علم الطبيعة أو الرياضة ؟

فلنذهب إلى الحيوان ولنحاول أن نتتبع حاسة الجمال إلى منبعها . إننا نخطىء حين نفترض أن الإنسان وحده هو الموهوب بالشعور الجمالى . فثمة حيوانات كثيرة أجمل من هذا الذى يمشى على قدمين ، ويخلو من الريش ، ويحكم الأرض حكماً عابراً . كل ما نعرفه أنها قد تستبين الجمال أوضح منا ، وقد تنظر إلينا كما تفعل أحياناً بازدراء هادىء متمهل . إننا نظن أننا وحدنا نشعر بالجمال لأننا نربطه فى النوع الإنسانى بالبصر والصورة المرئية . أما عند الحيوان ، إذا حق لنا أن نتكلم بالنيابة عنهم ، تنشأ هزة الجمال فى تواضع من الفم . وفى ذلك يقول كلب مسيو برجيريه [١] الصغير « شم الكلب لذيذ » . ولا ريب أن الناس فى نظر ريكيت [٢] Riquet كانت لهم روائح كريهة مختلفة .

ومع ذلك فقد يكون لحاسة السمع كذلك قيمة جمالية عند الوحوش . فبعض أجدادنا من ذوات الأربع مشهورة بالتأثر بالموسيقى . وفى ذلك يقول إليس Ellis : « لقد دلت التجارب التى أجريت على عدد متنوع من الحيوانات فى حدائق الحيوان عند سماع توقيع آلات موسيقية أن جميعها باستثناء بعض سباع البحر كانت تؤذيها النغمة الناشزة . . . وتهيج نمر كان يرتاح إلى صوت الكمان عندما سمع المزمار المسمى piccolo . ومعظم أنواع الحيوان تؤثر سماع الكمان والناى flute » [٣] . ولاحظ إليس أن كلبه نبح وعوى

---

(١) Monsieur Bergeret هو الشخصية الرئيسية فى أربع قصص كتبها أناتول فرانس ، يصور فيها أحوال فرنسا وأخلاقها . (المترجم) .

(٢) يريد المؤلف اسم الكلب سالف الذكر . (المترجم) .

(٣) Studies in the Psychology of Sex, vol. IV, p. 122.

عندما سمع ترانيم موسيقية لشوبان ، ولكنه ذهب لينام غير حافل عندما لعبت مقطوعة موسيقية بهيجة . ويضيف دين سويفت Dean Swift بلباقة : « ألم يخبرنا عليان Aelian كيف أن الأفراس الليبية كانت تهتاج إلى الجياد بالموسيقى ؟(وهذا يجب أن يكون نذيراً للنساء العفيفات بعدم الذهاب إلى الأوبرا) » [١] .

وليست عين الحيوان عديمة الحس بالجمال . فبعض الطيور فيما يروى دارون تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملونة البديعة ، وبالحجارة والريش وشرائط النسيج مما يخلفه الناس فى بيوتهم [٢] . والطير المسمى « بوير » [٣] bower-bird يبنى عشاً خاصاً لأنثاه يغطيه بفروع الشجر ، ويفرشه بالحشائش . ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه . ويزين جدران العش بالريش الملون ، والتوت الأحمر ، وأى شىء بديع يجده . وأخيراً يجلل طريق الدخول والخروج بالمحار والحجارة اللامعة . فهذا هو القصر الذى يبنيه طائر البوير لأنثاه . وفى ذلك يقول بولش: « يكفى أن تلقى نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة « بالجميل » توجد فى ذهن هذا الطائر الصغير » [٤] .

وقد رؤيت بعض الطيور تحدق فى صورتها فى المرآة . ويمكن اصطياد عدد كبير من القنابر بمرآة صغيرة تعكس أشعة الشمس ، فتتجه الطيور نحو هذا الشعاع تسوقها رغبة عمياء على الرغم من توهجها القاتل . والعقعق والغراب وغيرهما من الطير تسرق الأشياء اللامعة كالفضة والحلى وتخفيها . فمن يدرى أى دافع يسوقها : أهو الزهو ، أم الاستطلاع ، أم الجشع ، أم الذوق الفنى ؟ [٥] .
ولكن هذه الظواهر الجمالية التى تحس فيها الحيوانات بالأشياء غير الحية نادرة ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) Darwin, The Descent of Man pp. 112. 469.

(٣) طائر يعيش فى استراليا ويشتهر بعشه الذى يزينه بالريش الجميل والقواقع (المترجم).

(٤) Bolsche, W., Love-Life in Nature, vol. II, p. 285. Gourmont R. de, The Natural Phil. of Love pp. 192.

(٥) Descent of Man, p. 469.

وتقديرها للجمال الذى تعبر عنه ضئيل وثانوى بالإضافة إلى قلق الذكر المحسوس الذى يظهره بعرض نفسه على الأنثى زمان السفاد. ويقول دارون: «ينحصر تذوق الجميل عند معظم الحيوانات، بمقدار ما نستطيع أن نحكم، فى جاذبية الجنس الآخر» (١).

ولسنا نجد شيئاً أعظم غناء فى بحثنا من هذه العبارة التى دونها عالم من أزهر العلماء وأشدهم تواضعاً. فإذا كان دارون على صواب، فمن الواضح أن حاسة الجمال (كما تثبت فى الغالب وتنكر دائماً) تتفرع عن الجاذبية الجنسية وتفيض عنها. فالجميل هو ما كان أولياً مرغوباً رغبة جنسية. وإذا كانت الأمور الأخرى تبدو لنا جميلة فهى مشتقة عنها، وعن طريق الصلة المطلقة بهذا الينبوع الأصلى للحاسة الجمالية. وحين يضع شوبنهور فى كتابه «ميتافيزيقا الجميل» مشكلة الجمال فى عباراته التى يمتاز بها قائلا: «كيف تكون المتعة بالشىء الجميل واللذة من رؤيته ممكنة دون أن ترجع المتعة نفسها إلى إرادتنا؟» فالجواب هو: ليس ذلك ممكناً، فالموضوع الجميل يتوافق سراً مع إرادتنا. والإرادة الأساسية والمطلقة عند الفرد فى فلسفة شوبنهور هى إرادة الاتصال الجنسى. فلنبحث هذا الأمر.

٣ — الجمال الأولى: الأشخاص

يكون الشىء جميلا قبل كل شىء لأنه مرغوب، أو بعبارة سبينوزا: إننا لا نرغب فى الشىء لأنه حسن، بل نسميه حسناً لأننا نرغب فيه. وهكذا فنحن لا نرغب فى شىء رغبة أصلية لأنه جميل، ولكننا نعتبره جميلا لأننا نرغب فيه.

وكل شىء يحقق فى طبائعنا حاجة أساسية يحمل فى طياته بعض الإمكانيات الجمالية. فطبق الطعام يجب أن يكون جميلا فى نظر الجائع كما تبدو المرأة فى الثلاثين فى عين طالب الجامعة، الملىء المعدة بالطعام. ولكن دع طالب الجامعة sophomore يجوع وسوف تخمد حاسته بالجمال حتى لأجمل الغادات. إنه سيعتبرها مجرد شىء صالح للأكل. (ولا يزال شىء من هذه الشهوة الأولية باقيا فى جميع حبنا) وفى نظر المؤلف الذى كافح سنين عدة ليشق طريقه

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٤.

إلى المطبعة تبدو أول صفحة ننشرها شيئاً بارع الجمال لن يسئمها أى شعب ذكى للبلى ، ولكن هذه الصفحة نفسها قد تكون، فى نظر فلاح أو صانع له مطامع أصح من تأليف الكتب ، مجرد ورقة مهملة تصلح لأن يمسح بها موسى الحلاقة . فالجميل بناءً على ذلك فى أدنى درجاته هو المظهر المحسوس لما يشبع الرغبة القوية . الحق أن الجميل لا يختلف عن النافع إلا فى شدة حاجتنا .

والجميل والقبيح — كما يقول نيتشه — أمران حيويان، فكل ما ثبت ضرره قطعاً يبدو قبيحاً . فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو ، ولكننا نعده حلواً لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدراً أساسياً للطاقة . وكل شىء نافع يصبح بعد وقت قصير ، لذيذاً مقبولا . مثال ذلك أنَّ سكان شرق آسيا يحبون السمك الفاسد لأنه الطعام الأزوقى الوحيد الذى يتمكنون من الحصول عليه [١] . ويقول سذرلاند Sutherland : « لم تصبح السماء زرقاء لتمتع أعيننا ، ولكن عيوننا هى التى أصبحت ملائمة لأن تجد متعة فى زرقة السماء . فجميع الهيئات وكافة الألوان تحقق لذة طبيعية متناسبة مع كثرة وقوعها فى تجارب الجنس » . إننا نرى الحشيش الأخضر والسماء الزرقاء جميلان ، ولكن قد كان يمكن بالعادة أن نجد متعة فى سماء خضراء وحشائش زرقاء .

ومن الواضح أن الجمال المتميز عن المنفعة مرتبطٌ بضرب قوى من الإشباع يعكس قوة الرغبة . فالمال أجمل منه أن يكون أنفع فى نظر البائس . وكل شىء يكتسب جمالا إذا حرك الكائن وبعث فيه القوة . ومن ثَمَّ نشأ جمال الضوء والنغم واللمس الرقيق . أما القبح فيعمل على خفض حيويتنا ، واضطراب هضمنا وأعصابنا . وقد يؤدى إلى الصداع أو إثارة النفس [٢] ، أو يحرك الشعراء إلى الحث على الثورة . والجمال — كما يقول سنتايانا — هو اللذة المتحققة فى موضوع [٣] . أو بعبارة ستاندال ، دون أن يعلم أنه يتابع هوبس [٤] : « الجمال وعد باللذة » .

---

(١) Sutherland, A., Origin and Growth of the Moral Instincts, vol. II, pp. 85-91 ; Fuller, Sir B., Man as He Is, p. 68.

(٢) Ellis, H. The Dance of Life, p. 328.

(٣) The Sense of Beauty, p. 52.

(٤) Cf. Encyclopaedia Britannica, eleventh edition, vol. IX, p. 827.

وكما أن الفن لا يظهر فى أمة إلا بعد تجمع الثروة الفائضة عن الحاجة الاقتصادية وظهور طبقة أهل الفراغ ، كذلك الحال فى الفرد ، عندما لا يقلق الجوع باله أو لا يكون شديداً ، تزداد عنده الحساسية الجنسية وتفيض إلى إحساس بالجمال . وترتفع قابليتنا للجمال وتنخفض مع القوة الجنسية وضعفها . والحب يخلق الجمال على الأقل بمقدار ما يخلق الجمال الحب . وكان دون كيشوت يرى فتاته دلكينيا Dulcinea أحلى الغادات [1] . ويقـول دى جورمون [2] De Gourmont : « سـل ضفدعاً ما الجمال يجبك أنه أنثاه ، ضفدعة ذات عينين مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير ، وذات فم واسع عريض ، وبطن أصفر ، وظهر بنى » .

فمن الواضح أن الجمال يرتبط بالصلة الجنسية التى تعتمد فى الإنسان على تلك الأعضاء التى تكوّن الصفات الجنسية الثانوية ، والتى تظهر عند البلوغ بوساطة الهرمونات التى تتخلل الأنسجة الخلوية ، وهى : الأثداء ، والشعر ، والأرداف ، والسيقان ، والأذرع المستديرة ، والصوت الناعم . ولكى تجمل نساء الأجناس المنحطة أنفسها فى أعين أزواجهن يعملن على تضخيم الهيئات التناسلية ، على حين يصطنع أهل القبائل الأرقى سياسة مقابلة ولكنها مماثلة : وهى إخفاء الأعضاء التناسلية ، لأن الإخفاء يجذب بنجاح كالمغالاة . والملابس (كالعفة) تزيد فى قيمة الجمال لأنها ضرب من المقاومة ، والمقاومة تزيد فى حدة الرغبة . يقول سانتايانا : « لا يمكن للآلهة أن تتعرى لأن صفاتها هى عين ذاتها » [3]. لعل هذه كانت طريقته التى أوحى بها بعناية من أن الزى كان فى الأيام المزيفة والخيالية ضرورياً للجمال .

---

(١) دلكينيا هى معشوقة دون كيشوت ، ويصفها بأن شعرها من الذهب ، وعينيها شمسان متوهجتان ، وخديها وردتان ، وأسنانها من اللؤلؤ ، وهكذا . (المترجم) .

(٢) دى جورمون (١٨٥٨ – ١٩١٥) ناقد فرنسى وروائى وشاعر تمتاز آثاره بالتهكم والنزعة الحسية (المترجم) .

(٣) Reason in Society, p. 241.

وملاحة المرأة فى نظر الجنس البشرى أعلى صور الجمال ، ومنبع جميع الصور الأخرى ومعيارها . يقول خيال بوفنيس Paphnuce فى تاييس : « أنا جمال المرأة فأين تظن أنك تهرب منى أيها الأحمق المجنون ؟ ستجد مثالى فى بهاء الأزهار ورشاقة النخيل ، وفى تحويم الحمام ، ووثب الغزلان ، وفى خرير الجداول ، وفى ضوء القمر الشاحب . وإذا أغمضت عينيك فستجدنى فى داخل نفسك » .

وكان يمكن أن يسود جمال الرجل إحساسنا بالجمال لو سادت المعايير والنزعات الإغريقية . فالصداقة فى اليونان كانت تتحكم فى الحب ، وكان مثال الجمال فى إسبرطة وأثينا هو الشباب الممتلىء بالرجولة ، الذى يجمع بين الجمال والشجاعة . ولذلك أضحى الفن الإغريقى تمجيداً للرجل الكامل ، ويعكس الميادين الرياضية ، على حين يعكس إحساسنا بالجمال مخدع المرأة وسلطانها فى قلوبنا وحياتنا . وإذا كان جمال الرجل لا يزال يحركنا فى بعض الأحيان فالعلة فى ذلك العنصر من عناصر الحب الذى قد يرتفع إلى حد الشغف والإخلاص فى الصداقة ، كما كانت الحال عند الإغريق .

وتصبح المرأة منبع الجمال ومعياره لأن حب الرجل إياها أقوى ولو أنه أقصر من حبها إياه ، وتخلق شدة رغبته ملاحتها الفائقة . وتسلم المرأة بحكم الرجل عليها أنها أجمل منه ، إذ ما دامت تهوى أن تكون معشوقة أكثر من حبها التملك ، فهى تتعلم أن تقدر فى نفسها تلك المفاتن التى تقوى الرغبة . وفيما عدا ذلك ، لا تنشد المرأة الجمال فى الرجل ، وليست فى حاجة إلى تخيله فيمن تهواه . إنها تلتمس فيه القوة ، والقدرة على حمايتها هى وأطفالها ، وأن يضع تحت أقدامها ما استطاع من كنوز العالم .

ومن الدلائل الواضحة على تولد الجمال من الرغبة ، أننا حين نظفر بالشىء المطلوب تفتر فينا حاسة الجمال . وقليل من الناس عندهم من الحكمة ما يجعلهم يشتاقون إلى ما يملكون ، وأقل من هذه القلة هم الذين يرون الجمال فيما لم يعد يبعث الرغبة . وبهذا السبب تتعلق معظم الحكايات . ومع ذلك دع الموت يختطف زوجاتنا منا ، أو دع أحد لصوص القلوب يوجه سهام نظراته

إليهن ، وسوف يشتعل لهيب الرغبة من جديد ، ويضىء جذوة الجمال التى انطفأت . وما أعجب أن يصبح نفس الوجه الذى أصبح بالنسبة إلينا مجرد نثر مثال الشعر والإبداع فى عين من لم يخمد التكرار فيه النظر . فلنطلب من الله أن يهبنا القوى على أن نرى زوجاتنا كما يراها الغريب .

٤ — الجمال الثانوى : الطبيعة

الحب إذن هو أب الجمال لا ابنه ، وهو المصدر الوحيد لذلك الجمال الأولى الخاص بالأشخاص لا بالأشياء . ولكن ما الحيلة فى هذا العدد العديد من الأشياء التى تبدو لنا جميلة ، ومع ذلك فليس لها صلة ظاهرة بالحب؟ كيف نفسر جمال العالم الخارجى ذلك الجمال غير المحدود ؟

كما أن كثيراً من ألفاظ معاجمنا لها دلالات ثانية ومنقولة ، ولها دلالات أولية وأصلية ، كذلك لكل غريزة مطلوبات وإشباعات أولية وثانوية ، فغريزة طلب الطعام تصبح غريزة عامة للتملك تشتاق إلى كل ذى قيمة . وغريزة القتال فى سبيل الطعام أو الزوجات تشيع فتضحى غريزة عامة للقتال من أجل لذة القتال . كذلك انفعال الجمال (وهو جزء من « انفعال الحنان » tender-emotion المصاحب للغريزة الجنسية) قد يفيض من الشخص المطلوب على الأشياء المتصلة به ، على اتجاهاته وهيئاته ، على أحوال سلوكه وأساليب حديثه ، أو على أى شىء آخر فيه أو يماثله . وعلى هذا النحو يشارك العالم كله فى بهاء محاسن المرأة .

تأمل الأشياء التى تبدو جميلة الملمس : الأشياء المستديرة ، الناعمة ، المنحنية ؛ لم تسرنا ؟ أذلك لأنها مستديرة أو ناعمة أو منحنية ؟ ومع ذلك قد يكون المربع جميلا فى نظر بعض الناس ، فهو عند أرسطو رمز للعدالة . أو أننا نفضل المستدير والمنحنى والناعم لأن ذكرياتنا تربطها بالاستدارات الناعمة للجنس اللطيف المطلوب ؟

تأمل جمال المشمومات : لم نسر من نظافة الأبدان ، وأريج الأزهار ، وعبيق العطور ؟ أذلك لأن الانتخاب الجنسى كان يتم فى الأصل بوساطة الشم ؟ تحتفظ الأزهار بأعضاء التوليد فى النبات ، وكانت عطورنا المحبوبة حتى ظهور

التركيبات الكيموية تستخرج من العناصر التناسلية لأنواع كثيرة من الحيوانات. وفن العطور المثيرة من جملة ما تعرفه كل امرأة .

وتأمل جمال الأصوات . لقد نشأت فى الأصل فكرتنا عما فى الصوت من جمال من أغانى المرأة المطلوبة أوحديثها : «فالصوت الرقيق أبدع شىء فى المرأة » : وقد يمتعنا ويسحرنا أكثر حتى من المفاتن التى نراها بالعين . أما الصوت الأجش فقد يفسد نصف جمال أبهى الأشكال . ويقول منتجاتزا Mantegazza : « بعض أصوات النساء لا تمكن مقاومتها عند سماعها » . ومن جهة أخرى تحب المرأة مايسميه إليس : « الصوت الملتحى للرجل a bearded male voice » ، لأنها تؤثر على وجه العموم القوة على الجمال ، وتحب فى الرجل ذلك الصوت الرنان الذى تطور فى أكبر الظن بوساطة الانتخاب الجنسى للقوة الجسمية كدليل على الحماية والوفرة .

وقد يمكن أن يكون الصوت نفسه قد نشأ كحلية جنسية : تستطيع الأذن أن تتخيل سماع رنات الموج فى أشعار هوميروس ، وهدير خيال شكسبير فى نقنقة الضفادع وزقزقة العصافير . ومن الصوت نشأ الغناء الذى يكاد لا ينفصل عن الحب (ولو أن الدين والحرب قد اختلسا بعضه) ، ومن الغناء نشأ الرقص ، وهو جزء من شعائر الحب [١] . ومن الغناء والرقص نشأت الموسيقى .

وقد ذاعت الموسيقى وابتعدت فى كل جانب من هذا الأصل الجنسى ، ولكنها لا تزال مرتبطة بأمها ، فلا تجد فتاة تهوى بغير الموسيقى . والفتاة التى تعشق الموسيقى قل أن تلعب البيانو بعد سنوات عدة من زواجها ، إذ لم يطلب المرء فتنة حيوان قد وقع فى الأسر واستؤنس ؟ أما الرجل الذى كان يزأر ويموء أمام خطيبته فإنه يفقد ميوله الموسيقية حين يثقل عليه الزواج بفروضه الفظيعة ، ولا يسلم إلا تحت إلحاح الاحتجاجات بالضرورة الاجتماعية لاحتمال ستارفنسكى وشونبرج ، وريتشارد ستراوس .

---

(١) الحب فى اللغة الإنجليزية love ، يفيد العاطفة الروحية والاتصال الجنسى معاً . وليس فى العربية ما يفيد المعنيين جميعاً ، فالنكاح أو الوطء يفيد الصلة الجنسية فقط ، والسفاد خاص بالحيوانات : لذلك فليكن مفهوماً أن استعمالنا لفظ الحب نريد به الصلة الجنسية كذلك . (المترجم) .

ولكن الحب وحده لا يكفى فى تفسير هذه الميادين المشتقة من الجمال السمعى . إذ تتدخل لذة الوزن rythm كعنصر مستقل . فالشهيق والزفير ، وانقباض القلب وانبساطه ، بل وتماثل البدن من جانبيه ، كل ذلك يهيئنا لارتفاع الأصوات وانخفاضها الموزون . وعندئذ لا نشعر بلذة جنسية فقط ، بل النفس كلها تنتشى بالسرور . إننا نخلق الوزن من دقات الساعة بل من وقع الأقدام عند المشى . إننا نحب التمرجح ، والرقص ، والشعر ، والمتقابلات ، والمتطرفات .

وتهدىء الموسيقى أنفسنا بما فيها من وزن ، وترفعنا على وقعها إلى عوالم أقل فى حيوانيتها مما يوجد على الأرض . قد تخفف الموسيقى الآلام ، وتحسن الهضم ، وتبعث على الحب ، وتعين على تهدئة المجنون الثائر . وهى التى يسرت للجزويت فى باراجواى أن يخمدوا ثائرة عبيدهم من الهنود ، وزادت فى قدرتهم على العمل . وقد تعين الجندى على الذهاب إلى براثن الموت فى رضى موزون . وأدى هايدن Haydn لآل هبسبرج خدمة أعظم من أى قائد ، ولا يدرى أحد أن الشىء الكثير من بسالة الجيش الروسى إنما يرجع لأغانيهم الوطنية القوية . ويظن ثورو Thoreau أنه لا يوجد شىء أعظم ثورة من الموسيقى ، وتعجب كيف يمكن أن تستغنى نظمنا عنها . وإنما كان ذلك لأن ثورو كان ثورياً . فالموسيقى قد تخمدنا إلى حد السلبية كما قد ترفعنا وتحركنا إلى العمل . أو كما قال تولستوى لجوركى : « حيثما تريد أن تتخذ عبيداً فلتصطنع من الموسيقى بقدر ما تستطيع ، لأنها تبلد الفهم » . لقد اتفق التقى الروسى القديم مع أفلاطون الذى ذهب فى فى مدينته الفاضلة إلى أن أحداً بعد السادسة عشرة لا يجب أن يسمع الموسيقى .

وأخيراً تأمل الجمال البصرى . عندما ظهرت القامة المنتصبة ، فقد الشم قوته وزعامته ، وأخذ البصر يسيطر على حاسة الجمال . إن جمال المرئيات ، كجمال المسموع ، يبعد كثيراً عن جمال المرأة المحبوبة . وهنا نواجه مرة أخرى لغز مشكلة الجمال : أتكون الخطوط المنحنية ، والنسب المتماثلة ، والوحدة العضوية علة الجمال الشخصى أم نتيجة له ؟ أهى أولية أم مشتقة ؟ أنحب المرأة لأن جسمها يتضمن التماثل ، والوحدة ، وكل استدارة فاتنة ، أم أن هذه الصور تسحرنا ، فى أى ميدان توجد فيه ، لأنها تذكرنا أو كانت تذكرنا بكمال المرأة ؟

نحن نصفها فنقول : « لها رقبة كالأوزة » وبذلك نتخذ من الأوزة معياراً للرشاقة . ولكن لعل الإنسان كان يشعر فى الأصل بأن « الأوزة لها رقبة فى جمال رقبة المرأة » . فالمليح ما كان فى أول الأمر محبوباً .

ويبدو أن الفن يرجع إلى قصد الحيوان أو الإنسان إلى محاكاة الألوان التى تنميها الطبيعة فى الطير والحيوان فى موسم الزواج ، والتى تخطر بها فى عين الجنس الراغب فى الانتخاب . وقد رأينا كيف يزين الطائر عشه بالأشياء البراقة ، ويزين الرجل بدنه بألوان زاهية تثير الرغبة . فلما ظهرت الملابس انتقلت الألوان من الأبدان إلى الثياب ، للغرض نفسه وهو اجتذاب العين . واحتفظ الناس باللون الأحمر على أنه أشد الألوان إثارة للدماء . والأمر كذلك فى الغناء والرقص والموسيقى والشعر وكثير من صور النحت فإنها تنبت من شجرة الحب . والبناء وحده يبدو مستقلا ، وإنما ذلك لأن سرَّ قوته فى الجلال sublime لا فى الجمال .

ويتصل الجلال بالجمال صلة الذكر بالأنثى . فاللذة التى نشعر بها من الشىء الجليل لا تنشأ من الملاحة المطلوبة فى المرأة ، بل من القوة التى نعجب بها فى الرجل . وأكبر الظن أن المرأة أشد انفعالا بالجليل من الرجل ، وأن الرجل أعظم تأثراً بالجمال ، فهو أحرص على استعماله ، وأعظم شوقاً إلى الرغبة فيه ، وأثبت على خلقه . والجليل كما بيَّن بيرك Burke ما كان مصدراً للقوة والخطر على الشخص الآمن . ولم يعلق هانيبال وقيصر (على الأقل للخلف) على جلال جبال الألب ، فهى فى نظرهما مفاوز مخوفة لا مناظر بديعة . ثم انظر فى مقابل استخفافهما الرجالى إلى حساسية روسو الأنثوية ؛ وكيف كشف للنفس عن عظمة الألب حديثاً . ولكن روسو كان آمناً ، ولم يكن عليه أن يقود الجيوش فى تلك المرتفعات الموحشة . ولعل الإغريق (كما ذهب إلى ذلك سرجى Sergi) قصروا فى تصوير المناظر الطبيعية ، لأن الطبيعة كانت لا تزال على فطرتها خطراً على حياتهم ، فلا تبيح لهم الوقوف بإزائها وتأمل عظمتها .

وعند الإعجاب بالمناظر الحلوية ، يقف الجمال بعيداً عن منبعه فى الحب . ذلك أن معظم السرور الذى يملأ النفس من المناظر الطبيعية راجع إلى جلال الرجولة ، وينشأ كثير من ذلك الجلال من الجمال الهادىء الشبيه بالوضع الدافىء

لكل صدر بديع . هذه صورة لكوروت[1] Corot : فيها حقول متموجة ، وظلال شجر البلوط ، وجداول ينساب ماؤها تحت الغصون المتهدلة ؛ فأين يختبىء جمال المرأة فى هذه المتعة الطبيعية ؟ فتش عن المرأة – كما يقال فى المثل الفرنسى Cherchez la femme .

ولا يجب أن نتعجل فى وضع قوانين تحيط بالعالم ، فالطبيعة تستنكر التعميمات التى تتجاهل تنوعها اللانهائى ، وهى على استعداد أن تلقى فى وجه مبادئنا الكلية آلافاً من الاستثناءات . فلنقنع بالقول بأن الشعور الذى كان أصله جنسياً قد يفيض على أشياء لا صلة لها بالحب على الإطلاق . فالقوة الجنسية النامية باستمرار قد تصرف ما يفيض عنها فى الإعجاب بالمناظر الطبيعية ، كما تروى جذور الدين والصداقة والمثل الاجتماعية والفن .

ومع ذلك فحتى فى هذا المجال توجد روابط وثيقة . فالطفل فى الغالب الأغلب لا يحس بجمال الأرض والسماء ، ولا يهتز لجمالها إلا بالمحاكاة والتعلم فقط . ولكن دع الحب يفيض بحرارته وعاطفته على النفس ، تجد فجأة أن كل شىء طبيعى يبدو جميلا : فيضع المحب همه فى الأشجار والمياه الجارية ، ويجد سكينة ممتعة تشرق على فائض عاطفته وسعادته . والأزهار أبدع سائر الأشياء التى وهبتها لنا الطبيعة ، ومع ذلك فتلك الزهور أيضاً هى رمز التوالد ومعناه ، وهى آية للناس على الرقة والإخلاص . وعندما يثقلنا كرُّ السنين ، وتخمد نار الحب ، يخمد الإعجاب بالطبيعة . فالشيخ الفانى كالطفل الرضيع لا يتأثر بفتنة الغابات وعبيرها ، أو بعظمة النجوم وبريقها ، أو بأمواج البحر المتدافعة . ففى كل عظمة فى الأرض والسماء أثر لإله الحب إيروس Eros .

٥ ـــ الجمال الثالث : الفن

هذا الفيض من الحب الذى يمتد من الأشخاص إلى الأشياء ، ويجمل الأرض ذاتها التى نمشى عليها ، يبلغ أخيراً ثورة الفن المبدعة . فمتى عرف الإنسان

(١) Corot (١٧٩٦ – ١٨٧٥) مصور فرنسى مشهور بمناظره الطبيعية ، وتبرز عنده النزعة الرومانتيكية ، وضوء الشمس والضباب . (المترجم) .

الجمال انتقمشت صورته فى صفحة ذاكرته ، وينسج مما رآه من البدائع جمالا مثالياً يربط ما فى أجزائها من كمال فى منظر واحد .

وينشأ الفن بيولوجياً من غناء الحيوانات المتسافدة ورقصها ، ومن سعيها إلى أن تزيد بالصناعة ازدهار ألوان الزهور وتنوع صورها مما تميز به الطبيعة موسم الحب . وقد ولد الفن عندما بنى طائر البوير أول عش لأنثاه المبتهجة التياهة . ونشأ الفن تاريخياً بالنقش الزخرفى ، أو الثياب ، أو إحداث ندوب فى الجسم عند القبائل المتوحشة . ويذهب جروس Groos إلى أن أهالى أستراليا الوطنيين يحملون على الدوام فى جرابهم زاداً من الطلاء الأبيض والأحمر والأصفر. ويقنع الرجل منهم فى الأيام العادية بقليل من الوشم باللون على خديه . أما وقت الحرب فإنه يلطخ بدنه برسوم عجيبة تهدف إلى تخويف العدو . وفى الأعياد وحفلات الحب يزين جميع بدنه بالنقوش ليجتذب عيون الفتيات . واللون الأحمر أعز الألوان فى هاتين اللعبتين ، وهما الحرب والحب . والأحمر عند بعض القبائل له من القيمة ما يجعل أهلها يقومون برحلات كبيرة تستمر عدة أسابيع لتجديد مؤونتهم منه . ويكثر الرجال من طلاء أنفسهم أكثر من النساء . وفى بعض الأماكن يمنع العوانس منعاً باتاً من تلوين رقابهن .

ولكن الطلاء سريع الزوال ، ولذلك بحث المتوحشون ، كالإغريق (الذين كانوا يزدرون النقش لسرعة فساده) عن فن أكثر دواماً . ويلجأ البدائى إلى الوشم ، فيشك جسمه فى آلاف المواضع بإبرة ترسب اللون تحت الجلد . وكثيراً ما يلجأ إلى التنـــديب scarification ، إذ يقطع الجلد واللحم ، ويتسع الندب بالتراب الذى يملأ به الجرح بعض الوقت . وعلى طول جزائر توريس ستراتس Torres Straits يحمل الرجال على أكتافهم مثل هذه الندوب التى تشبه الأشرطة العسكرية . ويسمى البوتوكودو Botocudo كذلك من « البوتوك » ، أو الثقب الذى يجعلونه فى الشفة السفلى أو فى الأذنين منذ الشباب الباكر ، ولا يزالون يوسعونه حتى لقد يبلغ فى سعته أربع بوصات . عندما تقرأ الفتاة المتحضرة هذه الأمور البربرية تهز قرطها فى فزع .

ويظهر أن أول استعمال للثياب كان من أجل الفن لا المنفعة . ويروى

أن دارون أخذته الشفقة على شخص من أهالى فوجيا ، كان يرتعش بردا ، فأعطاه ثوباً أحمر اللون يدثر به بدنه ، وأخذ المواطن الثوب فرحا ومزقه شرائط وزعها على أقرانه فزينوا بها أيديهم وأرجلهم . ويتضح من هذه التضحية اللذيذة بالمنفعة فى سبيل الجمال أن الفرق ليس كبيراً عند الفتاة العصرية التى تلبس الفراء صيفاً ، وتكشف عن نحرها دون خوف لرياح الشتاء .

وبعد أن زين الرجل البدائى بدنه بما فيه الكفاية انتقل إلى تزيين الأشياء، فنقش الأسلحة ليعمى على العدو أو ليخيفه ، كما فعل أخيل بدرعه . وكان يزين الآلات المصنوعة من الصوان أو الحجر ، ولا تزال موجودة حتى الآن من عهد ما قبل التاريخ . وكان الإنسان فى العصر الحجرى يزخرف جدران كهفه برسومات عجيبة تمثل الحيوانات التى كان يأمل فى اصطيادها ، أو تلك التى كان يعبدها كطواطم فى قبيلته .

ومع أن الدين ليس منبع الجمال ، فقد كان نصيبه فى نمو الفن أقل من نصيب الحب . وبمقدار ما نعرف نشأ النحت من النصب الغليظة التى كانت توضع علامة على القبر . ثم هذبتها الصناعة فأخذوا يحفرون طرف النصب على هيئة الرأس . ثم أخذوا ينحتون فى عصور متأخرة النصب كله على هيئة إنسان (هرمس فى فن الإغريق البدائى) ثم ازدادت العناية والصبر ، وسعى النحات إلى تهذيب تماثيله ، وإلى أن يبرز فيها ملامح الإله أو الحد الذى يريد تخليده . ولم يعرف النحت الحب إلا فى صوره الراقية ، ولذلك كان فيدياس أسبق دائماً من بركستيلاس Praxiteles ، وجيوتو Giotto قبل كوريجيو Correggio.

ونشأ فن البناء من المقابر التى كان الموتى يدفنون فيها . وأقدم بناء أثرى فى العالم ، وهو الأهرامات ، عبارة عن مقابر . وبدأت الكنائس كأضرحة للأموات ، وأماكن لعبادتهم ، ثم أخذوا ينقلون المقبرة بالتدريج إلى المكان المجاور ومع ذلك لا تزال قبور عظماء الأسلاف داخل كنيسة وستمنستر أبى . ومن هذه البدايات نشأت الهياكل الشامخة التى أقامها الإغريق لبلاس أثينا وغيرها من الآلهة . ومن بدايات مماثلة نشأت تلك الآثار التى تعد أبدع ما شيده الإنسان، وهى الكنائس القوطية التى تضم مذابحها كتلك المقابر القديمة رفات القديسين .

ويبدو أن الدراما نشأت من الشعائر الدينية واحتفالات الأعياد، وقد ظلت الدراما فى أثينا إلى زمان أوريبيدس الشاك شيئاً مقدساً . ونشأت الدراما الحديثة، وهى أبعد الفنون المعاصرة عن الدين ، من القداس، ومن المواكب الدينية التى كانت تصور فى العصر الوسيط حياة المسيح وصلبه . ووجد النحت رونقاً جديداً فى زخرفة الكنائس ، وبلغ فن النقش ذروته بوحى المسيحية .

وقد أظهر الفن صلته الخفية بالحب حتى وهو يخدم الدين . فثمة عنصر وثنى من روائع البدن يوجد فى أقدس صور عصر النهضة . وأصبحت صور العذراء شبيهة بفينوس ، والقديس يوحنا بأدونيس الرقيق ، وأضحت صور القديس سباستيان دراسات صريحة فى العرى . فلما انتقلت النهضة من روما إلى البندقية انتصر العنصر الوثنى ، وسلم الفن المقدس للحب الدينوى .

وكما أنه حتى الفن الدينى يرتوى من ينبوع الحب ليعيش ، كذلك الأمر فى كل عنصر آخر يتدخل فى خلق الجمال . فللوزن مدخل ، ولكنه يرتبط فى الحال بالحب ليولد الغناء والرقص والشعر . وللمحاكاة مدخل ، فتعين على نشأة النحت والتصوير ؛ ولكنه الحب ، البنوى أو الجنسى ، الذى سرعان ما يحدد الموضوع الذى تصنعه المحاكاة . ولك أن تجمع بين الوزن والمحاكاة والدافع إلى الحب فتحصل على تسعة أعشار الأدب . وحتى أغنية دانتى الإلهية ولو أنها تهدف إلى أن تكون تمثيلا للحياة الإنسانية ، فإنها تصبح فى النهاية أغنية حب .

هذا التيار الباطنى من طاقة الحب هو الذى يغذى عاطفة الفنان المبدعة ، وتتخذ العلاقة بين الحب والفن عند بعض الفنانين صورة نمو سريع للجنس والفن فى آن واحد ، وينشأ من هذا الاتحاد الطراز الرومانتيكى للعبقرية . فسافو والإسكندر ولوكريتيوس ؛ وبيرون وشللى وكيتس وسونبرج ؛ وهوجو وروسو وفرلين ؛ وبترارك ، وبرونو ، وجيورجيون ؛ وشللر وهينى وبو ؛ وشومان وشوبرت وشوبان وسترندبرج وأرتزباشف ، وتشيكوفسكى : هؤلاء هم النموذج الذى يتغلب فيه الخيال على العقل ، ويحرق الجنس والفن النابعان بإسراف من الأصل نفسه الفنان ويتركانه ميت الجسم أو الروح قبل أن ينفد شبابه . ولما كانت الرغبة فيهم عذاباً فقد امتازوا بالحساسية ، والانفعال ، والتألم

الدائم ، والخيال الذى لا يعرف الحدود . ويفتنهم كل متطرف وعجيب وغريب . هؤلاء هم الذين يبدعون الشعر والتصوير والموسيقى والفلسفة والحب ، ويعزهم كل محب .

ولكن الفيضان الجنسى يكبت عند غيرهم من الفنانين ويكاد يتحول تماماً إلى الإبداع ، فيفقد الحب سلطانه ، وتقلم أظفار الانفعال ، ويزدهر العقل ويتحكم فى كل شىء . ونشأ من هذا التسامى قدامى العباقرة : سقراط وسوفوكليس وأرسطو ؛ أرشميدس وقيصر وجاليليو ؛ جيوتو وليوناردو وتبتيان ؛ بيكون وملتون ونيوتن وهوبس ؛ باخ وكانط ، وجوته ، وهيجل ؛ تورجنيف ، وفلوبير ، ورينان ، وأناتول فرانس . وهؤلاء قوم هادئون كبحوا جماح الشهوة ورفعوا فوضى أنفسهم إلى نجوم متألقة . إنهم يعملون فى بطء بعزم وصبر أكثر مما يعملون « بالإلهام » والعاطفة . ويتحدثون ويتصرفون بحساب وضبط . إنهم ينمون ببطء ، ويكون إبداعهم بعد الثلاثين أفضل منه قبل ذلك ، ويحققون الشهرة آخر العمر ، ويعمرون طويلا . إنهم لا يتفوقون على الطراز الرومانتيكى فى تلك الذخيرة من الطاقة الممتازة التى تعد الحاكم العام والأصل فى كل عبقرية . ولكنهم لا يشغلون إلا الشىء القليل من تلك الذخيرة فى الأمور الجنسية ويدخرون معظمها للفن . كان ميخائيل أنجلو وبيتهوفن ونابليون من العظماء الممتازين ، لأن النموذجين من العبقرية اندمجا فيهم إلى وحدة تكاد تكون أسمى من الإنسان .

ولقد قال نيتشه : « عبقرية المرء تستنزف دمه » ، لأنها تحرقه فى شعلتها . ولكن هكذا يفعل الحب . فإذا اجتمعا على حرق الإنسان فى وقت واحد تكلم فى حماسة وإشراق ، ولكن صوته سرعان ما يخفت . كل عبقرية ، ككل جمال وكل فن ، تستمد قوتها فى النهاية من ذلك المستودع نفسه للطاقة المبدعة التى تجدد الجنس البشرى باستمرار ، وتحقق للحياة الخلود .

٦ — الجمال الموضوعى

والآن لا يزال أمامنا سؤال من بين ما خلفناه من أسئلة يلح علينا طالبا الجواب . أيكون الجمال شيئاً موضوعياً أم شخصياً فقط ، وهوى ذاتياً ؟

يعتقد إليس الذى تفرض أحكامه الاحترام لأنها مؤسسة على أكثر معارف عصرنا عموماً ، أن الجمال مستقل عن شخص الملاحظ ، وهو يقيم حكمه على ما يبدو له من إجماع جوهرى فى إيثار الجميل بين معظم أجناس العالم ، ولو أننا لا نستطيع إصدار مثل هذا الحكم بناء على موسيقى الصينيين وتشويه أجسام الزولو . فالجمال كالأخلاق يميل إلى التنوع مع اختلاف البيئة الجغرافية . ويروى دارون أن الوطنيين فى تاهيتى يعجبون بالأنف المفرطحة ، وكانوا يضغطون على أنوف أطفالهم وجباههم لتجميلهم ، كما يقولون(١) . ويثقب شعب المايا الأنوف والآذان لتزيينها بالأقراط ، ويقلعون أسنانهم ويرصعونها ، ويبططون رءوس أطفالهم حتى تصبح كقمع السكر ، ويجعلون العين حولاء لأنهم كانوا يظنون أن هذا هو الجمال(٢) . ولقد دهش منجو بارك حين سمع سود أفريقية يسخرون من بشرته البيضاء . ولما رأى الأولاد السود فى ساحل شرق أفريقية ريتشارد برتون صاحوا : « انظروا الرجل الأبيض ، ألا يبدو كالقرد الأبيض ؟ » ونحن نظن كذلك أن الزولو يشبه الغوريلا السوداء . أكبر الظن كما قال ڤولتير أننا جميعاً على صواب .

أو تأمل ما نسميه ثقل أرداف steatopygy بعض الحسناوات فى أفريقية . وفى ذلك يقول دارون : « من المعروف أنه عند كثير من نساء الهوتنتوت يبرز الجزء الخلفى من الجسم بشكل عجيب . . . ؛ ويؤكد السير أندرو سميث أن هذه الخاصية تعجب الرجال إعجاباً شديداً . فقد رأى ذات مرة امرأة تعد مثالا للجمال ، وكانت أردافها متضخمة إلى حد أنها إذا جلست على الأرض لم تستطع أن تنهض ، وكان عليها أن تدفع نفسها إلى الأمام حتى تأتى عند منحدر . وتوجد هذه الصفة الغريبة نفسها عند بعض النساء فى كثير من قبائل الزنوج . ويروى برتون أن رجال الصومال ينتقون زوجاتهم بأن يضعوهن فى صف واحد ، ثم يختارون من كانت أردافها أكثر بروزاً . وليس أبغض عند الزنجى من الهيئة المضادة لها »(٣) . ولا مشاحة فى الأذواق .

---

(١) Descent of Man, p. 665.

(٢) Thorndike, L., Short History of Civilisation, p. 395.

(٣) Descent of Man, p. 660.

وحتى عند الأوربيين يختلف مثال الجمال من شعب إلى آخر ومن عصر إلى عصر. فقد كانت البدانة بدعة فى بعض الأوقات. تأمل السيدات اللاتى صورها روبنز، والصبايا الممتلئات فى صور رمبراندت. حتى العذراء فى رسوم رفائيل مزدهرات الجسم. ولكن حسناوات رينولدز وجنزبورو وروملى أكثر من ذلك رشاقة. أما نساء هويسلر فممشوقات القد وبغير أرداف. وفى خلال الجيل الذى نعيش فيه تغير ذوق المرأة فى جسمها من الامتلاء الدورى[1] doric إلى الرشاقة الكورنثية. فهيئات الجسم تتخذ كأزياء الثياب شيئاً من التنويع والقداسة.

فمن الواضح إذن أن ثمة فى تقدير الجمال عنصراً كبيراً شخصياً وجنسياً وذاتياً. ويبقى بعد ذلك عنصر موضوعى واحد، ذلك هو الإيثار العام للرجال السويين للنساء اللاتى تبشر هيئتهن بأمومة قوية. والأصل أن كمال الوظيفة الطبيعية هو الذى يبعث اللذة لصاحب الذوق السليم، ويكون ذلك فى المرأة أولا ثم فى كل شىء. فكل عمل يؤدى على أحسن وجه، وكل حياة يحسن المرء معيشتها، وكل أسرة حسنة التربية، وكل آلة تحسن أداء العمل المهيأة له، كل ذلك يرغمنا أن نقول: « هذا شىء جميل ». ولو كنا أصحاء بمعنى الكلمة لاعتبرنا المرأة الصحيحة التى ترضع طفلها الصحيح أعلى صورة من صور الجمال فى هذا العالم. وهنا نجد أن فن العصر الوسيط والنهضة وما يمتازان به من صور العذراء والطفل كان أرق وأصح فى ذوقه من فنوننا. فنحن وقد انحرفنا بالفن إلى الانحلال أصبحنا نشتاق إلى النحاف من النساء اللاتى يشبهن الزنابير لا يلدن بمقدار مايلسعن.

لو أن غرائزنا لم تفسدها أدوات الزينة، ولم تنحرف بالمال، لبقيت حاسة الجمال فينا سليمة بيولوجيا، ولكان الحب أفضل السبل لتحسين النسل. ولعاد الجمال كما أرادت له الطبيعة أن يكون فأصبح زهرة الصحة وبشيرها، والضامن للأطفال الكاملين؛ وعمل مرة أخرى لخير الإنسانية لا لإضعافها. وهنا يلتقى الخير بالجمال، فنصل إلى النتيجة التى انتهى إليها أفلاطون من أن: « مبدأ الخير يرتد إلى قانون الجمال »[2].

---

(١) نسبة إلى العصر الدورى فى الحضارة اليونانية القديمة (المترجم).

(٢) Philebus, § 64 ; in Bosanquet, History of Aesthetics, p. 33.

لقد تردد أفلاطون فى هذه المسألة ولم يعرف بالضبط لمن يركع ، ألحكمة أثينا القوية ، أم لملاحة أفروديت المشرقة . لعله كان على حق فى تردده، فالجمال كما رأينا من العسير أن نجعله دعامة الدولة الكاملة وأساسها . ولكن ما فائدة الحكمة إذا لم تجعلنا نحب الجميل ونخلق جمالا جديداً أبهى مما تقدمه الطبيعة ؟ الحكمة وسيلة ، والجمال ، فى الجسم والنفس ، غاية . والفن بغير علم فقر ، ولكن علم العلم بغير فن بربرية . بل إن الفلسفة الإلهية وسيلة إلا إذا وسعنا آفاقها لتشمل سائر مهام الحياة المتناسقة وآلاتها وقيمها . إن الفلسفة إذا لم تحركها ملاحة الجمال فهى غير جديرة بالإنسان .

لقد زال كل شىء عن مصر ما عدا العظمة الهائلة التى رفعتها من الرمال . وفنى كل شىء عند الإغريق وبقيت حكمتها وفنونها . إن الجمال الحى أعظم أنواع الجمال ، ولكنه يذبل مع تقدم العمر ويفسده الزمان . والفنان وحده هو الذى يستطيع أن يضع يده على الصورة العابرة ويطبعها فى قالب يغالب الفناء . أو كما قال جوتييه[1] :

كل شىء إلى فناء
سوى الفن فإلى بقاء
ويبقى تمثال الرخام
وتمضى الدول إلى هباء

* * *

الدينار يكشفه العامل
من الأرض فى شقاء
عليه وجه السلطان
روحه مستقرة فى السماء

* * *

تموت الآلهة ويبقى
رصين الشعر إذا يشاء

(١) جوتيه Gautier (١٨١١ – ١٨٧٢) شاعر فرنسى وقصصى مشهور بحسن نظمه ، كان من أعظم أنصار مذهب الفن للفن (المترجم) .